



الجامعة الإسلامية
عمادة الدراسات العليا
كلية أصول الدين
قسم التفسير وعلوم القرآن

أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة "دراسة تحليلية"

بحث مقدم استكمالاً للحصول على درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن

إعداد الطالب:

حسن عبد الله طه الخطيب

بإشراف فضيلة الدكتور:

عبد الكريم حمدي الدهشان

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإسلام

إلى من بدمائهم بلغوا الرضا فنالوا المنى
إلى من بكرسيه هزَّ أركان الظالمين وأهل الهوى
إلى قرة عيون المجاهدين أسد فلسطين الذي قهر المنافقين ومن اعتدى
إلى روح والديَّ حيث كانا سبب وجودي بعد الله مسلماً، ومن في حُبِّهِمَا حُبِّي حَبًّا
إلى شريكة العمر ورفيقة الدرب، التي شاركتني الحياة بكدِّها وتعبها، قبل هنائها وسعادتها
إلى من يسعى مخلصاً بالجهاد
لأن تكون كلمة الله هي العليا
وأن تكون كلمة الكفار السفلى
إلى كل من يغرس في أبنائه
حب الله ورسوله وحب المؤمنين
إليهم جميعاً وكل من كان عوناً بعد الله في إتمام رسالتي بفكره وجهده ودعائه،
أهدي هذا العمل، الله أسألُ أن يجعله في ميزان حسناتي ونخرا لي بعد مماتي.

حسن بن عبيد الله بن طه الخياط

شكر وتقدير

الشكر لله أولاً، وقبل كل شيء، شكراً يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، صاحب الفضل والثناء كله، لا نحصي ثناء عليه كما أتتى على نفسه، خَلَقَ من العدم، وربّي بالنعم، ومنّ بالإسلام على من اهتدى، وأسأله تعالى كمال الإيمان، والشهادة في سبيله لنيل جنة الرضوان.

وعملاً بسنته ﷺ، (من لا يشكر الناس لا يشكر الله)^(١)، فإني أتقدم بالشكر والامتنان بعد الله لأستاذي فضيلة الدكتور: عبد الكريم حمدي الدهشان حفظه الله تعالى، الذي ألزمني فضله ما حبيت، فكم أفادني بإرشاداته وإضافاته المهمة، وآرائه القيمة، وأفكاره النيّرة، فقد بلّغ وأدّى ونصح فأوفى، فله جزيل الشكر والعرفان، وإنّي لأدعو الله أن يجزيه عني خير الجزاء.

والشكر إلى الأستاذين الكريمين فضيلة الدكتور: عبد السلام حمدان اللوح، وفضيلة الدكتور: زكريا إبراهيم الزميلي، القائمين على مناقشة رسالتي، أسأل الله لهما خير الثواب، وأن يكون جهدهما في ميزان حسناتهما، ويجزيهما عني خير الجزاء.

وشكري موصول إلى فضيلة الدكتور: يونس محيي الدين الأسطل حفظه الله تعالى، حيث كان العون بعد الله في مواصلة رحلتي العلمية بعد عودتي من السعودية إلى أرض الوطن.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى شريكة العمر، وإلى أبنائي وبناتي؛ الذين قاسموني نصّب الحياة وراحتها، وضيقها قبل سَعَتِهَا، فقد كانوا حياتي المنظورة، فأشرفت لمساتهم على رسالتي، فلهم مني الشكر الموصول بالدعاء أن يجعلهم عملاً صالحاً تقرُّ بهم عيني، وذخراً بعد مماتي.

وشكري إلى أخواتي وإخواني الذين أعانوني على إتمام رسالتي بدعواتهم الصادقة، وإلى كل من أعانني بالدعاء والنصيحة، ومن أضاف فكرة، أو قام بتصويب نحوٍ أو غير ذلك.

كما أن الشكر موصول إلى الجامعة الإسلامية رائدة الصحوة الإسلامية في فلسطين، وإلى كلية أصول الدين بأساتذتها الكرام؛ الذين نهلت من علمهم، وإلى كافة موظفي المكتبة، وأخص بالذكر الأخ الشهيد "أبا مصعب" محمد أبو الخير، الله أسأل أن يجعله في صحبة النبي محمد ﷺ.

وشكري إلى معلم الناس الخير الذي يسعى لنشر دين الله في الأرض، وأن تكون كلمة الله هي العليا، إليهم جميعاً أقدم بالغ شكري وعظيم امتناني، وأن يثيبهم عني وعن المسلمين خيراً.

والصلاة والسلام معلم البشرية الأول سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

والله أعلم بالصواب
والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه
والسليمين إلى يوم الدين

(١) سنن الترمذي: ك/البر والصلة عن رسول الله، ب/ ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، ص/ ٤٤٥، ح/ ١٩٥٤. (صححه الألباني)

ملخص البحث

يحدد هذا البحث أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة وتحليلها للوصول الى الأبعاد التربوية والجهادية في نفوس المسلمين القائمة على فضل الله تعالى حيث شمل فضله توبته على الصفة من عباده - النبي ﷺ وأصحابه- ثم توبته على الثلاثة الذين خلفوا في صورة تكشف عن عظيم فضله على عباده المؤمنين الذين يتخلفون عن الطاعات وخصوصا الجهاد في سبيل الله تعالى باعطائهم الفرصة تلو الأخرى ليتوب عليهم ويعيدهم الى دائرة رحمته، كيف لا ؟ وقد أعطى غيرهم من المجرمين والمشركين والمنافقين الفرص المتوالية علّ وعسى أن يدخلوا في دين الله تعالى وذلك من خلال كشفه عن الوجه القبيح الذي يمثله المنافقون في المجتمع المسلم؛ لأنهم الحلقة الأخطر والمعوق الأساس للجهاد ونشر دين الله تعالى، ومن ثم بيان الممكن لمعالجة ظاهرة النفاق، ويسلم المسلمون منه، من خلال بيعتهم الصادقة مع رب العالمين وتحليلهم بصفات المبايعين الصادقين حتى يتوكلوا على الله حق التوكل ويعلموا أنه ليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير.

Abstract

This thesis clarifies the objectives and purposes of the topics of Attawba Surah (Repentance Chapter) and its analysis to identify the dimensions of education and Jihad in the hearts of Muslims. These dimensions are based on the bounty of Allah on the elite of His worshipers, the prophet Muhammad (PBUH) and his companions, and His forgiving of the three who were left behind and were absent for Jihad. This image reveals the great bounty of Allah on the believers who don't perform the worships, especially Jihad in the way of Allah, by giving them the opportunity after the other to purify them and get them back to his mercy. Furthermore, Allah gave the offenders, pagans and hypocrites the successive opportunities to repent and adopt Islam in order to disclose the ugly face of them in the Muslim community since they are the most serious obstacle of Jihad and the spread of Islam. Then it displays the possible strategies to heal the phenomenon of hypocrisy and save the Muslim community through there truthful bargain with Allah the Almighty to depend truly on Him and to know that they have none on earth to protect or help than Allah.

المقدمة

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وبأمره قامت الأرض والسموات، وبشرعه يَنعَمُ بالخير جميعَ المخلوقات، أرسل الرسل بالبينات لينقذ الناس من الظلم والظلمات، قال الله تعالى: **﴿الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾** (التوبة: ٧٠).^(١) فيها هو رباعي بن عامر رضي الله عنه^(١)، يدرك ذلك عندما سأله رستم قائد جيش الفرس عن الذي جاء بهم فقال: **﴿والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام...﴾**^(٢).

والصلاة والسلام على سيدنا محمد السابق للخلق نوره، والرحمة للعالمين ظهوره؛ عدد خلقه ورضا نفسه، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.
أما بعد فقد شغلني موضوع البحث والواقع الذي نعيش مرارته وحسرتة، والأمم التي تداعت علينا كتداعي الأكلة إلى قصعتها، لقوله ﷺ : (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن قال: حب الدنيا وكراهية الموت)^(٣).

هذا الذي دفعني أن أخوض غمار سورة التوبة التي تعالج ما نحن فيه من مشكلات من خلال دراسة الأهداف والمقاصد لهذه السورة، وتحليلها بشكل موضوعي محاولا وضع تصور يمكن أن يكون فيه بصيص أمل للحد من علقم نعيشه، فكان موضوع رسالتي بعنوان: "أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة دراسة تحليلية". فكان فضل الله عليّ ومنه العظيم، أن أكون ممن يبحث في كتاب الله تعالى ويسبر أغواره، ويلتقط غزير درره.

لقد جاءت السورة لتبين أهمية التوبة للناس، وترسخ عقيدة الولاء والبراء وترفع من شأن العرب بالإسلام، ليكونوا أحرارا وذا هيبة وكيان مستقل بالجهاد بعد أن كانوا تبعا وعبيدا للفرس والروم، وتبين خطر المنافقين من خلال فضح مخازيهم وصفاتهم التي كشفتها السورة، كما وترسخ لأصول العقيدة والشريعة والهدى التربوي والجهادي، لنرى إشراقات قرآنية في صفات القائد الرباني الذي يقود الأمة نحو تحقيق الأهداف والمقاصد القرآنية.

(١) رباعي بن عامر بن خالد بن عمرو الأنصاري من أشرف العرب، انظر: الإصابة في معرفة الصحابة للعسقلاني، ج/١، ص/٥٠٣.

(٢) تاريخ الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري: ج/٢، ص/٤٠١ - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات/بيروت ط/٤/١٩٨٣م

(٣) سنن أبي داود لأبي داود السجستاني: ك/الملاحم ب/ في تداعي الأمم على الإسلام، ص/٦٧٥، ح/٤٢٩٧. (صححه الألباني)

أولاً: أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث فيما يلي:

- ١- بيان قانون العلاقات العامة للمسلمين بينهم وبين المشركين وأهل الكتاب خصوصاً.
- ٢- وضع قواعد لنظام اجتماعي متكامل لتنظيم العلاقات الداخلية والخارجية.
- ٣- بيان خطورة موالاته المشركين عموماً، وخصوصاً ما كان مبنياً على أساس من القرابة والعصبية، مع ضرورة التبرؤ من أعداء الله ورسوله ﷺ.
- ٤- تناولت السورة موضوع الجهاد مع شيء من الإسهاب، وبيان فضله وأهدافه.
- ٥- تناولت السورة أيضاً موضوع المنافقين فأظهرت خطورتهم ومبدأ المباطنة لديهم، كما وبينت خطورة ارتباطهم بأهل الكتاب والمشركين، والخطر الذي يسببه هذا الارتباط.
- ٦- أهمية البيعة وضرورتها وصفات أهلها ومستلزماتها.
- ٧- بيان فضل رسول الله ﷺ، ومواصفات القائد الرباني.

ثانياً: أسباب اختيار البحث:

- دراسة أهداف ومقاصد موضوعات السورة دراسة تحليلية، مع استنباط أهداف ومقاصد جديدة.
- عدم وجود رسالة علمية محكمة تتناول الموضوع دراسة تفسيرية تحليلية للأهداف والمقاصد.
- المشاركة مع طلبة العلم بإثراء المكتبة الإسلامية بكل ما هو جديد.
- حاجة المجتمعات الإسلامية إلى طرح المضامين التربوية التي اشتملت عليها سورة التوبة عصرياً، وتجسيدها على أرض الواقع والإفادة منها.
- تشجيع أسانديتي في قسم التفسير وعلوم القرآن، وخاصة مشرفي على هذه الرسالة بطرق الموضوع وتناوله في إطار رسالة علمية محكمة.

ثالثاً: أهداف البحث:

- توضيح عقيدة الولاء والبراء من خلال السورة ومدى التزام المسلم ابتداءً بها.
- بيان الميزان القرآني لنيل رحمة الله تعالى بولاية المؤمنين بعضهم لبعض، الذي يتضمن ضرورة المحبة والنصرة.
- بيان مكارم الأخلاق في معاملة المسلمين بعضهم لبعض، ومعاملة المسلمين لغيرهم في دار الإسلام، وإظهار القيم المجتمعية كالعدالة والمروءة والاتحاد والوفاق.

- بيان لأهمية أهداف ومقاصد موضوعات السورة وتحليلها.
- إظهار خطورة ابتعاد المسلمين عن دينهم بتشتتهم وولائهم لغير الله تعالى.
- إظهار فضل الجهاد في سبيل الله تعالى، والتعريف بالجهاد وبيان أهميته.
- فضح المنافقين وكشف مؤامراتهم، وذكر لأمراتهم واضطراباتهم النفسية.
- بيان أهمية البيعة كأساس متين في الإسلام، ومدى جدية المسلم في نصرته دينه.
- أهمية فضل الله ومنه على الأمة الإسلامية، بمبعث رسول الله ﷺ .
- إظهار وجه الإعجاز القرآني في علاج قضايا المجتمع الإسلامي والإنساني.

رابعاً: الدراسات السابقة للموضوع:

- بعد البحث تبين أن موضوع بحثي جديد على المكتبة الإسلامية وأن ما كُتِبَ حول الموضوع عبارة عن رسائل جامعية، ماجستير ودكتوراه منها:
- علاقة المسلمين بغيرهم كما جاءت في سورة التوبة. لعبد الله محمد الزعبي - ماجستير
 - تلخيص تبصرة المتذكر وتذكرة المتبصر للكواشي: من أول سورة الأنعام إلى آخر سورة يوسف، لمحمد بن إبراهيم الشيبان - ماجستير.
 - مسائل العقيدة في سورة التوبة، للمؤلفة: لشريفة مصلح السنيدي - ماجستير.
 - المنافقون كما تحدثت عنهم سورة التوبة، للمؤلفة: لزينب عبد الرحمن الدخيل، ماجستير.
 - موقف القرآن من خصومه كما تصوره سورة التوبة، لعمر أحمد علي عبد الرحمن - دكتوراه - ١٩٧٢م جامعة الأزهر.
 - معالم الجهاد في سورة التوبة: دراسة موضوعية، لصفوان حاج إسماعيل عبد الله - ماجستير.
 - تفسير ابن كمال باشا دراسة وتحقيق من خلال سورتي التوبة ويونس، لتحسين أحمد، ماجستير.
 - المنهج القرآني مع غير المسلمين في ضوء سورة التوبة، لعمار جبار الديلمي.
 - دراسة وتحقيق تفسير سورتي الأنفال والتوبة لموفق الدين الكواشي، لنور الدين محمد خليل - ماجستير.
 - وصايا القرآن الكريم الاجتماعية: دراسة وتحقيق تفسير سورتي، الأنفال والتوبة لموفق الدين الكواشي - دكتوراه جامعة صدام للعلوم الإنسانية.
 - تفسير سورتي الأنفال والتوبة من تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم الرازي: دراسة وتحقيق وتخريج، للمؤلف: عبادة أيوب سويدان الكبيسي - دكتوراه - جامعة أم القرى - ١٤٠٧هـ.

- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريبب سورتا الأنفال والتوبة للحسين بن محمد الطيبي، دراسة وتحقيق، للمياء محمد العديلي - ماجستير.
- من خلال الدراسات السابقة لسورة التوبة تبين أن البعض قد تناول موضوع السورة بشكل عام ضمن دراسة قرآنية شاملة، أو تناول جزءا من موضوعات السورة؛ كالذي أخذ علاقات المسلمين بغيرهم، أو تناول معالم الجهاد في السورة، ومنهم من تناول الدراسة الاجتماعية فيها، وآخر تناول أحوال المنافقين في السورة .. وغيرها من الموضوعات، أما هذا البحث فيتناول فيه الباحث موضوعات السورة كلها، محاولا استنباط ما هو جديد من أهدافها ومقاصدها، في إطار دراسة تحليلية شاملة ومتكاملة لموضوعات السورة.

خامسا: منهج الباحث:

الالتزام بقواعد التفسير بالمأثور والرأي المحمود، وتتبع أصول البحث العلمي:

- تفسير القرآن بالقرآن.
- تفسير القرآن بالسنة المطهرة.
- تفسير القرآن بأقوال الصحابة، وعلماء التفسير إلى يومنا هذا.
- تفسير القرآن باللغة العربية وخاصة الغامض والغريب منها .
- إتباع خطوات التفسير الموضوعي للسورة.
- الحديث عن محور السورة الأساس.
- الحديث عن موضوعات السورة الأساسية وعلاقتها بمحورها الأساس.
- التفصيل في دراسة موضوعات السورة، وربط بعضها ببعض.
- وضع رؤية مستقلة لموضوعات السورة وربطها بواقعنا المعاصر ما أمكن.
- نسبة الآيات إلى سورها مع ذكر رقم الآية، ويكون ذلك في المتن لكثرة الآيات.
- الاستدلال بالأحاديث الصحيحة والحسن منها أحيانا، ونقلها من أصولها الحديثية حسب الأصول المتبعة في البحوث العلمية، وخاصة ما كان منها في الكتب التسعة مع عزوها إلى مظانها، وذكر الحكم نقلا عن العلماء إلا ما كان في البخاري ومسلم، وما كان غير ذلك بينته.
- استخدام رموز نقلا عن أهل العلم، خ: البخاري، م: مسلم، ك: كتاب، ب: باب.
- تم فهرست المراجع كالتالي: أولا كتب التفسير ثم كتب الحديث، المراجع العربية، الموسوعات والمعاجم والتراجم، الرسائل والنشرات، الكتب المترجمة، مواقع الشبكة العالمية للمعلومات.

- كان ترتيب كتب المراجع جميعها حسب أسماء المؤلفين أبجدياً، ما عدا كتب الحديث فكان حسب الأهمية.

سادساً: خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة وفصل تمهيدي وخمسة فصول وخاتمة.

أما المقدمة فتشمل التالي:

- ١ - أهمية البحث.
- ٢ - أهداف البحث.
- ٣ - أسباب اختيار البحث.
- ٤ - الدراسات السابقة للموضوع.
- ٥ - منهج الباحث.

الفصل التمهيدي

بين يدي السورة

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف العام بالسورة.

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: عدد آيات السورة وأسمائها.

المطلب الثاني: جو السورة العام.

المطلب الثالث: سبب عدم ابتداء السورة بالبسملة.

المطلب الرابع: أول ما نزل وآخر ما نزل من السورة.

المطلب الخامس: سبب ومكان نزول السورة.

المبحث الثاني: المناسبات في السورة.

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: معنى المناسبة لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: فوائد معرفة المناسبة.

المطلب الثالث: مناسبة السورة لما قبلها "سورة الأنفال".

المطلب الرابع: مناسبة السورة لما بعدها "سورة يونس".

المطلب الخامس: مناسبة أول السورة بآخرها.

المبحث الثالث: الأهداف والمقاصد ومحور السورة.

ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الأهداف والمقاصد لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: الفرق بين الأهداف والمقاصد.

المطلب الثالث: الأسس التي تقوم عليها المقاصد.

المطلب الرابع: المحور الأساس للسورة.

الفصل الأول

تحديد العلاقات العامة في الإسلام

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التشريع الإسلامي في تنظيم العلاقات الإسلامية

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تحديد أهداف ومقاصد الفصل الأول وتحليلها.

المطلب الثاني: بيان مفهوم العلاقات العامة في الإسلام.

المطلب الثالث: التشريعات والقوانين الربانية من خلال السورة.

ويشتمل على ثلاثة بنود:

البند الأول: تعريف القانون لغة واصطلاحاً.

البند الثاني: تعريف التشريع الإسلامي وأهم مميزاته.

البند الثالث: بعض القوانين الربانية والأحكام الشرعية في السورة .

المبحث الثاني: الأحكام المترتبة على تنظيم العلاقات الإسلامية مع غير المسلمين.

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: الأحكام الشرعية المترتبة على تنظيم العلاقة مع غير المسلمين.

ويشتمل على خمسة بنود:

البند الأول: العلاقة داخل الدولة الإسلامية وخارجها.

البند الثاني: الآيات التي تحدد وتنظم العلاقة مع غير المسلمين.

البند الثالث: تنظيم العلاقة مع أهل الكتاب وتحديدها.

البند الرابع: الجزية وأهل الكتاب.

البند الخامس: بعض أسرار ولطائف آية الجزية.

المطلب الثاني: الإعجاز التشريعي والتربوي في تنظيم العلاقات مع غير المسلمين.

ويشتمل على بندين:

البند الأول: تعريف الإعجاز التشريعي والتربوي لغة واصطلاحاً.

البند الثاني: الإعجاز التربوي في بعض الآيات وحكمة التشريع فيها.

المبحث الثالث: الولاء والبراء في الإسلام.

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى الولاء والبراء لغة واصطلاحاً.
المطلب الثاني: الأسباب التي أدت إلى ظهور الولاء والبراء
المطلب الثالث: الإعجاز التربوي في الولاء والبراء:
ويشتمل على أربعة بنود:
البند الأول: أقسام الناس في عقيدة الولاء والبراء.
البند الثاني: قواعد الولاء والبراء من خلال سورة التوبة.
البند الثالث: الأثر التربوي لبعض الآيات على المسلمين في الولاء والبراء.
البند الرابع: بعض صور الولاء والبراء قديماً وحديثاً.

الفصل الثاني

الجهاد في سبيل الله من خلال سورة التوبة

ويشتمل على مبحثين:
المبحث الأول: الجهاد في سبيل الله:
ويشتمل على أربعة مطالب:
المطلب الأول: تحديد أهداف ومقاصد الفصل الثاني وتحليلها.
المطلب الثاني: تعريف الجهاد لغة واصطلاحاً.
المطلب الثالث: الجهاد فريضة إلهية وسنة كونية.
ويشتمل على ثلاثة بنود:
البند الأول: أنواع الجهاد.
البند الثاني: حكم الجهاد وأحكامه.
البند الثالث: الجهاد فريضة إلهية وسنة كونية.
المطلب الرابع: أهمية الجهاد وأهم فوائده من خلال سورة التوبة.
المبحث الثاني: الجهاد ضرورة أمنية وحاجة إسلامية.
ويشتمل على ستة مطالب:
المطلب الأول: أوجه الشبه والاختلاف بين اليهود والنصارى.
المطلب الثاني: خطورة التشبه بأهل الكتاب، وتتبعهم.
المطلب الثالث: الجهاد ماض إلى قيام الساعة.
المطلب الرابع: النتائج السلبية على ترك الجهاد في سبيل الله.

المطلب الخامس: نصر الله قائم بتخاذل المتخاذلين وجهاد المخلصين.
المطلب السادس: عوامل النصر والأثر التربوي على المجاهدين.
ويشتمل على أربعة بنود:
البند الأول: عوامل النصر.
البند الثاني: الأثر التربوي على سلوك المسلم أثناء جهاده.
البند الثالث: الأخلاق التربوية أثناء المعركة.
البند الرابع: الآثار المترتبة على الخشية من الناس دون الخشية من الله تعالى.

الفصل الثالث

المنافقون من خلال السورة

ويشتمل على مبحثين:
المبحث الأول: صفات المنافقين:
ويشتمل على أربعة مطالب:
المطلب الأول: تحديد أهداف ومقاصد الفصل الثالث.
المطلب الثاني: النفاق لغة واصطلاحاً.
المطلب الثالث: أنواع النفاق:
ويشتمل على بندين:
البند الأول: النفاق الاعتقادي.
البند الثاني: النفاق العملي.
المطلب الرابع: أصناف الناس من خلال السورة.
ويشتمل على خمسة بنود:
البند الأول: المشركون.
البند الثاني: أهل الكتاب.
البند الثالث: المؤمنون.
البند الرابع: المنافقون.
المطلب الخامس: صفات المنافقين من خلال السورة.
المبحث الثاني: خطورة المنافقين داخل المجتمع المسلم.
ويشتمل على خمسة مطالب:

- المطلب الأول:** علاقة المنافقين بأهل الكتاب والمشركين
- المطلب الثاني:** صور من فضائح المنافقين وإرجافهم في خذلان المسلمين.
- المطلب الثالث:** الحلف عند المنافقين،
- المطلب الرابع:** قصة ثعلبة وحيثياتها.
- المطلب الخامس:** الأعراب في السورة.
- المطلب السادس:** الأثر التربوي على المؤمنين من خلال مواقف المنافقين.

الفصل الرابع

غزوات الرسول من خلال السورة

ويشتمل على مقدمة ومبحثين:

المقدمة:

وتشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تحليل أهداف ومقاصد الغزوات النبوية من خلال السورة.

المطلب الثاني: الأشهر الحرم:

ويشتمل على بندين:

البند الأول: تعريف بالأشهر الحرم.

البند الثاني: تعريف النسئ.

المبحث الأول: غزوة حنين:

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف بالغزوة

ويشتمل على بندين:

البند الأول: الغزوة لغة واصطلاحاً.

البند الثاني: التعريف العام بغزوات الرسول ﷺ وعددها.

المطلب الثاني: الأبعاد العسكرية والأمنية لهذه الغزوات.

المطلب الثالث: التعريف العام بغزوة حنين وأسبابها.

المطلب الرابع: حال المسلمين كما وصفهم القرآن في هذه الغزوة.

المطلب الخامس: الأثر التربوي لغزوة حنين على المسلمين.

المبحث الثاني: غزوة تبوك:

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف العام بغزوة تبوك وأسبابها.

المطلب الثاني: وضع سكان المدينة قبل الغزوة وبعدها.

ويشتمل على أربعة بنود:

البند الأول: السابقون من أهل الإيمان.

البند الثاني: أهل الإيمان من أصحاب الأعذار.

البند الثالث: . الثلاثة الذين خلفوا.

البند الرابع: المنافقون ومسجد الضرار.

المطلب الثالث: الآثار والأخطار المحدقة بالمسلمين بسبب وجود المنافقين بينهم.

المطلب الرابع: الآثار التربوية لغزوة تبوك على المسلمين.

الفصل الخامس

البيعة من خلال السورة

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: البيعة أساس في دين الله تعالى:

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: تحديد أهداف ومقاصد الفصل الخامس وتحليلها:

المطلب الثاني: تعريف البيعة.

ويشتمل على ثلاثة بنود:

البند الأول معنى البيعة لغة واصطلاحاً.

البند الثاني: أركان البيعة وشروط الإمام.

البند الثالث: البيعة في الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أسباب البيعة

المطلب الرابع: أنواع البيعة.

المطلب الخامس: صور البيعة.

المبحث الثاني: البيعة أول الإسلام:

ويشتمل على ستة مطالب:

المطلب الأول: البيعة أول العهد مع رسول الله ﷺ

المطلب الثاني: مسجد الضرار يتنافى ومبدأ البيعة

المطلب الثالث: آية البيعة وأقوال المفسرين.

المطلب الرابع: صفات المبايعين

المطلب الخامس: مستلزمات البيعة.

المطلب السادس: البيعة ضرورة إسلامية.

المبحث الثالث: فضل الله على أمة الإسلام بمبعث سيدنا محمد ﷺ

ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: صاحب البيعة الأولى وأولى الناس وفاءً بعهد الله.

المطلب الثاني: آية الفضل وتفسيرها:

ويشتمل على ثلاثة بنود:

البند الأول: فضل الله على الأمة بمبعث رسول الله ﷺ.

البند الثاني: فضل رسول الله ﷺ على الأمة.

البند الثالث: صفات الرسول ﷺ من خلال الآية.

المطلب الثالث: ضرورة التوكل على الله والاستعانة به عند البيعة.

المطلب الرابع: الهدايات والآثار التربوية لهذا الفصل.

الخاتمة: ذكرت فيها ملخص البحث وخلاصة ما توصلت إليه من نتائج وتوصيات،

وملخص الرسالة بالإنجليزية.

الفهارس والمراجع والمصادر، وهي كالتالي:

١- فهرس الآيات القرآنية.

٢- فهرس الأحاديث الشريفة.

٣- فهرس الأعلام.

٤- فهرس المراجع.

٥- فهرس المحتويات.

الفصل التمهيدي

بين يدي السورة

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف العام بالسورة.

المبحث الثاني: المناسبات في السورة.

المبحث الثالث: الأهداف والمقاصد ومحور السورة.

المبحث الأول

التعريف العام بالسورة

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: عدد آيات السورة وأسمائها.

المطلب الثاني: جو السورة العام.

المطلب الثالث: سبب عدم ابتداء السورة بالبسملة.

المطلب الرابع: أول ما نزل وآخر ما نزل من السورة .

المطلب الخامس: سبب ومكان نزول السورة.

المطلب الأول: عدد آيات السورة وأسمائها:

أولاً: عدد آيات السورة:

قيل: مائة وعشرون وتسع كوفي، وثلاثون في الباقي^(١)، على اعتبار أن الآية السبعين من السورة آيتان بقراءة ورش^(٢)، ومنهم من يقول: (مائة وسبع وعشرون آية)^(٣).

ثانياً: أسمائها:

تميزت السورة باسميها الشهيرين (التوبة وبراءة)^(٤)، ولها أسماء أخرى تقارب الخمسة عشر اسماً تعتبر علامات مُميّزة للسورة، فقد نزلت لتضع حداً فاصلاً بين عهد النبوة بشقيه المكي والمدني، وما بعده، لينبثق من خلال آياتها؛ كيفية تعلم المسلمين في العهد المكي الصبر الجميل، وكيف ترسخ لديهم مفهوم الثبات على العقيدة، ومن ثم كيفية تحمل مشاق الدعوة في العهد المدني الحافل بمؤامرات وفسائس وعداوة اليهود، إضافة إلى أعباء الجهاد، فكان لا بد من أن تتبلور الصورة لمواجهة كل ذلك حبا في الله، وطلباً لمرضاته، وخاصة مع ظهور فئة المنافقين الحاقدة، الذين كانوا أشد الحلقات خطورة وصعوبة على المسلمين، فكانت سورة التوبة جامعة للدروس التي تبين كيفية التعامل مع الفئات الثلاث الحاقدة، وخاصة المنافقين. لتفصح سريرتهم، وتكشفهم، وتدمم عليهم، وتحفر على أساساتهم، وتشد علي قلوبهم وتشردهم، وتنقر على رؤوسهم، لتظهر صورتهم الحقيقية وتبين كيفية درء مخاطرهم. إن للسورة أسماء عديدة، ذكرها ابن الجوزي^(٥) في زاد المسير فقال: (ولها تسعة أسماء أحدها سورة التوبة. والثاني براءة؛ وهذان مشهوران بين الناس والثالث: سورة العذاب؛ قاله حذيفة^(٦). والرابع المقشقة، قاله ابن عمر^(٧). والخامس: سورة البحوث، لأنها بحثت في سرائر المنافقين، قاله المقداد ابن الأسود^(٨). والسادس: الفاضحة، لأنها فضحت المنافقين، قاله

(١) شرح طيبة النشر في القراءات العشر لأبي القاسم محمد بن محمد النويري: ج/٢، ص/٣٥٧.

(٢) القرآن الكريم: ص/١٥٣، دار المصحف/ القاهرة،

(٣) فتح القدير للإمام محمد بن علي الشوكاني: المجلد الأول، ص/٧٠٥، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/١/٢٠٠٣م.

(٤) زاد المسير لابن الجوزي ص/ ٥٦٥. المكتب الإسلامي/بيروت، ط جديدة/ ٢٠٠٢م.

(٥) هو عبد الرحمن بن علي أبو الفرج ابن الجوزي البغدادي الحنبلي صاحب التصانيف وأنواع العلوم الكثيرة ولد ٥٠٨ أو ٥١٠ هـ وكانت وفاته ٦٥٤ هـ، انظر: طبقات المفسرين للدواودي ج/ ١ /ص/ ٢٧٥-٢٧٩، دار الكتب العلمية بيروت، بدون طبعة.

(٦) هو الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان ؓ حليف بني الأشهل وأمه كذلك، وأسلم هو وأبوه وهو أمين سر رسول الله ﷺ استعمله عمر على المدائن ومات بعد مقتل عثمان بأربعين يوماً سنة ٣٦ هـ. تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/١ ص/ ٤٥٤-٤٥٥ اختصار دار إحياء التراث/ بيروت ط/٢/١٩٩٣م.

(٧) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي أسلم صغيراً وهاجر مع أبيه روى الكثير من الحديث وأفتى الناس ستين سنة مات سنة ٧٣ هـ وقيل ٧٤ هـ، انظر: تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٣ ص/ ٢١٣-٢١٤.

(٨) هو الصحابي المقداد بن عمرو بن ثعلبة البهراي أبو سعيد المعروف بالمقداد بن الأسود أسلم قديماً وشهد بدرًا والمشاهد، وكان فارساً وروى عن رسول الله ﷺ وروى عنه علي رضي الله عنه من أوائل من أظهر إسلامه مات ٣٣ هـ المصدر السابق ج/٥ ص/٥٢٧.

ابن عباس. والسابع: المبعثرة، لأنها بعثرت أخبار الناس، وكشفت عن سرائرهم، قاله الحارث بن يزيد^(١)، والثامن المثيرة، لأنها أثارت مخازي المنافقين ومثالبهم، قاله قتادة^(٢). والتاسع الحافرة، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين^(٣). وزاد السيوطي^(٤) في الإتيان فقال: والمُنْفَرَة نقرت في قلوب المشركين، فأرعبتهم. وقال فيها: هي إلى العذاب أقرب ما كادت تفلح عن الناس، حتى ما كادت تبقي منهم أحدا. وزاد: (المخزية والمنكلة والمشردة والمدممة)^(٥). وقال ابن عاشور^(٦) في تفسيره: المشددة^(٧).

كما تسمى سورة السيف ذكره الشيخ أحمد كفتارو في موقعه^(٨).^(٩) وسورة البعوث. ذكرت في جريدة الإخوان المسلمون في عددها الأول ١٤/٤/١٩٣٦م^(١٠).

إن أسماء سورة التوبة تبين محور السورة الأساس وعلاقته بالموضوع الأساس وما ينبثق عنه من موضوعات أخرى، كما ويظهر من خلالها أهداف ومقاصد كل موضوع.

وإليك سبب تسميتها:

١- **التَّوْبَةُ:**^(١١) سميت بهذا الاسم العظيم لتناولها موضوع التوبة من أول السورة، التي رغبَ اللهُ جل في علاه عباده فيها، ولم يفقدهم الأمل في التوبة، ففي الآية الثالثة من السورة قال اللهُ تعالى: **{فَإِنْ تَبُتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ..}**، (التوبة: ٣) قالها للذين تبرأ منهم وهم المشركون، وإشارة للمنافقين، فقال: **{فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** (التوبة: ٥)، فما بالكم بمن هم دونهم من العصاة وأهل الذنوب، حيث ختمت السورة بقصة الثلاثة الذين خَلُفُوا، ليظهر فضل اللهُ تعالى في توبته عليهم، ويختم الآية بقوله: **{إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}** (التوبة: ١١٨)، ليظهر المقصد العظيم من عظم اسمه التواب، وعظيم اسمه الرحيم.

(١) هو الحارث بن يزيد العكلي التيمي (التميمي)، روى عن النخعي والشعبي وأبي زرعة وروى عنه ابن شبرمة وابن عجلان وابن القعقاع وهو من أقرانه، وروى له البخاري، وهو فقيه ثقة، تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/١، ص/٤٢١-٤٢٢.

(٢) قتادة بن دعامة بن قتادة أبو الخطاب السدوسي روى عن كثير من الصحابة ثقة ثبت مفسر ولد ٦١ ومات ١١٧ هـ تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٤، ص/٥٤٠.

(٣) زاد المسير لابن الجوزي: ص/٥٦٥/ دار ابن حزم/ بيروت/ ط/ ١/ ٢٠٠٢م.

(٤) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضير الأسويطي الشهير (بالسيوطي)، ولد في رجب ٨٤٩ هـ نشأ يتيماً وحفظ القرآن ونهل من العلم صغيراً، تبحر في التفسير والحديث والفقه واللغة والنحو وغيرها ومؤلفاته تزيد عن ٣٠٠ مصنف وفاته في جمادى الأولى ٩١١ هـ من باختصار من كتابه طبقات المفسرين ص/ ٣- ٨.

(٥) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ص/ ١٧٨ دار الحديث القاهرة مجلدان، ط/ ٢٠٠٤م.

(٦) هو الشيخ العلامة التونسي محمد الطاهر ابن عاشور ولد ١٨٧٩م تولى تدريس المواد الأدبية والشريعة في جامعة الزيتونة أشهر مؤلفاته كتاب التفسير المسمى بالتحريير والتنوير، عمّر طويلاً توفي ١٩٧٣م.

(٧) التحريير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور اقتباس ج/ ٦ ص ٩٦ / دار سخنون للنشر والتوزيع/ دار مصر/ ط/ ١٩٩٧

(٨) موقع الشيخ كفتارو. http://www.kuftaro.org/ARABIC/Lecture_Archive/2002-02-01.htm

(٩) هو الشيخ أحمد بن محمد أمين كفتارو ولد سنة ١٩١٥م تلقى علومه الدينية صغيراً، تولى الإرشاد والدعوة بعد وفاة والده وشيخه سنة ١٩٣٨م تولى مجلس الإفتاء الأعلى في سوريا من سنة ١٩٦٤م إلى حين وفاته سنة ٢٠٠٤م / نقلا من موقعه التالي:

<http://www.kuftaro.org/arabic/biographyA.htm>

(١٠) <http://www.almujtamaa-mag.com/detail.asp?InNewsItemID=147731&InTemplateKey=print>

(١١) تاب إلى الله: رجع عن المعصية، وتاب الله عليه: وقفه للتوبة، القاموس المحيط للفيروز أبادي: ج/١، ص/٥٢. والتوبة الاستحياء، يقال ما طعامك بطعام توبة، أي لا يُستحي منه ولا يحتشم: انظر: ك/ العين للخليل بن أحمد الفراهيدي: ج/١، ص/١٩١.

٢- بَرَاءَةٌ: (١) هي العنوان السياسي للسورة، سميت بهذا الاسم العظيم، لأن الله جل في علاه بدأ السورة بإعلان سياسي شديد اللهجة، أمر فيه بقطع العلاقات مع المشركين، ليضفي مهابة على افتتاحية السورة، فقال جل في علاه: {بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ} (التوبة: ١). فشدّة القسوة من شدة العبارة واللهجة، ليستشعر المخاطب بخطورة الإعلان، فأنه تعالى لم يبدأ بنفسه، وهو المتبرئ، بل قدم الفعل، ليستبعد السامع أي نوع من الرأفة والرحمة، ولتظهر قسوة البراءة منهم، إنها سنة ربانية، مهم جداً إتباعها، كيف لا؟ ورسول الله ﷺ أول الخلق امتثالاً لأمر ربه، فقد ثنى الله به، لتعطي كل مسلم درساً عظيماً في الولاء لله ورسوله والمؤمنين، وبراءة من المشركين والمنافقين.

٣- العَذَابُ (٢): فعن حذيفة ؓ قال: (التي يسمون سورة التوبة هي سورة العذاب) (٣). فالمتتبع للسورة يجد أنها تحمل في طياتها العذاب الشديد على المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، فإعلان البراءة من أول السورة يبين شدة العذاب المنتظر والواقع بالمشركين، ولو خطونا خطوات قليلة لقرأنا قول الله تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ..} (التوبة: ١٤)، كما كانت عذاباً على أهل الكتاب والمنافقين، فقال: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ..} (التوبة: ٢٩). وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئسَ المَصِيرُ} (التوبة: ٧٣). وقوله تعالى في آخر السورة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاَعْمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} (التوبة: ١٢٣). فالقتال والجهاد وما يترتب عليهما من: قتل وجراح وسبي وتشريد، عذاب بحد ذاته في جميع أنواع الحروب، وخاصة على الكافرين عندما يشردهم الله بهم في الدنيا من خلفهم، فما بالك بعذاب الله المنتظر يوم القيامة لهم. كما أن الأمر بالقتال والجهاد مأمور به المسلمون في أول السورة ووسطها وآخرها وبالتالي إيقاع العذاب عليهم دائم ومستمر بفضل الله تعالى إلى قيام الساعة.

٤- الفَاضِحَةُ: (٤) عن سعيد بن جبير (٥) قال: قلت لابن عباس ؓ: سورة التوبة؟ قال: التوبة؟ قال: (بل الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم، ومنهم، حتى ظنوا أن لا يبقى منا أحد إلا ذكر فيها) (٦)، فكادت السورة أن تسمى الذين يستأذنون النبي في الجهاد بأسمائهم، قال الله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ

(١) البرء: السلامة من السقم، وبراً بيراً: والبراءة من الغيب والمكروه: العين: ج/ ١/ ص/ ١٢٤. يرى إذا تخلص، وبرئ إذا تنزه وتباعد، وبرئ إذا أعذر وأذّر: لسان العرب ج/ ١/ ص/ ٣٨٨-٣٩٠، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/ ١/ ٢٠٠٣.

(٢) العذاب لغة النكال انظر: القاموس المحيط للفيروز أبادي ج/ ١/ ص/ ١٣٦ دار الكتب العلمية/ بيروت ط/ ١٩٩٩ م

(٣) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ص/ ١٧٨، دار الحديث/ القاهرة، ط جديدة/ ٢٠٠٤ م

(٤) فضح: كشف: مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي: ص/ ٢١٢. مكتبة لبنان بيروت، ط/ ١٩٨٦ م.

(٥) سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالبي مولا هم روى عن كثير من الصحابة إمام ثقة حجة قتل سنة ٩٥ هـ، تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/ ٢، ص/ ٢٩٢.

(٦) صحيح مسلم: ك/ التفسير ب/ في سورة براءة، ج/ ٤، ص/ ٢٣٢٢، ح/ ٣٠٣١، إحياء التراث العربي/ بيروت، ط/ ١٩٧٢ م.

بِالْكَافِرِينَ} (التوبة: ٤٩)(١). فضحت أمثالهم الذين يقفون حجر عثرة كئود أمام المجاهدين، فهم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر بادعائهم أنهم من المسلمين وهم ليسوا كذلك، قال تعالى: {وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ} (التوبة: ٥٦). وما أكثر المدعين للإسلام، المحاربين لكتاب الله ودينه وأوليائه اليوم، بل وتتمنئ قلوبهم بمجرد سماع أي القرآن وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} (الزمر: ٤٥).

٥- الْمُخْزِيَّةُ(٢): لقد فضحتهم وكشفت مستور عيوبهم، وبينت مكنون صدورهم، فأخزتهم وأذلتهم، وهذا ما نلاحظه اليوم، عندما تتكشف للمؤمنين بعض علاقات المنافقين مع الكافرين، بأنهم المتآمرون على الأمة المتحالفون مع عدوهم، بات أمرهم مفضوحا بالدليل القاطع، فيعتريهم الخزي والعار، فلا يجدون جوابا، وحججهم واهية تزيده خزيا وذلاً.

٦- الْمُقَشَّقِشَةُ(٣)، تحدث فضيلة الشيخ برهان الدين البقاعي(٤)، رحمه الله تعالى في تفسيره عن هذا الاسم مطولا، مما قال: (هي المبرئة من النفاق، وقال في معناها: تقشقت القروح إذا تقشرت للبرء، وقال: أيضا أنه مضاعف الجمع، لأنها جمعت أصناف المنافقين وأحوالهم)(٥).

وصدق فضيلة الإمام البقاعي حيث قال ذلك، فقد جمعت السورة صوراً شتى للمنافقين، أصحاب القلوب المريضة، فتارة يتشبهون باليهود في حقدهم وتشددهم، وتارة بالنصارى في إفراطهم وتهاونهم، وهامهم اليوم وصورهم الفاضحة في ولائهم لليهود واضحة بيينة، ومع ذلك تجدهم متعصبون، يزدادون تعصبا لنصرتهم، وهم للنصارى أشد تحالفاً وأوثق عهدا معهم من أي تحالف آخر.

٧- الْمُبْعَثَرَةُ(٦)، يظهر من التعريف اللغوي لهذا الاسم ومن السياق القرآني للسورة، أن الله عزَّ جل بعثر مكنون صدور المنافقين وكشف خبيئة نفوسهم فبعثر صفاتهم.

٨- الْمُنْقَرَةُ(٧)، (ونقر في الناقر) أي نفخ في الصور(٨)، فجاءت السورة لتضرب على رؤوس المنافقين وتتفر على قلوبهم لترعيبهم.

(١) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص/ ١٤٢، مكتبة الصفا/ القاهرة، ط/ ١/ ٢٠٠٢ م.

(٢) الخزي هو الهوانُ والهونُ نفيض العز، انظر لسان العرب ج/ ١٣، ص/ ٤٣٨.

(٣) القش ما يكنس من المنازل والمقشاة الكنسة، وقش الماء قشيشا صوت، وقششهم بكلامه سمعهم وآذاهم، والقشيشة تهيو للبرء، والقشيشة: الكشكشة ونشيش اللحم في النار، باختصار انظر تاج العروس ج/ ١، ص/ ٤٣٠.

(٤) صاحب التفسير أبو الحسن برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاطِ البقاعي ولد ٨٠٩ هـ بقاعي المولد سكن دمشق ورحل إلى بيت المقدس والقاهرة، رجع دمشق ومات فيها ٨٨٥ هـ له العديد من المؤلفات أهمها كتاب التفسير. انظر مقدمة كتابه نظم الدرر.

(٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم البقاعي: ج/ ٣، ص/ ٢٥٥-٢٥٧، باختصار، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/ ١/ ١٩٩٥ م.

(٦) بعثر: نظر وقش وفرقه وبدده وقلب بعضه على بعض واستخرجه وكشف ما فيه، والبعثرة: اللون الوسخ. القاموس المحيط ج/ ٢، ص/ ٢٢.

(٧) النقر في اللغة الضرب ونقره ضربه وعابه. القاموس المحيط للفيروز أبادي: ج/ ٢، ص/ ٢٤١.

(٨) أي نفخ في الصور، مختار الصحاح للرازي: ص/ ٢٨١ مكتبة لبنان/ بيروت ط/ ١٩٨٦ م.

وهذا حالهم حيث تسمئز قلوبهم ونفوسهم عند تلاوتها، فيشعرون أنها تضربهم بها على رؤوسهم ويشعرون أن الآيات قد نزلت فيهم.

٩- **الْمُكَلَّةُ**:^(١) يظهر من هذا الاسم المرعب؛ كيف نكَلَّ الله بالمجرمين في الدنيا وتوعدهم بالعذاب الأليم في الآخرة؛ ليكونوا بهذا النكال عبرة لهم ولغيرهم.

١٠- **المُثِيرَةُ**:^(٢)، أي التي تترك الأثر^(٣)؛ فيظهر هذا الاسم المثير كل خفايا نفوس المنافقين، بحيث لا يبقى مما أضرروا إلا أظهر الله أثره، وإن كان خافيا، فلا بد من أن تظهر علامات النفاق لدى المنافقين مهما حاولوا إخفاءها، من خلال الطاعات التي لا يقوى عليها المنافقون.

١١- **المُشْرِدَّةُ**:^(٤)، يقول الله تعالى: **{فَأِمَّا تَثَقَّفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدْ بِهِمْ مَن خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ}** (الأنفال: ٥٧)، مما يجعلهم في خوف دائم، وهذا ما بينته وأثبتته سورة التوبة، قال الله تعالى: **{يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوْا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ}** (التوبة: ٦٤). فكانت الآيات بمثابة الطرد والتشريد لكل منافق معلوم النفاق ومن خلفه ليكون الفضح والنبد لكل من يصر على الكفر والطغيان، ويظهر العداوة للمؤمنين، ومظاهرة الكافرين.

١٢- **المُشَدَّدَةُ**:^(٥) يتبين من معنى هذا الاسم كم فيه من الغلظة والقسوة على المجرمين عموما، والمنافقين على وجه الخصوص، وكيف شدد الله عليهم فنكل بهم وفضحهم وأخزاهم، وما زال المنافقون إلى اليوم يشعرون بقسوة وشدة من وقع آيات سورة التوبة عليهم، بل ويتهمون من يقرأها ومن يبين أحكامها بالمتشدد، والعياذ بالله.

١٣- **الْمُدْمَمَةُ**:^(٦)، يقول الشيخ محمد علي الصابوني^(٧) في تفسيره صفوة التفسير عند تفسير قوله تعالى: **{فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا}** (الشمس: ١٤). **الْمُدْمَمَةُ**: إطباق الشيء على الشيء يقال: دَمَدَمَ عليه القبر أي أطبقه^(٨)، فيظهر الاسم جليا واضحا، أن المدممة تعني الهلكة والتضييق على كل المنافقين، فأحاطتهم وحاصرتهم بأحكامها وشرائعها، فأطبقت عليهم، وحشرتهم في زاوية نفاقهم، لتستأصل شأفتهم، أو تعيدهم لدين الله إن امتثلوا وأامر الله واجتنبوا نواهيه.

(١) التنكيل في اللغة صنع به صنيعا يُحَدَّرُ به غيره، والنكل القيد الشديد، انظر: القاموس المحيط للفيروز أبادي: ج/٣ ص/٦٢٩.
(٢) المثيرة من الأثر وبقيّة ما ترى من كل شيء، وما لا يرى بعد ما يبقى من علقه، انظر كتاب العين ج/١ ص/٥٦.
(٣) يقول الشاعر: كأنهم أسياف بيض يمانية *** غضب مضاربها باق بها الأثر، المصدر السابق: ج/١ ص/٥٦.
(٤) التشريد لغة الطرد والتفريق، وشَرَّدَ به: سمع الناس بعيوبه، انظر: القاموس المحيط للفيروز أبادي: ج/١ ص/٤٢٣.
(٥) الشدّ الحمل، تقول شدّ عليه في القتال، والشدة الصلابة والنجدة وثبات القلب والمجاعة انظر العين للفراهيدي: ج/٢ ص/٣١٥.
(٦) المدممة من دمة عذبه عذابا تاما، وطحنهم وأهلكهم، ودمدم عليه: كلمه مغضبا، انظر القاموس المحيط للفيروز أبادي: ج/٤ ص/٦٢.
(٧) هو الشيخ محمد علي الصابوني أستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة وله عدة مؤلفات في التفسير انظر مقدمة تفسيره ج/١ ص/٥-٢١.
(٨) صفوة التفسير للصابوني ج/٣ ص/٥٦٥ دار القرآن الكريم/بيروت ط/٤/١٩٨١م.

١٤- البَحُوثُ وقيل البُحُوثُ:^(١)، وكأن السورة بآياتها البيّنات، تبحث عن المنافقين وصفاتهم، وتبين أخبارهم، وتحري الدقة في البحث عنهم، لتتكلم بهم وتفضحهم وتخزيهم وتشرّد بهم في الأرض ليكونوا عبرة لغيرهم.

١٥- الحَافِرَة:^(٢)، يقول ابن منظور: "وكانت سُورَة براءة تسمى الحَافِرَة وذلك أنّها حَفَرَتْ عن قلوب المنافقين وذلك أنّه لما فُرِضَ القتال تبين المنافق من غيره، ومن يوالي المؤمنين ممن يوالي أعداءهم"^(٣)، يتبين من هذا الاسم العظيم أن السورة تبحث عن أسرار المنافقين والمجرمين، وتتقب عن خفاياهم ومخازيهم، وتفتش عنهم ليتقي المسلمون خبث دهائهم وما يمكرون ليسلم المجتمع المسلم منهم إما بتوبتهم أو تشريدهم وفضحهم لعلمهم يرجعون.

١٦- السَيْفُ: لم يشتهر هذا الاسم بين الأولين من المفسرين السابقين، إلا أن الشيخ أحمد كفتارو رحمه الله تعالى^(٤) من خلال موقعه، ذكر ذلك فقال: ("سورة السيف" يعني أيها المسلمون كونوا أقوياء ولا تكونوا ضعفاء أمام أي جبار في هذا العالم)^(٥). لذلك حذّر رسول الله ﷺ من الوهن وترك الجهاد، فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها) فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء^(٦) كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن) فقال قائل يا رسول الله وما الوهن؟ قال: (حب الدنيا وكراهية الموت)^(٧). وذكر الشوكاني^(٨) أثرًا في ذلك فقال: {عن ابن عباس قال: سألت علي بن أبي طالب لم لا تكتب في براءة "بسم الله الرحمن الرحيم"؟ قال: لأن "بسم الله الرحمن الرحيم" أمان، وبراءة نزلت بالسيف^(٩). مما يبين أن السيف، اسم من أسماء السورة المعتبرة، وأنه المحدد لمعالم السورة الجهادية، ليبقى الجهاد من سبل التغلب على جميع الصعاب، وجسر الأمان إلى النصر والتمكين، وبث روح الأمل في نفوس الأمة لتحقيق غاياتها وما تصبو إليه، وسيفا مسلطا على المجرمين، ببراءة الله منهم، وبراية الجهاد المرفوعة في وجه الظالمين. ونورا يهتدي به من الظلمات إلى النور.

(١) البحث طلبك شيئاً في التراب، والبُحُوثُ: الإبل التي إذا سارت بحثت التراب بأيديها أخراً، وسميت سورة براءة بالبُحُوث لأنها بحثت عن المنافقين وأسرارهم، أي استنارتها وفتشت، انظر: لسان اللسان لابن منظور: ج/١، ص/٦٤.

(٢) الحفير البئر الموسعة والحفر التراب المخرج من الشيء المحفور، ومحافر يحفر في لغز من الغازه، والحفر في الأسنان من اللثة وأصل السن من ظاهر وباطن، انظر: لسان العرب لابن منظور باختصار، ج/٤، ص/٢٠٤.

(٣) المصدر السابق اقتباس ج/٤، ص/٢٠٤.

(٤) سبق التعريف به ص/٤.

(٥) http://www.kuftaro.org/ARABIC/Lecture_Archive/2002-02-01.htm

(٦) الغثاء: الرديء من كل شيء، انظر: لسان اللسان لابن منظور: ج/٢، ص/٢٥٤.

(٧) سنن أبي داود: ك/ الملاحم، ب/ تداعي الأمم على أهل الإسلام: ص/٦٧٥، ح/٤٢٩٧. (صححه الألباني)

(٨) محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني الإمام المفسر، له مؤلفات قيمة، ولد ١١٧٣ هـ نشأ على حب العلم وطلبه، عقيدته عقيدة السلف، توفي ١٢٥٠ هـ، انظر التفسير والمفسرون، للذهبي، ج/٢، ص/٢١١.

(٩) فتح القدير للشوكاني، ص/٧٠٥.

المطلب الثاني: جو السورة العام:

لقد كان استعداد المسلمون في وضح النهار، لغزو الروم وسط أراجيف المنافقين، لوضع حد لبقايا الوثنية في نفوس البعض ولقوله ﷺ (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب)^(١)، لذا كان افتتاح السورة بإعلان بيث روح القوة في نفوس المؤمنين، ويقذف الرعب والوهن والخوف في قلوب المشركين والمنافقين، وليتم تحديد العلاقة معهم، مع إعطائهم فرصة الأمان، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة:٦).

فكان المقطع الأول في إعلان البراءة وردّ عهد الغادرين وقتالهم، مع أخذ الحيطة والحذر منهم، وبيان حقيقة نجس المشركين، أما المقطع الثاني فإنه يتضمن (تحديد العلاقة مع أهل الكتاب، وبيان سبب ذلك خطورة اعتقادهم التاريخي والواقعي، ومدى انحرافهم عن دينهم، ومحاولين بشتى الوسائل طمس دين الله الذي ارتضاه للناس)^(٢)، وبيان خطورة التشبه بأهل الكتاب، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة:٣٤)، يقول أبو السعود^(٣): (بيان سوء حال الأتباع في اتخاذهم لهم أربابا يطيعونهم في الأوامر والنواهي وأتباعهم لهم فيما يأتون وما يذرون)^(٤)، ثم يقول معقبا: (فيكون نظمهم في قرن المرتشين من أهل الكتاب تغليظا ودلالة على كونهم أسوة لهم في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم)^(٥). فكان التحذير شديداً لخطورة العبث بنواميس الكون فالتحريف هو: (مزاولة للتشريع بغير ما أنزل الله، فهو يضاف إلى الكفر الاعتقادي)^(٦).

أما المقطع الثالث الذي يتمحور حول الجهاد وفضله، وبيان خطورة المتناقلين وقعودهم الذي لا يضر إلا بهم، لأن نصر الله لرسوله ولدينه ليس مرتبطا بنصرة الناس له، وإنما هو ابتلاء من الله وتمحيص، فعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: (مثل المؤمن كمثل الزرع، لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء. ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد)^(٧)،

(١) صحيح البخاري: ك/ المغازي، ب/مرض النبي ﷺ ووفاته، ج/٢، ص/ ٨٧٨، ح/ ٤٤٣١.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/ ١٥٦٦ بتصريف.

(٣) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي المولود ٨٩٣هـ جمع بين العلم والأدب وطارت بسمعته الفضاء وتولى أمر الفتوى والقضاء، توفي بالقسطنطينية سنة ٩٨٢هـ انظر التفسير والمفسرون ج/١، ص/ ٢٤٥-٢٤٦.

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لمحمد بن محمد العمادي الشهير بأبي السعود: ج/٤، ص/ ٦٢، دار الفكر/ بيروت، بدون طبعة.

(٥) المصدر السابق، ج/٤، ص/ ٦٢ بتصريف.

(٦) ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/ ١٦٥١٢، دار الشروق/بيروت، ط/ ١٩٨٠م.

(٧) صحيح مسلم: ك/ صفات المنافقين، ب/ مثل المؤمن كالزرع. ج/٤، ص/ ٢١٦٣، ح/ ٢٨٠٩.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من مات ولم يغزُ ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق^(١))^(٢).

المنافقون هم الأخطر على الأمة، فكان المقطع الرابع أطول مقاطع السورة، وأكثره تناولاً لصفات المنافقين وبيان أحوالهم ليضفي على هذا المقطع جواً من الرعب والخوف على كل من تسول له نفسه أن يربط مصيره بمصير الكافرين، يقول سيد قطب^(٣): (وأما الذين انحرفت قلوبهم عن مصدر القوة والنعمة فهم يبطلون ويفجرون في الأرض)^(٤).

جو السورة مفعم بالشد والقسوة على أعداء الله، فقد نقل ابن كثير^(٥) في تفسيره (عن علي رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعة أسياف: سيف للمشركين "فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين كافة" وسيف لكفار أهل الكتاب "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب" وسيف للمنافقين "جاهد الكفار والمنافقين" وسيف للبغاة "فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله" وهذا يقتضي أنهم يُجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق وهو اختيار ابن جرير^(٦)). مما يبين التشابه الكبير بين المنافقين والكافرين في المعتقد والعمل.

المقطع الأخير يبين حقيقة الصفة وأهمية البيعة مع الله، قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ..** { التوبة: (١١١) }، يقول سيد قطب: (يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين بالله، وعن حقيقة البيع، فمن بايع ووفى بما بايع فهو المؤمن الحق الذي تتمثل فيه حقيقة الإيمان)^(٧)، وخاصة عندما رسّخ لعقيدة الولاء والبراء، بالنهي عن الاستغفار للمشركين، وأن استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه، كان يعلم الله تعالى، فلما تبين لإبراهيم كفر أبيه تبرأ منه. ليكون جو السورة العام بين البراءة والتحذير والوعيد والإمهال والقتل والقتال والجهاد، يتخلل ذلك جو من الرحمة والتودد والسكينة والأمان والطمأنينة الناتجة عن توبة الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا لإتمام فضله وبيان سرِّ رحمته، وعلى الثلاثة الذين خلفوا، بل إن توبته جل في علاه سبقت توبتهم، قال الله تعالى: **ثُمَّ**

(١) النفاق من نفاق الدابة أي ماتت، والنفاق الخلف والكفر (للمؤمنين أمور غير محزنة***وللمنافق سرُّ دونه نفاق) أي سر يخرج منه إلى غير الإسلام، انظر: كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، ج/٤ ص/٢٥٢، دار الكتب العلمية، ط/١/٢٠٠٣م.

(٢) صحيح مسلم: ك/الإمارة، ب/ ذم من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، ج/٣، ص/١٥١٧، ح/١٩١٠. وسنن أبي داود ك/الجهاد، ب/ كراهية ترك الغزو، ص/٤٠٠، ح/٢٥٠٢. (صححه الألباني)

(٣) هو سيد قطب إبراهيم الشاذلي ولد سنة ١٩٠٦م حفظ القرآن صغيراً، نشط في مجال الأدب والسياسة، انتسب إلى الإخوان المسلمين ١٩٥٣، أكمل الظلال وهو في السجن أعدم سنة ١٩٦٦م، انظر كتاب سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، صلاح الخالدي، ص١٥-١٧.

(٤) في ظلال القرآن ج/٣، ص/١٦٧٤.

(٥) هو إسماعيل بن عمر بن كثير الحافظ أبو الفداء فقيه متقن ومحدث ومفسر ولد ببصرى الشام ٧٠١هـ له من أشهر مصنفاته البداية والنهاية وكتاب التفسير وغيرهما كثير توفي ٧٧٤هـ، انظر طبقات المفسرين للداوودي، ج/١، ص/١١١-١١٣.

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج/٢، ص/٤٠٨، دار الخیر/بيروت/ ط/٢/١٩٩١م.

(٧) في ظلال القرآن لسيد قطب: منقول: ج/٣، ص/١٧١٦.

تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ^(١). ليكون جو السورة بين البراءة والتوبة والجهاد في سبيل الله تعالى.

المطلب الثالث: سبب عدم ابتداء السورة بالبسملة:

المنتبغ للسور القرآنية يجد أنها قد افتتحت بعد البسملة، إما بحمد الله تعالى أو تسبيحه، أو بالحروف المقطعة يتبعها تعظيم الله تعالى أو بيان عظمة آياته، أو بيان وجه من وجوه الإعجاز، أو ببناء الملاطفة، أو قسم أو خبر للتذكير أو التنبيه أو الإخبار عن شيء أو غير ذلك^(١)، بخلاف سورة التوبة، التي لم تنزل بالبسملة، ولم تبدأ بما بدأت به غيرها وذلك للأسباب التالية:

أولاً: سبب توقيفي، فعن يزيد الفارسي^(٢) قال: سمعت ابن عباس قال: لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى براءة وهي من المثني، وإلى الأنفال وهي من المثاني، فجعلتموها في السبع الطوال ولم تكتبوا بينهما سطر "بسم الله الرحمن الرحيم" قال عثمان: كان النبي ﷺ مما تنزل عليه الآيات فيدعو بعض من كان يكتب له ويقول له: "ضع هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا"، وتنزل عليه الآية والآيتان فيقول مثل ذلك، وكانت الأنفال من أول ما نزل عليه بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها. فمن هناك وضعتهما في السبع الطوال، ولم أكتب بينهما سطر "بسم الله الرحمن الرحيم"^(٣).

ثانياً: حرمان المنافقين من الأمان والرحمة، (فعن محمد بن الحنفية^(٤)): قلت لأبي لم لم تكتبوا في براءة "بسم الله الرحمن الرحيم"؟ قال: "يا بني إن براءة نزلت بالسيف، وإن بسم الله الرحمن الرحيم أمان". وسئل سفيان بن عيينة عن هذا؟ فقال: "لأن البسملة رحمة، والرحمة أمان، وهذه نزلت في المنافقين"^(٥).

ثالثاً: ونقل عن قتادة^(٦)، قوله: هما سورة واحدة^(٧)، فهي سورة مستقلة عن الأنفال، وترك التسمية في هذه السورة لا مدخل لرأي أحد فيه، وإنما هو الوحي، وليس المقصود ههنا إلا إظهار صفة القهر الناتجة عن الوعيد والتهديد والعذاب، وهذا لا يتناسب مع آية الرحمة "البسملة"^(٨).

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ج/٣ ص/٢٦٧.

(٢) هو يزيد الفارسي المصري من الطبقة الرابعة روى عن ابن عباس انظر تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٦ ص/٢٣٥،

(٣) سنن الترمذي: ك/ تفسير القرآن ب/ ومن سورة التوبة، ص/٦٩١، ح/٣٠٨٦، قال عنه الترمذي: حسن صحيح برواية يزيد الفارسي وبرواية يزيد الرقاشي ضعيف لأنه لم يلتقي ابن عباس.

(٤) هو محمد بن علي بن أبي طالب ابن الحنفية وهي خولة بنت جعفر من الموالي، من أسند الناس عن علي، تابعي ثقة، صالح ولد في خلافة أبي بكر واختلف في وفاته، تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني: ج/٥ ص/٢٢٧-٢٢٨.

(٥) نظرات في كتاب الله لحسن البنا: ص/٢٢٤-٢٢٥، دار النشر والتوزيع الإسلامية، القاهرة ط/٢٠٠٢م. بتصرف

(٦) هو قتادة بن دعامة بن قتادة أبو الخطاب السدوسي روى عن جمع من الصحابة وعن بعض التابعين حافظاً ومفسراً وفقياً، انظر تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٤ ص/٥٤٠-٥٤٣.

(٧) زاد المسير لابن الجوزي ص/٥٦٥ دار ابن حزم/ بيروت ط/٢٠٠٢م. بتصرف.

(٨) المقتطف من عيون التفسير لمصطفى المنصوري، ج/٢، ص/٣٦١ باختصار، دار الشامية/ بيروت، ط/١٩٩٦م.

رابعاً: من خلال سورة التوبة وهي من آخر ما نزل من القرآن الكريم، حضَّ الله جل في علاه على القتال والجهاد أيما حضَّ فيها فكان قوله: {فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} (التوبة:٥)، وبين محاسن الجهاد في أولها، فقال: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (التوبة:١٤)، وشجَّع على قتال كافة المشركين كما يفعلون، فقال: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} (التوبة:٣٦)، وبين عاقبة التخاذل وعدم النفير، فقال: {إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (التوبة:٣٩)، وقوله: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (التوبة:٤١)(١)، فسورة التوبة تمثل الحرب الضروس من أولها لآخرها على المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، ومعلوم أن "بسم الله الرحمن الرحيم" فيها البركة والرحمة والأمان، والموقف الجهادي لا يتطلب رحمةً على الكافرين والمنافقين.

خامساً: أراد الله أن يحرم المنافقين من هذه البركة الذين خذلوا رسول الله ﷺ في مواقف كثيرة، فلا أمان لهم، ولا رحمة أو بركة؛ بل البراءة منهم هو العنوان.

سادساً: بما أن البسمة هي وصال البركة، وصمام الأمان، ومعيار الطمأنينة، ومفتاح الخير، وآية الوصل والربط بين كل سورتين وموضوعين، والفاصلة بينهما، بالتالي حرّمهم الله من الوصل بين خيرين لأنهم لا يسعون إليه ولا يحبونه، فهم حاجز عن كل خير، مانع لكل صلح، ساعين لوصال الكافرين، قاطعين كل رابط خيّرٍ مع المؤمنين، يوالون الكفار ويعادون المؤمنين، فمن ينظر إلى المنافقين اليوم، كيف يأترون بأمر الكافرين ويمتثلون أمرهم؟ يجد الصورة واضحة فيهم، فهم الفاصل بين خيرين، فلا إصلاح يرغبون وشرا يريدون، وبالواقعة بين المسلمين يسعون، قطع الله بهم كل مرصد، ولم يفصلهم عن شرهم، لأنهم حصنوا به أنفسهم، فانطبق عليهم قول الله تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} (الأعراف:١٤٦)، فلا يستحقون رحمة، إلا أن يتوب الله عليهم برحمةٍ منه وفضل، فيعودوا ويستغفروا ويتوبوا.

كما تراهم في حالة اضطراب دائم وقلق مستمر، فلا يدركون طمأنينة ولا طعماً لراحة، دائمى الضجر والخوف، حرّمهم الله الأمن والأمان، قال الله تعالى: {يَحْسَبُونَ كُلَّ

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، ص/ ٦٢ اقتباس، دار الكتب العلمية/بيروت، ط/٢٠٠٣م.

صِيحَةً عَلَيْهِمْ هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرَهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} (المنافقون: ٤)، فَحُرِّمُوا الْبِرْكَةَ، فكم من منافق اندثرت حياته بموته، أو في حياته قهراً، فأذهبُ الله خيره وخبره، وكثيراً أنكره وورثته، فكم جَمَعُوا وَجَمَعُوا، وكيف أصبحوا مثلاً وعبراً لغيرهم، قال الله تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} (الأنعام: ١١).

المطلب الرابع: أول ما نزل وآخر ما نزل من السورة:

اختلف العلماء في أول ما نزل من (براءة)، على ثلاثة أقوال:

أحدهما: أن أول ما نزل منها قوله تعالى: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ} (التوبة: ٢٥)، قاله ابن جريج^(١)، عن مجاهد^(٢)،^(٣).

والثاني: قوله: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا} (التوبة: ٤١)، قاله أبو الضحى^(٤)، وأبو مالك^(٥).

والثالث: {إِنَّا تَصَوَّرُوهُ} (التوبة: ٤٠)، قاله مقاتل، وإنما الخلاف كما ذكر ابن الجوزي في تفسير زاد المسير، إنما هو في أول ما نزل منها بالمدينة، فإنهم قد قالوا: نزلت الآيتان اللتان في آخرها بمكة، ولذا فهي مدنية بالإجماع سوى الآيتين اللتين في آخرهما: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} (التوبة: ١٢٨)^(٦).

لذا فسورة التوبة من آخر السور القرآنية نزولاً، كما ذكر البخاري في صحيحه عن أبي إسحق، قال: سمعت البراء رضي الله عنه يقول: آخر آية نزلت {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِكُمْ فِي الْكَلَالَةِ} (النساء: ١٧٦)، وآخر سورة نزلت براءة^(٧)، وروي عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها سورة المائة، وفي رواية ثالثة أنها سورة النصر، وأولى هذه الأقوال بالقبول كما ذكر فضيلة الدكتور فضل حسين عباس: أن آخر سورة تامة هي سورة النصر، وأن سورة التوبة فقد نزل أكثرها في غزوة تبوك، وكانت في السنة التاسعة من الهجرة، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم انتقل إلى الرفيق الأعلى في بداية السنة الحادية عشرة^(٨). وبالتالي فإن نزول السورة قبل غزوة تبوك وخلالها وبعدها يبين أموراً جساماً وهامة لا بد من التطرق إليها:

أولاً: الخوف الذي ساور المسلمين من أخبار تترامى إليهم باستعداد الروم لمعركة حاسمة ضدهم، فلا يسمعون صوتاً غير معتاد إلا ويظنونهم زحف الروم عليهم، يقول عمر بن

(١) الفقيه هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج مات سنة ٢١٣ هـ - تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٣، ص/٥٠٤.

(٢) مجاهد بن موسى بن فروخ الخوارزمي أبو علي نزيل بغداد، ثقة ولد ٥٨ هـ ومات ١٤٤ هـ. تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٣، ص/٣٧٥.

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج/٢، ص/٣٧٩.

(٤) هو مسلم بن صبيح الهمداني الكوفي العطار ثقة مات سنة ١٠٠ هـ انظر تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٥، ص/٤٣٠.

(٥) هو سعد بن طارق بن أشيم الأشجعي أبو مالك الكوفي وثقه الكثير من أهل الحديث، مات سنة ١٤٠ هـ. انظر تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٢، ص/٢٧٧.

(٦) زاد المسير لابن الجوزي: ص/٥٦٥. والقرطبي، ج/٥، ص/١٤٧.

(٧) صحيح البخاري: ك/التفسير، ب/براءة من الله ورسوله.. ج/٣، ص/٩٣٢، ح/٤٦٥٤، دار البيان العربي/القاهرة، ط/١/٢٠٠٥ م.

(٨) إتيان البرهان في علوم القرآن د. فضل عباس: ج/١، ص/١٨٥، بتصرف دار الفرقان/عمان ط/١/١٩٩٧ م.

الخطاب ﷺ (وكان لي من صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت آتية أنا بالخبر ونحن نتخوف ملكا من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب، فقال: افتح، افتح، فقلت: جاء الغساني؟ فقال بل أشد من ذلك اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه..^(١)). يبين هذا خطورة الموقف الذي يعيشه المسلمون. حيث ظن عمر ﷺ أن الخبر الذي جاء به صاحبه، هو خطر الغساني، الذي شغل فكرهم بسبب تحالفهم مع الروم.

ثانيا: كان المنافقون يتربصون بالمؤمنين الدوائر، بعد أن رأوا نجم رسول الله ﷺ يسطع في كل الميادين، دون عوائق تذكر، فطفق هؤلاء يأملون في تحقيق حقدهم المكنون في صدورهم، من خلال غزو الروم المتوقع للمسلمين، فاستمروا في مؤامراتهم المتمثلة ببناء مسجد الضرار الذي بنوه ريبة وكفرا وتفريقا بين المؤمنين، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلي فيه، سعيا لخداع المؤمنين، في محاولتهم إخفاء مراميهم وديسائسهم، بعد أن ظنوا قرب تحقق آمالهم، فيما لو نجح الروم في غزوهم، لكن النبي الكريم ﷺ أصر الصلاة فيه — إلى قفوله من الغزوة — لشغله بالجهاز^(٢)، فتأجل افتتاحه حتى يعود، وفي الطريق نزل قرآن يفضحهم، حتى أمر الرسول ﷺ بهدم المسجد بعد القبول من الغزو بدل أن يصلي فيه^(٣).

ثالثا: تناهى إلى مسامع المسلمين أن مقدمة جيش الروم بلغت البلقاء^(٤) بعد أن هيا هرقل جيشا عرمرما قوامه أربعون ألف مقاتل بقيادة أحد عظمائهم، ومعهم بعض متنصرة العرب من لخم وجذام وغيرهما^(٥).

رابعا: كان الفصل قيظا، والناس في عسر وجذب، وقلة من الظهر، وقد طابت الثمار والمقام في ظللها، والمسافة بعيدة والطريق وعرة، فاستنفر الرسول ﷺ صحابته وأهل القرى المجاورة أن يتجهزوا للقتال وهم بهذا الحال، وأعلمهم بالوجهة التي يريد، بخلاف ما سبق من الغزوات حيث كان يكتفي بغيرها ويعرض، فجلى للناس أمرهم، ليتأهبوا تمام الأهبة^(٦).

ليدرك الجميع خطورة المرحلة، وأن المقام في الدنيا إنما هو عبورٌ للأخرة، فنزل جزء من السورة تستحث المؤمنين على الجهاد، وترغب فيه وفي إنفاق الصدقات، فتسابق المؤمنون لامتنال أمر الله تعالى، ولنداء رسول الله ﷺ، فما تخلف منهم أحد، إلا من كان في قلبه مرض، والثلاثة الذين خلفوا، وأصحاب الفاقة الذين لا يجدون ما ينفقون.

(١) صحيح البخاري: ك/التفسير، ب/ (تبتغي مرضاة أزواجك) ج/٣ ص/١٠٠٨ ج/٤٩١٣.

(٢) جهاز بالفتح والكسر، وهو جهاز المسافر، وجهاز الراحلة، لسان اللسان لابن منظور: ج/١، ص/٢١٢، ما أعده ﷺ استعدادا للغزو.

(٣) الرحيق المختوم للمباركفوري: ص/٣٦٩ باختصار. دار الوفاء / المنصورة، ط/٢٠٠٤م.

(٤) من أعمال دمشق من الشام ووادي القرى وقصبتها عمّان، انظر معجم البلدان لياقوت الحموي: ج/١، ص/٥٧٩-٥٨٠ باختصار.

(٥) الرحيق المختوم للمباركفوري: ص/٣٦٩.

(٦) السيرة النبوية لابن هشام ج/٢، ص/٥١٦،

لقد كانت الجاهلية تُلَفِّظ أنفاسها الأخيرة بعد غزوة حنين، وأصحاب القلوب المريضة يرجفون في المدينة، وخاصة أن أخبار الروم بدأت تزحف نحو المسلمين، والحال جدا صعب، فلا بد من أن يأخذ القائد الأعلى ﷺ قراره الحاسم في التصدي لكل ذلك، ليقضي على ما تبقى من جاهلية في نفوس أهلها، ويقطع دابر المجرمين، ويلجم المنافقين، ويشد همم المؤمنين بتقوية عزائمهم، في مواجهة تحالف الثلاث: (المنافقون واليهود والصليبيون)، حيث كانوا يخططون لاستباحة بيضة المسلمين، ووأد خضرائهم، وإضاعة هيبتهم ومكانتهم. فالكفار في كل زمان ومكان يجمعون جموعهم ويشددوا حصارهم على أهل الإيمان، بانتظار ضربتهم المواتية لذلك كان لزاما على أهل الإيمان أن يأخذوا حذرهم ليكونوا على أهبة الاستعداد للجم المنافقين، مع عدم تناسي العدو الخارجي.

المطلب الخامس: سبب ومكان نزول السورة:

ذكر ابن الجوزي في سبب نزولها: (أخذت العرب تتقض عهودا بنتها مع رسول الله ﷺ فأمره الله تعالى بإلقاء عهودهم إليهم، فأُنزل {براءة} في سنة تسع، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم ليقوم للناس الحج في تلك السنة، وبعث معه صدراً من {براءة} ليقراها على أهل الموسم، فلما سار دعا رسول الله ﷺ علياً، فقال: {أخرج بهذه القصة من صدر {براءة} وأذن في الناس بذلك} فخرج عليٌّ على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر، فرجع أبو بكر فقال: يا رسول الله، أنزل في شأني شيء؟ قال: لا، ولكن لا يبلغ عني إلا رجل مني، أما ترضى أنك كنت صاحبي في الغار، وأنت صاحبي على الحوض؟ قال: بلى يا رسول الله. فسار أبو بكر أميراً على الحج، وسار علي ليؤذن ب{براءة} (١).

السورة مدنية باتفاق، ذكر السيوطي (٢) أنها مدنية (٣)، ومنها ما نزل في طريق عودته ﷺ، وقيل غير ذلك، منها: {وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ...} (التوبة: ٣٤)، نزلت في بعض أسفاره، ومنها: {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا} (التوبة: ٤٢)، نزلت في غزوة تبوك، ومنها: {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ...} (التوبة: ٦٥)، نزلت في غزوة تبوك، ومنها قوله: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا...} (التوبة: ١١٣)، نزلت لما خرج معتمراً، هبط من ثنية عسفان (٤).

(١) زاد المسير لابن الجوزي ص/٥٦٦

(٢) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي انظر ص/١٣٩-١٥٤ مكتبة الصفا القاهرة ط/١/٢٠٠٢ م.

(٣) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي: ج/١، ٥٤.

(٤) المصدر السابق: ص/٨٠.

أسباب نزول بعض آيات البراءة منها:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه (٥) قال كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل: ما بالي لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: ما بالي أن أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل. فزجرهم عمر. وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيه فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله عز وجل: **{أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}** (التوبة: ١٩) إلى آخرها (١).

لم يشفع للمشركين عمارتهم للمسجد الحرام وخدمة الحجيج أن يتقدموا على المؤمنين المسلمين، (لأن ميزان التفاضل عند الله تعالى قائم على الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، كما أن الحديث يبين عظم فضل الجهاد ومكانته المقدمة على أي عمل لا يكون لله خالصاً كعمارة البيت الحرام، وخدمة الحجيج، لأن عمارة المسجد الحرام دون إخلاص لله تعالى يعتبر فاسداً) (٢).

سبب نزول قوله تعالى: **{وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضًا وَإِنْ لَّمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ}** (التوبة: ٥٨)، سبب نزول الآية، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم قسماً إذ جاءه ذو الخويصرة، فقال اعدل، فقال: (وبيك من يعدل إن لم أعدل) (٣).

يفضح الله نوعاً آخر من المنافقين ببيان قبح أقوالهم وأفعالهم، وخاصة في طعنهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الفخر الرازي (٤): (اعلم أن المقصود من هذا شرح نوع آخر من قبائحهم وفضائحهم، وهو طعنهم في الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب أخذ الصدقات من الأغنياء ويقولون: إنه يؤثر بها من يشاء من أقاربه وأهل مودته وينسبونه إلى أنه لا يراعي العدل) (٥) بأسلوب اللمز (٦).

وفي سبب نزول قوله تعالى: **{الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** (التوبة: ٧٩)، فعن أبي مسعود (٧) قال: لما نزلت آية الصدقة، كنا نحامل، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا:

(٥) هو الصحابي الجليل النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري الخزرجي خاله عبد الله بن رواحة ولد ٢ هـ وهو أول مولود من الأنصار قتل سنة ٦٥ وقيل ٦٦ هـ انظر تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٥ ص/٦٢٨-٦٢٩.

(١) صحيح مسلم: ك/الإمارة، ب/فضل الشهادة، ج/٣، ص/١٤٩٩، ح/١٨٧٩.

(٢) في ظلال القرآن ج/٣، ص/١٦١٣-١٦١٤ باختصار وتصريف.

(٣) لباب النقول في أسباب النزول، لعبد الرحمن السيوطي: مكتبة الصفا/القاهرة، ط/٢٠٠٢م، ص/١٤٤.

(٤) هو محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي فخر الدين أبو عبد الله القرشي البكري التيمي الرازي العالم والمصنف الكبير ولد ٥٤٤ هـ، ووفاته ٦٠٦ هـ، طبقات المفسرين ج/٢، ص/٢١٥-٢١٨.

(٥) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٦، ص/٩٧.

(٦) اللمز كالهزم هو العيب، وأصله الإشارة بالعين، المختار الصحاح للرازي: ص/٢٥٢ وص/٢٩١.

(٧) هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري البديري، شهد العقبة، مات ٤٠ هـ، تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٤، ص/١٥٧.

مرائي، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزل: { الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ... (الآية) (التوبة: ٧٩) (٨) .

صورة أخرى من صورهم القبيحة بعد أن طعنوا برسول الله ﷺ، ها هم يطعنون بالمؤمنين ويلمزونهم في صدقاتهم، فتارة يطعنون في الأغنياء: أنهم من أهل الرياء، وتارة يسخرون من الذين لا يجدون إلا جهدهم من الفقراء، سخر الله منهم (٩).
يبين هذا التصرف القبيح من المنافقين، أن وقت نزول هذه الآيات كان قبل الغزوة، نظرا لأن صدقات المؤمنين كانت قبل غزوة تبوك استعدادا للجهاد والغزو.

وفي قوله تعالى: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} (التوبة: ٨٤) (١٠)، سبب نزول الآية: عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبيّ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه، فقام ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله أتصلي عليه؟ وقد نهاك ربك أن تصلي عليه، فقال رسول الله ﷺ: إنما خيرني الله فقال: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً} (التوبة: ٨٠)، وسأزيد على السبعين" ، فقال إنه منافق، قال: فصلى عليه، فأنزل الله: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ} (التوبة: ٨٤) (١١).

هذه الآية الكريمة نزلت بعد قفول رسول الله ﷺ من الغزوة وخاصة أن وفاة رأس المنافقين عبد الله بن سلول كانت بعد الغزوة (١٢)، وبناء على طلب ابنه بتكفين والده بقميص رسول الله ﷺ ويستغفر له ففعل، فنزلت الآيات تنهاه أن يستغفر للمنافقين معلومي النفاق.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} (التوبة: ١٠٧) (١٣)، وسبب هذه الآية، عن ابن عباس ؓ قال: (أن أناسا من الأنصار اابتنوا مسجدا فقال لهم أبو عامر (١٤) : اابتنوا مسجدكم واستمدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فأتي بجند فأخرج محمدا وأصحابه فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا له : لقد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه فأنزل الله: {لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ} (التوبة: ١٠٨) (١٥). وعن أبي هريرة ؓ قال:

(٨) صحيح البخاري: ك/الزكاة، ب/اتقوا النار ولو بشق تمره، ج/١، ص/٢٧٧، ح/١٤١٥. لباب النقول للسيوطي: ص/١٤٦-١٤٧.

(٩) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٦، ص/١٤٥.

(١٠) صحيح البخاري: ك/التفسير، ب/{استغفر لهم أو لا تستغفر لهم..} ج/٣، ص/٩٣٥، ٤٦٧.

(١١) الرحيق المختوم للمباركفوري: ص/٣٧٦.

(١٢) واسمه عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان أحد بني ضُبَيْعَةَ، وكان يسمّى الراهب فسمّاه النبي الفاسق، وكان رأس الأوس في الجاهلية، انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية، ج/٢، ص/١٣٠، والسيرة النبوية لابن هشام: ج/٢، ص/٦٧.

(١٣) لباب النقول للسيوطي: ص/١٥١.

نزلت في أهل قباء **{فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ}** (التوبة: ١٠٨)، قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم^(٥).

هذه الآية الكريمة نزلت أثناء الغزوة، وذلك أن المنافقين بنوه قبل غزوة تبوك، وأنه ﷺ أجل الصلاة فيه إلى حين عودته من الغزو، فنزل قول الله تعالى يمنعه من الصلاة فيه، فبمجرد وصوله ﷺ المدينة أرسل من ينقض أركانه ويهدّ بنيانه. ذكر السيوطي من أسباب النزول، (فلما رجع نزل بذي أوان على ساعة من المدينة، فأنزل الله في المسجد: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا} إلى آخر القصة، فدعا مالك بن الدخشن، ومعن بن عدي أو أخاه عاصم بن عدي، فقال: "انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وأحرقاه" ففعلا^(١)).

وقوله تعالى: **{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}** (التوبة: ١١٣)، وسبب نزول هذه الآية من طريق سعيد بن نسيب عن أبيه (قال: لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال النبي ﷺ: أي عم قل لا إله إلا الله أحاجُّ لك بها عند الله فقال أبو جهل و عبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فقال النبي ﷺ لأستغفرن لك ما لم أنه عنك) فنزلت: **{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}** (التوبة: ١١٣)^(٢).

ظاهر هذه الآية تقول أن نزولها كان في مكة، لكن لما بين الله تعالى من أول السورة وجوب إظهار البراءة عن الكفار والمنافقين من جميع الوجوه، بين في هذه الآية أنه تجب البراءة عن أمواتهم، وإن كانوا في غاية القرب كالأب والأم، كما أوجبت البراءة عن أحيائهم^(٣). وقوله تعالى: **{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}** (التوبة: ١١٧)، وسبب نزولها ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن قصة تبوك، (فوالله ما أعلم أحداً أبلاه الله في صدق الحديث مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وأنزل الله عزَّ وجل على رسوله ﷺ **{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ}** (التوبة: ١١٧)، إلى قوله: **{وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}** (التوبة: ١١٩)^(٤)).

إن خاتمة السورة نزلت بالتوبة على الثلاثة الذين خلفوا وصدقوا في توبتهم بعد الرجوع من غزوة تبوك بخمسين ليلة، إلا الآيتين الأخيرتين، فهما مكيتان باتفاق العلماء.

(٥) الترمذي: ك/ القراءات، ب/ ومن سورة التوبة، ص/ ٦٩٥، ح/ ٣١٠٠. (صحيح)

(١) لباب النقول للسيوطي: ص/ ١٥٠-١٥١.

(٢) صحيح البخاري، ك/ التفسير، ب/ {ما كان للنبي والذين آمنوا..} ج/ ٣، ص/ ٩٣٦-٩٣٧. ح/ ٤٦٧٥.

(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/ ١٦، ص/ ٢٠٨. يتصرف.

(٤) صحيح البخاري، ك/ التفسير، ب/ {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين}، ج/ ٣، ص/ ٩٣٨، ح/ ٤٦٧٨.

المبحث الثاني

المناسبات في السورة

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: معنى المناسبة لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: فوائد معرفة المناسبة.

المطلب الثالث: مناسبة السورة لما قبلها "سورة الأنفال".

المطلب الرابع: مناسبة السورة لما بعدها "سورة يونس".

المطلب الخامس: مناسبة أول السورة بآخرها.

المطلب الأول: معنى المناسبة لغة واصطلاحاً

المناسبة لغة:

قال ابن فارس^(١) في معجم مقاييس اللغة: (النون ، والسين ، والباء ، كلمة واحدة ، قياسها اتصال شيء بشيء ، منه النَّسَب ، سمي لاتصاله ، وللاتصال به تقول : نَسَبْتُ أَنْسَبَ . وهو نَسِيبُ فلان . والنسيب : الطريق المستقيم ، لاتصال بعضه من بعض^(٢) .

وفي لسان العرب: (وتقول: ليس بينهما مُنَاسَبَةٌ، أي: مُشَاكَلَةٌ)^(٣) ، ومعلوم أن المشاكلة بمعنى المماثلة، فنقول هذا شكل فلان، أي مثيله.

فالمناسبة لغة تعني: الاتصال ، والمقاربة ، والمماثلة.

والمناسبة في الاصطلاح:

عرفها الشيخ مناع القطان^(٤) رحمه الله تعالى، فقال هي: (وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة)^(٥). ويقول البقاعي رحمه الله تعالى: (علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال، وتتوقف الإجابة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها. ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها)^(٦).

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

إنَّ توافق المعنى اللغوي والاصطلاحي للمناسبة يبين مدى التقارب والارتباط والتواءم بين الآيات والسور، مع ملاحظة خطورة لِيْ أعناق الآيات للوصول إلى معرفة المناسبة. لأن إدراك المناسبة يتطلب سعة اطلاع، وإمعان نظر، وحُسن تدبير، ويختلف المفسرون في التعرف على المناسبة كل حسب تسابق فهمه وحسن إدراكه.

لذا أرى أن مفهوم المناسبة ومعناه يتطلب:

قدرة على حسن الفهم والإدراك لوجه ارتباط الآيات بعضها ببعض، والسور، للتعرف على مزيد من المعاني المنبثقة من حسن انتظامها وتسلسلها، مع بيان جمال سياقها، وبيان جمال اتحاد معانيها، ويكون ذلك عن طريق تدبير الآيات والمعاشية مع القرآن الكريم.

(١) هو أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين اللغوي، له تصانيف في التفسير والسيرة وأخلاق وأسماء النبي ﷺ كتاب فقه اللغة وغيرها وفاته ٣٩٥هـ انظر طبقات المفسرين للسيوطي: ١٥-١٦ ، وطبقات المفسرين للداوودي: ج/١، ص/ ٦٠-٦١

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ج/٥، ص/٤٢٣-٤٢٤ دار الجيل/بيروت .

(٣) لسان العرب لابن منظور: ج/١٤ ص/ ١١٩ .

(٤) مناع خليل القطان ولد بالمنوفية بمصر ١٩٢٥م حفظ القرآن صغيراً التحق بجامعة الأخوان المسلمين جاهد في فلسطين، سجن ، تنقل في العمل في بعض البلاد العربية مات ١٩٩٩م ودفن بالرياض انظر مجلة المجتمع رقم العدد ١٦٩٥، بتاريخ ١/٤/٢٠٠٦م.

(٥) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان: ص/٩٢ ، مطبعة المدني/ القاهرة ط/١٠/١٩٩٧م .

(٦) نظم الدرر للبقاعي: ج/١ ص/٥ .

المطلب الثاني: فوائد معرفة المناسبة:

يقول الشيخ البقاعي في مقدمة تفسيره (نظم الدرر) عن علم المناسبة، ثمرته وأهميته وعلاقته بالتفسير: (تتوقف الإجابة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها؛ فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبتته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو)^(١).

إن أوجه المناسبة بين الآيات والسور، يرجع إلى رابطتين أساسيين، أحدهما: لفظي واضح الدلالة، والآخر: معنوي يظهر من خلال السياق، فالتناسق بين المفردات اللفظية والآيات والسور، يغني في مواطن كثيرة عن التماس أسباب النزول، كما أن انسجام المعاني يغني عن التماس الوقائع التاريخية في مواضع كثيرة، فبدأت السور والآيات بتناسقها وتناسبها، كدرر غاية في الجمال، مما شجع الكثير من الباحثين والعلماء على الاهتمام والبحث في فن المناسبات. ومعرفتها، والوقوف على أسرار الإعجاز فيها، فتمكنوا بفضل الله تعالى وبِعونه من اقتناص بعض أسراره الجليلة، ارتكزت في كنهها على مناسبات وعلاقات عديدة بين السور والآيات والكلمات والحروف في القرآن الحكيم^(٢).

إن الناظر في هذه البحوث المستجدة، يلاحظ أنها أضفت أبعاداً فنية رائعة إلى الروابط والعلاقات بين مكونات القرآن الحكيم، وجلت نماذج عجيبة تشترك فيها خيوط النسج القرآني وفق موازين عددية، داخلية وخارجية، لتحقق أداة ترابطية، يتماسك النص من خلالها بصورة مطلقة، ولتوحي بأن هذا الكتاب العظيم أنزله العليم الحكيم على قلب رسولنا الكريم ﷺ.

إذا كان لمعرفة سبب النزول أثر في فهم المعنى وتفسير الآية، فإن معرفة المناسبة بين الآيات تساعد على حسن التأويل ودقة الفهم كذلك، وإدراك اتساق المعاني بين الآيات والوصول إلى ترابط أفكارها وتواءم ألفاظها، توصلنا إلى مدارك جديدة إن أحسنا النظر وأطلنا التدبر في الدروس المتعددة والمواعظ في الأحكام والأخلاق والقصص القرآني وآيات العقيدة وغيرها من مقاصد القرآن، لذلك نقل الإمام السيوطي قاعدة جليلة لبعض المتأخرين في ذلك فقال: (الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبة الآيات في جميع القرآن هو أنك تنتظر الغرض الذي سيقف له السورة، وتنتظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنتظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد المطلوب، وتنتظر عند انجرار الكلام في مقدمات إلى ما تستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها؛ فهذا الأمر الكلي المعين على حكم

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج ١/ ص ٥/ .

(٢) انظر: <http://www.alargam.com/prove2/burhan/13.htm> القول ليدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ٦٢/١ نقلا عن القاضي ابو بكر بن العربي باختصار وتصرف

الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا فعلته بين لك وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة وسورة^(١).

فالقرآن يبيث هذه المعاني من خلال المقاصد والأهداف الموزعة بين ثنايا الآيات ومن خلال السور، فلو اجتمع كل نوع على حدة، دون الارتباط الخفي بالمناسبة بين الآيات والسور، لفقد القرآن خاصيته وأعظم مزايا هدايته المقصودة، كما أن تنسيقه البديع يصل به إلى حد الذروة في الإعجاز البلاغي، والإحكام البياني وروعة الأسلوب، {الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} (هود:١).

يقول الإمام الزركشي^(٢): واعلم أن المناسبة علم شريف تحرز بها العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول، وفائدته: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء^(٣).

ويقول الإمام البقاعي: علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال^(٤).

ومن هذه الفوائد:

- نستطيع من خلال وجوه المناسبات المختلفة من تحديد بعض الأهداف والمقاصد القرآنية الخفية^(٥).
- يعين على فهم الآيات وحسن تأويل القرآن الكريم، وتحديد المراد منها، فعند معرفة المناسبة بين أول السورة وآخرها، ندرك خطورة التولي والإعراض عن أمر الله وأن إعراضهم وتوليهم لا يضر إلا من تولى، كما وندرك حقيقة عدم إعجازهم الله في شيء، قال الله تعالى: {وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} (التوبة:٣)، وقوله تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} (التوبة:١٢٩)^(٦).
- يبرز جانباً من جوانب إعجاز القرآن الكريم^(٧)، ليظهر الإعجاز البلاغي بأبهى صورته، وتمام بنيانه، ففي قوله تعالى: {بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ} (التوبة:١)، نجد أن وجه الصلة والمناسبة بين أول الآية {بِرَاءةٍ} الله جل في علاه، وبراءة رسوله ﷺ وبين آخر الآية {إِلَى الَّذِينَ} الْمُعَاهِدِينَ الَّذِينَ نقضوا عهودهم في التالي:

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي: ج/١ ص/٤٩ .
 (٢) هو محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي العلامة المصنف بدر الدين المصري المولد ٧٤٥ نشأ وارتحل في طلب العلم الفقيه الأصولي المفسر، له تصانيف كثيرة مات ٨٥٢ هـ، طبقات المفسرين للداودي: ص/١٦٢-١٦٣ .
 (٣) البرهان في علوم القرآن الزركشي: ج/١ ص/٦١-٦٢، باختصار .
 (٤) نظم الدرر للبقاعي: ج / ١، ص / ٥ .
 (٥) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي: ج/٤، ص/٢٨٤ بتصرف .
 (٦) المصدر السابق: ص/٢٨٥ .
 (٧) مباحث في التفسير الموضوعي د. مصطفى مسلم: ص/٩٠، دار القلم / دمشق، ط/٤/٢٠٠٥ م.

- ربط الله تعالى بين شدة إعلان البراءة وخطورة الشرك ونقض العهد.
- إنَّ تقديم براءة الله تعالى، على براءة رسوله ﷺ فيه توجيه رباني وأثار تربوية.
- براءة الرسول ﷺ بيان لسرعة الامتثال لأمر الله وخاصة البراءة من المشركين.
- إن البراءة من المُعَاهِدِينَ الذين نقضوا عهودهم، تحذيرٌ لغير المعاهدين.
- إن المناسبة بين آيات السورة الواحدة، تُظهِرُهَا كبناءً محكم متآلف متلائم الأجزاء^(١).
- إن اتساق المعاني يبعد روح السامة والملل عن نفس القارئ والسامع^(٢)، مع تجديد النشاط بتعدد المنهج واختلاف الأسلوب، فأسلوب القرآن الجامع بين الفنون المتعددة في السورة الواحدة، والتناسق البديع يظهر حد الذروة القصوى في الإعجاز البلاغي والإحكام البياني.
- إن وجه المناسبة قد (يكون تأكيداً لجملة ما قبلها، أو بياناً، أو تفسيراً، أو اعتراضاً تذييلياً، ولهذا أمثلة كثيرة. فيزداد الفهم)^(٣)، ويُزَالُ الشك المترتب على عدم فهمه.
- يفيد في معرفة بعض أسرار التشريع وإدراك مدى التلازم التام بين أحكام الشريعة؛ قال الله تعالى: **{قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}** (النور: ٣٠)، فالرابط والمناسبة بين الأمر بغض البصر وحفظ الفرج، وما بينهما من التلازم والتلاؤم؛ يعلمنا أن حفظ الفرج لا يتم إلا بغض البصر، ومن أطلق بصره في الحرام كان أقرب إلى الفاحشة؛ لذا قدم الغض على الحفظ لأنه من دواعيه^(٤).
- يظهر سر تكرار سرد القصص القرآني في مواطن متعددة، لمناسبتها لذلك الموطن، فالاختلاف في ترتيب القصة ونظمها يأتي حسب المناسبة وإن كانت متحدة في أصل المعنى^(٥).
- إن أهمية إدراك المناسبات بين مقاطع السورة وافتتاحيتها وخاتمتها يعين على فهم السورة وتفسيرها تفسيراً موضوعياً، وتلقي أضواء كاشفة على محورها وأهدافها ومقاصدها^(٦).

(١) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان: ص/٩٢، مكتبة وهبة/ القاهرة، ط/١٠/١٩٩٧م.

(٢) المصدر السابق: ص/٩٢.

(٣) المصدر السابق: ص/٩٣.

(٤) روائع البيان تفسير آيات الأحكام للصابوني: ج/٢، ص/١٥١-١٥٢ بتصرف، مؤسسة مناهل العرفان/بيروت، ط/٣/١٩٨٠م.

(٥) نظم الدرر للبقاعي: ج/١ ص/١٣ بتصرف.

(٦) مباحث في التفسير الموضوعي د. مصطفى مسلم: ص/٩٠-٩١ باختصار دار القلم/دمشق، ط/٤/٢٠٠٥م.

المطلب الثالث: مناسبة السورة لما قبلها "سورة الأنفال":

إن وجه الصلة والترابط بين سورتي الأنفال والتوبة، جعل بعض الصحابة يظنون أنهما سورة واحدة، فقد تناولتا الجهاد والغزوات والمنافقين، لذلك يقول محمد رشيد رضا^(١) (فهي كالمتمة لسورة الأنفال في معظم ما فيها من أصول الدين وفروعه والسنن الإلهية والتشريع)^(٢)، فسورة الأنفال في أغلبها تحذر من المشركين وتمهد للتبرؤ منهم وتدعو لذلك ممن يخشى نقضه للعهود، قال الله تعالى: **{فَأَمَّا تَتَقَفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ}** (الأنفال: ٥٧-٥٨)^(٣)، وجاءت التوبة من بدايتها تعلن البراءة من المشركين وترد عهدهم بسبب غدرهم. يقول البقاعي:

(ولما كانت مناسبة أولها - الداعي إلى البراءة ممن يخشى نقضه للعهد - لآخر الأنفال المبين لمن يصلح للولاية المختتم بشمول العلم... وقدمت الأنفال مع قصرها على براءة مع طولها واشتباها أمرها على الصحابة في كونها سورة مستقلة أو بعض السورة كما قدمت آل عمران مع قصرها على النساء... فكان ما ذكر من البراءة والتولي شرحاً لآخر الأنفال)^(٤). يقول ابن العربي^(٥): (هذا دليل على أن القياس أصل في الدين، ألا ترى إلى عثمان وأعيان الصحابة كيف لجؤوا إلى قياس الشبه عند عدم النص، ورأوا أن قصة (براءة) شبيهة بقصة (الأنفال) فألحقوها بها)^(٥).

من وجوه التناسب بين سورتي "الأنفال" و"التوبة":

- ذكر بعض صفات المشركين في "الأنفال"، أتبع في "التوبة" بعض صفات المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، من نقض للعهد، والتولي بعد العلم، وغيرها الكثير من الصفات التي اتسم بها المشركون والمنافقون، يقول البقاعي: وأن هذه الصفات ليست خاصة بالمخاطبين بل هي عامة لكل من اتصف بصفاتهم، فمدار خيانتهم على الوصف فقال: **{لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا} أي قرابة واصلاً جيداً ثابتاً، {وَلَا ذِمَّة} أي عهداً أكيداً^(٦).**
- جاء صدر سورة التوبة شارحاً ومفصلاً لآخر الأنفال وخاصة في قوله تعالى: **{وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ * وَلَا يَحْسَبَنَّ}**

(١) هو محمد رشيد بن علي رضا القلموني البغدادي، صاحب مجلة المنار، ولد ١٨٦٥م بقلمون/ لبنان، له عدة مؤلفات إضافة إلى التفسير الذي لم يكتمل، مات ١٩٣٥م. انظر: الموسوعة العربية: ج/٢٢، ص/٣٦٨-٣٦٩ باختصار، مؤسسة أعمال الموسوعة/ الرياض، ط/١٩٩٩م.

(٢) تفسير القرآن الحكيم (المنار) لمحمد رشيد رضا: ج/ ١٠ ص/ ١٤٧، دار المعرفة بيروت.

(٣) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٥٨، اقتباس وتصرف.

(٤) هو الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن العربي ولد بأشبيلية سنة ٤٦٨ هـ نشأ ببيت علم، وله الكثير من المؤلفات. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج/٣، ص/٤٢٣ باختصار.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي: ج/٢، ص/٨٨١.

(٦) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٧٦، بتصريف.

الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ } (الأنفال: ٥٨-٥٩). فالله لا يحب الخائنين، ومبعدون من رحمته؛ لأنهم كذبوا من صدقهم، وخانوا من أمتهم، وغدروا من عاهدتهم، ونقضوا العهد، فاستحقوا لواء الغدر يوم القيامة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لكل غادر لواء يوم القيامة)^(١)، ومن ينقض العهد ليس له إلا الحرب في الدنيا والآخرة، كما قال محمد رشيد رضا، في تفسيره لهذه الآية: (لأن نقض العهد يكون بالحرب أو ما يقتضيها ويستلزمها، وذلك من أنباء الغيب)^(٢)، فكان صدر سورة التوبة براءة الله منهم وإيدان بحربهم، وأنهم لا يعجزون الله في شيء، وسيسلط عليهم في ذلك أولياءه.

• تحدثت سورة الأنفال عن صد^(٣) المشركين عن المسجد الحرام، قال الله تعالى: {وَمَا لَهُمْ آلًا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَفَقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (الأنفال: ٣٤)، وفي التوبة تحدثت عن منع المشركين أن يعمرُوا مساجد الله نتيجة صدمهم عن البيت الحرام، يقول ابن كثير: (ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمرُوا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له، وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، وقال في التوبة: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} (التوبة: ١٨)، فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد)^(٤)، فكان المقصد من عمارة المساجد سلامتها من الشرك، وعمارتها بالإيمان.

• كان ختام سورة الأنفال أن وعد الله المؤمنين بالمغفرة، لأنهم يتصفون بالإيمان، وما يشملهم من أعمال عظيمة كالهجرة والجهاد في سبيل الله وما يصاحبهما من ولاء ونصرة للمؤمنين، وما أعد الله لهم من الرزق الكريم، قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} (الأنفال: ٧٤)، وفي ختام سورة التوبة يصف المؤمنين الصادقين الذين (أوقعوا الإيمان حقيقة لصحة أمزجة قلوبهم)^(٥)، فتزداد طاعتهم لله بسرعة امتثال أوامر الله تعالى، فيستبشرون بما غفر الله لهم وما أعد لهم من رزق كريم، قال الله تعالى: {وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} (التوبة: ١٢٤).

• تناولت سورة الأنفال موضوع الجهاد وبيان فضله على المجاهدين فيه، ودعوة العباد للجهاد لإحقاق الحق ودمغ الباطل، قال تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ

(١) صحيح البخاري: ك/الجزية والموادعة، ب/إثم الغادر للبر والفاجر، ج/٢، ص/٦٤٤، ح/٣١٨٧. وأخرجه مسلم: ح/١٧٣٧ وغيرهما.

(٢) تفسير القرآن الحكيم (المنار) لمحمد رشيد رضا: ج/١٠، ص/٥٠.

(٣) الصد من صد يصد ويصد بالضم والكسر وصدّه عن الأمر منعه وصرفه عنه، انظر المختار الصحاح للرازي: ص/١٥٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج/٢، ص/٣٧٥-٣٧٦ باختصار.

(٥) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٤٠٤.

وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ { (الأنفال: ٧-٨)، ليبين المقصد العظيم من الجهاد، لذلك حث عليه، فقال: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }** (الأنفال: ٢٤)، ليتبين أيضا أن الجهاد سبب أصيل في الحياة الكريمة العزيزة، يقول البقاعي: (أي ينقلكم بعز الإيمان والعلم عن حال الكفرة من الصم والبكم وعدم العقل الذي هو الموت المعنوي إلى الحياة المعنوية)^(١)، وفي سورة التوبة يأمر عباده المؤمنين بقتال الكافرين وجهادهم، لإبطال باطلهم ليعذبهم ويخزيهم، ويشف صدور المؤمنين وإحقاق الحق بانتصار المؤمنين عليهم، قال الله تعالى: **{ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ }** (التوبة: ٤)، ثم يبين المقصد الجهادي والأثر النفسي والتربوي على الكافرين، قال الله تعالى: **{ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }** (التوبة: ١٥). ويقول البقاعي أيضا: (أي يثبت بها من اللذة ضد ما لقوه منهم من المكروه، وينفي عنها من الألم بفعل من يريد سبحانه من أعدائهم وذل الباقين ما كان قد برح بها، ولقد وقى سبحانه بما وعد به، فكانت الآية من ظواهر الدلائل)^(٢). ليظهر التناسب البديع، والترابط الموضوعي بين السورتين ومقاصدهما.

• تناولت "الأنفال" الفتنة^(٣) أي البلاء والعذاب **{ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }** (الأنفال: ٢٥)، يقول البقاعي: (واتقوا فتنة) أي بلاء مميلا محيلا إن لا نتقوه يعمكم)^(٤)، وتناولت موضوع الفتنة بمعنى الشرك والكفر، قال الله تعالى: **{ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }** (الأنفال: ٣٩)، يقول الإمام ابن الجوزي في تفسير هذه الآية (وقوله تعالى: **{ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ }** أي: شرك. وقال الزجاج: حتى لا يفتن الناس فتنة كفر؛ ويدل عليه قوله تعالى: **{ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ }**)^(٥). وتناولت سورة التوبة الفتنة بمعنى البلاء، قال الله تعالى: **{ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ }** (التوبة: ٤٧)، يقول ابن عباس رضي الله عنه في: **{ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ }** يطلبون فيكم الشر والفساد والذلة والعيب^(٦). من هذه التفاسير اللغوية والموضوعية، خطورة الفتنة بتعدد معانيها المهلكة، ولذلك حذر الله تعالى منها، وحذر المؤمنين أن تكون مقصداً لهم من أي طريق لها.

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/ ٣، ص/ ٢٠١.

(٢) نظم الدرر للبقاعي: ج/ ٣، ص/ ٢٨٠.

(٣) بالكسر الخيرة والضلال والإثم والكفر والفضيحة والعذاب وإذابة الذهب والفضة، القاموس المحيط للفيروز أبادي: ج/ ٤، ص/ ٢٥٤.

(٤) نظم الدرر للبقاعي: ج/ ٣، ص/ ٢٠٤.

(٥) زاد المسير للإمام ابن الجوزي: ص/ ٥٥٣.

(٦) تنوير المقياس من تفسير ابن عباس: ص/ ١٥٨، دار الكتب العلمية/ بيروت، بدون طبعة.

- في "الأنفال" رغب تعالى بالإنفاق والصدقات فقال: **{الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}** (الأنفال: ٣)، وقال: **{وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ}** (الأنفال: ٦٠)، وفي "التوبة" تحدث عن فريضة الزكاة وحدد مصارفها الثمانية^(١)، فقال: **{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}** (التوبة: ٦٠).
- في "الأنفال" ذكّر العهود، وفي براءة نبذ العهود^(٢)، إلا إن الأنفال تناولت العهود بأن يأخذ المسلمون حذرهم في معاملة المشركين وعهودهم، فقال: **{الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ}** (الأنفال: ٥٦)، وأمر بنبذ عهودهم إذا ما لاحظ المسلمون خيانه، من المشركين، فقال: **{وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ}** (الأنفال: ٥٨)، وفي "التوبة" أمر بالوفاء الكامل من قبل المشركين بعهودهم وأن لا ينقصوا المسلمين شيئا، فقال: **{إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَوَلَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَوْ فَاتَمَّوْا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}** (التوبة: ٤)، ثم رد عهودهم إذا ما حالوا الإخلال بعهدهم، فقال تعالى: **{كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}** (التوبة: ٧)، إن التمهيد في "الأنفال" بغدر المشركين للبراءة منهم، ودعوته لهم بالتوبة في "التوبة"، ليبين لنا عظم التناسب بين السورتين وأهمية أحد المقاصد العظيمة في السورتين، العهود، يقول محمد رشيد رضا: (والمناسب منها لما هنا ما ورد في "الأنفال" من وجوب الوفاء بالعهد، وتحريم الخيانة)^(٣). هذا كله يظهر لنا حال أمتنا واستضعافها من قبل أعدائها وهم كثير، بسبب هوانها، وعشقها للذل والانكسار، وليقرأ المسلمون اليوم هذه الآيات ولينظروا كيف تستباح دماء المسلمين ليل نهار، فلا يَرْجُفْ لهم رمشٌ ولا تهتزُّ لهم شعرة، بل الوفاء من قِبَلِ مَنْ يَتَوَلَّوْنَ اليوم زمام الأمور في بلادنا، لأهل الغدر من المشركين وأهل الكتاب، بخلاف قول الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .
- في "الأنفال" تولى سبحانه وتعالى قسمة الغنائم، قال الله تعالى: **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}** (الأنفال: ١)، في وسط السورة بين كيفية تقسيمها، قال الله تعالى: **{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ**

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/١٠ ص/١٤٨، اقتباس واختصار.

(٢) الكشاف للزمخشري: ج/٢، ص/٢٧٥، مكتبة مصر/ القاهرة، بدون طبعة.

(٣) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/١٠، ص/١٨١ .

شَيْءٍ قَدِيرٍ» (الأَنْفَال:٤١)، وجعل فيها الخمس لله ولرسوله والفقراء والمساكين وأهل الاحتياجات، والباقي أربعة أخماسها للمجاهدين للراجل قسمة وللفارس قسمتان، لما له من تأثير في الحرب، ولأن فرسه له نفقة العلف^(١)، أما "التوبة" فتحدث الله فيها عن الصدقات (أي الزكوات الواجبة)^(٢) فجعلها ثمانية أصناف وكذلك في الحديث الشريف، فعن زياد بن الحارث الصدائي^(٣) قال: (أتيت رسول الله ﷺ فبايعته، فذكر حديثاً طويلاً قال: فأتاه رجل فقال: أعطني من الصدقة، فقال له رسول الله ﷺ: "إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات، حتى حكم فيها فجزأها ثمانية أجزاء. فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقاك)^(٤). ذكرت في فقه السنة بالتفصيل، بما فيها معنى في الرقاب وابن السبيل^(٥).

• تناولت "الأَنْفَال" موضوع المنافقين والذين في قلوبهم مرض بآية واحدة، فقال: **﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاءٌ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** (الأَنْفَال:٤٩)، في تفسير هذه الآية يقول البقاعي: (إذ يقول المنافقون) أي من العرب وبني إسرائيل قولاً يجدونه كل وقت لما لهم فيه من الرغبة. (والذين في قلوبهم مرض) أي ممن لم يرسخ الإيمان في قلبه^(٦). في "التوبة" فصلٌ جلٌّ في علاه بإسهاب معظم صفاتهم التي يتصفون بها وحقيقة اتصافهم ببعض صفات أهل الكتاب، قال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** (التوبة:٣٤)، حيث يشتركون هم وأهل الكتاب بالصد عن سبيل الله تعالى، يقول الإمام الرازي: ((والَّذِينَ) احتمالات ثلاثة: لأنه يحتمل أن يكون المراد بقوله (الَّذِينَ) أولئك الأحرار. ويحتمل أن يكون المراد كلاماً مبتدأ على ما قال بعضهم المراد مانعو الزكاة من المسلمين، ويحتمل أن يكون المراد منه كل من كرز المال ولم يخرج منه الحقوق الواجبة سواء كان من الأحرار أو كان من المسلمين)^(٧)، وصحيح أن اللفظ يحتمل الثلاثة احتمالات، إلا أن الاحتمال الثاني أقرب للمعنى من حيث السياق، حيث توعد الذين يكنزون الذهب والفضة بالعذاب الأليم، فأهل الكتاب يحاسبون بداية على كفرهم قبل كنزهم للذهب والفضة، كما المنافقون يتصفون بأهل الكتاب في الصد عن سبيل الله، ومنعهم الأموال وأكلها بالباطل، كما بين تعالى حقيقتهم بفساد طويتهم، يغضون عيونهم عن

(١) أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري: ج/٢ ص/٢٣٩، مكتبة العلوم والحكم / المدينة المنورة، ط/٥/٢٠٠٣م.

(٢) تفسير كلام المنان لعبد الرحمن السعدي: ص/٣٢٠ ط/١، ٢٠٠٢م مكتبة الصفا / القاهرة نسخة واحدة..

(٣) رجل معروف من أهل مصر له صحبة قدم على النبي ﷺ وأثن له في سفره، تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٢ ص/٢١١-٢١٢.

(٤) سنن أبي داود: ك/ الزكاة ب/ من يعطي من الصدقة وحد الغنى ص/ ٢٦٧، ح/ ١٦٣٠، (ضعفه الألباني)..

(٥) وهم: الفقراء والمساكين والعاملون على الزكاة والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، ويشمل المكاتبين والأرقاء، والغارمون وفي سبيل الله وابن السبيل أنظر فقه السنة سيد سابق ج ١ باختصار من ص/ ٤٥٢-٤٦٥، مكتبة الخدمات الحديثة/جدة، ط/١٣٦٥هـ.

(٦) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣ ص/٢٢٨.

(٧) مفاتيح الغيب لفخر الرازي: ج/١٦، ص/٤٣.

الفساد، ويطلقون اللعان لأسنتهم، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، فما أشبه اليوم بالبارحة وكيف يسعون بنشر الفساد والرذيلة، ويمنعون كل خير، وينشرون ما استطاعوا من شر، قال تعالى: **{الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}** (التوبة: ٦٧)، يقول البقاعي: (فهم كالجسد الواحد في تشابههم وصفاتهم، في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، والقصد حالهم يصاد حال أهل الإيمان)^(١)، ليظهر بيان من هم أصحاب القلوب المريضة؟ وخطورة النفاق والمنافقين على الأمة في كل زمان ومكان.

المطلب الرابع: مناسبة السورة لما بعدها "سورة يونس":

سورة التوبة مدنية النزول إلا آيتين في آخرها، وسورة يونس مكية النزول^(٢)، ومعلوم أن موضوعات المدني من السور مختلف عن موضوعات السور المكية، إلا أن أهداف ومقاصد القرآن الكريم المكي منه والمدني واحدة وتتفق في الأصول والدعوة إلى الله تعالى، وبالتالي فإن المناسبة ووجوه الارتباط بين السورتين وإن بدت خفية، كثيرة منها:

• مناسبة أول "سورة التوبة" بأول "سورة يونس": المقابلة بين بشارة الله تعالى للمشركين في أول سورة التوبة وبشارة الله تعالى للمؤمنين، فالمشركون الذين يعرضون عن أوامر الله تعالى يستحقون أن يوجه الله تعالى الخطاب تحقيرا لهم مخاطبا من خلال أعلى خلقه مبشرا لهم في أسلوب التهكم بهم فقال عاطفا على ما تقديره: فبشر الغادرين بالخذلان^(٣)، قال الله تعالى: **{.. وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}** (التوبة: ٣)، وبالمقابل في أول سورة يونس يقول البقاعي: خص الله المؤمنين الذين عملوا الصالحات تصديقا لدعواهم؛ بالبشارة بقبول حسناتهم وتكفير سيئاتهم والتجاوز عن هفواتهم وترفع درجاتهم، فمقتضى العدل إثابة الطائع، وعقاب العاصي، لتكون المناسبة بين الإنذار والبشارة، فالإنذار: الإعلام بما ينبغي أن يحذر منه، والتبشير: التعريف بما فيه السرور^(٤)، فقال: **{.. وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ..}** (يونس: ٢). وليظهر البون الشاسع بين البشارتين.

• مناسبة آخر سورة التوبة بأول "سورة يونس": ختمت سورة التوبة بمن الله تعالى على الناس أن أرسل إليهم رسولا من أنفسهم يعرفونه بطيب محامده وكريم خلاله، فما عابه قيل الرسالة أحد ﷺ، فقال جل في علاه: **{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}** (التوبة: ٢٨)^(١)، وافتتح "سورة يونس" بزم من

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٤٤.

(٢) أيسر التفاسير للجزائري: ج/٢، ص/٣٤٣.

(٣) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٧٠، بتصرف.

(٤) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٤١٤، بتصرف.

تعجب وأنكر رسالة رجل مرسل إليهم "منهم" يعرفونه، قال الله تعالى: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ} (يونس:٢). فالخطاب في الآية الأولى للعرب وأنه ﷺ منهم، ومبعوث لهم وللعجم، فالخطاب للعالم كله لعموم بعثته، فيكون بمعنى ما يأتي أول "يونس" التالي: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ...} (١).

• المناسبة بين موضوعات السورتين:

١ / تناولت السورتان موضوع عدم إعجاز المشركين لله تعالى في شيء، حيث نزع منهم صفة الإعجاز عندما استثناهم من هذه الصفة في موضعين، قال الله تعالى: {فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ} (التوبة:٢)، أي وكونوا على علم قطعي بأنكم لا تعجزون الله تعالى، ولن تجدوا مهربا منه مهربا وسيسلط رسوله وعباده المؤمنين عليكم إذا أصررتم على شرككم وعداوتكم، بل وسيؤيدهم بنصره الذي وعدهم (٢)، فقال في التوبة: {وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} (التوبة:٣)، وفي سورة يونس نفى عن توعدهم قدرة الإعجاز فيما يراد بهم (٣).

٢ / تناولت سورة التوبة أشهر السنة الإثني عشر، التي هي أصل حساب السنين، فقال: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} (التوبة:٣٦)، وفي سورة يونس ذكر ما يستند عليه في تعلم عدد السنين والحساب، قال: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} (يونس:٥)، يقول ابن كثير رحمه الله تعالى: (الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وجعل شعاع القمر نورا، فبالشمس تعرف الأيام وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام) (٤).

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/ ١١، ص/ ٨٧-٨٨، بتصرف

(٢) المصدر السابق: ج/ ١٠، ص/ ١٥٢.

(٣) نظم الدرر للبقاعي: ج/ ٣، ص/ ٤٥٣، بتصرف

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج/ ٢، ص/ ٤٤٧، دار الخير، بيروت، ط/ ١٩٩١م.

إن ضبط العبادات والمعاملات الدينية والمالية والمدنية^(١). تعلمنا أن الله الذي خلق الشمس والقمر وعدد الأيام والسنين وحساباتهما الدقيقة، حتى لا تؤخر عبادة عن وقتها أو تؤخر شهرا عن وقته كما فعلت الجاهلية وحسب أهوائها.

• مناسبة آخر "سورة التوبة" وآخر "سورة يونس":

ختم الله جل جلاله سورة التوبة بقوله تعالى: **{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}** (التوبة: ١٢٨)^(٢)، يمينُ الله جل في علاه بمبعث رسول الله ﷺ الحجة المهداة بالحق والنور، قال القرطبي^(٣): "من أنفسكم" يقتضي مدحا لنسب النبي ﷺ... لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز حريص بالمؤمنين رؤوف رحيم، عزيز عليه ما عنتم لا يهمله إلا شأنكم، وهو القائم بالشفاعة لكم فلا تهتموا بما عنتم ما أقمتم على سنته؛ فإنه لا يرضيه إلا دخولكم الجنة^(٤)، وختم "سورة يونس" بقوله تعالى: **{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ}** (يونس: ١٠٨).

فختام سورة يونس كما يقول القرطبي في قوله تعالى: "قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق" أي القرآن. وقيل: الرسول ﷺ. **{فَمَنِ اهْتَدَىٰ}** (الزمر: ٤١)^(٥)، أي صدق محمدا وآمن بما جاء به. **{فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ}** (الزمر: ٤١)^(٦)، أي لخالص نفسه. **{وَمَنْ ضَلَّ}** (الزمر: ٤١)^(٧)، أي ترك الرسول والقرآن واتبع الأصنام والأوثان. **{فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا}** (الزمر: ٤١)^(٨)، أي وبال ذلك على نفسه. **{وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ}** (الزمر: ٤١)^(٩)، أي بحفيظ أحفظ أعمالكم إنما أنا رسول الله^(١٠).

المطلب الخامس: مناسبة أول السورة بآخرها:

إن معرفة مدى الترابط والتلاؤم والتناسق البديع بين الآيات والسور، يرشدنا إلى محور السورة ووحدتها الموضوعية، ومن ثمَّ الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم، التي تخدم المقصد العظيم لوجود الإنسان وهدايته إلى عبادة الله وحده، وأن الإنسان مدعو لتعظيمه وتسبيحه امتثالا لأمره، كما باقي المخلوقات التي امتثلت لأمره بالفطرة، قال الله تعالى: **{الْمُ تَرَأَىٰ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}** (الحج: ١٨).

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/ ١١، ص/ ٣٠٣. يتصرف
(٢) الإمام المتقن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي أبو عبد الله القرطبي المفسر توفي ٦٧١ هـ طبقات المفسرين للسيوطي: ص/ ٧٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/ ٥، ص/ ٢٧١- ٢٧٢، اقتباس، مكتبة الإيمان المنصورة، بدون طبعة.
(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/ ٥، اقتباس ص/ ٣٣٦.

يقول البقاعي: (لمّا قرر أمر البراءة إثباتا ونفيا، أمر بما يصنع بعد ما ضربه لهم من الأجل فقال: {فَإِذَا} أي فتسبب عن ذلك أنه إذا {انْسَلَخَ} أي انقضى وانجرد وخرج ومضى {الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ} أي التي حرمت فيها قتالهم وضربتها أجلا لسياحتهم {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} أي الناكثين الذين ضربتم لهم الأجل إحسانا وكرما)^(١)، ثم ربط بين المشركين كونهم نجس بأهل الكتاب، الذين غيروا وبدلوا فيما أنزل الله إليهم من كتاب وحكمة، فأمر عباده بقتالهم، فقال: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} (التوبة: ٢٩)، ويقول البقاعي أيضا:

(أي قاتلوا الذين أخذت عليهم رسلهم العهود والمواثيق بإتباعه، ثم بين الموصول مع صلته فقال: {الَّذِينَ} ودل على استهانتهم سبحانه بهم وبراءته منهم، بأن بنى للمفعول قوله: {أُوتُوا الْكِتَابَ} من اليهود والنصارى ومن ألحق بهم)^(٢).

ثم ألحق المنافقين وشبههم بالأخبار والرهبان، في صدهم عن سبيل الله وأكلهم أموال الناس بالباطل، يقول الرازي: {والذين} احتمالات ثلاثة: أنهم الأخبار والرهبان، والاحتمال الثاني: مانعو الزكاة من المسلمين، والثالث: أن يكون كل من كنز المال من الأخبار والرهبان أو كان من المسلمين، واللفظ يحتمل الثلاثة)^(٣)، وذهب إلى أنهم مانعوا الزكاة من المسلمين، لأن الآية تحدثت عن الإنفاق في سبيل الله، وأهل الكتاب لا يحاسبون عن الإنفاق، بقدر ما سيحاسبون عن كفرهم.

كما ربط بين أهمية الجهاد ونتائجه، وخطورة أهل الكتاب والمنافقين بإعراضهم، فتناسب تشبيههم بالمشركين وأهل الكتاب الذين يجيدون فن الإعراض وبث الأراجيف، لذلك حذر المسلمين من سماعهم ومخالطتهم فقال: {يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} (التوبة: ٤٧)، ثم بين بعض صفات المنافقين الخطيرة، فقال: {وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ} (التوبة: ٥٤)، ليربط ذلك بكيفية استهزائهم بالمؤمنين المتصدقين، ويربط ذلك بآية الزكاة، لتواصل الآيات في الحديث عن المنافقين، حيث أخذوا مساحة واسعة من السورة، ثم جمع الله تعالى مع المنافقين عموم الكفار، عندما أمر رسوله ﷺ بقتالهم، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (التوبة: ٧٣)، ولأنه ﷺ مطبوع على الرفق، أمره ربه بالغلظة^(٤) عليهم ليتناسب إعلان البراءة والحرب عليهم

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/ ٢٧١.

(٢) المصدر السابق: ج/٣، ص/ ٢٩٩، بتصرف.

(٣) مفاتيح الغيب لفخر الرازي: ج/١٥، ص/ ٤٣ باختصار وتصرف.

(٤) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/ ٣٦٠، بتصرف.

والغلظة، وليكن سبب الحرب والغلظة فيهم هو الغدر الذي يتقنوه، ويحض على الجهاد ويبين فضله في مواضع متعددة، ليختم السورة أيضا بحث المؤمنين على قتال الكفار، وخاصة الأقرب لحدود الدولة الإسلامية، قال الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}** (التوبة: ١٢٣)، ليرسخ فكرة الدولة في نفوس المؤمنين ويعطي لهذه الدولة حرمة لها من خلال الحفاظ على أهم أركان سيادتها، وليجدوا في قتالكم لهم شدة وخشونة ومتعلقاته، كما في الآية السابقة بقوله تعالى: **{وَاعْلَمُوا عَلَيْهِمْ}**، لأن الغلظة من متطلبات الحرب، ومقتضيات المصلحة وطبيعة القتال^(١)، ليكون التناسب بين أول السورة ووسطها متناغم بصورة بديعة تعطينا درر المعاني والأسرار من المقاصد والأهداف.

حذر الله تعالى من التولي والإعراض في أول السورة فقال: **{وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}** (التوبة: ٣)، وحذر في آخرها من التولي والإعراض فقال: **{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}** (التوبة: ١٢٩). أي فاستعن بالله يا محمد وفوض أمرك له فهو كافيك، ويعطي بحسب الكفاية التي تغني عن غيره^(٢). فالتولي والإعراض من قبل المشركين، سيكون وبالاً عليهم في الدنيا والآخرة، ولن يعجزوا الله في شيء، لذا أوجب الله تعالى في أول السورة بمقاتلة الكفار وأئمتهم، قال تعالى: **{وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ* أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ يُبَاخِرُونَ الرِّسُولَ وَهُمْ بَدُوُّكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ اتَّخَشَوْهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ* قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ}** (التوبة: ١٢-١٤)، ولذلك عنون الشيخ كشك^(٣) لهذه الآيات عنواناً قال فيه: (تحريض على قتال المشركين)، ثم فسر قائلاً: كيف لا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم ونقضوا عهدهم، وهذا استنهام لإنكار عدم قتالهم، وهو يفيد الحض على القتال^(٤)، فوجب قتال أهل الكفر والبغي على غدرهم، يقول القرطبي: (استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كل من طعن في الدين إذ هو كافر، والطعن: أن ينسب إليه ما لا يليق به، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين)^(٥)، كما أن البراءة منهم واجب شرعي، كما وجب أن يكون المؤمنون كافة يداً وصفاً واحدة، لدفع عدوان المجرمين كافة، ومن يتواطأ معهم ضد أهل الإيمان كما هو حاصل في حصار بيت المقدس

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/ ١١، ص/ ٨١. بتصرف

(٢) نظم الدرر للبقاعي: ج/ ٣، ص/ ٤٠٩، بتصرف.

(٣) عبد الحميد عبد العزيز محمد كشك، الخطيب المفوه والداعية المعروف اعتقل عدة مرات لجرائته، ولد ١٩٣٣م وتوفي ١٩٩٦م باختصار من موقع طرق الإسلام: http://www.islamway.com/?iw_s=Scholar&iw_a=info&scholar_id=39

(٤) في رحاب التفسير لعبد الحميد كشك: م/ ٢، ص/ ١٥٢٤، المكتب المصري الحديث القاهرة، ط/ ١ / ١٩٨٨م.

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/ ٥، ص/ ١٠٠.

وأكفاه اليوم، من قبل أعداء الله تعالى من اليهود والنصارى والمنافقين، فلذلك ارتبطت البراءة من المجرمين بقتالهم لغدرهم، قال الله تعالى: **{الَّا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُوْكُمْ أَوْلَ مَرَّةً}** (التوبة: ١٣)، ثم حثَّ على قتالهم كافة، فقال: **{وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً}** (التوبة: ٣٦)، ولذلك نجد السورة من أولها تتتابع آياتها في الحض على قتال المشركين وأهل الكتاب والمنافقين والكافرين عموماً، واستعمال الغلظة في قتالهم، حيث تكررت كلمة الغلظة في القرآن الكريم ثلاثة عشر مرة^(١) ثلاثة منها مرتبطة بالميثاق والعهد، وواحدة مرتبطة بالزرع ونموه، والتسعة الباقية مرتبطة بمعنى القسوة والشدة، فالغلظة: ضد الرأفة^(٢). يقول القرطبي: (وهي شدة القلب على إحلال الأمر بصاحبه)^(٣)، جمعت سورة التوبة فيها اثنتين من مفردات الغلظة التي تعني القسوة، لتدل على مدى شدة هذه السورة العظيمة على المشركين، قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}** (التوبة: ٧٣)، فكان الأمر بقتال وجهاد أهل الكفر والنفاق، للعلاقة الباطنة والظاهرة بينهما، وبيان موالاة المنافقين للكافرين، وليرسم معالم الدولة وأركان سيادتها وأهمها الحدود، فأمر بقتال الأقرب خطراً على الدولة الإسلامية وخاصة ممن يجاور الدولة الإسلامية من الكافرين، قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}** (التوبة: ١٢٣)، كما عنون الشيخ كشك عنواناً آخر للآيات من سورة براءة، (حماية حدود الدولة الإسلامية... ثم ذكر: لما أمر فيما سبق بقتال المشركين كافة، أرشدهم في هذه الآية إلى طريق السداد، بأن يبدعوا بقتال من يليهم، ثم ينقلوا إلى الأبعد فالأبعد، وليجدوا فيكم جرأة وصبراً وعنفاً في القتل والأسر، كما قال: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ}** (التوبة: ٧٣)^(٤)، فناسب أول السورة وسطها، كما ناسب آخرها.

كما أن التبرؤ يستلزم عدم الاستغفار ممن نتبرأ منهم، قال الله تعالى: **{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}** (التوبة: ١١٣)، فهذا أبو طالب عم رسول الله ﷺ ومؤيده وناصره ومن دافع عنه، قد حرم من استغفار رسول الله ﷺ له، ذكر القرطبي: هذه الآية تضمنت قطع موالاة الكفار حيهم وميتهم^(٥). فقد ذكر البخاري في صحيحه: (أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل فقال: (أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله). فقال أبو جهل

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ص/ ٥٠٤، دار الهجرة/ بيروت، ط/ ١٩٨٥.

(٢) القاموس المحيط للفيروز أبادي: ج/ ٢، ص/ ٦٠٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/ ٥، ص/ ١٩٥.

(٤) في رحاب التفسير للشيخ كشك: م/ ٢، ص/ ١٦٢٢.

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/ ٥، ص/ ٢٤٩.

وعبد الله بن أبي أمية يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به على ملة عبد المطلب فقال النبي (لأستغفرن لك ما لم أنه عنه). فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (التوبة: ١١٣). ونزلت ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (القصص: ٥٦)(١). نقل ابن كثير: (عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير هذه الآية، كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية، فأمسكوا عن الاستغفار لمواتهم ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا)(٢). إن وجوه المناسبة في السورة كثيرة، بحيث تبين وحدتها الموضوعية، وأهدافها ومقاصدها فتظهر أكثر وضوحاً وجلاءً، فالتناسب والتلاؤم البديع بين آيات السورة واضح وجلي، وخاصة فيما يتعلق بالموضوع الأساس "التوبة"، وسيتم الطرح من خلال مطلب محور السورة في المبحث القادم.

(١) صحيح البخاري: ك/ مناقب الأنصار، ب/ قصة أبي طالب، ج/ ٢، ص/ ٧٧٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج/ ٢، ص/ ٤٣٣.

المبحث الثالث

الأهداف والمقاصد ومحور السورة

ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الأهداف والمقاصد لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: الفرق بين الأهداف والمقاصد.

المطلب الثالث: الأسس التي تقوم عليها المقاصد.

المطلب الرابع: المحور الأساس للسورة.

المطلب الأول: تعريف الأهداف والمقاصد لغة واصطلاحاً:

تعريف الأهداف لغة:

هَدَفٌ: من أَهَدَفْتُ ودنوت منك والاستقبال والانتصاب. من انتصب الأمر؛ أي استوى واعتدل، يقال: أَهَدَفَ لِي الشَّيْءُ؛ وَأَهَدَفَ الْقَوْمَ؛ أَي قَرَّبُوا؛ فهو مُسْتَهْدِفٌ؛ وفي حديث أبي بكر: قال له ابنه عبد الرحمن: " لقد أَهَدَفْتَ لِي يوم بدر فَضِفْتُ^(١) عنك "؛ والهِدَفُ: كل شيء عظيم مرتفع؛ وكل بناء مرتفع مُشْرِفٌ؛ أو كَثِيبٌ رَمَلٌ أو جبل؛ ومنه سمي الغرضُ هَدَفًا؛ والهِدَفُ من الرجال الجسيم الطويل العنق العريض الألوأح؛ وَأَهَدَفَ عَلَى التَّلِّ أَي أَشْرَفَ وَأَسْرَعَ وَأَهَدَفَ إِلَيْهِ لَجَأً^(٢).

هَدَفٌ والجمعُ أَهْدَافٌ، ومنه سُمِّيَ الْغَرَضُ هَدَفًا وهو الْمُتَنَزِّلُ فِيهِ بِالسَّهَامِ. ما وُضِعَ فِي الْهَدَفِ لِتُرْمِيهِ وَالْغَرَضُ: الْهَدَفُ وَيُسَمَّى الْقَرِطَاسُ غَرَضًا وَهَدَفًا عَلَى الْاسْتِعَارَةِ^(٣).
وَهَدَفَ هَدَفًا: دُعَاءٌ لِلنَّعْجَةِ إِلَى الْحَلْبِ. وَهَلْ هَدَفَ إِلَيْكُمْ هَادِفٌ: هَلْ حَدَّثَ بِبَلَدِكُمْ أَحَدًا سِوَى مَنْ كَانَ بِهِ؛ وَأَهَدَفَ عَلَيْهِ: أَشْرَفَ عَلَيْهِ: انْتَصَبَ وَارْتَفَعَ. وَرُكِّنَ مُسْتَهْدِفٌ: عَرِيضٌ^(٤).

الأهداف اصطلاحاً:

للأهداف عدة تعريفات اصطلاحية، منها:

- هي الأهداف التي شرعت الأحكام لتحقيقها، وأهداف الشارع هي المصالح التي تعود إلى العباد في دنياهم وآخرتهم، سواء كان تحصيلها عن طريق جلب المصالح أو درء المفسد^(٥).

التعريف التربوي:

- هي: ما انعقد العزم على إحداثها في المتعلم، من تحول في مستوى المعارف والمهارات والمواقف، بشرط أن يقع التثبيت من حصول ذلك التحول إثر فترة من التكوين تحدد مسبقاً^(٦).
- فالأهداف هي الغايات والرغبات التي نسعى لتحقيقها، منذ نقطة البداية، لأي مخطط، أو منهج، عاجلاً كانت الأهداف أم آجلة واضحة كانت أم خفية، معلومة أم مجهولة^(٧).
- التعريف الأول أقرب إلى الشرعي، والثاني أقرب إلى التربوي، والثالث عام وشامل.

(١) ضفت: من ضاف عن الشيء ضَوْفاً: عدل، وضفت: عدلت. انظر لسان اللسان لابن منظور: ج/٢، ص/٧٥. وانظر غريب الحديث لابن الجوزي، ج/٢، ص/٤٩٣.

(٢) لسان العرب لابن منظور ج/٩، ص/٣٤٥.

(٣) تاج العروس للمرطضي الزبيدي: ج/١، ص/٦١٧٤.

(٤) القاموس المحيط للفيروز أبادي: ج/٣، ص/٢٧٨.

(٥) المقاصد العامة للشريعة الإسلامية د. يوسف حامد العالم، ص/٧٩، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الرياض، ط/٢/١٩٩٤م.

(٦) انظر موقع منبر التربية: <http://www.minbr.com/bhaoth7.php>

(٧) الأهداف السلوكية د. مهدي محمود سالم: ص/١٤، بتصرف.

أما الذي أراه مناسباً في هذا البحث في تعريف الهدف القرآني:

- هو الوصول بالإنسان عموماً والمسلم على وجه الخصوص، أن يكون عبداً لله خالصاً بأن تتحقق فيه كافة المقاصد القرآنية: العقدية والشرعية والتربوية والأخلاقية، والنفسية والاجتماعية، وعمارة الأرض.

الخلاصة:

إن الأهداف محصورة في عموم السلوكيات البشرية التي تتناسب والقدرات الشخصية، المكونة من الأبعاد العقلية والوجدانية والسلوكية والأخلاقية والاجتماعية، بحيث تتجاوب مع الأهداف القرآنية، والتي لا تتحقق إلا من خلال الالتزام بشرع الله تعالى، المرجعية الأساس للمسلمين، فالإسلام ينظر إلى هذه الأبعاد على أنها المحور والمرتكز لتحقيق الأهداف القرآنية وخاصة: الفكرية والإيمانية، حتى تسلم النفس من الهوى والشيطان، من خلال ضبط الشهوات، لئلا تجنح إلى السوء، وتسعى لسمو النفس بفكرها وحسن إيمانها، لتكون بدايةً لتحقيق المقاصد القرآنية.

تعريف المقاصد لغة:

قَصَدَ يَقْصِدُ قَصْدًا فَهُوَ قَاصِدٌ وَقَوْلُهُ تَعَالَى "وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ" أَي عَلَى اللَّهِ تَبْيِينُ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، وَطَرِيقٌ قَاصِدٌ سَهْلٌ مُسْتَقِيمٌ وَسَفَرٌ قَاصِدٌ سَهْلٌ قَرِيبٌ وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ﴾ (التوبة: ٤٢)، أَي غَيْرَ شَاقٍّ وَالْقَصْدُ قَصْدُكَ وَقَصْدُكَ أَي تُجَاهَكَ، وَالْقَصْدُ فِي الْمَعِيشَةِ أَنْ لَا يُسْرِفَ وَلَا يُقْتَرَّ يَقَالُ فَلَانٌ مُقْتَصِدٌ فِي النِّفْقَةِ^(١).
الْقَصِيدُ: مَا تَمَّ شَطْرًا أَبْنَيْتَهُ مِنَ الشَّعْرِ، وَالْقَصِيدَةُ: مُخَّةُ الْعَظْمِ إِذَا خَرَجَتْ وَأَنْقَصَدَتْ أَي انْفَصَلَتْ مِنْ مَوْضِعِهَا وَخَرَجَتْ وَأَنْقَصَدَ الرُّمْحُ أَي انكسَرَ نِصْفَيْنِ^(٢).
وَالْقَصْدُ اسْتِقَامَةُ الطَّرِيقِ وَالْأَمُّ، وَالْقَصْدُ ضِدُّ الْإِفْرَاطِ، وَمَوَاصِلَةُ الشَّاعِرِ عَمَلُ الْقَصَائِدِ^(٣).

قَصَدَ الشَّيْءَ وَأَمَّهُ وَأَتَى إِلَيْهِ، وَاسْتَنْزَهَ، وَأَثْبَتَهُ، أَوْ الْعَدْلَ فِيهِ. وَمِنْ مَعَانِي قَصَدَ: الْإِعْتِمَادُ وَالْأَمُّ، تَقُولُ: قَصَدَ الْحَجَّاجُ الْبَيْتَ الْحَرَامَ، إِذَا أَمَّا تِلْكَ الْجِهَةَ وَعَاطَمَدَهَا. يَقُولُ ابْنُ فَارِسٍ: "وَإِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَمْ يُحَدَّ عَنْهُ"^(٤).

تعريف المقاصد اصطلاحاً:

إن الوقوف على مقاصد الشريعة ومعرفة عللها وأحكامها، والتي هي جزء من المقاصد القرآنية، يجعل النفس مطمئنً بمباشرة اليقين والاستبصار، بعيداً عن أي ظن، لأن

(١) لسان العرب لابن منظور: ج/٣، ص/٤٥٣.

(٢) كتاب العين للفراهيدي: ج/٣، ص/٣٩٢.

(٣) القاموس المحيط للفيروز أبادي: ج/١، ص/٤٥٤.

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ص/٨٩١، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط/٢/١٩٩٨م.

مصدرها العليم الخبير، فبين المقصد من خلق الإنسان، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، وبما أن العبادة قائمة على وجود الإنسان وبقائه حيًّا، وبالتالي، فالمقاصد القرآنية تنقسم إلى ثلاثة أقسام قسم متعلق بالله وتوحيده، وقسم متعلق بمن سيوحد الله ويعبده، وقسم متعلق بمكان الإنسان واستمرار حياته وما يضمن سلامته، ولكي تتحقق لدى الإنسان المقاصد الثلاثة لا بد من الالتزام بشعائر الإسلام والعمل الجاد بالعبادة الصحيحة، ليس شعارا يرفع، لا ليخدم أهدافا سياسية واقتصادية أو فكرية، أو مصالح ذاتية فحسب، وإنما قائم على مجموع مصالح الإنسان عموما، فلا بد من توافق وترابط المقاصد القرآنية بدرجاتها الثلاث بعضها ببعض وهي: الضرورية، والمتمثلة بحفظ الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال، والحاجيات التي ترعى المقاصد الخمسة، ومن ثم المصالح التحسينية التي تكمل الضروريات والحاجيات^(١).

للمقاصد عدة تعريفات اصطلاحية منها:

- تعريف أحمد الريسوني: بأنها: (الغايات التي وضعتها الشريعة لأجل تحقيقها لمصلحة العباد)^(٢).
 - تعريف علّال الفاسي: (الغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها)^(٣).
 - تعريف ابن عاشور: (هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة)^(٤).
 - تعريف محمد الزحيلي: (هي: "الغايات والأهداف والنتائج والمعاني التي أتت بها الشريعة، وأثبتتها في الأحكام وسعت إلى تحقيقها وإيجادها والوصول إليها في كل زمان ومكان)^(٥).
- من خلال التعريفات اللغوية والاصطلاحية للمقاصد الشرعية التي هي جزء من المقاصد القرآنية، أستطيع تعريف المقاصد القرآنية بالتالي:

إنها النتائج المقصودة بعد تحقيق الأهداف والغايات للأحكام والمعاني العامة والخاصة للمنهج القرآني، وأنها الأسرار الكامنة المستنبطة من كل جزئية من جزئيات الأهداف والغايات والأحكام التي تدرج ضمن الكليات الخمسة، والتي تعتمد في الأساس على جلب المنافع ودفع المضار كل حسب استطاعته.

(١) باختصار: موقع الراية <http://www.rayah.info/browse.php?comp=viewArticles&file=article&sid=2613>

(٢) نفس الموقع السابق: باختصار.

(٣) هو علّال عبد الواحد الفاسي ولد ١٩١٠ في بيت علم ودين حفظ القرآن صغيرا تخرج من جامعة القيروان وقاوم المحتل الفرنسي له مؤلفات أهمها مقاصد الشريعة والنقد الذاتي مات ١٩٧٤ <http://www.zaharuddin.com/v1/Maqasid%20Shariah.htm>

(٤) <http://www.zaharuddin.com/v1/Maqasid%20Shariah.htm>

(٥) نفس الموقع السابق.

المطلب الثاني: الفرق بين الأهداف والمقاصد:

من خلال ما سبق من تعريفات اصطلاحية لكل من الأهداف والمقاصد نلاحظ الفرق بين كلا الاصطلاحين، وتتمثل بالتالي:

- الأهداف هي نقطة البداية لأي عمل في إطار تعبدي أو تربوي، وتكون قبل وضع الخطط.
- الأهداف الكبرى والعامة تهتم وتعنى في صياغة القيم والاتجاهات والتراث والآمال.
- الأهداف تقوم على تطوير فلسفة المجتمع الممنهجة وفق سياستها التربوية.
- الأهداف العامة والخاصة لا بد أن ترتبط بالواقع التطبيقي للحياة قدر الإمكان.
- الأهداف منها ما هو معلوم التحقيق، ومنها ما هو مجهول، غير قابل للتحقيق.
- الأهداف هي التي يرغبها الإنسان، ويسعى من خلال تحقيقها إلى تنظيم سلوكه الإنساني.
- إن الأهداف تكون قبل نتاج أي عمل، لأنها قد تتحقق وقد لا تتحقق.
- كما أنها عبارات تحاول أن تعطي شكلا واتجاها لمجموعة من المقاصد التفصيلية في المستقبل القريب أو البعيد.
- يختلف تعريف الهدف تبعا لنوعيته، ومستوى عموميته.
- الأهداف تنقسم إلى عدة أهداف سلوكية تطبيقية، ومعرفية مهارية، ووجدانية عاطفية^(١).

ثانيا المقاصد:

إن تحديد المقاصد القرآنية وإثباتها، يكون من خلال حسن التدبر باستخدام المآثور النبوي، والعقل والفطرة والتجربة وحسن الدراية، لإيجاد تصور جديد للمقاصد، متناولا الضرورية منها في القواعد الخمسة أساسا، وتحديد أنواعها ومراتبها. والمفاهيم العامة والخاصة والجزئية، فيما يخص الفرد والأسرة والأمة، والإنسانية. ثم ينطلق إلى تفعيل المقاصد، ويتحدث عن صورتها المرتبطة لتحقيق الأهداف. ويتناول بيان كمال المنهج القرآني، بالاطمئنان على الإنسان وإيمانه، والنظر في قضية المصالح والمفاسد، والجمع بين الكليات العامة، والاعتبارات والحالات الخاصة، بالتوسع والتجديد في الوسائل، وهذا كله يختلف عن الأهداف ووسائلها وطرقها، رغم وجود العلاقة المترابطة بين الأهداف والمقاصد^(٢).

لذا فإن المقاصد تتميز عن الأهداف بالتالي:

- المقاصد هي الحكمة المقصودة والمبادئ والنتائج التي تسعى الأهداف إليها، فإن تحققت الأهداف أصبحت النتائج مقصودة لذاتها، فالأعمال شرعت للوصول إلى المقاصد.

(١) الأهداف السلوكية د. مهدي محمود سالم: ص/ ١٤-١٨، باختصار. مكتبة العبيكان / الرياض ، ط/١٩٩٧م.

(٢) انظر موقع الفكر: http://www.fikr.com/cgi-bin/_showcard.cgi?id=1119 باختصار .

- المقاصد هي الحق المقصود لذاته.
- تحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة، في العاجل والآجل، ودرء المفسد ودفع المضار، المقصود الأساس من وراء اي عمل.
- المقاصد هي الغايات التي تهدف إليها النصوص من الأوامر والنواهي والإباحات، وتسعى الأحكام الجزئية إلى تحقيقها في حياة المكلفين، أفراداً وأسرًا وجماعات.
- المقاصد هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا أوصاف الشريعة وغاياتها العامة.
- المقاصد هي المعاني الملحوظة في الأحكام القرآنية والشرعية المترتبة عليها، سواء كانت تلك المعاني حكماً جزئياً أم مصالح كلية أم سمات إجمالية، وهي تتجمع ضمن تقرير ونتاج واحد هو: عبودية الله ومصالحة الإنسان في الدارين^(١).
- المقاصد العليا تمثل القيم التي من أجلها استُخلفَ الإنسان من أجلها على الأرض، وهي (التوحيد، والتزكية، والعمران)^(٢).

ولتوضيح ذلك: خلق الله الإنسان وسخره لعبادته ليكون خليفةً في الأرض، وليعمرَ هذا الكون، فسخر له ما في السموات وما في الأرض ليحقق هذا المقصد العظيم، قال الله تعالى: **{وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}** (الجاثية: ١٣)، فالدعوة إلى التفكير هو توجيه رباني ودعوة للنظر في المقصد العظيم الذي من أجله خُلِقَ الإنسان، قال الله تعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}** (الذاريات: ٥٦)

المطلب الثالث: الأسس التي تقوم عليها المقاصد.

إن مقاصد القرآن الكريم ومن خلال استقراء نصوصه واستنباط أحكامه، تقوم على أساس تحقيق جلب المنافع الدنيوية، التي أساسها السعادة والطمأنينة والأمان، والأخروية القائمة على مرضاة الله تعالى ورحمته، ودرء المفسد القائمة على الذنوب والمعاصي، ودفع الأضرار من أجل النجاة من النار، وهذا لا يكون إلا بفضل الله تعالى والعبادة النابعة من خلال امتثال أوامره الله سبحانه واجتتاب نواهيه.

(١)

http://www.islamweb.net/ver2/library/ummah_ShowChapter.php?lang=A&BabId=4&ChapterId=4&B
ook اقتباس واختصار بتصريف من موقع الشبكة الإسلامية.

(٢) مقاصد الشريعة، مجموعة من المؤلفين، حوار مع د. طه جابر العلواني: ص/ ٨٢ دار الفكر بيروت ط/ ١/ ٢٠٠٢م.

فأصل العبادة قائمة على دعوة الله جل في علاه لخلقه أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، فالأسس التي قامت عليها المقاصد هي مصالح العباد وبقاء استمرار النوع البشري على الأرض، وهذا لا يكون إلا من خلال العبادة لله.

وعلى هذا الأساس قسم بعض العلماء المقاصد إلى ثلاثة أقسام:

أ- **المقاصد العامة:** هدف الشريعة العام وتحقيقها في كل أبوابها التشريعية^(١).

ب- **المقاصد الخاصة:** هدف الشريعة للتحقيق في باب أو أبواب معينة متجانسة.

ج- **المقاصد الجزئية:** هي ما يقصده كل حكم شرعي تكليفي، وأسراره التي وضعها الشارع عند كل حُكْمٍ من أَحْكَامِهَا^(٢)، وهي التي تنطبق عليها أمثلة ابن عاشور:

(من كون عقدة الرهن مقصودها التوثق، وعقدة النكاح مقصودها إقامة الأسرة، وتثبيت المؤسسة العائلية)^(٣). وبما أن المقاصد القرآنية من الأهمية بمكان، فقد حظيت بعناية العلماء من حيث دراستها واستنباطها، وبينوا مراتبها في ذاتها من حيث ضرورياتها، وحاجياتها، وتحسيناتها.

فأسس المقاصد يعتمد على التالي:

المقاصد الضرورية:

وهي ما لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، والتي سمّاها الأصوليون بالكلّيات الخمسة، حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال^(٤)، بحيث إذا فقدت حلّ محلّ المصالح المفسدة وفوت حياة، وفي الآخرة فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين^(٥).

المقاصد الحاجية: وهو ما تحتاج إليه الأمة وأفرادها، لاقتناء مصالحها وحمايتها، وانتظام أمورها، على وجه حسن، بحيث لولا مراعاته لفسد النظام، ولكنه يكون على حالة غير منتظمة، فلذلك كان لا يبلغ مبلغ الضروري^(٦). ومن أمثلتها: الرخص المخففة بالنسبة للحقوق المشقة؛ كإباحة الفطر للمريض والمسافر، وسائر المعاملات التي لا يتوقف عليها حفظ الضرورات الخمس.

المقاصد التحسينية:

وهو كل ما يتصل بالأخلاق الرفيعة، والكمالات النفسية، والآداب العامة، وما يزين الحياة ويجملها في إطار قواعد الشرع وحدوده: **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ**

(١) مقاصد الشريعة لابن عاشور: ص/ ١٧٧ باختصار، البصائر للإنتاج العلمي/ ط/ ١/ ١٩٩٨م.

(٢) المصدر السابق: ص/ ١٨٨، باختصار وتصرف

(٣) انظر ك/ نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي لأحمد الريسوني: ص/ ٧-٨، الدار العالمية للكتاب الإسلامي/ الرياض، ط/ ٤/ ١٩٩٤م.

(٤) الموافقات للشاطبي: ج/ ٢/ ص/ ١٧٢. و شرح تنقيح الفصول لشهاب القرافي ص/ ٣٩١، مكتبة الكليات الأزهرية/ القاهرة

(٥) دراسات في الفكر الإسلامي، د. زيد إبراهيم الكيلاني، ص/ ١٣٧-١٤٠ باختصار.

(٦) مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور: ص/ ٨٢.

لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ} (الأعراف: ٣٢) لتكون الأمة بهيئة المنظر، وقررة عيون الراغبين فيها، ومحط أمل الكثيرين، كما كانت بغداد مركز العلم والأدب والفن، ومهوى أرباب الذوق والحس، يحرص كل واحد على زيارتها، فقصدها الكثيرون فاغترفوا من مناهلها، وعادوا إلى بلادهم وهم متشبعون بالأراء والقواعد في الفقه واللغة والفن، هذه التحسينات جارية في العبادات والعادات والمعاملات: كالطهارات، وآداب الأكل والشرب، والمنع من بيع النجاسات. وهذه الأمور وأمثالها كما يقول الشاطبي: (راجعة إلى محاسن زائدة على أصل المصالح الضرورية والحاجية؛ إذ ليس فقدانها بمخل بأمر ضروري ولا حاجي، وإنما جرت مجرى التحسين والتزيين)^(١).

يقول الدكتور محمد سليم العوا: "إن القرآن لفت نظرنا إلى نظرية المقاصد في أخص ما يعيننا في ديننا وهو صدق بعثة النبي ﷺ حيث ذكر ستة مقاصد لبعثته ﷺ في قوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ، وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} (الأعراف: ١٥٧)، فهذه المقاصد الستة لا تستقيم النبوة بدونها، وهذا يلفتنا إلى البحث في المقاصد، ولو أن العلماء التفتوا إليها لاكتشفوا أشياء مذهلة، فانشغلوا بالفقه وقواعد الأصول، وتركوا هذا العلم الواسع"^(٢).

ف نجد أن الدكتور نحى منحى آخر غير المقاصد السابقة، في الكليات الخمس، فوضع قواعد أخرى للمقاصد، مما يجعلنا نفكر بتمعن وتدبر للبحث عن أهداف ومقاصد جديدة.

المطلب الرابع: المحور الأساس للسورة:

إن الحفاظ على الإنسان كخليفة في الأرض، له مقومات الخلافة، مقصد قرآني أساس، قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} (البقرة: ٢٠). لذلك أقول إن منهاجاً قويا يحفظ حياة هذا الخليفة من خلال امتثال أوامر الله تعالى، لأن الله تعالى خلق الإنسان لعبادته، فقال: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات: ٥٦)، والعبادة أساس لعمارة الأرض، فمحور القرآن يدور حول توحيد الله عز وجل، فكل سورة تتناول جزءاً أو أكثر من هذا المحور، وتدور بفلكه، فسورة التوبة كباقي السور.

فالله تعالى خلق الإنسان لعبادته، فقال: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات: ٥٦)، فالعبادة أساس لعمارة الأرض، فمحور القرآن يدور حول توحيد الله عز وجل، فكل

(١) الموافقات للشاطبي: ج/٢ ص/١٢ .

(٢) انظر:

سورة تتناول جزءاً أو أكثر من هذا المحور، وتدور بفلكه، فسورة التوبة كباقي السور القرآنية، (تؤكد على عدد من القوانين والتشريعات الإسلامية المتعلقة بنوعية العلاقة مع المشركين وأهل الكتاب والمنافقين)^(١)، وضرورة البراءة منهم، يقول سيد قطب: (وتحديداً للعلاقات النهائية بين المسلمين والمشركين عامة، مع إبراز الأسباب الواقعية والتاريخية والعقدية التي يقوم عليها هذا التحديد)^(٢).

كما تُظهرُ السورة أهمية الجهاد وكيف رغب فيه، وحذر المتثاقلين، وجرّم النفاق والمنافقين، وفضّح دخائل نفوسهم، ووضع تصرفاتهم، وحققة نياتهم وحبيلهم، ليقودهم إلى التوبة، كما حذر المؤمنين من مكائدهم؛ وبيّن مصارف الزكاة التي تعتبر أحد أعمدة الجهاد، وأشار إلي ظاهرة تعدد المستويات الإيمانية، كما وتقرر حقيقة البيعة مع الله من أجل إعلاء دينه وتحقيق مقصد الخلافة.

هذه هي المحاور الأساسية للسورة والتي تتمحور حول موضوع واحد هو التوبة، فالإعلان بالبراءة من المشركين، وما فيه من الشدة والقسوة، إنما لتحذيرهم من شدة العذاب الناتج عن كفرهم وشركهم، وذلك ترغيباً في التوبة، يقول الفخر الرازي: (وذلك ترغيباً من الله في التوبة والإقلاع عن الشرك ... {وإن توليتهم} أي أعرضتم عن التوبة... جاء الوعيد الشديد)^(٣)، ثم يتبع الدعوة الأولى بتوبة أخرى قرنها بالمغفرة والرحمة، قال تعالى: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (التوبة:٥)، ورغب مرة أخرى وقرن هذه التوبة بالعلم، فقال: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُقُصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} (التوبة:١١)، (فبعد أن بين السبب الموجب لمجازاتهم بجنس عملهم، وهو البراءة منهم وما يتبع ذلك إلى أن ختم بتقدير توبتهم)^(٤).

سورة التوبة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ، ذكر البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه قال: سمعت البراءة ﷺ يقول: "آخر آية نزلت {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ} (النساء:١٧٦)"، وآخر سورة نزلت براءة^(٥) ولذلك كان نزولها قبل وفاته ﷺ بقليل، لتكون الصورة الختامية واضحة المعالم، ماضية نحو المعمورة لترسيخ المنهج النبوي من جميع جوانبه الجهادية، خاصة أثناء الخطر الداهم الذي يهدد مجتمعاتنا، حيث يكون المسلم بين رائج وغاد، وفرح مستبشر أو قلق مهموم، أو سارح ساه لا يدري ماذا يفعل^(٦)، إلى عصرنا الحالي بغزوه الفكري والعسكري والاستيطاني، وواجب المسلمين إزاء ذلك.

(١) صفة التفسير للصابوني: ج/١، ص/٥١٨ باختصار

(٢) في ظلال القرآن سيد قطب: ج/٣، ص/١٥٦٥، بتصرف.

(٣) مفاتيح الغيب لفخر الرازي: ج/١٤، ص/٢٢٣،

(٤) نظم الدرر للبيضاوي: ج/٣، ص/٢٧٧، بتصرف

(٥) صحيح البخاري: ك/التفسير، ب/ {براءة من الله ورسوله..} ج/٣، ص/٩٣٢، ح/٤٦٥٤.

(٦) السيرة النبوية لابن هشام: ج/٢، ص/٥١٦، بتصرف.

كما أن نزول السورة كان اكتمالا للرسالة الخالدة، التي خرجت إلى شعوب الأرض كافة، وتعليقا على آخر غزوة غزاها النبي ﷺ، التي كان عدد مجاهديها ثلاثين ألفاً^(١)، وكيف كان عدد المجاهدين في الغزوة الأولى؟: "الأبواء"^(٢)، سبعين مجاهدا^(٣). فالبون شاسع بين الغزوتين، في الزمن والكم وكيف كان حال المسلمين بين جهاد الدفع والطلب، فالصورة قبل غزوة تبوك وخلالها وبعدها كشفت عن أحوال الناس بأصنافهم المتباينة، وخاصة المنافقين، الذين هم أشد الخصوم خطرا على المؤمنين، فبين حقيقة جرمهم بالنفاق الذي ما انفك عنهم، ففضح زيف إيمانهم، فبحث عنهم وحفر على أساساتهم المنتقشة، ليعثرهم ويفضحهم ويخزيهم وينكل بهم ويقعد لهم كل مرصد، ليشرد بهم ومن خلفهم، وكذلك المشركين وأهل الكتاب حيث شدد عليهم وأغلظ فيهم، تارة بالقتال وتارة بالتهديد والوعيد، لعلهم يتوبون ويثوبون ويرجعون، عندها يفتح الله لهم باب التوبة على مصراعيه.

إن الملامح الأساسية لسورة التوبة، وصورتها الجلية التوبة، فمحور السورة الأساس فيها التوبة، كيف لا؟ ، فأول السورة توبة، قال الله تعالى: **{فَإِنْ تَبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}** (التوبة:٣)، وتوبة يتبعها مغفرة من الله ورحمة، قال الله تعالى: **{... فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** (التوبة:٥)، وفي وسط السورة توبة، رغم عظم جرم المشركين بشديد عداوتهم للمؤمنين، وبالرغم من قسوة المنافقين واستهزائهم بالله ورسوله والمؤمنين، وكثرة إرجافهم أثناء الغزوة مما يضاعف عظم الذنب ولما لهذا الاستهزاء والإرجاف من أثر في نفوس المجاهدين، ومع ذلك يعطي ربنا منحة العفو والصفح مع أن حكم الاستهزاء بالله ورسوله، يستوجب الكفر.

يقول الفخر الرازي: (أنه تعالى بين أن ذلك الاستهزاء كان كفرا)^(٤). ومع ذلك يعفو عنهم، قال الله تعالى: **{إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ}** (التوبة:٦٦)، ويتوب جل في علاه عليهم، قال الله تعالى: **{فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ}** (التوبة:٧٤).

وختم السورة بقصة الثلاثة الذين خلفوا وتوبته عليهم بأبهى صور التوبة وأروعها، قال الله تعالى: **{وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}** (التوبة:١١٨-١١٩).

(١) الرحيق المختوم للمباركفوري: ص/ ٣٧١ دار الوفاء / المنصورة، ط منقحة وجديدة/٢٠٠٤م.
(٢) الأبواء موضع بين مكة والمدينة وسميت بذلك لتبوء السيول بها بودان وهي موضع بين الأبواء والجحفة وهي أول غزوة غزاها النبي ﷺ . صحيح البخاري ج/٢ ص/ ٧٨٩، ك/ المغازي، ب/ باب غزوة العشيرة أو العسيرة. معجم البلدان للحموي: ج/١، ص/١٠٢.
(٣) الرحيق المختوم للمباركفوري: ص/ ١٨٥.
(٤) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٠ ص/١٢٣، دار الكتب العلمية ، طهران ، ط/١٩٩٨م.

لقد تكرر ذكر لفظة "التوبة" في السورة سبعة عشر مرة، أي أكثر من أي سورة أخرى^(١). وبالتالي فإن جو السورة العام هو التوبة والرحمة والرافة والعفو والصفح، وأن ديننا خيرٌ محض، مع أن بدايتها شديدة على المشركين عموماً، إلا أنها ختمت بأروع الآيات وأحسنها، بقوله: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ...}، ففضل الله علينا أن أخرج العباد من الظلمات إلى النور، ومن الذنب والمعصية إلى حب التوبة والاستغفار، ثم أتى على صدق توبتهم، بخطاب الله تعالى إلى عموم المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين.

فسبحان الذي سبقت توبته توبة المستغفرين، فنقلهم من حب الذنوب إلى حب الاستغفار والتوبة، ومن كراهية الطاعات إلى محبتها، وهذا كله بفضل الله تعالى.

إن قسوة البراءة وتهديد المشركين ومن لف لفهم، والإذن بقتالهم، هو بداية التوبة عليهم، وصفحة بيضاء يدخل العصاة من خلالها إلى رحمة الله سبحانه وتعالى، ومن الذنب إلى الاستغفار كي يتوبوا، وقد كان مع كثير منهم.

فالجهد والقتال على قسوته وكثرة جراحه، إلا أنه الدواء الشافي والبلسم الصافي لبتتر كل ما هو فاسد، وفضل الله بتوبته دون استثناء للجميع، مهما اشتدت عدائهم وعظمت ذنوبهم، فباب التوبة للتائب مفتوح، قال الله تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} (النساء: ١٧)، ودعوته جل في علاه قائمة ما دامت السموات والأرض، فلا يقنط من رحمته أحد مهما عظم الذنب وكبرت الخطيئة، إلا من كفر ومات على الكفر، قال الله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (الزمر: ٥٣).

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فواد عبد الباقي: ص/١٥٦-١٥٧ دار الهجرة / بيروت، ط/ ١٩٨٥ م.

الفصل الأول

تحديد العلاقات العامة في الإسلام

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التشريع الإسلامي في تنظيم العلاقات الإسلامية

المبحث الثاني: الأحكام المترتبة على تنظيم العلاقات الإسلامية مع غير المسلمين.

المبحث الثالث: الولاء والبراء في الإسلام.

المبحث الأول

التشريع الإسلامي في تنظيم العلاقات الإسلامية

ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: تحديد أهداف ومقاصد الفصل الأول وتحليلها.

المطلب الثاني: بيان مفهوم العلاقات العامة في الإسلام.

المطلب الثالث: التشريعات والقوانين الربانية من خلال السورة.

ويشتمل ثلاثة بنود:

البند الأول: تعريف القانون لغة واصطلاحاً.

البند الثاني: تعريف التشريع الإسلامي وأهم مميزاته.

البند الثالث: بعض القوانين الربانية والأحكام الشرعية من خلال السورة .

المطلب الأول: تحديد أهداف ومقاصد الفصل الأول وتحليلها

أولاً: تحديد أهداف الفصل وتحليلها:

الهدف الأساس في هذا المقطع هو: بيان التشريع الإسلامي في معاملة المشركين وأهل الكتاب^(١)، وأهداف أخرى نستنبطها من هذا المقطع ومنبثقة منه وهي:

- ضرورة تبرؤ المؤمنين من المشركين وأهل الكتاب.
- أن الله قد يتوب على من تم إعلان البراءة منه وبيان فضله في ذلك.
- إتمام العهد لمن عاهد وأوفي، بشرط أن لا ينقص من عهده شيئاً.
- أن يدرك المؤمنون أن للأشهر الحرم ارتباط بالعبادة، فلا بد من التقيد بحرماتها.
- أن يقاتل المؤمنون المعتدين وأهل الغدر والخيانة، والذين يؤذون رسول الله ﷺ من المشركين ومن لف لفهم.
- أن يلتزم أهل الإيمان بدواعي المروءة والشهامة وأن هذه الأخلاق هي من الدين.
- أن لا يخشى المؤمنون أحداً غير الله تعالى.
- أن يتيقن المؤمنون من وعد الله في تحقُّق أهداف الجهاد، كتغذيب وخزي الكافرين المهزومين، ونصر يشف الله به صدور المؤمنين، ويذهب غيظ قلوب الكافرين بهدايتهم ويتوب الله على من يشاء برحمته.
- ألا يغتر المؤمنون من الذين يُعَمَّرُونَ المساجد وهم يظاهرون الكافرين ويعادون المؤمنين.
- أن يتعرف المؤمنون على بعض صفات المُعَمَّرِينَ حقاً لمساجد الله، كالإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ولا يخشون أحداً إلا الله تعالى.
- أن لا يتخذ المؤمنون بطانة أو وليجة من غير المؤمنين، ولو كانوا أقرب الناس، وألا يتقدم شيء على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله^(٢).
- أن لا يعتز المؤمن إلا بربه ولا يستكثر إلا به، فما دونه قليل ولا يغني من الله شيئاً.
- ألا يقرب المشركون المسجد الحرام لكونهم يجمعون بين النجاسة المعنوية والمادية.
- أن لا يخاف المؤمن فقراً، ولا يطمئن لُغْنَى، لأن الفضل كله بيد الله تعالى.
- أن ينشأ المسلم على أساس من العقيدة السليمة، التي أنزلها الله في كتابه، وأن يتجرد لله تعالى وأن يخلص دينه له، وأن يحتسب في جهاده^(٣)، الأجر والثوبة من الله تعالى.

(١) صفة التفسير للصابوني: ج/١، ص/٥١٨.

(٢) في ظلال القرآن اقتباس بتصريف ج/٣، ص/١٥٨٦-١٦١٦.

(٣) في ظلال القرآن اقتباس بتصريف ج/٣، ص/١٦١٦-١٦١٩.

ثانياً: تحديد مقاصد الفصل وتحليلها:

- للسورة مقاصد عديدة، أهمها البراءة من المشركين، وضرورة موالاتة المؤمنين، يقول البقاعي: (مقصودها معاداة من أعرض عما دعت إليه السورة الماضية من إتباع الداعي إلى الله في توحيده، وإتباع ما يرضيه، وموالاتة من أقبل عليه)^(١)، ومن هذه المقاصد:
- البراءة من المشركين الذين يعادون الله ورسوله، لأن الله تَبَرَّأَ منهم ورسوله ﷺ كذلك.
 - الإقبال على الله يظهر من خلال تحذير المشركين من خطورة الإعراض عن دين الله.
 - حرمة دماء المسلمين، من خلال خطورة نقض العهود، فلا يجوز استباحتها بحال.
 - قتال وقتل من نكث أيمانه ونقض عهده مع المسلمين^(٢).
 - توجيه الخطاب للنبي ﷺ قصد به تحقيرهم، وبتبشيرهم، قصد به التهكم والتبكيث^(٣).
 - توبة الله من خلال تأجيل المُعَاهِدِينَ ليتوبوا، كي يحتاطوا لأنفسهم بالإسلام وإما السيف^(٤).
 - الاستماع لكلام الله فرصة للتوبة، وإقامة للحجة، وإنذار، كالمثل: فقد "أعذر من أنذر"^(٥).
 - تحذير المؤمنين من غدر المشركين والمناققين وخيانتهم، ومنع ظهورهم على المؤمنين^(٦).
 - محاربة رؤوس الكفر وأئمتهم وقطعها؛ إنهاء لدور أذنانهم.
 - قتال الناكثين عن أيمانهم أولى من قتال غيرهم ليكون ذلك زاجراً عن النقض^(٧).
 - ضرورة تألف القلوب بعد الانتصار، تقريب للناس طمعا في دخولهم دين الإسلام، يقول البقاعي: (ولما كان الشفاء قد لا يراد به الكمال)^(٨).
 - الولاء الكامل لله تعالى ورسوله وللمؤمنين، دون مباطنة أحد بوليجة^(٩).
 - إعمار المساجد، بالمؤمنين الصادقين، يقول البقاعي: (وذلك أن عمارة المساجد ليست مقصودة لذاتها، بل الدلالة على رسوخ الإيمان، والصلاة أعظم عمارتها، والزكاة هي المعين لعمدتها على عمارتها)^(١٠).
 - بيان أن حب الله ورسوله والجهاد في سبيله من أعظم المقاصد القرآنية.
 - بيان حقيقة النجاسة الحسية والمعنوية للمشركين^(١١).

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٥٥.

(٢) المصدر السابق: ج/٣، ص/٢٦٧، بتصرف.

(٣) المصدر السابق: ج/٣، ص/٢٧٠، اقتباس بتصرف.

(٤) قيس من نور القرآن الكريم، للصابوني: ج/٢، ص/١٣، اقتباس.

(٥) مجمع الأمثال لأبي فضل الميداني: ص/٧٠٦، رقم/٢٤٩٦.

(٦) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٧٣، بتصرف.

(٧) المصدر السابق: ص/٢٧٧، بتصرف.

(٨) المصدر السابق: ص/٢٨٠.

(٩) الوليعة الولوج: الدخول، الوليعة: البطانة، ولج يلج ولوجا ولجة إذا دخل فيه، و الوليعة: كل شيء أولجته وليس منه، والرجل يكون

في القوم وليس منهم، انظر لسان اللسان لابن منظور: ج/٢، ص/٧٥٩-٧٦٠.

(١٠) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٨٢ منقول.

(١١) المصدر السابق: ج/٣، ص/٢٩٦، بتصرف.

المطلب الثاني: بيان مفهوم العلاقات العامة في الإسلام:

العلاقات العامة جهود مبدولة وفق برامج معدة، هدفها تدعيم وتقوية مختلف روابط التواصل والتفاهم بين الأفراد والشعوب والمجتمعات بعضهم ببعض، من أجل التعارف وتبادل الخبرات والثقافات الإنسانية^(١).

أو كيفية التواصل بين الأفراد والجماعات والمجتمعات، بكافة وسائل التأثير المتاحة والشروط الممكنة، لتبادل المفاهيم والأفكار والثقافات، التي يمكن نشرها بالطرق المناسبة، بما يخدم ثقافة كل فريق حسب قوته الممكنة، بالشروط التي تحدد هذه العلاقة سلفاً، أو مستقبلاً، إما بتواصلها أو بقطعها.

لذلك فانه العليم الخبير بخلقه، هو الواضع لقانون غاية في الدقة، يخدم مصالح الخلق في كل زمان ومكان، لاستمرار عمارة الأرض والخلافة القائمة على هذه القوانين والسنن التي سنّها الله تعالى، كما أنه جل في علاه حدّد ونظّم العلاقات بمحدداتها بين المسلمين في سور كثيرة من القرآن الكريم، وخاصة الحجرات والنور، إلا أنه في سورة التوبة بيّن أسس العلاقة القوية بين المسلمين المبنية على أساس التعاضد والإتلاف والتوحد وخاصة في مواجهة أعداء الله تعالى، فقال **{إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** (التوبة:٤)، فالخطاب هنا موجه للمسلمين كافة، ومعلوم أن الذي يوقع المعاهدات هو رأس الدولة، بالتالي فالآية تعطينا إشارة قوية على خطورة شق عصا المسلمين بعدم امتثال حاكمهم لأمر الله تعالى، لكي لا يواجهوا ظهور الكافرين عليهم، وألا يستبيح بيضتهم أحد، قال تعالى: **{كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً}** (التوبة:٨)، مما يؤكد على أهمية أن يكون المسلمون يدا واحدة، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)^(٢)، فأهم مقاصد القرآن الكريم، توطيد العلاقة بين المسلمين، وإقامتها على أساس من بالتقوى، التي هي ميزان التفاضل الإلهي، قال الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}** (الحجرات:١٣). فقد صرح الله بحب المتقين مرتين في أول السورة، فقال: **{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}** (التوبة:٤)، (التوبة:٧)، يقول سيد قطب: (ففي الأول اشتراط استقامتهم في الماضي، وفي الثاني اشتراط استقامتهم في المستقبل) أي إن الآية الرابعة من سورة التوبة اشترطت استقامتهم في الماضي، والآية السابعة منها اشترطت استقامتهم في المستقبل^(٣).

(١) انظر <http://www.ngoce.org/psg2-3.htm> بتصرف

(٢) صحيح مسلم: ك/ البر والصلة والآداب، ب/ تراجم المؤمنين وتعاطفهم وتعاوضهم، ج/ ٤، ص/ ١٩٩٩-٢٠٠٠، ح/ ٢٥٨٦.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/ ٣، ص/ ١٦٠٣.

أهم مفاهيم ومحددات العلاقة مع المشركين:

- أمر الله تعالى بالبراءة من عهود المشركين، كما وحدد أهل العهد في ثلاثة أقسام:
- **القسم الأول:** أمر بقتال من نقضوا العهد ونكثوا الأيمان، ولم يستقيموا عليه، قال الله تعالى: **{أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَوُكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ أَخَشَوْنَهُمْ فَإِنَّهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}** (التوبة: ١٢). فتحديد العلاقة بين المسلمين وبين من غدر العهود ونقض المواثيق، برد عهودهم إليهم، وأن ينبذ إليهم بالخصومة والعداء والحرب، مع إعطائهم فرصة العود عن غدرهم في مدة معينة^(١).
 - **القسم الثاني:** من كان لهم عهد مؤقت ولم ينقضوه ولم يظاهروا على المؤمنين أحد، فأمر نبيه ﷺ أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم، قال الله تعالى: **{إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}** (التوبة: ٤). وكذلك تحديد العلاقة مع من أوفوا بعهودهم، فوجب إتمام عهدهم إلى مدتهم^(٢).
 - **القسم الثالث:** لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه أو كان لهم عهد مطلق فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر فإذا انسلخت، وجب قتالهم، قال الله تعالى: **{فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ}** (التوبة: ٥). كما حددت العلاقة مع الباقيين كل حسب موقفه من الإسلام، بتحديد صلتهم بالدعوة، في مدة زمنية معلومة^(٣). قال الله تعالى: **{فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ}** (التوبة: ٢).
- إن تحديد المدة الزمنية، ليعلم كل من يعادي هذا الدين، أن ديننا لا يقبل أي تهاون في زعزعة أمن المجتمع المسلم^(٤).
- إن إنهاء عهود الغادرين، وإعطاء مدة للملتزمين بالمواثيق، التي كانت قائمة بين المسلمين والمشركين ضرورة لا بد منها لتحديد نوعية العلاقة معهم، وإعطاء إنذار وتهديد لمن هم على غير العهد، فالبراءة المطلقة حددت بإنهاء هذه العلاقات التي ما كان من ورائها إلا الغدر والخيانة ويكون ذلك بإنهاء التعاقد أو التعاقد أصلاً مع المشركين، واستنكار ما يكون من عهد، عند الله وعند رسوله ﷺ^(٥)، ومن ثم عند المؤمنين.

(١) نظرات في كتاب الله للشهيد حسن البنا: ص/ ٢٣٩-٢٤٠.

(٢) المصدر السابق: ص/ ٢٣٩-٢٤٠.

(٣) المصدر السابق: ص/ ٢٣٩-٢٤٠.

(٤) نظم الدرر للبقاعي: ج/ ٣، ص/ ٢٦٤.

(٥) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/ ٣، ص/ ١٥٨٦.

إن تحديد العلاقة مع المشركين أو قطعها تقودنا إلى هدف عظيم ومقصد نبيل واضح الدلالة بيّن في كتاب الله تعالى، ألا وهو ريادة هذه الأمة لكافة الأمم، بمعنى أن من يملك قرار نفسه في تحديد علاقته مع الآخرين فإنه يلزم الآخرين بها؛ لأنه سيد نفسه، ولننظر اليوم كيف تتحكم بعض الدول المستكبرة في مصير كثير من دولنا، بفعل طغيان المستكبرين وفقد سيادة المستضعفين، وكيف يحدد هذا الظالم علاقته مع الآخرين على أساس: إما أن تكون معنا أو تكون ضدنا، وما كان ليحدث هذا، لولا غياب القائد المسلم والقوة المسلمة الفاعلة عن الساحة العالمية، فالله لا يقبل للمسلمين أن يكونوا في ذيل الأمم، أو تبعاً للكافرين من دون الله تعالى، وألا ينصروا رسوله ﷺ الذي أخذ له الميثاق من النبيين بتصديقه ﷺ ونصرته، قال الله تعالى: **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ** {ال عمران: ٨١}، يقول ابن كثير: (يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام لما أتى الله أحدهم من كتاب وحكمة وبلغ أي مبلغ ثم جاء رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من إتباع من بعث بعده ونصرته... فالرسول ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام دائماً إلى يوم الدين، هو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد لكان له واجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس)^(١)، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (لقد رأيتني في الحجر. وقريش تسألني عن مسراي. فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أنبئها فكربت كربة ما كربت مثله قط، قال فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلي، فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى بن مريم عليه السلام قائم يصلي، أقرب الناس به شبيهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي، أشبه الناس به صاحبكم (يعني نفسه)، فحانت الصلاة فأمتهم، فلما فرغت من الصلاة قال قائل: يا محمد! هذا مالك صاحب النار فسلم عليه، فالتفت إليه فبدأني بالسلام)^(٢).

فتحديد العلاقة مع الآخرين يتطلب سيادة وعزة وكرامة، مما يتطلب حُرّاً لا يقبل مطلقاً غدر عدوه، لأنه استشعر أهمية الاستخلاف في الأرض. فإذا كان الوفاء من الإيمان؛ فنقضه يدل على عدم الإيمان، وقلة حيلة من نقض عهده، وأنه مُحْتَقَرٌ من جانب عدوه، لأنه لو كان عكس ذلك ما تجرأ أهل الغدر على أهل الإيمان الأقوياء بالله تعالى.

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج/١، ص/٤٠٥

(٢) صحيح مسلم: ك/الإيمان، ب/ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال، ج/١ ص/١٥٦-١٥٧، ح/٢٧٨.

هذا حالنا اليوم مع أعدائنا ممن لم يلتزموا عهودنا، وموآثيق، قطعوها على أنفسهم في جميع المحافل الدولية والإقليمية، ومع ذلك يأبى أصحاب السلطات إلا أن يكونوا أدلة صاغرين؛ لوثوقهم بوعود الكافرين الكاذبة. فامثال أوامر الله تعالى واجتتاب نواهيه يورث العزّة والكرامة، وإن اتباع الأعداء والكافرين يورث ذلة وهوانا.

المطلب الثالث: التشريعات والقوانين الربانية من خلال السورة:

البند الأول: تعريف القانون لغة واصطلاحاً:

تعريف القانون لغة: القانون من القنّ وهو تتبع الأخبار والتفقد بالبصر، والضرب بالعصا، والقنة: قوة من قوى الحبل، والقانون مقياس كل شيء وجمعها قوانين^(١).

تعريف القانون اصطلاحاً: القانون هو علم اجتماعي، موضوعه الإنسان وسلوكه، ومحوره أعماله وردود أفعاله، يصعب عرضه بدقة في أغلب الأحوال، وهدفه حكم الجماعات والأفراد، حتى لا تترك علاقاتهم بشتى نواحيها، ينظمونها وفق رغباتهم فتحدث الفوضى، لذا لا بد لكل مجتمع من نظام يحكم العلاقات ويفرض الأمان فيه. بالتالي هو مجموعة قواعد التصرف التي تجيز وتحدد حدود العلاقات التبادلية والحقوق بين الناس والمنظمات والأفراد بين الفرد والدولة؛ إضافة إلى العقوبات لأولئك الذين لا يلتزمون بقواعد القانون وبنوده^(٢).

ويمكن تعريف القانون اصطلاحاً: بأنه مجموعة من القواعد التي تنظم علاقات الأفراد فيما بينهم في مجتمع من المجتمعات^(٣).

أقول: هو مجموعة القواعد واللوائح التي تنظم العلاقات المطردة بين الأفراد والكتل المجتمعية بكل دقة، لتكون نتائجها على الجميع متساوية وثابتة ومستقرة؛ فتحفظ الحقوق، وتضمن الواجبات، وتفرض الأمن والأمان بإقامة الحدود والعقوبات على الجميع دون محاباة.

البند الثاني: تعريف التشريع الإسلامي وأهم مميزاته:

التشريع الإسلامي هو مجموعة الأحكام والقواعد الشرعية الملزمة المتعلقة بتنظيم سلوك الأفراد داخل المجتمع المسماة بالشرعية الإسلامية، والمنبتقة والمستوحاة والمستنبطة من القرآن الكريم والسنة المطهرة، لتنظيم جميع العلاقات البشرية المرتبطة بكل شيء، ويمكن القول بأن القانون الإسلامي هو النظام الشامل والمتكامل والمتسع والمحيط لكل مفردات الحياة البشرية بكل أبعادها. وبالتالي يجب أن يكون هو المصدر الوحيد للتشريع في الدولة الإسلامية، فلا يجوز مخالفة أي من أحكام القانون الإسلامي.

(١) القاموس المحيط للفيروز أبادي: ج/ ٤ ، ص/ ٢٦٣ .

(٢) اقتباس http://seenjeem.maktoob.com/question?category_id=172&level=L2&question_id=4491

(٣) نفس الموقع السابق.

أهم مميزات وخصائص التشريع والقانون الإلهي:

إن ما يميز القانون الإسلامي خصائصه الإيجابية التي جعلت من القانون الإسلامي قانوناً متجدداً وصالحاً لكل الأزمان والمجتمعات، وإيجاده الحلول لكل المشكلات. فالشريعة الإسلامية هي الحجر الأساس للمجتمع المسلم، بمقوماته وقيمه وأعرافه وحاجاته الضرورية والتحسينية والتكميلية، وليس ناتجا عن صراعات طبقية، أو احتكاك بين علاقات الإنتاج المتعارضة، أو الأفكار المتناقضة، فالشريعة ليست استجابة لحاجات بشرية آنية، فالقانون الإسلامي إنما هو منهاج إلهي، يتناول كل شيء من حياة الإنسان والمجتمع، وهو الذي يحدد علاقة الإنسان بربه وبأنفسه وبأفراد مجتمعه قاطبة، كما وينظم علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول، في جميع الأحوال، ومن هنا يشمل التشريع والقانون الإسلامي جميع مناحي الحياة، بدءاً من آداب قضاء الحاجة إلى إقامة الخلافة^(١).

وأهم هذه المميزات والخصائص:

- **الدوام:** مهما جدَّ من حاجات ودعت دواعي النمو والتطور، وطراً الكثير من المتغيرات، فإن الاجتهاد في سن القوانين يبقى مشدوداً إلى أصل ثابت، ومبدأ أساس أراده الله على الدوام في المجتمع المسلم، فهو صالح ومناسب لكل زمان ومكان.
- **الكمال:** الإسلام في شرائعه العامة والخاصة، والتطبيق الحق وفي بكل حاجات الإنسان ومتطلباته، فهو تشريع كامل، لا يعتريه نقص أو خلل، ولا يحتاج إلى التغيير، أو التبديل، فلننظر إلى معظم التشريعات الفقهية، كيف وفَّت بحاجات الناس ومتطلباتهم.
- **الشمولية:** إن المبادئ الكلية العامة للشريعة الإسلامية جاءت شاملةً لكل أصول الحياة الإنسانية وجوانبها المتعددة، فتناولت حياة الأفراد بعضهم ببعض، والأسس التي تقوم عليها علاقات الأفراد بالدولة، كما ونظمت جميع مناحي الحياة المدنية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، فلم يغفل عن شيء من مستلزمات الحياة، أو أحداً من أفراد المجتمع، فلم يفرق بين إنسان وإنسان أو قبيلة دون أخرى.
- **السمو:** إن التشريع الإسلامية مطابق للفطرة ومقومات وجودها، فهي من صنع الله العليم الخبير بما خلق وما يلزم، فما غاب عنه شيء، راعى أحوال الناس وتقلباتهم، ضعفهم وقوتهم، وما حابى حاكم على حساب محكوم، فلا يمكن أن يصل إلى مستوى كمال حاجات الناس وما يلزمهم على مدى الأيام أحد^(٢).
- **المرونة:** إن القانون والتشريعات الإسلامية موضوعة في أصلها للاستمرار وقابلة للتجدد، لتواكب حركة العصر وحاجات الناس المتجددة من خلال موازنات دقيقة، محكومة

(١) المجتمع المسلم د. محمد علي الهاشمي: ص/ ١١-١٢ باختصار وتصرف

(٢) المصدر السابق: ص/ ١٣-١٦ باختصار وتصرف.

بالمنطق العلمي، لتضعنا أمام الحقيقة الكبرى، أن الأصل الثابت للشريعة الإسلامية أكثر طواعية ومرونة لتلبية حاجات التطور في الحياة البشرية. كما وأن باب الاجتهاد مفتوح لم يغلق مما جعلها أكثر مرونة من غيرها^(١).

- **البساطة:** قامت الشريعة أصلاً على السماحة والبساطة والسعة دون تكلف، قال تعالى: **{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}** (البقرة: ٢٨٦)، وقامت على التيسير، فقال: **{..يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر...}** (البقرة: ١٨٥)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (يسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا)^(٢)، فالقانون الإسلامي أساسه اليسر، سواء في الواجبات أم في المستحبات، وإنما الشدة أحياناً تأتي من باب الأهم وللضرورات، وبالتالي فهي استثناء^(٣). هذه المميزات تجعل من القوانين الإسلامية فريدة في نظمها وتشريعاته، فإن التزامها الناس عمرت الأرض بما يرضي الله، وإن هجرت ضاقت الأرض بما رحبت على أهلها.

البند الثالث: بعض التشريعات والقوانين الربانية من خلال السورة:

أولاً: أن الله مخزي^(٤) المشركين: لقد كتب الله وحكم بخزي المشركين ومن لف لفهم، فهذه بشارة للمؤمنين بقتل المشركين وهزيمتهم في الدنيا، وخزي سينالهم وصغار وذلة وعذاب أليم في الآخرة، يقول البقاعي: (مخزي المشركين) أي كلهم منكم ومن غيركم في الدنيا والآخرة، لأن قوله قد سبق لديه، ولا يبذل القول لديه^(٥)، ويقول الرازي: (وهذا ضمان للمؤمنين من الله تعالى بفرج الله ونصره لهم على المشركين، وهزيمة للمشركين، يتبعها خزي وإذلال وفضيحة وعار)^(٦).

ثانياً: وجوب قتال من طعن في دين الله تعالى: أوجب الله تعالى قتال أهل البغي والعدوان وأهل الغدر ومن نقض أيمانه مع المؤمنين، أو طعن في دين الله تعالى، قال الله تعالى: **{وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ}** (التوبة: ١٢)^(٧)، يقول القرطبي: (استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كل من طعن في الدين إذ هو كافر، والطعن أن ينسب إليه ما لا يليق به، أو استخف بشيء من الدين ثبت بالدليل القطعي على صحة أصوله، واستقامة فروعه)^(٨).

فما أكثر المتهاونين والطاعنين اليوم في دين الله دون رادع مبين، ولو أخذ المسلمون أمرهم بحق الله تعالى، وطبقوا شرعه، ما تتناول على رسول الله ﷺ بصور الاستهزاء أحد،

(١) المجتمع المسلم د. محمد علي الهاشمي: ص/ ١٣-١٦ باختصار وتصرف.

(٢) صحيح البخاري: ك/الأدب، ب/ قول النبي يسروا ولا تعسروا، ج/ ٣، ص/ ١٢٢٧، ح/ ٦١٢٥.

(٣) انظر: <http://www.moltka.net/forums/lofiversion/index.php/t13137.html> باختصار وتصرف.

(٤) خزي: وقع في بلية وتشهير فيدل وهو النكال الفاضح، القاموس المحيط للفيروز أبادي: ج/ ٤، ص/ ٣٥٣.

(٥) نظم الدرر للبقاعي: ج/ ٣، ص/ ٢٦٦.

(٦) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/ ١٤، ص/ ٢٢٠، بتصريف.

(٧) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/ ٥، ص/ ١٠٠.

بعد أن أمعن اليهود والنصارى قتلا وتقتيلا في ديار المسلمين، كما لا ينبغي لهم أن يشاركوا المسلمين بشيء من عبادتهم الكفرية، حتى لا يكون هناك مجال للاستهزاء والطنع، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (التوبة: ١٧)، لذا وضع الله تعالى قانونا يمنع دخول الكافرين مساجد الله عموما والمسجد الحرام على وجه الخصوص، (دللت الآية على أن الكفار ممنوعون من عمارة مسجد من مساجد المسلمين، حال كونهم مقرين بكفرهم، قولا، كقولهم: كفرنا بدين محمد، وفعلا: بسجودهم للأصنام)^(١)، مع بيان بعض صفات المؤمنين الذين يعمرون مساجد الله، كالمواظبة على أداء العبادات فيها، وقصدها للذكر والدعاء وإحياء شعائر الله تعالى^(٢).

ثالثا: حرمة اتخاذ أولياء من دون الله: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (التوبة: ٢٣)، بين تعالى: حكماً وقانونا إلهيا، بحرمة موالاته الكافرين، مع ضرورة التبرؤ منهم. يقول الرازي: (اعلم أن المقصود من ذكر هذه الآية أن يكون جوابا عن شبهة عدم إمكانية البراءة من الكفار، بسبب أن يكون الرجل مسلما، وأبوه كافرا أو أخوه، والعكس، وإذا كان الأمر كذلك، كانت البراءة التي أمر الله، كالشاق الممتنع المتعذر، فهذه الآية جاءت لتزيل هذه الشبهة)^(٣). يقول البنا^(٤): (فإن استحباب الآباء والأخوة الكفر على الإيمان وجب التبرؤ منهم، فلو وقفوا على الحياد أو مكرهين لكان لأبنائهم أن يوالوهم إن شاعوا تقديرا للرحم وإيقاء للصلوات الاجتماعية)^(٥). من هذا القول الرباني نستنبط بعض الأسرار والحكم:

- (يا أيها الذين آمنوا) الخطاب لمن أقر بلسانه الإيمان وأعرض عن سواه من الأنداد^(٦).
- ضرورة البراءة من الكفر وأهله، والابتعاد عنهم ومفارقتهم، فعن جرير بن عبد الله البجلي^(٧) أن رسول الله ﷺ قال: (أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين)^(٨).
- ذكّر الآباء والأخوة لأنهم محل السمع والطاعة في أغلب الأحيان.
- تكون المقاطعة والبراءة من الأقارب المشركين تامة إن طلبوا الكفر محبة على الإيمان.
- سمى الله من والى الكافرين راضيا بكفرهم، ومن استحبههم وقدمهم على الله ورسوله والجهاد في سبيله بالفاسقين، لئلا يقطع أحد بكفرهم جزافا؛ إلا بدليل فيه من الله برهان.

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٧-٨، بتصرف.

(٢) نظرات في كتاب الله تعالى للشهيد حسن البنا: ص/٢٥٥، بتصرف.

(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٨، بتصرف.

(٤) هو حسن أحمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي ولد ١٩٠٦م، نشأ في بيت علم وصلاح، أتم حفظ القرآن وهو ابن أربعة عشر، واعتزل في ١٢/٢/١٩٤٩م، انظر مقدمة مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا: ص/٥-٧ باختصار.

(٥) نظرات في كتاب الله لحسن البنا: ص/٢٦٠، بتصرف.

(٦) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٩١، بتصرف.

(٧) أبو عمرو أسلم في سنة وفاته ﷺ مات في ٥١هـ. انظر تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/١، ص/٣٦٨.

(٨) سنن الترمذي: ك/السير، ب/ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين، ص/٣٧٨، ح/١٦٠٤. (صحيح)

- ضرورة تحمل جميع المضار الناجمة عن فقد الأهل والأقارب والعشيرة والأموال، حيا في الله ورسوله بالجهد من أجل سلامة الدين^(١)، فكل شيء في سبيل الله يهون.
- ذكرت الآية كل نعيم الدنيا وعز المرء وجاهه؛ وأن هذه هي الدنيا جميعها.
- ذكر القرطبي أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان^(٢).

رابعا: حرمة التولي عند ملاقات العدو، قال تعالى: **{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ}** (التوبة: ٢٥)، لقد وقع المسلمون في حرج شديد عندما ولوا مدبرين بسبب إعجابهم بكثرتهم؛ لولا فضل الله بثبات النبي ﷺ عليهم لهلكوا. فالحمد لله الذي نصر دينه بيده سبحانه.

من هذه الحادثة تظهر لنا بعض الدروس والعبر والأسرار منها:

- أن الله تعالى قد تعهد بنصرة دينه وأوليائه.
- خصَّ الله عز وجل بنصره وعزته وتمكينه، من امتثل أمره، والتزم شرعه، دون النظر إلى كثرة عدد أو عدة.
- إن العجب بكثرة عدد أو عدة أو اغترار بالنفس، مهلكة وأي مهلكة.
- ضرورة التواضع لله تعالى واستئصال نصره بكثرة عبادته واستغفاره وذكر حمده وشكره.
- خصَّ الله تعالى المسلمين بالرسول الكريم ﷺ، بثباته وإنزال السكينة عليه.
- يقول الشهيد البنا: سبق إلى ظنون البعض أن فتح مكة كان بمحض قوتهم وكثرة عددهم، فأراد الله تعالى أن يوجه عباده المؤمنين إلى الصراط المستقيم، بأن النصر من عنده، وألا يغتروا بقوتهم وكثرتهم، وأن عاقبة ذلك وخيمة، ثم ليكسر حدة الغرور المتوقع عند النصر وخاصة أنهم حديثو عهد بدين^(٣).
- إن التولي يوم الزحف من الكبائر، فعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: (اجتنبوا السبع الموبقات) قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: (الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)^(٤).

- إن معصية الله تعالى تُثقلُ نفس المؤمن بالهم والغم والحزن ما الله به عليم.
- إن الأرض على سعتها ورحابتها لا تتسع لمؤمن استشعر قُبْحَ ذنبه.

خامسا: نصر الله سنَّة إلهية بكتاب سبق من الأزل لدينه وأوليائه وغلبة جنده، قال

الله تعالى: **{إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ**

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٩٢، بتصرف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/٥، ص/١٠٨.

(٣) نظرات في كتاب الله لحسن البنا: ص/٢٦٩، بتصرف.

(٤) صحيح البخاري: ك/الحدود، ب/ رمي المحصنات، ج/٤، ص/١٣٥٧، ح/٦٨٥٧.

يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ
كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (التوبة: ٤٠) وقال: ﴿وَلَقَدْ
سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصافات: ١٧١-
١٧٣)، لقد نصر الله رسوله ﷺ ولم يكن معه إلا صاحبه ﷺ، فنصر الله قائم، لمن يجاهد بنفسه،
دون أن ينظر إلى ميزان التكافؤ، لأن كفته راجحة بالله، يقول سيد قطب: (ذلك مثل على
نصرة الله لرسوله وكلمته؛ والله قادر على أن يعيده على أيدي قوم آخرين غير الذين يتناقلون
ويتباطؤون)^(١)، ويقول القرطبي: (إن تركتم نصره فإله يتكفل به، إذ قد نصره الله في مواطن
القلة، وأظهره على عدوه بالغبلة والعزة)^(٢). من أهداف هذه الآية:

- ضرورة أن يقوم المؤمنون بنصرة دين الله تعالى.
- ترغيب المؤمنين في الجهاد بعد أن حذر من مغبة عدم النفير^(٣).
- تحذير وتهديد مبطن أيضا لمن لم يجاهد.
- أن لا يحزن المؤمن إن ضاقت به السبل وادلهمت الخطوب وكثر الخصوم، فإله موجود
بقوته وعزته ونصره.

أما من مقاصدها:

- نصر الله قائم بمن نصره الله ومن لم ينصره.
- سكينه الله نازلة على المؤمنين لمن تحقق فيهم أركان الإيمان والإسلام.
- بيان أن الكفر منحسر وكلمته سفلى، وكلمة الله هي العليا.
- بيان أسباب عزة المؤمن المستمدة من عزة الله وعظمته وحكمته.

سادسا: ليس من المسلمين وليسوا منه من يخالفهم في المعتقد ويعاديهم في الدين،
هذه حقيقة وسنة إلهية قائمة، مهما كانت عوامل الالتقاء معهم، فإله يقرر ويبين نوع العلاقة
مع المنافقين ويحددها ما دام على نفاقه وكفره، وإن خالطنا في المأكل والمشرب، وإن من
يخالفنا في المعتقد ليس منا ولسنا منه، قال الله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ
مِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ (التوبة: ٥٦)، كثيرون الذين يدعون الإسلام ممن يوالون أعداء الله
تعالى، من اليهود والنصارى ويدافعون عنهم، ويحلفون أنهم مسلمون، ويسوغون لأنفسهم
الولاء لحلفائهم ويتبرؤون من المجاهدين، ويقولون إن واقع الحياة يتطلب تعاوننا وتتسيفا مع
غير المسلمين، ويتطلب محاربة المسلمين لأنهم خارجون على ما يزعمون قيم التحضر

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٥٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/٥، ص/١٤٧.

(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٦٢ بتصرف.

وشرعية ابتدعوها، متجاهلين في ذلك شريعة الإسلام وقيمه العظيمة، يقول الطبري^(١):
(ويحلفون بالله لكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون كذبا وباطلا إنهم لمنكم في الدين والملة،
﴿وَمَا هُمْ مِّنْكُمْ﴾، أي ليسوا من أهل دينكم وملتكم، بل هم أهل شك ونفاق)^(٢).

سابعاً: هلاك الظالمين من سنن الله الدائمة التي لا تتبدل ولا تتحول، فمن فضل الله تعالى أن ينصر المؤمنين إن أخذوا بأسباب النصر، ويهلك المجرمين ويجعلهم عبرة، إن تعاطوا مع أسباب الإجمام والضلال واتخذوها سنة، لا يردعهم خلق أو دين، فإله تعالى يُذَكِّرُ أهل الظلم والكفر بنبأ من قَبْلَهُمْ مِنْ أَمْثَالِهِمْ وما حدث لهم من سنة الإهلاك، قال تعالى: ﴿لَأَلْمُ يَأْتِيَهُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (التوبة: ٧٠)، يخاطب الله تعالى المنافقين بصيغة الغائب تبيكيتاً لهم وتحقيراً، يقول محمد رضا: (والمراد من ضرب هذا المثل للكافرين برسالة محمد ﷺ من المجاهرين والمنافقين، أن سنة الله في عباده واحدة، لا ظلم فيها ولا محاباة، فلا بد أن يحل بهم من العذاب ما حل بأمثالهم من أقوام الرسل إن لم يتوبوا)^(٣). فلذلك شبه تعالى المنافقين بالكفار المتقدمين في تكذيبهم الرسل والأنبياء، واشتغالهم بالنعيم الزائل^(٤)، فمن مقاصد هذه الآية العظيمة أن الله تعالى يبين أن من عدله؛ جريان سنته على من ظلموا أنفسهم، وإهلاكهم بأليم عقابه في الدنيا قبل الآخرة، وإن المنافقين جمعوا خصال الشر كلها، عندما شبههم بمعظم الأقوام السابقين الكافرين، قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وأصحاب مدين، والمؤتفكات.

ثامناً: عدم وجوب الاستغفار للمنافقين معلومي النفاق وعموم المشركين: قال الله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٨٠)، يقول الرازي: (المقصود من هذا الكلام أن القوم لما طلبوا منه أن يستغفر لهم منعه الله منه، وليس المقصود من ذكر العدد تحديد المنع)^(٥)، فلا ينفع الدعاء ولا الاستغفار، لمن أُشْرِبَ في قلبه الكفر والنفاق، وعلامات هؤلاء المجرمين وصفاتهم:

- تكذيب الرسول أو بعض ما جاء به الرسول ﷺ.
- بغض الرسول أو بغض بعض ما جاء به الرسول ﷺ.
- كراهية انتصار دين الله ورسوله ﷺ والسرور بهزيمة دين الله ورسوله.

(١) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الأملي الطبري أبو جعفر شيخ المفسرين، صاحب التصانيف المشهورة، ولد بآمل ٢٢٤هـ وتوفي ببغداد ٣١١هـ. انظر: طبقات المفسرين للداودي: ج/٢، ص/١١٠-١١٨.

(٢) جامع البيان للطبري، ج/٦ ص/١٠٧، ط/٤، ١٩٨٠م، دار المعرفة - بيروت.

(٣) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/١٠، ص/٥٤٠.

(٤) قيس من نور القرآن الكريم، للصابوني: ج/٢، ص/٥٦.

(٥) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٤٧.

- الاستهزاء بالله ورسوله وآياته من خلال الاستهزاء بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ (التوبة: ٦٥-٦٦).
- إرادة المنافقين ورجبتهم وسعيهم: التدمير والطعن والتغيير في دين الله بهدف طمسه، من خلال محاولتهم قتل الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿وَهُمْ أَوْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ (التوبة: ٧٤).
- الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ...﴾ (التوبة: ٦٧).
- إقامة العلاقات الخفية والعنوية مع الكافرين وموالاتهم ومناصرتهم ضد المسلمين، قال تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (التوبة: ١٠٧)، ونحو قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِئْتِكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الحشر: ١١).
- نهى الله رسوله ﷺ والمؤمنين أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى.
- يقول البقاعي: ولما كثرت الأوامر بالبراءة من أحياء المشركين، وأيضا بالبراءة من أمواتهم أو الدعاء لهم، جاءت هذه الآية تشير إلى البراءة من كل مشرك، وبما أن المبايعة وقعت على تخصيص الجنة بالمؤمنين، وأن غيرهم أصحاب النار، لهذا ما ينبغي للنبي ﷺ والمؤمنين أن يستغفروا للراسخين في الشرك ولو كانوا أقاربهم، {من بعد ما تبين لهم} بموتهم على الشرك، فلا أهلية لهم للجنة، وقصد الاستغفار الإقبال بهم إلى الإيمان الموجب للغفران^(٢). يقول القرطبي: (هذه الآية تضمنت قطع موالاة الكفار حيهم وميتهم، فإن الله لم يجعل للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين)^(٣)، ويقول الشوكاني: (وهذه الآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار، وتحريم الاستغفار لهم والدعاء لما لا يجوز لمن كان كافرا)^(٤). وأن حكم النهي باقٍ إلى قيام الساعة.
- تاسعا: حرمة الإعجاب^(٥) بالكافرين وأموالهم لأنها من مظاهر الولاء لهم: إذا كان العجب بالنفس من أمراض القلوب، ومحبط للعمل، ومذهب للأجر^(٦)، فكيف بمن يعجب بهم وبأموالهم، فالإعجاب بهم وإظهار الثناء عليهم والإشادة بهم، دون النظر إلى عقائدهم الباطلة، من أكثر مظاهر الولاء لهم، لذلك نهى الله تعالى عن الإعجاب بهم، فقال: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾ (التوبة: ٨٥)، يقول البقاعي: وفي ذلك تدريب لهم على الحب في الله والبغض فيه، لأن

(١) منهاج المؤمن دمصطفى مراد: ص/ ١٧-١٨، بتصرف دار الفجر للتراث، ط/ ١/ ٢٠٠١م

(٢) نظم الدرر للبقاعي: ج/ ٣، ص/ ٣٩٢-٣٩٣ باختصار.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/ ٥، ص/ ٢٤٩.

(٤) فتح القدير للشوكاني: ص/ ٧٦٧،

(٥) العجب: الزهو والكبر، والسرور والرضا، انظر القاموس المحيط للفيروز أبادي: ج/ ١، ص/ ١٣٤-١٣٥.

(٦) المصدر السابق: ص/ ٩٦ بتصرف.

هذا المقصد العظيم من أدق أبواب الدين فهماً وأجلها قدراً، وعليه تبتنى غالب أبوابه، ومنه تجتني أكثر ثمراته وآدابه^(١).

عاشراً: حرمة مساجد الضرار^(٢) وإقامة الصلاة فيها: في الوقت الذي بدأت الوثنية تلفظ أنفاسها الأخيرة، علق المنافقون آمالهم على قرب غزو الروم للمدينة فبدعوا بيت الأراجيف والأكاذيب والشائعات في المدينة استعداداً لقدم الروم، وتحقيق حلمهم بالقضاء على المسلمين، فخافوا أن ينكشف أمرهم، فابتدعوا مسجد الضرار حتى يكون مركز إعلامهم وبت سمومهم وافتراءاتهم ضد المسلمين، ليكون الكفر رايتهم، والتفريق بين المؤمنين غايتهم، ويتربون الكافرين لهزيمة المسلمين لنفاقهم انتصاراً ، قال تعالى: **لَوَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** {التوبة: ١٠٧}، فكل من يتخذ مسجداً أو بناءً أو مكاناً عاماً أو خاصاً إضراراً بالمسلمين وطعناً في جهادهم ودينهم وبت سموم الفرقة بين المؤمنين، يتربون من يحارب الله ورسوله لهزيمة المسلمين فإنه مثلهم، يقول الرازي: (اتخذوه للضرار والكفر فيه، يطعنون برسول الله ﷺ ، ويفرقون بواسطته جماعة المؤمنين)^(٣). وذلك أن المنافقين قالوا: نبنى مسجداً فنصلي فيه، ولا نصلي خلف محمد، فإن أتانا فيه صلينا معه، وفرقنا بينه وبين الذين يصلون في مسجده، فيؤدي ذلك إلى اختلاف الكلمة وبطلان الألفة، منتظرين عدو الله أبا عامر الفاسق أن يأتي بجند الروم لمحاربة محمد ﷺ وإخراجه هو وأصحابه، وهم كذلك حتى قبل بناء مسجد الضرار، وليحلفن إن أردنا إلا الفعل الحسن من توسعة على المسلمين ورفع بالضعفاء منهم وذي الحاجة، وإنهم لكاذبون بشهادة الله تعالى.

من أجل هذا أمر الله رسوله ﷺ ألا يصلي فيه، وكذلك المؤمنين، ولذلك عجل رسول الله ﷺ بمجرد عودته من غزوة تبوك بهدمه، وهذا حكم قائم على كل بنيان أو عمل، هدفه الكفر والطعن بالمؤمنين وإن سمي هذا البناء مسجداً، أو كان هذا العمل عبادة، وعلم أن تأسيس هذا البناء وهذا العمل كان مقصده التفريق بين المؤمنين، ينتظرون كبيرهم المتحالف مع أعداء الله لقتل المسلمين وإخراجهم، فلا بد من هدم هذا البناء وإبطال أي عمل يسعى لذلك، فمن أعظم مقاصد بناء المساجد العبادة، قال الله تعالى: **لَوَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** {الجن: ١٨}. فبحسن طاعة الله وامتنال أمره واجتتاب نواهيه، وإتباع منهج رسوله ﷺ وفق سنته وهده، تتأسس وحدة الجماعة المسلمة، وتتقوى رابطتهم.

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/ ٣٧١ بتصرف.

(٢) ضد النفع، والقحط والشدة والضيق ، انظر القاموس المحيط للفيروز آبادي: ج/٢، ص/١٤٧.

(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٩٣-١٩٤، بتصرف.

الحادي عشر: عظمُ ذنبِ المؤثرين أنفسهم عن الجهاد والغزو: لقد شنَّع الله على المنافقين تخلفهم ورغبتهم بالعودة عن الجهاد، فقال: {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِّنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} (التوبة: ١٢٠). لذا جاء النهي عن التخلف عن الغزو بأبلغ صور التوبيخ، يقول البقاعي: {ما كان} ما صح وما ينبغي بوجه من الوجوه... فهو نهى بليغ مع تقبيح وتوبيخ وإلهاب وتهيج، ولما علل الأمر بالتقوى، علل النهي عن التخلف بما يدل على صدق الإيمان، فيصير دالا على نقيضه فقال: {ذلك} أي النهي العظيم عن التخلف في هذا الأسلوب النافي للكون^(١).

لذلك كان التخلف عن الغزو والتولي يوم الزحف من أعظم الذنوب ومن أكبر الكبائر، ولننظر إلى عقاب الثلاثة الصادقين الذين خلفوا في الدنيا، فكيف بمن كذبوا وسوغوا الحجج والأعذار، أين سيذهبون من عذاب الله يوم القيامة؟

ولئلا يُطبع على قلب المؤمن بالنفاق، حذر تعالى من ذلك بقوله {مَا كَانَ}، فليس من صفات المؤمن مطلقا التخلف عن الجهاد، قال الله تعالى: {رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} (التوبة: ٨٧)، وقال: {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (التوبة: ٩٣). يتبين من خلال الآيتين خطورة التخلف عن الجهاد:

- لا يجوز للقادر المستطيع أن يتخلف عن الجهاد، بحال من الأحوال.
- إذا كانت النفس في سبيل الله تبذل رخيصة، فما دونها أحقر من أن يبخل المرء بها.
- ذكر تعالى أن أول ما يصيب المجاهد الظمأ، ثم النصب الناتج عن العطش، ومن ثمَّ الجوع الناتج عن الأمرين، لذلك وجد مع المحاربين في معظم الجيوش "المشربة"^(٢).
- بين الله أن أنواع المشقة الحاصلة في الجهاد والموجبة للأجر، خمسة: قال الرازي: ظمأ وإعياء وتعب وجوع شديد، وموطئ قدم يغيظ الكفار، ونيلا ينالون من عدوهم، إلا كتب الله لهم به عمل صالح، فما أعظم بركة الطاعة وما أعظم شؤم المعصية.
- طاعة الله تحتاج إلى حركة دائمة وجهد متواصل ينتج عنهما عطش وإرهاق وجوع وإرهاب العدو للنيل منه^(٣).
- دلالة على أن محبة الله ورسوله ﷺ مقدمة على حب النفس والولد والغالي والنفيس.

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٤٠٠-٤٠١. بتصريف

(٢) بكسر الميم إناء يشرب فيه. انظر: المختار الصحاح للرازي: ص/١٤٠. (أو ما يسمّى بالمطارة).

(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٢٢٤، بتصريف.

- المنافقون أول الخوالف، وهم أول من يستأذن عن الغزو والجهاد والإنفاق.
- شبه الله الخوالف من المنافقين بالنساء اللاتي يتخلفن في البيوت لعجزهن فلا يبرحن
- رضوا بأن يكون مع النساء والضعفاء والعجزة وهم أولوا طول: (جاه وغنى وقوة).
- هذه إشارة لطيفة إلى أن المنافقين محرومون من شرف العبودية لله تعالى، فاستعبدتهم الدنيا، فتحولوا إلى عبيد العبيد أدلة صاغرين.
- الرضا بالعودة تعني كراهية الجهاد والغزو والإنفاق.
- إن الطبع والختم من دواعي رسوخ الكفر بقوة في قلب من طبع الله على قلبه، فإن كانت هذه الدواعي من العبد لزم التسلسل، وإن كان من الله فالمقصود حاصل^(١).
- إن التخلف عن الجهاد تحرمهم من أعظم مقاصد الجهاد: الإيمان بامتثال أوامر الله، أضف إلى ذلك هداية الناس، ومن ثم حماية المؤمنين من أطماع الكافرين، يقول البقاعي: ولما كان فاعل هذه الأشياء الجهادية محسنٌ لنفسه بإقامة الدليل بطاعته على صدق إيمانه، وأما كونه محسنٌ لغيره من المؤمنين، فبحمايتهم من طمع الكافرين، وأما إحسانه في حق الكافرين فبحملهم على الإيمان بغاية الإمكان^(٢).

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٥٧. بتصرف

(٢) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٤٠١. بتصرف

المبحث الثاني

الأحكام المترتبة على تنظيم العلاقات الإسلامية مع غير المسلمين.

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: الأحكام الشرعية المترتبة على تنظيم العلاقة مع غير المسلمين.

ويشتمل على أربعة بنود:

البند الأول: العلاقة داخل الدولة الإسلامية وخارجها.

البند الثاني: الآيات التي تحدد وتنظم العلاقة مع غير المسلمين.

البند الثالث: تنظيم العلاقة مع أهل الكتاب وتحديدها.

البند الرابع: الجزية وأهل الكتاب.

البند الخامس: بعض أسرار ولطائف آية الجزية.

المطلب الثاني: الإعجاز التشريعي والتربوي في تنظيم العلاقات مع غير المسلمين.

ويشتمل على بندين:

البند الأول: تعريف الإعجاز التشريعي التربوي لغة واصطلاحاً.

البند الثاني: الإعجاز التربوي في بعض الآيات وحكمة التشريع فيها.

المطلب الأول: الأحكام المترتبة على تنظيم العلاقة مع غير المسلمين.

البند الأول: العلاقة داخل الدولة الإسلامية وخارجها:

قامت هذه العلاقة على عنصرين:

أولاً: تنظيم العلاقات داخل المجتمع المسلم وتوطيدها:

أسس النبي ﷺ دولة الإسلام على القواعد الشرعية المبنية على أسس العقيدة السليمة من أول يوم، وسار على نهجه الخلفاء الراشدون ﷺ من بعده، بعد أن رسخ ووطد لعلاقات داخلية متينة مبنية على روابط الأخوة والمحبة والتعاون والإيثار، فاهتم بالأرحام وذوي القربى، وأسس لحسن الجوار والصدافة، ثم عامة المسلمين، حيث بنيت هذه العلاقات على حفظ الحقوق العامة والخاصة التي يصعب ذكرها أو حصرها، وعلى سبيل المثال لا الحصر، حث الإسلام على رد السلام وعبادة المريض وإجابة الدعوة، والنصيحة لكل مسلم، وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وإصلاح ذات البين، والسعي في قضاء حاجاتهم ومصالحهم، وتنفيس كرباتهم، وحذر من كل ما يسبب الخلافات والفرقة والعداوة^(١).

هذه العلاقات أسس لها لتكون متينة وقوية، ومرجعا لمن خلفهم في معالجة وإصلاح

واقع الحال الذي قد يطرأ عليهم.

ثانياً: تنظيم العلاقة مع المشركين داخل الدولة الإسلامية وخارجها:

الإسلام لم يتجاهل أفراد مجتمعه ولو كانوا من غير أتباعه، بل أقام العلاقات معهم

على دعائم ثابتة منها:

- علاقات قائمة على العدل والتسامح والإحسان، والبر وحسن الجوار، والاحترام المتبادل، لمن لا يعتدي، ومرجع هذه العلاقة قول الله تعالى: **{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}** (الممتحنة: ٨-٩).
- المساواة في التعامل والاحترام المتبادل، قال الله تعالى: **{كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}** (التوبة: ٧)، فالإسلام لا يقبل الغدر والخيانة، إلا إذا بدر منهم الوفاء فالمسلمون من أهل التقوى أولى بالوفاء من غيرهم.

لقد كان هذا التنظيم لهذه العلاقة على هذه الصورة من أول لبنات الدولة الإسلامية

بناءً، ثم أخذ التنظيم صورة أخرى مع غير المسلمين، نظراً لانقطاع الوحي بعد ذلك، ولينظر

(١) منهج القرآن في إصلاح المجتمع د. محمد السيد يوسف: ص/٢١٢ - ٢٢٤، باختصار وتصرف، دار السلام القاهرة ط/٢٠٠٤م

المسلمون أمرهم ويهتدوا طريقهم من خلال الشعاع والنور الذي رسمه رسول الله ﷺ لهم، وليبقى آخر ما نزل من قواعد تنظيم العلاقات في القرآن الكريم التشريع الأساس لتنظيم هذه العلاقة، من أجل الهدف الأساس، التي من أجلها أرسل الله الرسل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢)، ليكون المجتمع المسلم قويا متينا لقوله ﷺ (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)^(١)، وهذا يقودنا إلى أمر مهم في نوعية العلاقات الإسلامية، ألا وهو مبدأ نصرة المؤمنين ومولاتهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الأنفال: ٧٢)، وبناء على هذا التأصيل فإن تنظيم علاقات المسلمين مع غيرهم يجب أن تبني على هذه القواعد ويستهدى بها في رسم كافة العلاقات معهم.

البند الثاني: الآيات التي تحدد وتنظم العلاقة مع غير المسلمين:

ابتداءً الله سورة التوبة بقوله: ﴿بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة: ١)، مما يعني قطع العلاقة معهم إذا لم يلتزموا العهد الذي قطعوه على أنفسهم مع المسلمين.

يقول الفخر الرازي: (قد أذن الله في معاهدة المشركين، فاتفق المسلمون مع رسول الله ﷺ وعاهدهم، ثم إن المشركين نقضوا العهد فأوجب الله النذ إلىهم، فخطب المسلمون بما يحذرهم من ذلك، وقيل اعلموا أن الله ورسوله قد برئا مما عاهدتم من المشركين)^(٢). وقال البغوي^(٣): (لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف، وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ فأمر الله بنقض عهودهم)^(٤). فالبراءة ها هنا، كما نقل ابن الجوزي في زاد المسير عن المفسرين: (قطع الموالاة وارتفاع العصمة، وزوال الأمان)^(٥).

والخطاب في قوله ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ لأصحاب رسول الله ﷺ والمراد رسول الله ﷺ لأنه هو الذي كان يتولى المعاهدة، وأصحابه راضون؛ فكأنهم بالرضا عاهدوا أيضا؛ وهذا عام

(١) صحيح مسلم: ك/البر والصلة والآداب، ب/تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ج/٤، ص/١٩٩٩، ح/٢٥٨٦.

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٤، ص/٢١٧.

(٣) أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي ولد ٤٣٦ هـ وتوفي ٥١٦ هـ صاحب التصانيف المتعددة محي السنة الفقيه المفسر، انظر الموسوعة العربية العالمية الشاملة: ج/٥، ص/١٦، ط/٢، ١٩٩٩ م، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع- الرياض.

(٤) معالم التنزيل للبغوي: ج/٢، ص/٢٢٤، دار الكتب العلمية، بيروت. ط/١/١٩٩٣ م،

(٥) زاد المسير لابن الجوزي: ص/٥٦٦.

في كل من عاهد رسول الله ﷺ^(١). فالهدف حماية المسلمين من غدر الخائنين، والمقصد سلامة الدين لكل مسلم، لأن بقاء العلاقة بهذه الصورة تورث في النفس الذل والهوان، مما يؤثر على دين المرء، ومن هذه المحددات التالي:

أولاً: ضرورة التفريق بين من وفى بعهدته ومن غدر أو نكث: ولذلك استثنى الله تعالى من البراءة ومن قطع العلاقة الموفون بعهدهم من المشركين، بشرطين:

الأول: ألا ينقصوا من عهدهم شيئاً، بأن يكون عهدهم ووفاءهم به كاملاً.

الثاني: أن لا يظاهروا على المؤمنين أحداً بنصر أو مؤازرة أو مدد، أو أي شكل من أشكال الدعم والعون، قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} (التوبة:٤)، وبذلك يتم تحديد العلاقة بين المسلمين وفئة من المشركين شريطة التزام المشركين بعهدودهم، ليأمن المسلمون جانبهم وليشحن في نفوس المؤمنين بحسن الريادة والعزة والمنعة والقوة، والمقصد من ذلك كما قال الفخر الرازي: (أن الذين ما غدروا أو هيجوا أقواماً ضد المسلمين أو نصروهم أو رغبوا في حرب المسلمين، فأتوا إليهم عهدهم، ولا تجعلوا الوافين كالغادرين، بإتمام العهد كامل الأداء)^(٢). ويقول الشوكاني: (أي أدوا إليهم عهدهم تاماً غير ناقص، {إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ} التي عاهدتموهم إليها، وإن كانت أكثر من أربعة أشهر، ولا تعاملوهم معاملة الناكثين)^(٣).

ثانياً: ضرورة الالتزام بالمدة التي حددها الله تعالى:

يجب أن لا يتساهل المسلمون بالمدة التي حددها الله لتحديد العلاقة مع المشركين الملتزمين بعهدودهم، لأن المقصد إعلاء كلمة الله تعالى، فإن لم يلتزم المشركون بالدين منهجاً، فلهم الخيار في أن يدفعوا الجزية، أو يستعدوا للقتال مع إعطائهم فرصة التوبة، لأن المقصد من ذلك أن يسود الإسلام، قال الله تعالى: {فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصِرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (التوبة:٥)، يقول الشيخ سعيد حوى^(٤): (ثم أمرنا أن نقصدهم بالحصار في معانقهم وحصونهم، وأن نترصدهم في مسالكهم، ونضيق عليهم الواسع، ونضطرهم إلى القتل، أو الإسلام بإعلان التوبة، بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وإن أحد منهم

(١) زاد المسير لابن الجوزي: ص/٥٦٦.

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٤، ص/٢٢٤، بتصرف.

(٣) فتح القدير للشوكاني: ج/١، ص/٧٠٩.

(٤) هو سعيد بن محمد ديب حوى ولد بحماة لحق بركب الإخوان ١٩٥٢م درس على يد مصطفى السباعي وغيره، ألف تفسيره الأساس في سجنه، له مؤلفات كثيرة، توفي في الأردن ١٩٨٩م، انظر ك/ من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، لعبد الله المقبل: باختصار ص/٤٤٧-٤٥٥، دار النشر والتوزيع الإسلامي- القاهرة، ط/١/٢٠٠٢م.

طلب الأمان فليأخذه، وإنما شرع الأمان لمثل هؤلاء ليعلموا دين الله تعالى^(١). ولضمان سلامة أمن المسلمين بين الله تعالى المقصد من قتال وقتل المشركين، كخطوة احترازية، لأنهم إن ظهروا على المؤمنين يستباحوا ببضتهم دون مراعاة لقرابة أو عهد أو ذمة، يقول سعيد حوى: (لو أنهم ظهروا على المسلمين، لم يبقوا ولم يذروا، ولا راقبوا فيهم قرابةً ولا عهداً، وكل ما يقدمونه الكلمة المنافقة، بينما قلوبهم ممتلئة حقداً، وأعمالهم شريرة)^(٢)، كما أوجب الله قتال أئمة الكفر لأنهم أصحاب المسؤولية في نكث الأيمان والغدر والطعن بالدين، قال الله تعالى: {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} (التوبة: ١٢)، ليرتدع أتباعهم، لتكون فرصتهم بالتوبة أكبر، يقول البقاعي: (ولمّا كان هذا الفعل يستقل به الأغلب إلا الرؤساء أشار إلى ذلك بقوله: {فَقَاتِلُوا}، ووضع موضع ضميرهم تحريضا على قتالهم، وأنهم ما نكثوا إلا كونهم أئمة للكفر، فالعوام لا يقدر أن ينكثوا إلا إتباعا لأئمتهم، ولذلك يقطع الرأس ينقطع الذنب)^(٣). {فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ} بالوفاء، {فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ} فأنتم أولى بالوفاء لأنها من صفات المتقين الذين يحبهم الله تعالى.

ثالثا: تحديد العلاقة مع المشركين الأقارب: حدّد الله العلاقة مع المشركين من الأقارب وهم الآباء والأبناء والإخوة والأزواج والعشيرة، ولأنهم الأقرب إلى النفس ولا غنى للمرء عنهم، ومع ذلك بينَ خطورة موالاتهم إن استحوا الكفر على الإيمان، بل وحذر من أن يرضى المؤمن بكفر ذوي القربى، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ* قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (التوبة: ٢٣-٢٤)، وذكر الرازي دواعي مخالطة الكافرين من هاتين الآيتين أربعة أمور:

أولها: مخالطة الأقارب: الآباء والأبناء والإخوان والأزواج، والبقية بلفظ (العشيرة).

ثانيها: الميل إلى الأموال المكتسبة وإمسакها.

ثالثا: الرغبة في تحصيل الأموال بالتجارة.

رابعها: الرغبة في المساكن^(٤).

هذه دواعي مخالطة الكافرين شريطة ألا يرضى المؤمن بكفرهم ولا يكون معجبا بأي

من أحوالهم، وألا تتقدم هذه الدواعي على حب الله ورسوله وجهاد في سبيله.

(١) الأساس في التفسير لسعيد حوى: ج/٣، ص/٢٢٢٠، باختصار، دار السلام/القاهرة، ط/٢/١٩٩١م،

(٢) المصدر السابق: ج/٣، ص/٢٢٢٠.

(٣) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٧٧، باختصار وتصرف.

(٤) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٩.

رابعا: قطع العلاقة نهائيا مع كافة المشركين: ويكون ذلك مع كل مشرك أظهر شركه وكفره منهجا، واستمرأه حياة، لحقيقة نجسهم التي أقرها الله فيهم، فقال الله تعالى: **لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** (التوبة: ٢٨)، في هذه الآية الكريمة، يذكر البقاعي عند تفسيره لكلمة (هَذَا) وهو آخر سنة تسع سنة الوفود مَرَجِعُهُ ﷺ من غزوة تبوك^(١)، ليبين الله تعالى الحكم النهائي في تحديد العلاقات مع المشركين، الذي سعى ﷺ إلى القضاء على الوثنية في الجزيرة العربية من خلال دعوته وجهاده فيهم لهدايتهم، فتوافق فعله مع قوله ﷺ والآية الكريمة، حيث كان من آخر وصاياه ﷺ إخراج المشركين من جزيرة العرب، وكذلك اليهود والنصارى، وألا يجتمع في جزيرة العرب دينان، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب)^(٢)، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب، حتى لا أدع فيها إلا مسلما)^(٣)، وعنه ﷺ أنه قال: (لا يبقين دينان بجزيرة العرب)، وقد فعل عمر بن الخطاب فأخرج اليهود والنصارى من جزيرة العرب^(٤).

هذا النصوص النبوية المُحَكِّمة، التي تتوافق والآية الكريمة وغيرها من الآيات، الواضحة الدلالة، تبين بما لا يدع مجالا للشك أن قطع العلاقة نهائيا مع المشركين عموما؛ ضرورة عقدية وحاجة أمنية وعسكرية، وخاصة ممن أوغلوا بكفرهم وشركهم واستهزأهم بالله وبرسوله، وبعنوانهم المتواصل على المسلمين، وأن لا يبقى منهم أحد في ديار المسلمين، وألا يُسَمَّح لأحد منهم بالاقتراب من حرمت المسلمين، لكونهم نجس ولقوله تعالى {فَلَا يَقْرَبُوا} ناهيك عن إتيانه. قال البقاعي: (فعبّر بقربانه لا بإتيانه بعد التقديم إليهم بأن لا يقبل من مشرك إلا الإسلام أو القتل إشارة إلى إخراج المشركين من جزيرة العرب)^(٥). إن نجس المشركين كونهم أوغلوا في الشرك، وأنهم لا يدركون للطهارة معنى، فالهدف وضع حد لهذه العلاقة معهم بإبعادهم وإخراجهم، والمقصد حفظ البيت الحرام طاهرا، وسلامة دين المسلمين من نجاستهم الظاهرة والباطنة مقصد أساس وعظيم في هذه الآية.

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٩٦.

(٢) البخاري: ك/ المغازي، ب/مرض النبي ﷺ ووفاته ص/٨٧٨، ح/٤٤٣١.

(٣) صحيح مسلم: ك/الجهاد والسير، ب/إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، ص/١٣٨٨، ح/١٧٦٧.

(٤) موطأ الإمام مالك: باب السير، ب/نزول أهل الذمة مكة والمدينة وما يكره من ذلك، ص/٣١٢، ح/٨٧٤.

(٥) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٩٦.

البند الثالث: تنظيم العلاقة مع أهل الكتاب وتحديدها:

قال الله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} (التوبة: ٢٩)، لقد حدد الله تعالى العلاقة بالمشركين وأمر المسلمين محاورتهم باللغة التي يفهمونها، لأن القتال يعني القطيعة، والهدف منه تنظيم هذه العلاقة بالطريقة التي يريدتها الله تبارك وتعالى، فكان القتال لأسباب التي ذكرتها الآية الكريمة مجتمعة:

أولاً: أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وهذا ثابت عليهم قولاً وفعلاً، من اليهود والنصارى وعموم المشركين والكافرين.

ثانياً: لا يحرمون ما حرّم الله ورسوله كالشرك وحرف الكلم عن موضعه، وأكل الربا وأكل أموال الناس بالباطل، والظلم والعدوان، وارتكاب الفواحش وغيرها.

ثالثاً: لا يدينون دين الحق بسبب عدم امتثالهم دين الحق الذي أخذ الله من رسلهم العهود والمواثيق باتباع محمد بن عبد الله ﷺ^(١).

رابعاً: استجلاب الرزق الذي خاف المؤمنون انقطاعه، يقول البقاعي: (ولمّا كان ذلك موضع تعجب يكون سبباً لأن يقال: من أين يكون ذلك الغنى؟ أجاب بقوله: {قَاتِلُوا} أي أهل الأموال والغنى)^(٢)، على الغالب يكون لديهم لأنهم الأحرص على الحياة.

ولننظر اليوم عندما لم يمتثل المسلمون أمر ربهم في عدم إخراج المشركين وأهل الكتاب من جزيرة العرب، وفي عدم مقاتلة الكافرين المعتدين، فكانت النتيجة؛ كيف عاث الكفار من المنافقين وأهل الكتاب خراباً وفساداً وإفساداً وإحاداً في بلاد المسلمين، والواقع المر الذي بات يُرى عياناً اليوم، حيث الفاحشة والرذيلة في البلاد والعباد التي مكن للمشركين منها، وسُمح لهم بإقامة قواعد الانطلاق العسكرية لضرب المسلمين في كل مكان، وإقامة التحالفات ضد المجاهدين، وانتهاك الحرمات والأعراض وسفك الدماء، كل ذلك؛ بسبب عدم امتثال أوامر الله بقتال المعتدين، ومخالفة أمر رسوله ﷺ بإخراج المشركين من جزيرة العرب، حتى لا يكون لهم راية في بلاد المسلمين، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب، حتى لا أدع فيها إلا مسلماً)^(٣) وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال ﷺ: (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب)^(٤).

أما من كان خارج الجزيرة وتمكن المسلمون منهم وجبت عليهم الجزية صاغرين، لأنّ القصد من ذلك أن تكون كلمتهم السفلى، وكلمة الله هي العليا، وأن يعبد الله وحده.

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٩٩ بتصرف

(٢) نفس المصدر: ج/٣، ص/٢٩٩: بتصرف..

(٣) صحيح مسلم: سبق تخريجه: ص/٧٢.

(٤) سبق تخريجه: ص/٧٠، من صحيح البخاري.

بالتالي فأهل الكتاب مشركون ويأخذون حكم المشركين، كيف لا؟ وهم الذين يقولون العزيز ابن الله، والمسيح ابن الله، وهل هناك أشرك ممن يقول المرء أن الله ولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِيرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (التوبة: ٣٠).

(يضاهئون) ومنها: (الضهيأ من النساء التي لم تحض، والمشاكله)^(١).

ويقول القرطبي: (امرأة ضهيأ التي لا تحيض أو لا ثدي لها، كأنها أشبهت الرجال)^(٢)، أي حال كونهم يشابهون بقولهم ما قال العرب عن الملائكة بنات الله، إلى أن قال: (وهذا دليل على أن العرب غيروا دين إسماعيل عليه السلام)^(٣)، من هذه المعاني يتبين التالي:

- مما سبق من معنى يضاؤون، يتبين أن تشبه العرب بأهل الكتاب يكشف الوجه القبيح لهم، ويبين خطورة المنافقون الذين يتشبهون بأهل الكتاب، وأن أمة الكفر ملة واحدة.
- تفاهة عقول المشركين المبنية الكفر والخيانة، لما يرون من نتائج خبيثتهم وخسارتهم.
- إن تشبه الكفار بعضهم ببعض والمنافقون بهم، ينبه المسلمين لضرورة الحذر منهم.

البند الرابع: الجزية وأهل الكتاب:

قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة: ٢٩)،

هذه الآية الوحيدة في كتاب الله التي فُرِضَتْ من خلالها الجزية على أهل الذمة^(٤).
الجزية لغة: مأخوذة من جزي، بمعنى قضى،^(٥) والجزاء: المكافأة على الشيء، وجزى الشيء يجزيه؛ يكفي، وعنه قضى، وجزى وجزى وجزأ، وأجزى السكين أجزأه^(٦).

تعريف الجزية شرعاً:

يقول الصنعاني^(٧): الجزية مأخوذة من الأجزاء لأنها تكفي من توضع عليه في عصمة دمه (الهدنة)، هي متاركة أهل الحرب مدة معلومة لمصلحة^(٨).

(١) كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي: ج/٣، ص/٢٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/٥، ص/٣٠.

(٣) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٠١، بتصرف.

(٤) المعجم المفهرس للقرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي: ص/١٧٠.

(٥) المختار الصحاح للرازي: ص/٤٤.

(٦) القاموس المحيط للفيروز أبادي: ج/٤، ص/٣٣٧-٣٣٨.

(٧) هو محمد بن إسماعيل الأمير اليميني الصنعاني، ولد ١٠٩٩هـ له مؤلفات عدة توفي ١١٨٢هـ، انظر مقدمة كتابه سبل السلام،

وانظر معجم الأعلام لخير الدين الزركلي: ج/٦، ص/٣٨.

(٨) سبل السلام شرح بلوغ المرام للصنعاني: ج/٤، ص/١٢٧.

مشروعية الجزية: سنة تسع على الأظهر وقيل سنة ثمان^(١).

فرض الإسلام الجزية على أهل الكتاب تنظيمًا لحياة خاصة بهم تميزهم عن الوثنيين، فالجزية ضرب من الخراج يضرب على الأشخاص لا الأرض^(٢)، وألحق بهم رسول الله المجوس، لحديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، (أن رسول الله ﷺ أخذها "الجزية" من المجوس)^(٣).

لم تكن الجزية بدعا من النظام الإسلامي، أو أن المسلمين سبقوا غيرهم بوضعه على الأمم التي دخلت تحت ولايتهم مغلوبة، بل كانت الجزية سنة مفروضة دارجة على الأمم المغلوبة منذ قدم التاريخ، فالأنبياء عليهم السلام حين غلبوا على بعض الممالك بأمر الله ونصرته، أخذوا الجزية من الأمم المغلوبة، بل واستعبدها، كما صنع النبي يوشع عليه السلام مع الكنعانيين حين تغلب عليهم، ففي العهد القديم من سفر يشوع:^(٤) "إلى هذا اليوم وكانوا عبيدًا تحت الجزية"^(٥)، فجمع لهم بين العبودية والجزية. وقد نقل العهد الجديد شيوع هذه الصورة. كما أن المسيح متمم لما جاء به موسى عليهما السلام بقوله: (لا تظنوا أن جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل)^(٦).

فالجزية هي عبارة عن ضريبة مالية تفرض على المحاربين دون غيرهم من العاجزين: فقير معدم، أو عاجز عن الكسب بسبب مرض أو هرم، وأهل الصلح يؤخذ منهم ما صلحوا عليه، فإن أسلموا سقطت عنهم، وحكمها أن تصرف في المصالح العامة، وقيمتها من دينار لأربعة دنانير من الذهب، أو من عشرة إلى أربعين درهما من الفضة بحسب الحال غنى وفقراً^(٧). كما ذكر البخاري في مقدمة كتاب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب، وقول الله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} قوله: (وما جاء في أخذ الجزية من اليهود والنصارى والمجوس والعجم. وقال ابن عيينة^(٨) عن ابن أبي نجيح^(٩): قلت لمجاهد: ما شأن أهل الشام عليهم أربعة دنانير، وأهل اليمن عليهم دينار؟ قال: جعل ذلك من قبل اليسار)^(١٠).

فالمقصد ليس مالا يرتجى، أو سعيا لظلم أو هوى، وإنما الترغيب في الإسلام، ليرى الذمي المعاملة ويقارن، ويسمع آيات الله ويتدبر، ليدخل الناس في دين الله أفواجا.

(١) سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام للصنعاني: ج/٤، ص/١٢٧، دار الريان للتراث.

(٢) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/١٠، ص/٢٩٠.

(٣) صحيح البخاري: ك/الجزية والموادعة، ب/الجزية والموادعة، ج/٢، ص/٦٣٧، ج/٣١٥٧.

(٤) أحد أبناء يوسف عليه السلام وأريحا نصيب سبط بني أفرايم، وسميت المنطقة باسمه، انظر: سفر يوشع، الإصحاح، ٤/١٦ و٨، ص/٣٦٤.

(٥) العهد القديم: سفر يشوع، الإصحاح: ١٠/١٦، ص/٣٦٤. دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

(٦) العد الجديد: إنجيل متى، الإصحاح: ١٧/٥، ص/٨.

(٧) منهاج المسلم لأبي بكر الجزائري: ص/٣٧٤، بتصرف، دار الجيل بيروت، ط/١/١٩٧٩م.

(٨) هو سفيان بن عيينة الكوفي ثقة ثبت، روى عن ابن أبي نجيح، ولد ١٠٧ هـ ومات ١٩٨ هـ، تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٢، ص/٣٥٧-٣٦٠.

(٩) هو عبد الله بن يسار انظر تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٦، ص/٥١٨.

(١٠) صحيح البخاري: ك/الجزية والموادعة، ب/١/الجزية والموادعة مع أهل الذمة، ج/٢، ص/٦٣٧. أول الباب. (هكذا وردت)

البند الخامس: بعض أسرار ولطائف آية الجزية:

حدد الله العلاقة مع أهل الكتاب كونهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ويأكلون أموال الناس بالباطل التي يناقضون فيها الفطرة، كما أنهم ما تركوا بابا لحرب الإسلام والمسلمين إلا طرقوه بثتى الوسائل والطرق، يقول سيد قطب رحمه الله تعالى: (إن التعامل مع أهل الكتاب ينطلق من كونهم اتصفوا بتلك الصفات، التي كانت قائمة في نصارى العرب ونصارى الروم .. ولا يمنع من هذا العموم أن السنة النبوية استثنت الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة والرهبان، بوصفهم غير محاربين، فقد منع الإسلام مقاتلة غير المحاربين من أية ملة^(١)).

يقول سيد قطب: (إن أهل الكتاب بصفاتهم تلك حرب على دين الله - اعتقادا وسلوكا - لتعارض منهجهم الجاهلي، مع منهج الله، وبما أن الإسلام دين الله الحق، لا بد من أن ينطلق لوضع حد لجاهليتهم، ويزيل العوائق المادية من وجهه وليحرر الإنسان من ظلمهم دون إكراه، لذلك استخدم الوسيلة العملية لإزالة العوائق المادية، ألا وهي كسر شوكتهم القائمة على غير دين الحق، حتى تستسلم؛ وتعلن استسلامها بقبول إعطاء الجزية فعلا^(٢)). فكانت الجزية بابا من أبواب تنظيم العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب ومن على شاكلتهم وإليك بعض أسرارها ولطائفها:

- تشابه أهل الكتاب مع المشركين في كفرهم وإحادهم وعداوتهم لأهل الإسلام.
- فاصلة الآية السابقة لأمر القتال، تبين وجه التناسب بين الآيتين، فالله {عليم} بوجوه المصالح لكم وما ينفعكم، {حكيم} في تدبير استجلابها وتقدير إدارها، وتظهر حكمة الله من القتال، فقد أغناهم بالمغانم بعد نحو ثلاث سنوات، لم يطرق على بالهم^(٣).
- بداية الآية الأمر بالقتال يوحي بشدة القسوة والغلظة على من أمرت بقتالهم.
- الأمر بقتالهم دلالة على عظم جرمهم وكفرهم.
- جاء عطف أفعالهم على عدم إيمانهم بالله ليدلل على عظم ذنب هذه الأفعال مجتمعة.
- وجوب قتال من اتصف بهذه الصفات الأربعة إلا أن يسلموا أو يعطوا الجزية^(٤).
- في قوله تعالى: {عَنْ يَدٍ كُنَايَةٌ عَنِ الْإِنْقِيَادِ^(٥)}. يقول البقاعي: (عن يدٍ أي قاهرة إن كانت اليد أخذة، أو مقهورة إن كانت يد المَعْطِي)^(٦).

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٣٢، بتصريف.

(٢) المصدر السابق: ج/٣، ص/١٦٣٣، باختصار وتصريف.

(٣) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٩٨، بتصريف.

(٤) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٢٧، بتصريف.

(٥) إعراب القرآن الكريم وبيانه، لمحيي الدين الدرويش: ج/٣، ص/٢٠٦. دار ابن كثير للطباعة والنشر/بيروت، ط/٨/٢٠٠١م

(٦) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٩٩.

- وعبر باليد عن سطوة الأفعال التي أصغرتهم عظمتها، وأذلتهم شدتها التي ينشأ عنها الذل والقهر لأنها الآلة الباطشة.
- عبر ب{عَن} التي هي للمجازة لأن الإعطاء لا يكون إلا بعد البطش المذل.
- اليد أعظم أسباب كسب المال، فالمعنى أن يعطي كل واحد منهم الجزية عن نفسه^(١).
- ليس المقصود من فرض الجزية الإقرار بكفر الكافر، وإنما حقن دمه وإمهاله مدة، رجاء أن يقف على محاسن الإسلام ليؤمن، وهذا المقصود من شرع الجزية^(٢).
- حقن الدم لا يكفي نظير الجزية، بل إلحاق الذل والهوان، لأن طبع العاقل ينفر من كل ما يهينه، فإذا أمهل ليشاهد مآثر الإسلام، وأن الكفر يورث الذل، حمله ذلك على الإسلام^(٣).

المطلب الثاني: الإعجاز التربوي في تنظيم العلاقات مع غير المسلمين:

إن الإعجاز التشريعي والتربوي وجه من وجوه الإعجاز القرآني، لأن كل حكم تشريعي له آثار تربوية واضحة على الفرد والجماعة والمجتمع.

البند الأول: تعريف الإعجاز التشريعي لغة واصطلاحاً:

أولاً: الإعجاز لغة: أعجزه الشيء: فاتته، والتعجيز التثبيط، ومعجزة النبي: ما أعجز به الخصم عند التحدي^(٤)، وأعجزني فلان: إذا عجزت عن طلبه وإدراكه، والعجز نقبيض العزم، وعجز يعجز عجزاً فهو ضعيف^(٥).

أما الإعجاز اصطلاحاً: يقول د. فضل عباس: "تأييد الله مدعي النبوة بما يؤيد دعواه ليصدق المرسل إليهم"^(٦).

ويقول د. عبد السلام اللوح^(٧): "أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعي النبوة على وفق مراده تصديقا له في دعوته مقرونا بالتحدي مع عدم معارضته، وذلك في زمن التكليف"^(٨).

ثانياً: التشريعي لغة: من "الشريعة": المواضع التي ينحدر إلى الماء منها، وبها سمي ما شرع وسنَّ الله للعباد بالشريعة وبالشرعة: كالصوم والصلاة والحج وغيره^(٩).

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٩٩. بتصرف.

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٢٧. بتصرف.

(٣) المصدر السابق: ج/١٥، ص/٣٢. بتصرف.

(٤) القاموس المحيط للفيروز أبادي: ج/٢، ص/٢٩٩-٣٠٠. بتصرف.

(٥) كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي: ج/٣، ص/١٠١.

(٦) إعجاز القرآن الكريم د. فضل عباس: ص/٢١، وانظر: كبرى اليقينيات الكونية، د. محمد البوطي: ص/٢١٤.

(٧) عبد السلام حمدان اللوح، الأستاذ المشارك بقسم التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية بغزة، معاصر.

(٨) الإعجاز العلمي في القرآن الكريم د. عبد السلام اللوح: ص/٦. آفاق للنشر والتوزيع/غزة- فلسطين، ط/٢/٢٠٠٢ م،

(٩) لسان اللسان لابن منظور: ج/١، ص/٦٦٥.

التشريع اصطلاحاً: هي الأحكام التي شرعها الله تعالى للناس، وأعطيت هذا الاسم لأنها مستقيمة تقودهم إلى سعادة الدنيا والآخرة، فلا يضل متبعتها^(١).

المعجزة التشريعية والتربوية: أمر أو حكم إلهي ينظم الله به حياة الناس التعبدية التي تقودهم إلى سعادة الدارين ليشمّل (النواحي الأخلاقية، والأحوال الشخصية والمدنية والاجتماعية، والجنائية، والأحكام الدستورية، ونظام الحكم وعلاقة الحاكم بالمحكوم أفراداً وجماعات، وما يتعلق بالشؤون الداخلية والعلاقات الخارجية والدولية)^(٢).

لذا فإن فاعلية الأحكام التشريعية والتربوية في كل زمان ومكان ناتج عن شموليتها وعدالتها ومرونتها، يقول وحيد الدين خان^(٣): (التشريع هو الذي يحدد علاقة الفرد بغيره على أساس من العدل والإنصاف)^(٤)، وهذا يحتاج إلى التربية أساساً، ومن هنا ندرك حقيقة الحكمة الإلهية في التشريع وسر الإعجاز فيه من خلال نتائجه التربوية، والتي تفنقدها كل الدساتير الوضعية: الدوام والشمولية والسمو، التي هي من أهم مميزات التشريع الإسلامي والتربوي الخاص بعمارة الأرض (عنصر الدوام والأبدية، مع عناصر أخرى تتصف بالمرونة، فيمكن الاستغناء عنها عند الضرورة، وافتقادهما في الدستور يؤدي إلى دوام شقاء البشرية)^(٥).

إن المعجزة التشريعية يلمسها الناس من خلال الفرق بين نتائج التشريعات الوضعية، والتشريع الإلهي، لأن الناس يفهمون النتائج العملية عندما يلاحظون عجز البشر أمام حكمة التشريع المرسل من الله العليم الخبير، حيث يناسب هذا التشريع طبيعة البشر النفسية وفطرتهم الإنسانية التي تشمل جميع المجالات في كل زمان ومكان، فلم يترك لهم شاردة ولا واردة ولا حاجة من حوائجهم الناس، إلا وسنّ لها ما يناسبها من دقيق تفصيلاتها التربوية.

البند الثاني: الإعجاز التربوي في بعض الآيات وحكمة التشريع فيها:

البراءة: {بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ} (التوبة: ١):

البراءة هي: (انقطاع العصمة)^(٦)، فبرئت من فلان أي انقطعت صلتى به، وبالتالي ضرورة البراءة من المشركين، وانقطاع الصلة بهم تماماً، وتحديد الغادرين منهم، وذلك أن المشركين قطعوا الصلة والعلاقة بربهم التي أَرادها الله للناس من خلال العبادة التي خلقوا من أجلها، فاستحقوا الحرمان من رحمة الله في الآخرة، والبراءة منهم في الدنيا وخاصة الغادرين منهم، وبالتالي طالب المسلمين ألا يقبلوا بغدرهم، لأن المغدور الذي يرضى بغدر عدوه

(١) الإعجاز التشريعي للقرآن في كل من نظام الميراث والزكاة أ.د. سيف الدين البلعوي: م/١، ص/٣٠١،

(٢) دلائل التوحيد انطلاقاً من القرآن والكون لعبد الله التليدي: ص/٢١، باختصار، دار ابن حزم/بيروت، ط/١٩٩٩م.

(٣) وحيد الدين خان عالم جايل مفكر إسلامي هندي ثالث اثنين بعد أبو الأعلى المودودي وأبو الحسن الندوي، تولى قضية الإسلام في مواجهة الزحف الفكري المعادي ومن أنصار الفكرة الدينية والقياس أولى، انظر: مقدمة كتابه: الإسلام يتحدى: ص/٩

(٤) الإسلام يتحدى لوحد الدين خان: ص/١٣٥، المختار الإسلامي/القاهرة، ط/١٩٨٤م.

(٥) المصدر السابق: ص/١٤٠، بتصرف.

(٦) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٤، ص/٢١٧.

أجلها، فاستحقوا الحرمان من رحمة الله في الآخرة، والبراءة منهم في الدنيا وخاصة الغادرين منهم، وبالتالي طالب المسلمين ألا يقبلوا بغدرهم، لأن المغدور الذي يرضى بغدر عدوه ويسكت عنه، يستورث ذلّةً وصغاراً، ويفتقد الكرامة والعزة، وهذا ما لا يقبله الله تعالى لعباده المؤمنين، كما لا يتوافق مع إعمار الأرض من قبل الخليفة الذي أراده الله تعالى، فلا يمكن أن يكون الخليفة خليفةً، ما لم يصحب خلافته أسس التمكين والقوة في الأرض، من عزة وشرف وكرامة، وبالتالي وجب نقض كل من ينقض عهداً للمسلمين بشروط، ذكر منها الرازي ثلاثاً منها: (ظهور خيانة مستورة منهم أو ضرر، أو يكون قد اشترط في وقت العهد حتى يأذن الله بقطعه، أو يكون العهد مؤجلاً بالبراءة لغرض إظهار الغدر منهم وعزمهم على المحاربة)^(١).

كما أن نتيجة التناقض العقدي بين منهج الله تعالى ومناهج العبيد كما ذكر سيد قطب (يستوجب عدم الالتقاء على أي شيء منها، وبالتالي لا يمكن التعايش الطويل بينهما)^(٢).

سبقت براءة الله؛ براءة رسوله ﷺ لخطورة موالاته الكافرين، لضرورة التبرؤ منهم، ولتظهر سرعة امتثال رسول الله ﷺ لأمر ربه، وأنه ﷺ أولى الناس بطاعة الله وأسرعهم استجابة له، وليكون للمسلمين دافع التبرؤ من المشركين أسرع؛ لأن من لم يتبرأ من المشركين يصيبه من الجبن والخور، ما أصاب المتحالفين مع أعداء الله، كما كان واقع الممالك^(٣) شاهداً آخر على تحالفات أدت إلى سنين من الفرقة والتناحر والذل والهوان. كما أن التبرؤ من المشركين (يمحو بقية الشرك من الجزيرة العربية بالقوة، ويجعلها خالصة للمسلمين)^(٤).

فالبراءة من المشركين يتطلب صفاء المكان والزمان بصورة تدريجية من كل آثار الشرك، تمهيداً لدخول الناس في دين الله وتحرير الناس من ظلم أنفسهم، وظلم الجبابرة إلى عدل الإسلام، حتى يدرك هؤلاء الناس رحمة الله وحكمته التدريج في التشريع.

الأمان طريق للإيمان: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ} (التوبة:٦):

بالرغم من براءة الله ورسوله من المشركين، وبالرغم من القسوة والشدة التي أظهرتها الآيات من أول السورة، فقد توالفت غيرهما تخفي في ثناياها الكثير من الرحمة والترغيب في التوبة، وتهيئ الأجواء لذلك، وإعطاء المعاهدين وغير المعاهدين والناس الفرصة لتلو الأخرى،

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٤، ٢١٨. باختصار.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/ ١٥٨٩، بتصريف.

(٣) عندما تهاون الخلفاء في شرع الله وتطبيقه، وبدأ التنارع حول المناصب وبدأت تظهر المطاعم في الدولة وعوامل الانفصال من كثير من الولاة، بتحالفات كثيرة مع الفرنجة وأعداء المسلمين، الذين كانوا يتربصون بالدولة الإسلامية الدوائر، ظهرت هذه الممالك المتحالفة مع أعداء المسلمين، (الأندلس - فلسطين - العراق)، انظر: تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان: ص/٢١٢-٢١٣ باختصار وتصريف، دار العلم للملايين، بيروت، ط/١٣/ ١٩٩٨.

(٤) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/ ١٥٨٩، بتصريف.

لتدنيهم وتقريبهم ليغفر الله لهم، فقد شرَّع الله تعالى الاستجارة^(١) والأمان للمشركين حتى تقوم الحجة عليهم، يقول د. وهبة الزحيلي^(٢): (بالرغم من أن آية السيف شديدة الوطأة على المشركين، إلا أن الإسلام حريص على نشر دعوته بوسائل الإقناع والحجة والبرهان، وليس الهدف من الجهاد سفك الدماء، وإنما الوصول إلى الإيمان وترك الجحود، وقبول الدين والإقرار بالتوحيد)^(٣).

لقد شرَّع الله استجارة المهزوم وهو تحت السيف، لتظهر حكمة التشريع من سماع القرآن الكريم ومقصده في هداية الناس، قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (النساء: ١٤٧)^(٤)، وكذلك إرشاد الناس إلى معالم الدين، فيتعرفوا عليه، ويتألفوا هدايته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف. وما تناكر منها اختلف"^(٥). فإذا ما هيا الله لهم صحبة سالحة تسمعهم كلام الله وآياته، فقد أقام عليهم الحجة، لتظهر أثر الصحبة السالحة على من يصاحبون، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يؤكل طعامك إلا تقي"^(٦). إن كلام الله الذي تتصدع لعظمته الجبال، ألا تتصدع له قلوب الحائرين، يقول البقاعي: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي الأمر بالإجارة للغرض المذكور بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا علم لهم بنبوة ولا رسالة ولا كتاب، فإذا علموا أوشك أن ينفعهم العلم^(٧)، فإما أن يهتدي، وإلا فأبلغوه مأمنه، والحجَّة قائمة عليه بتمام الدليل والبيانات، (فالقُرآن، الكتابُ الجاري لمعظم الدلائل)^(٨).

بعض الهدايات القرآنية في الآية:

- ذكرت لفظة (أحد) بفتح الهمزة وكسرها في القرآن الكريم ستا وثمانين مرة بصيغها المختلفة، المفرد الواحد من الناس ذكر أو أنثى^(٩). وتعني كلها الواحد، وأحد هنا: أي أحد من المشركين، سيذا كان أم عبدا، رجلا كان أم امرأة، صغيراً أم كبيراً، سواء بسواء، ليظهر حرص الإسلام على هداية الناس فردا فردا، دون النظر إلى أعراقهم، أو أجناسهم.
- طلب الاستجارة أمان مؤقت للمستجير، كما أمَّن طريق عودته إلى أهله سالما، فإن سمع كلام الله تعالى وأسلم، فقد أمَّن نفسه مطلقا، في الدنيا والآخرة.
- أقرَّ الإسلام بعرف الإجارة وهو من أعراف الجاهلية، وأبقاه ساريا ومعترف به.

(١) أن تعطي الرجل ذمة فيكون بها جارك واستجار طلب أن يجار وأجاره أنقذه وأعاده، القاموس المحيط للفيروز أبادي: ج/٢، ص/٤٩.

(٢) وهبة مصطفى الزحيلي رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق. انظر: التفسير الوجيز للمؤلف، دار الفكر دمشق ط/١٤٢٧هـ.

(٣) التفسير المستنير د. وهبة الزحيلي: ج/٥، ص/١١٢، بتصرف، دار الغد المعاصر/بيروت، ط/١٩٩١م.

(٤) صحيح مسلم: ك/ البر والصلة والآداب، ب/الأرواح جنود مجندة، ج/٤، ص/٢٠٣١، ح/٢٦٣٨.

(٥) سنن الترمذي: ك/ الزهد عن رسول الله ب/ ما جاء في صحبة المؤمن، ص/٥٤٠، ح/٢٣٩٥، (حسنه الألباني).

(٦) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٧٢.

(٧) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٤، ص/٢٢٩.

(٨) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي: ص/١٥-١٦.

- أعطى الله أربعة أشهر من الأمان للمشرك رغم شركه وجهالته، وإذا ما وقع تحت وطأة السيف، أمنه بالاستجارة ليجد الأمان ثانية ليتساءل من أين للمسلم هذا السلوك والخلق الكريم، والصبر الجميل، على كل هذه العدوانية وهذه الخصومة؟

تحديد العلاقة بين المشركين وأهل الكتاب: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا^(١) عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {التوبة: ٧-٩}:

إن تحديد العلاقة مع المشركين وأهل الكتاب قائم على أمور ثلاثة، لا رابع لها: إما الإسلام، فإن فعلوا فازوا، وإلا كانت الجزية فأمنوا، وترغيبا لهم في الدين، فإن رفضوا الإسلام أو الجزية، واختاروا القتال، كان لهم الخوف والاضطراب، فلا ينبغي الأمان لمن لا عهد له ولا ذمة عند الله وعند رسوله، فإن استقاموا بالوفاء، فاستقيموا لهم أيها المؤمنون، يقول سيد قطب: (لا ينبغي ولا يجوز وليس من المستساغ أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله، وهو استنكار للمبدأ في ذاته؛ واستبعاد له من أساسه!)^(٢)، لأنهم لو تركوا لكانوا أشد من وقع الحسام على رقاب الخراف، لما فيهم من ضغينة وحقدٍ وغلٍّ على المؤمنين، لذا وجب عدم التواصل بالوفاء مع من كان الغدر مسلكه؛ لتبقى نفوسهم مضطربة خائفة، وليسلم للمسلم دينه وعرضه ودمه، يقول الرازي: (اعلم أن قوله: "كيف" تكرر لاستبعاد ثبات المشركين على العهد، وحذف الفعل لكونه معلوما: أي كيف يكون عهدهم وحالهم أنهم إن يظهروا عليكم بعد ما سبق لهم من تأكيد الإيمان والمواثيق، لم ينظروا إلى حلف ولا عهد)^(٣).

بعض الهدايات القرآنية لهذه الآية:

- حفظ كرامة المسلمين بحفظ دمائهم وأعراضهم، وبما حدد الله ونظم من محددات.
- بيان حقيقة مستور قلوب المشركين، ومدى حقد قلوبهم، وشدة غيظهم على المسلمين.
- كل من ينقض عهده وذمته يكون قد اشترى الخيانة والغدر، وآثرهما على الوفاء مع الله.
- إن صفات الغدر والخيانة في المشركين والمنافقين، لا تمنع إن عادوا وتابوا {فَأَخَوَانَكُمْ فِي الدِّينِ} فالهدف من السماع والمقصد الرباني أن يؤمن الناس ويكونوا في دين الله إخوانا.

(١) الظهر خلاف البطن، وظهر الشيء: تبين وظهر على فلان غلبه، انظر: المختار الصحاح للرازي: ص/١٧١.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٠٣.

(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٤، ص/٢٣١.

- بيان حقيقة الكفار أنهم لا يراعون إلهاً^(١) ولا ذمّة ولا يحفظون وُدّاً ولا عهداً.
- (لقد جمعوا من صفات الشرك والنفاق بتقلب أفئدتهم بين التحرز من الكذب وبين المكر والجحود، كونهم موصوفون بذلك، وبالتالي فهو مذموم عند الناس وفي جميع الأديان، ف جاء قوله {وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ} مبالغة في الذم، لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه، وفاسقاً خبيث النفس فيه، ولأنه من عادته نقض العهد، فأكثرهم فاسقون في دينهم وعند أقوامهم، لذلك أمر الله بقتال قوم يتعدّون على عهد عقده على أنفسهم وفي ذلك غاية الذم لهم)^(٢).
- تكرار "كيف" لاستبعاد ثبات المشركين على العهد^(٣).
- ذم اليهود الذين أعانوا المشركين على نقض العهد مع المسلمين^(٤).

الطهارة من علامات الإيمان ودلائله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (التوبة: ٢٨).

هل المقصود بالنجاسة^(٥) المعنوية، أم الحسية الملموسة، أم الاثنتين معاً؟ ولماذا لا يقرب المشركون المسجد الحرام فقط؟ وهل لهم أن يدخلوا بقية المساجد؟
وقبل الإجابة عن هذه التساؤلات نتعرف على النجس، يقول الشوكاني: النجس مصدر لا يثنى، لا تستعمل إلا إذا قيل معه رجس^(٦)، (المشركون نجس مبتدأ وخبر، أي ذوو نجس؛ لأن معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، أو لأنهم لا يتطهرون، ولا يجتنبون النجاسات، فلا تنفك عنهم، أو جعلوا كأنهم النجاسة عينها مبالغة في وصفهم بها، والنجس مصدر يستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع، أو هو مجاز عن خبث الباطن وفساد العقيدة)^(٧).
يقول رسول الله ﷺ (إن المسلم لا ينجس)^(٨)، لندرك حقيقة نجس المشركين.

بعض الهدايات القرآنية في هذه الآية التي تجيب عن التساؤلات السابقة:

- بشارة من الله للمسلمين بأنه سيمكن لهم بينه الحرام، وسيمنع المشركين الاقتراب منه.
- يبين الله أن أهل الطهارة والنقاء هم الذين توفرت فيهم شروط الاستخلاف في الأرض.
- أن المشرك نجس بكفره وفعله وتصرفاته، يقول رشيد رضا في هذا: (ليس المشركون إلا أنجاساً فاسدي الاعتقاد، يشركون بالله، ويعبدون الرجس من الأوثان ويدينون بالخرافات،

(١) (الإل) القرابة، وقيل العهد، والجار، والأصل الجيد، انظر: لسان اللسان لابن منظور: ج/١، ص/٤٠.

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٤، ص/٢٣١-٢٣٢، باختصار.

(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٤، ص/٢٣٠، يتصرف.

(٤) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٤، ص/٢٣٢.

(٥) النجس ضد الطاهر، وهو القنز، القاموس المحيط للفيروز أبادي: ج/٢، ص/٣٩٣.

(٦) فتح القدير للشوكاني: ج/١، ص/٧١٩.

(٧) إعراب القرآن الكريم وبيانه، لمحيي الدين الدرويش: ج/٣، ص/٢٠٤-٢٠٥، دار ابن كثير للطباعة والنشر/بيروت، ط/٢٠٠١م.

(٨) صحيح البخاري: ك/الغسل، ب/عرق الجنب وأن المسلم لا ينجس، ج/١، ص/٦٢، ح/٢٨٣.

- ولا ينتزهون عن النجاسات، ويأكلون الميتة والدم، ويستحلون القمار والزنا، ويستبيحون الأشهر الحرم، فتمكنت صفات النجس منهم حساً ومعنىً، فباتوا عينه وحقيقته^(١).
- إن نجاستهم حسية؛ وناجحة عن عدم تتبعهم للطهارة والغسل الذي أكرمنا الله به.
 - من خلال تتبعي لمفردة: "القرب" في كتاب الله، وجدت أن النهي عن "القرب" جاء بصيغة الجمع والمخاطب فيها عموم المسلمين، وفي موضعين ينهي الله آدم وزوجه أن يقتربا من الشجرة. وفي لفظة ولا "تقربون" المخاطب بها أخوة يوسف^(٢).
 - إن اجتناب النهي؛ امتثال لأمر الله ونهي عن أمورٍ جسام، إلا أن نهى آدم عن اقتراب الشجرة وزوجه والأكل منها، جاء لحكمة بالغة متعلقة بخلافة الأرض، تقول أن وجود آدم في الجنة مؤقت لأن المخلد فيها لا يحظر عليه شيء ولا يؤمر ولا ينهى^(٣). وفي سورة النساء جاء النهي لسبب وحكمة، يقول القرطبي: (إذا لا تقرب بفتح الراء كان معناه لا تلبس بالفعل)^(٤)، ومعلوم تأثير ضيع العقل على الفعل، وفي الأنعام والإسراء جاء النهي عن اقتراب الفاحشة والزنا وأكل مال اليتيم لوضوح المفسدة بالتعدي والظلم، من نفس وعقل ومال وعرض ما أعلن عنها وما سرَّ منها^(٥)، وفي سورة البقرة ألا يقرب المسلمون حدود الله تعالى، أي لا يخالفوا أوامر الله بالتعدي على الحرمات، (ومنها المباشرة للمعتكف، والإفطار في رمضان لغير عذر)^(٦). وكذلك في البقرة أن لا يقرب المسلمون نساءهم أثناء الحيض، فعل الجماع وهو المباح في غير وقت الحيضة، وهذا الحكم معلق بشرطين: انقطاع الدم {حتى يطهرن} والاعتسال بالماء {فإذا تطهرن} أي يفعلن الغسل بالماء^(٧)، لما فيه من مفسدة بيينة ومؤثرة.
 - الحكمة في قوله: {فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ} أمر الله تعالى المسلمين أن لا يقرب المسجد الحرام مشرك، فمن باب أولى عدم الدخول فيه. وفي ذلك يقول سيد قطب: (وتلك غاية في تحريم وجودهم بالمسجد الحرام، حتى لينصب النهي على مجرد الاقتراب منه)^(٨).
 - يشير الله بعدم اقترابهم للمسجد الحرام، أنه لا يقبل من أحد عملاً إلا الإسلام بداية.
 - يظهر الإعجاز الغيبي بإشارة الآية إلى إخراج المشركين من جزيرة العرب.
 - إن النهي عن اقتراب المشركين للمسجد الحرام، فكيف والولوج فيه.

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/١٠، ص/٢٧٥.

(٢) المعجم المفهرس لمحمد فؤاد عبد الباقي: ص/٥٤٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/١، ص/٢٣٧-٢٣٨، باختصار.

(٤) المصدر السابق: ج/٣، ص/٣٤٥.

(٥) فتح القدير للشوكاني: ج/١، ص/٥٨١-٥٨٢، باختصار.

(٦) المصدر السابق: ج/١، ص/١٥٣.

(٧) جامع البيان للطبري: ج/٢، ص/٢٢٢، بتصرف.

(٨) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦١٨.

- تشير الآية إلى ضرورة براءة المسلمين من المشركين، وذلك لأن الله قد تبرا منهم في الآيات الأولى لغدرهم، الذي هو إحدى صفات نجسهم، فكيف بهذه الآية التي بين الله فيها حقيقة نجسهم الحسي والمعنوي، وأظهروا ذلك مبدأ ومنهاجاً؟

خطورة إتباع الأهواء: { إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ* إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سَوْءٌ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } (التوبة: ٣٦-٣٧):

قال الشيخ كشك: (المراد بالنسيء^(١) تأخير شهر إلى آخره)^(٢)،

وعن أبي بكر^(٣) رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض. السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم. ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب شهر مضر الذي بين جمادى وشعبان)^(٤).

لقد وضع إن الزمن وضعه الله تعالى وفق نظام دقيق تعتمد عليه جميع العبادات من خلال اعتمادها على أزمنة ومواقيت معينة، وفق دورتي الشمس والقمر، وبالتالي لا يمكن تأخير عبادة أو تقديمها، فكيف بالتلاعب بتغيير دورة الزمن وفق أهواء المتلاعبين ومصالحهم. كما لم يكتفِ الوثنيون بإفساد الأماكن المقدسة بشركهم وخرافاتهم الجاهلية، بل أرادوا إفساد دورة الزمن والتاريخ وحساب الأيام والشهور، بتأخير أو تقديم، معتقدين سلامة فعلهم.

إنها الصورة النمطية والجاهلية المتكررة، والتي تحاول بكل السبل تغيير الحقائق والمسميات لجعل المجرمين والمحتلين أبرياء، في محاولة وضيعة لإضفاء صبغة الشرعية عليهم، في عملية إسقاط لندرك حقيقة تأخير العرب للشهور.

الآية التي سبقت آية النسيء؛ تتحدث على أن عدد الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله، وأن منها أربعة حُرْمٌ، وأن هذا التقسيم بأمر الله الحق.

يقول البقاعي في عدد الشهور: (أي لا زيادة عليها ولا تغيير لها كما تفعلونه في النسيء .. وليست الشهور ثلاثة عشر ولا أكثر كما كان يفعل من أمرتكم بالبراءة منهم كائنين

(١) النسيء: شهر كانت تؤخره العرب في الجاهلية، القاموس المحيط، ج/١، ص/٣٨.

(٢) في رحاب التفسير، للشيخ كشك: ج/٢، ص/١٥٥٤.

(٣) هو نفيق بن الحارث بن كلدة الثقفي من خيار الصحابة، مات بالبصرة ٥٠هـ وقيل ٥١ وقيل ٥٢هـ، انظر تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٥، ص/٦٤٢.

(٤) صحيح مسلم: ك/القساماة، ب/تغليظ تحريم الدماء و.. ج/٣، ص/١٣٠٥، ح/١٦٧٩.

من كانوا في النسبي^(١)، وقال: (ولمّا كان إنساؤهم إنّما لتحل لهم المقاتلة على زعمهم قال: **{وقاتلوا المشركين كافة}** أي كلكم في ذلك سواء، في الائتلاف واجتماع الكلمة، **{كما يقاتلونكم كافة}**، أي كلهم في ذلك سواء وذلك الحكم في جميع السنة، لا أنهاكم عن قتالهم في شهر منها، فأنتم لا تحتاجون إلى تغيير حكمي فيها لقتال ولا غيره إن لقيتم الله، فلا تخافوهم وإن زادت جموعهم وتضاعفت قواهم لأن الله الذي له جميع العظمة معكم **{مع المتقين}** أي جميعهم، الذين يثبتون تقواهم على ما شرعه لهم، لا على النسبيء ونحوه، ومن كان الله معه نصره لا محالة^(٢)).

بالتالي هذا الاطمئنان الذي يبثه الله تعالى في قلوب عباده يجعلهم أسرع لامتنال أمر الله تعالى، فلا ظلم في هذه الأشهر لأحد باستحلال حرام، بل واجبٌ تعظيمها أمرٌ تعبدى، فلا يجوز التغيير بتقديم أو تأخير أو بأي طريقة تحرف مسار العبادة عن طريقها. وحتى تطمئن القلوب أكثر، فهي ترى التشابه الكبير بين الوثنيين وأهل الكتاب من خلال الآيات السابقة التي تتحدث عن محاولاتهم جاهدين بكل ما أوتوا من قوة أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ومحاولاتهم الحثيثة بتحريف كتبهم التي أنزلها الله تعالى علي أنبيائهم، وخاصة ادعائهم الباطل نسبة الولد لله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

كذلك يتشابه المنافقون مع المشركين وأهل الكتاب في حرف الآيات عن مسارها من خلال لِيْ أعناق الآيات لتحريف الكلم عن مواضعه، وتلاعبهم بالألفاظ ليغيروا معاني المفردات، هذا الصنف من الناس الذي تتبع أهل الكتاب في كثير من أمور حياتهم، من صد عن سبيل الله، وكنز الأموال، وأكلها بالباطل، ومنعهم زكاة أموالهم وحرمان الفقراء والمساكين منها.

هذا السر التناسب البديع فيما بين الآيات يبين بعض الهدايات القرآنية من ذلك:

- أن الشهور اثنا عشر شهرا في قدر الله، والأشهر الحرم أربعة، ثلاثة متواليّة، ورجب مضر المنفصل، وقد أقر العرب بحرمتها وعددها.
- إصرارُ الجاهليين على نظام الحرب والمقاتلة والظلم والعدوان فيما بينهم وتقديم مصالحهم الآنية على حرّامات الله؛ أدى بهم إلى النسبيء والتعدي على حدود الله.
- النهي عن الظلم يبين أن الظلم واقع بهم وبينهم.
- جاء الأمر بقتال المشركين كافة أمرا تربويا منسجما مع السياق القرآني، عرضا لحقائق ثابتة، والتحذير من التغيير والتبديل، وخطورة التشبه بمن غير وبدل.

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٠٧.

(٢) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٠٨.

- إن التحذير من الظلم، يبين أن الظلم قائم على العدوان والكبر والاستعلاء على أوامر الله تعالى وحدوده، وبالتالي نرى كيف يرسخ الله تعالى لخلق العدل في نفوس المسلمين.
- هذه الأخلاق مقدمات الجهاد لنشر دين الله في الأرض، وترسيخ لقوله: {ذلك الدين القيم}.
- إن من يرضى بقضاء الله وقدره ويمتثل لأوامره، يكون من المتقين، ومن كان من المتقين اطمأنت نفسه إلى ما عند الله تعالى، وحينئذ حق على الله أن ينصره.
- النسيء زيادة في الكفر وإضلال واضطراب في نفسية من هدفه التعدي على حرمة الله.
- بشارة تربوية عظيمة أن أعمال الكافرين دائماً مبتورة، بسبب عدم هداية الله لهم واضطرابهم وتعارضهم مع السنن الكونية التي أقرها الله في الكون.

الأعمال أهم من الأقوال: { وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ } (التوبة: ٥٦-٥٧):

- في هاتين الآيتين كثير من الهدايات القرآنية التي يرشدنا الله تعالى إليها:
- يبين المولى تبارك وتعالى العلاقة مع المنافقين، ويحددها، كما ويفضح سريرتهم المتأمرة على المؤمنين، ويبين كذب أيمانهم وحلفانهم زورا، يقول الشيخ علي الصابوني: (فقد اتخذوا الأيمان الكاذبة دَرَعًا لهم يتقون بها غضب المؤمنين، وجعلوا التلون والتذبذب شعارا لهم، فإذا رأوا المؤمنين حلفوا أنهم معهم ومنهم، وإذا خلوا إلى شياطينهم قال إنا معكم إنما نحن مستهزئون)^(١)، ولم يكتف بذلك بل فضحهم ويقرر المفاصلة بين المسلمين والمنافقين بعد تحديدها، في قوله: {وما هم منكم}.
 - ويقول: (إن هؤلاء المنافقين لو رأوا حصنا يلجأون فيه، أو سرايب يختفون فيها، أو مسلكا ضيقا يسلكونه في الكهوف والجبال، لانصرفوا نحوها، وأقبلوا يسرعون كالفرس الجموح، من خوفهم ومن شدة بغضهم وتأذيبهم من الرسول ﷺ والمسلمين، فهم لو قدروا على الهروب منهم ولو في شر الأمكنة وأخسها لفعلوا، فلا تغتروا يا معشر المؤمنين بأيمانهم الكاذبة)^(٢).
 - إن سلوك المنافقين وعلاقتهم بالمؤمنين قائم على أساس العداوة والكراهية والبغضاء والحقد والحسد، ناهيك عن دوام خوفهم واضطرابهم من المؤمنين، بسبب إحساسهم المضطرب كونهم مع المشركين ضد المسلمين باطنا، لذلك تجدهم يتمنون علو الكافرين وانهزام المسلمين.

(١) الفرق: الخوف، انظر المختار الصحاح، ص/٢١٠، وشديد الفزع، انظر القاموس المحيط، ج/٣، ص/٣٧٢.

(٢) قيس من نور القرآن الكريم، علي الصابوني: ج/٢، ص/٤٦-٤٧.

(٣) المصدر السابق: ج/٢، ص/٤٧.

- إنها صورة العداوة والكرهية من قبلهم ضد المسلمين، المتمثلة بتحالفاتهم الكفرية، والهروب ومفارقة بلاد المسلمين، ولو استطاعوا لرسخوا لمبدأ القطيعة مع المؤمنين.
- الصورة اليوم متكررة، حيث ترى جموع المنافقين في كل بلد ينتصر فيه المؤمنون، كيف يولون مدبرين فارين إلى حضن الكافرين لا يلوون على شيء.
- إن المنافقين يتصنعون الإيمان حال ظهور شوكة المسلمين القوية، مما يلجئهم إبراز أسلحتهم الخبيثة من إرجاف وبث للشائعات بين المؤمنين والاستهزاء منهم، التي لا تجدي في المؤمنين نفعاً، مما يضطرهم إلى الخوف الدائم من قوة المسلمين المتزايدة، فيجرحون إلى الهرب هروب الدواب المضطربة من شدة الخوف، يقول محمد رشيد رضا: (وهذا الوصف من أبلغ مبالغة القرآن في تصوير الحقائق التي لا تتجلى للفهم والعبارة بدونها، فتصورهم وهم يلهثون كنتساب الكلاب إلى مخابئها)^(١).
- ويقول الطبري: (وإنما وصفهم الله بهذه الصفة، لأنهم إنما أقاموا بين أظهر أصحاب رسول الله ﷺ على كفرهم ونفاقهم، ولأنهم ما قدروا مفارقة قومهم وعشيرتهم ودورهم وأموالهم، فأظهروا الإيمان بالله وبرسوله، وتصنعوه، ودافعوا عن أنفسهم وأموالهم وأولادهم بالكفر، الذي أخفوه في أنفسهم وما فيها من بغض وعداوة لرسول الله ﷺ وأهل الإيمان به)^(٢).
- يتبين من ذلك بعض صفات المنافقين التي لا تتفك عنهم: كالكذب والغدر والخيانة، والكرهية والحقد والحسد، والتردد والتذبذب والاضطراب.
- كل هذا يؤلّد لديهم خوف دائم مسيطر عليهم، يطاردهم أينما حلّوا وأينما ارتحلوا، قال الله تعالى: {يَحْسَبُونَ كُلَّ صِحْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} (المنافقون: ٤).

الصدقات تساعد على تماسك أفراد المجتمع: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (التوبة: ٦٠):

بعد أن لَمَزَ المنافقون وطعنوا رسول الله ﷺ في توزيع الصدقات، بين الله وذكر أن (الصدقات على الأصناف المعدودة)^(٣)، لا تتجاوز أهلها المذكورين في الآية، وبالتالي يكون الخطاب للمنافقين، هل أنتم من أحدهم أيها المنافقون؟

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/١٠، ص/٤٨٦ بتصرف.

(٢) جامع البيان للطبري: ج/٦، ص/١٠٨ باختصار.

(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي: ج/٢، ص/١٦٥ بتصرف.

هل أنتم من (الفقراء الذين لا يسألون حاجتهم، أم من المساكين الذين يسألونها)؟^(١)، هل أنتم من (المؤمنين في السعي والولاية على جمعها)؟^(٢)، أم أنتم (ممن يكفُّ شركم عن المسلمين، فتؤلف قلوبكم رغبة في إيمانكم)؟^(٣)، وأنتم من أنتم! وهل أنتم من الأرقاء والعبيد حتى يسعى المسلمون لفك رقابكم؟ أم عندكم الاستعداد التام في فك أسرى المسلمين؟ وأنتم القاعدون عن الجهاد! وأنتم لستم من أهل السبيل، فلماذا اللزم والتشكيك برسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، لقد تجاوزتم أيها المجرمون حدود الأدب مع الله ورسوله، لذلك جعل الله هذه الآية حجة على من لمز النبي ﷺ، من المنافقين، بعدم إعطائهم منها، وهم ليسوا منهم، وقاطعة لأطماع أمثالهم^(٤).

حب الرحمة المهداة ثبات على الإيمان: {وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنُ قُلْ أَدْنُ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (التوبة: ٦١):

قرأ نافع "أدْنُ" بإسكان الذال والباقون بضمها^(٥)، وهما لغتان^(٦).

سبب نزولها "اجتمع ناس من المنافقين فيهم: جلاس بن سويد، ووديعة بن ثابت، فأرادوا أن يقعوا في النبي ﷺ وعندهم غلام من الأنصار، يدعي عامر بن قيس، فحقروه، فتكلموا وقالوا: (لئن كان محمد حقا لنحن أشر من الحمير)، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فدعاهم، فسألهم، فحلفوا أن عامرا كاذب، وحلف عامر أنهم كذبة، وقال: اللهم لا تفرق بيننا حتى تبين صدق الصادق، من كذب الكاذب، فنزلت فيهم: {وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ} ونزل قوله تعالى: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ} (التوبة: ٦٢)^(٧).

بدأ الآية بتحذير شديد لمن يحاول إيذاء رسول الله ولو بأقل القليل، فعندما كشف أقوال المنافقين بما أدوا به رسول الله ﷺ، غلظوا الأيمان الكاذبة (طلبا لمرضاته ﷺ والله أحق بأن يرضوه بالتوبة النصوح والنية الخالصة)^(٨)، لتظهر بعض الهدايات القرآنية:

• أولا يجب أن يدرك المؤمنون أن رسول الله ﷺ أعظم النعم عليهم بعد نعمة الإسلام، وأنه آمن وأمان ورحمة عظيمة من الله تعالى للمؤمنين إلى يوم الدين.

(١) أحكام القرآن لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص: ج/٣، ص/١٥٧، بتصرف دار الكتب العلمية/بيروت، ط/١/١٩٩٤م.

(٢) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٣٦. بتصرف

(٣) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/١٠، ص/٤٩٤. بتصرف

(٤) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/١٠، ص/٤٩٠.

(٥) البذور الزاهرة لعبد الفتاح القاضي: ص/١٦٨، مكتبة أنس بن مالك/ مكة المكرمة، ط/١/٢٠٠٢م.

(٦) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١١٦.

(٧) جامع البيان للطبري: ٣٢٥/١٤، والواحدي: ص/١٤٣.

(٨) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١١٥.

- على المؤمنين أن يحذروا المنافقين، لأنهم لا يتوانون لحظة عن الطعن في دين الله تعالى والاستهزاء برسوله وبالمؤمنين، في كل الأزمنة، باختلاف عباراتهم من جيل إلى جيل.
- يبين الله تعالى صورة أخرى من صور جهالات المنافقين، الذين يقولون في رسول الله ﷺ قولاً على وجه الطعن والذم، وهو المنزه ﷺ عن الصغائر ناهيك عن الكبائر، حيث غفر له ربه ما تقدم من ذنبه وما تأخر.
- إن المنافقين من أخطر الأعداء، فلا ينبغي لمؤمن أن يطلعهم على أسرار المسلمين.
- لقد وقع المنافقون اليوم بما وقع فيه أسلافهم السابقين من خلال طعنهم واستهزائهم بالمؤمنين والمجاهدين، ونظراً لأنهم – أي المؤمنون – يصدقون كل ما يطرح عليهم، وهذا ما كان من المنافقين زمن رسول الله ﷺ عندما قالوا {هُوَ أَذُنٌ}، أي إنهم إذا أدوا النبي ﷺ وبلغه ذلك؛ اعتذروا إليه، وأنه يقبل منهم اعتذارهم، ويصدقهم، وهم لا يعلمون أن تصرفهم هذا من أكبر الكبائر^(١) فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)^(٢)، فكيف بسيد الخلق أجمعين ﷺ.
- تعهد الله بحفظ المؤمنين ممن يحملون إرث النبي ﷺ من محاولات ظهور المنافقين عليهم.

خطورة توارث العادات السيئة: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيهِمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (التوبة: ٦٧):

- صورة أخرى من صور المنافقين، وأكثر صفاتهم تفاعلاً فيهم، وخطراً، الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وبخلهم المتواصل في الخير، وفي ذلك التالي:
- لم يقل الله تعالى بعضهم أولياء بعض، لكنه قال {بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ} وذلك بيان لتوارث مرض نفوسهم، وتخاذلهم، ونذالتهم، وجبنهم، وتخليهم عن بعضهم البعض عند الشدائد.
 - بيان لحقيقة بخلهم في طاعة الله ورسوله^(٣)، وأنه أسوأ البخل، إضافة إلى شح عطائهم.
 - تشير الآية بوضوح إلى فسق المنافقين بهذه الصفات التي تلبسوها، وهي لا تخفي على أي مؤمن أحسن الظن بربه، ووالى إخوانه المؤمنين.

المؤمن أمان للمؤمن: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ

(١) كتاب الكبائر لشمس الدين الذهبي: ص/٢٠٩ وص/٢١٣.

(٢) سنن الترمذي: ك/الإيمان، ب/ما جاء سباب المؤمن فسوق، ص/٥٩٤، ح/٢٦٣٥. قال الترمذي: (حسن صحيح).

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي: ج/٣، ص/٣٨٤. دار الكتب العلمية/بيروت، ط/١٩٨٨م.

تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة: ٧١-٧٢):

بعض الهدايات القرآنية في هذه الآية:

- إنه الإيمان الناتج عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة الله ورسوله.
- يشترط في الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون مكلفا عالما قدوة حسنة، صبورا يقول أبو حامد الغزالي^(١): للمحتسب شروط وهي التكليف والعدالة، والإيمان فلا يخفى وجه اشتراطه، لأن هذا نصرة للدين^(٢).
- دعوة صريحة لأن يتخذ المؤمنون بعضهم بعضا أولياء.
- فضل الله عظيم أن زرع في قلوب عباده المؤمنين الحب والنصرة، أضف إلى ذلك حبهم للخير وحسن العطاء فيه، من أمر بالمعروف ونهيهم عن المنكر وصلاة وزكاة.
- خيرية الأمة تكمن في أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، مما يبين المقصد من ذلك والتزام المؤمنين بطاعة الله تعالى، لتظهر رحمة الله في المؤمنين.

العاقبة للمتقين: {فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} (التوبة: ٨٢):

يوجه الله عباده المؤمنين هدايات قرآنية وأمورا تربوية، منها:

- أن الضحك عموما عادة سيئة يجيدها المنافقون.
- إن الله يدافع عن الذين آمنوا، ولن يتركهم نهشا لاستهزاء المنافقين.
- يبين الله كيفية دوران الدائرة على المجرمين في الدنيا ومذا ينتظرهم من العذاب في الآخرة.
- جاء إخراج الخبر مخرج الإنشاء والأمر؛ لأنهم سيضحكون قليلا، وسيبكون كثيرا، للدلالة على أنه أمر حتمي الوقوع^(٣).
- إن فرحهم في الدنيا وضحكهم واستهزاءهم مهما طال في الدنيا واستغرق عمرهم فإنه قليل، أمام ما أعد الله لعباده المؤمنين من خلود فرح وسرور وهناءة في الآخرة^(٤).

(١) محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي، ولد بطوس سنة ٤٥٠ هـ عالما شديدا في فروع العلوم، صنف الإحياء ببيت المقدس، مات ببغداد سنة ٥٠٥ هـ، انظر مقدمة الإحياء: ج/١، ص/٧، دار القلم دمشق، ط/٢، ١٩٩٨ م.

(٢) المهذب من إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، إعداد صالح أحمد الشامي: ج/١، ص/٤٦٩ بتصرف.

(٣) إعراب القرآن الكريم، لمحيي الدين الدرويش: ج/٣، ص/٢٥٣.

(٤) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٥٠ بتصرف.

اللَّهُ وَلِي الَّذِينَ آمَنُوا وَنَصِرُهُمْ: إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (التوبة: ١١٦):

- هذه آية التوحيد الوحيدة في سورة التوبة^(١)، وأنه سبقها آية التبرؤ من المشركين أمواتاً، كما سبق التبرؤ منهم أحياء في أول السورة.
- لا بد أن يطمئن المؤمن على حياته ورزقه لأن الله قد تكفل بهما، ولأنه المالك المتصرف في كل ذرة من ذرات هذا الكون، وأنه سبحانه جل في علاه هو الذي بيده الحياة والموت {ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير} يقول محمد رشيد رضا: (أي ليس أيها المؤمنون أحد غير الله يتولى أمركم، ولا نصير ينصركم على عدوكم، فلا تحيدوا عن هدايته)^(٢).
- يؤكد الله على أن له ملك السموات والأرض، يعطي المؤمن مساحة من الأمان والاطمئنان، أنه في ملك الله وليس في ملك غيره حتى نحسب لغيره حساباً.
- يجب أن تزداد مساحة الأمان لدى العبد عندما يعلم أن الله هو المالك المتصرف بملكه حقاً، وأنه لا يخفى عليه شيء، وأنه خبير عليم بكل ما ينفع عباده أو يضرهم.
- إن الموت والحياة بيد الله، ولا يعلم أحدٌ انقضاء أجل أحد، أو يكون له تحكم في عمر أحد، عندها تنتسج لدى المؤمنين دائرة الأمان والطمأنينة ويزداد الإيمان في النفوس.
- يقول البقاعي: (وفيه تهديد لمن أقدم على ما ينبغي أن يتقي لاسيما الملاينة لأعداء الله من المتخفين والمصارحين، فإن غاية ذلك موالاتهم وهي لا تغني من الله شيئاً)^(٣).
- (وبما أن الأمر كذلك فلماذا يجبن المسلمون عن قتال الكافرين وجهادهم، فإن ذلك لا يؤخر أجلاً، ولا يقدم موتاً، لأن الأمرين بيد الله سبحانه)^(٤).
- جاءت ولي ونصير نكرتين، ليتأكد المؤمن أنه لا يوجد من يحوز ما دون رتبته سبحانه أحد، الذي له الأمر كله في الولاية والنصرة^(٥).
- أحيا الله قلوب عباده بنوره، وبين لهم ما يصلح دينهم ودنياهم، فلا ينبغي التعلق بغيره.
- لقد هيا الله تعالى كل أسباب الاستقلال الذاتي عن المشركين، ليظهر مقصود الآية العظيم من البراءة من المشركين أحياء، وعدم الاستغفار لهم أمواتاً، ليبين الله خطورة الشرك، وأنه ما ينبغي لمؤمن أن يوالي المشركين أحياء وأمواتاً، أو يبقي أية علاقة ود مع المشركين.

(١) دلائل الإعجاز انطلاقا من الكون، لعبد الله التليدي: ص/١١٨، دار ابن حزم/بيروت. ط/١/١٩٩٩م.

(٢) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/١١، ص/٦٣.

(٣) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٩٥.

(٤) دلائل التوحيد للتليدي: ص/١١٨.

(٥) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٩٥ بتصرف.

المبحث الثالث

الولاء والبراء في الإسلام.

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى الولاء والبراء لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: الأسباب التي أدت إلى ظهور الولاء والبراء

المطلب الثالث: الإعجاز التربوي في الولاء والبراء:

ويشتمل على أربعة بنود:

البند الأول: أقسام الناس في عقيدة الولاء والبراء.

البند الثاني: قواعد الولاء والبراء من خلال سورة التوبة.

البند الثالث: الأثر التربوي لبعض الآيات على المسلمين في الولاء والبراء.

البند الرابع: بعض صور الولاء والبراء قديماً وحديثاً.

المطلب الأول: معنى الولاء والبراء لغة واصطلاحاً:

الولاء لغة: وليّ: الوليّ: الناصر، والولِيّية بالكسر: السلطان، والولِيّية والولِيّية: النصر، والمولِيّ: ابن العم والعم والأخ والابن، والناصر، والولي، والولاء: الموالون^(١)، وهو القرب والدنو، ومنها قول النبي ﷺ (وكل مما يليك) أي مما يقاربك^(٢)، وهو المحب، والصديق، والنصير. ووليّ الشيء؛ عليه ولاية وولاية^(٣). وليّ موالاة: المصادقة والمناصرة، "كان ذلك تعبيراً عن موالاته له"^(٤)، والولاية ضد العداوة^(٥).

فالولاء هو: القريب الحليف والمحب النصير.

البراءة لغة: البرء الخلق، برأ الله الخلق يبرؤهم برءاً فهو بارئ، والبرء السلامة من السقم، أبرأت الرجل من الدين والضمان وبرأته، والاستبراء أن يشتري الرجل الجارية فلا يطؤها حتى تحيض، وإنقاء الذكر من البول^(٦). وليلة البراء: ليلة يتبرأ القمر من الشمس^(٧)، برء بروءاً من المرض: شفي، والبارئ: الخالق، الخلق: البرية وبرايا، واستبرأ: طلب الإبراء من الدين^(٨)، فالبراءة انقطاع العصمة، يقال برئت من فلان أي انقطعت بيننا العصمة^(٩).

فالبراءة هي: السلامة من الأذى وكل مكروه، والانقطاع والتخلص من أي عيب.

الولاء اصطلاحاً:

الولاية هي: النصر والمحبية، والإكرام والاحترام والكون مع المحبوب ظاهراً وباطناً^(١٠).

والوليّ: خلاف العدو، فولي الله هو من والى الله بموافقته محبوباته، والتقرب إليه بمرضاته^(١١)، فموالاة الكفار تعني التقرب إليهم، وإظهار الود بالأقوال والأفعال والنوايا^(١٢).

فالموالاة قائمة على مُرْتَكِزَيْنِ أساسيين هما: المحبة والنصرة.

فالموالاة: أن تستشعر محبة الله ونصرته لك، بهذه الاستشعار، تجعل محبتك لربك قولاً وفعلاً، وتستشعر محبتك لأهل دينك، فتحبهم ويحبونك، وتنصرهم وينصرونك، فالمولّى من تطمئن إليه ويطمئن إليك، فتعتمد عليه ويعتمد عليك وتلجأ إليه ويلجأ إليك.

(١) لسان اللسان لابن منظور: ج/٢، ص/٧٦١-٧٦٢.

(٢) المختار الصحاح للرازي: ص/٣٠٦.

(٣) القاموس المحيط للفيروز أبادي: ج/٤، ص/٤٦٤.

(٤) المنجد في اللغة والأعلام: ص/٩٦٦.

(٥) العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي: ص/٤٠٣.

(٦) كتاب العين للخليل بن أحمد: ج/١، ص/١٢٤.

(٧) لسان العرب لابن منظور: ج/١، ص/١٨٣.

(٨) المنجد في اللغة والأعلام: ص/٣٣.

(٩) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٤، ص/٢١٧.

(١٠) الولاء والبراء في الإسلام لمحمد سعيد القحطاني: ص/٩٢.

(١١) العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي: ص/٤٠٦.

(١٢) الإيمان أركانه حقيقته نواقضه، لمحمد نعيم ياسين: ص/١٧١.

البراءة اصطلاحاً:

هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار^(١).
وإنني أرى أن المعنى المكتنز^(٢) في البراءة هو: (اطمئنان النفس بمقاطعة الكفر وأهله
حبا ورضا بالانفصال والبعد عنهم، ومخالفتهم، وكراهيتهم، وإظهار العداوة البينة لهم، لبيان
الحب في الله والبغض فيه، حتى يؤمنوا بالله وحده، ولا يشركوا به شيئاً).

المطلب الثاني: الأسباب التي أدت إلى ظهور الولاء والبراء:

تحدثت سورة التوبة عن المشركين في اثني عشرة موضعاً^(٣)، تحذر منهم، وتبين
شركهم، وعظم ذنوبهم، وشناعتها وخطورتهم، كما حذر رسوله ﷺ فقال: **{وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ
وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبُطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** (الزمر: ٦٥)، فإذا كان
التحذير لرسوله ﷺ، فمن دونه أولى، يقول الشوكاني: (هذا الخطاب من باب التعريض لغير
الرسول، لأنهم معصومين، فوجه إيراد تحذير لمن دونهم منه أولى)^(٤).
كما بين رسول الله ﷺ عندما سئل عن أي الذنب أعظم، قال: (أن تجعل لله ندا وهو
خلاقك)^(٥)، فالله لا يقبل لعظمته شريك، ولا حتى عملاً ظاهره لله، ومقصود به غيره.

فكان قَطْعُ كل ولاء للكافرين والتبرؤ منهم؛ عقيدةً أساساً في دين الله تعالى، بسبب
مخالفتهم لوحداية الله وأوامره، وخروجهم على فطرة الله التي فطر الناس عليها، وإظهارهم
العداوة لهذه الفطرة بمخالفتهم ومحاربتهم إياها، لأنهم علموا أن (شهادة "لا إله إلا الله محمد
رسول الله"، أفراد الله بالعبادة، مما يخالف منهجهم الكفري، وخلع كل ولاء وعبودية وطاعة
وخضوع وخوف ورجاء لأي متبوع أو مطاع من دون الله، وقصر هذا الولاء والحب
والتعظيم لله سبحانه وتعالى)^(٦). ولأنَّ إعلان الولاء لله والتبرؤ من المشركين، (يعطي أبعاداً
روحية وتربوية، تشمل: إخلاص العبودية لله، للوصول للهداية والاستقامة وحسن التوكل
والتقوى، ويعطي أبعاداً وجدانية ونفسية، وتشمل: العزة والكرامة، والأمن والأمان، والطمأنينة
والسعادة، وأبعاداً أخلاقية وتشمل: الصدق والوفاء والعدل والإقدام والصبر والثبات والتواضع،

(١) الولاء والبراء في الإسلام لمحمد بن سعيد القحطاني: ص/٩٢.

(٢) أن يكون الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين حقاً وصدقاً، وأن يكون التبرؤ من المشركين حق التبرؤ.

(٣) القاموس المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي: ص/٣٧٩-٣٨١.

(٤) فتح القدير للشوكاني: ج/٢، ص/٥٦٩، باختصار.

(٥) صحيح البخاري: ك/التفسير، ب/ {والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر}، ج/٢، ص/٩٦٩، ح/٤٧٦١.

(٦) الولاء والبراء في الإسلام لمحمد بن سعيد القحطاني: ص/١٦٢. يتصرف.

وأبعاداً اجتماعية وتشمل: صلة الأرحام، والتكافل الاجتماعي، والتعاون على البر والتقوى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصلاح ذات البين، ونصرة المظلوم، وغيرها^(٧).

إن الولاء لله والبراءة من الكفر وأهله، تجعل الكافر ينخلع من حياته تماماً، بكل الأبعاد الكفرية، ويلحق بركب الإيمان بكل الأبعاد الإيمانية، لذا كان إعلان يراءة الله من المشركين، ظاهراً وأن يكون على الملأ في أعظم محفل في الدنيا قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: ٣)، ليدرك المشركون خطورة شركهم، لذلك حمل الإعلان أبو بكر رضي الله عنه ثم علي رضي الله عنه إلى مكة ليعلم الناس أن كفرهم مكروه منبوذ مخالف لفطرة الله تعالى.

وبالتالي على المؤمنين أن يبلغوا براءة الله تعالى من المشركين، مستعينين بالله على ذلك وبما منحهم الله تعالى من إيمان وصبر، بعد أن تحملوا أذية وفجاجة وغلظة قوم قست قلوبهم، فاضطهد ضعفاؤهم، بل وأوذوا ورسولهم صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام رضي الله عنهم وعذبوا أشد العذاب، لأن (عرض الحقائق ونشر الدين يتطلب ذلك، إن الظروف تقتضي اتخاذ الأساليب السلمية، وعرض مؤثر للحقائق الإيمانية، وتحمل الأذى والصبر، هذه التربية أسست على حبس النفس وضبطها، وكف حدة الإقدام، من غير ذل ولا وهن، بل وباطمئنان القلب أن الله ناصر دينه ونبيه وجنده، ومستعلية على ضلالات المشركين وفتنهم)^(٨).

ممتثلين بذلك قول الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (يونس: ١٠٩)، وكذلك كان توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما بايعه المسلمون بيعة العقبة الثانية وكانوا نيفا وثمانين رجلاً، (قالوا: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم))^(٩).

إنها التربية التي زرعت الولاء لله ولرسوله في نفوس المؤمنين، وزرعت كل كراهية لكل ما هو شرك، وتبرأت من كل مشرك، إذا ما أشربت القلوب حب الله ورسوله، وحسنت طاعتهم له، إنها تربية المفاصلة بين الإيمان والكفر، وقطع وشائج القربى وأي صلة مع المشركين، ولنا في أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام أسوة حسنة، قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِنَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ

(٧) الأبعاد التربوية لمفهوم الولاء والبراء في الإسلام لزياد مسعود بإشراف د. حمدان الصوفي، في الجامعة الإسلامية بغزة: فهرس المحتويات، ص/ز، ح، ط. بتصرف.

(٨) الولاء والبراء في الإسلام لمحمد بن سعيد الفحطاني: ص/١٦٩-١٧٠ باختصار وتصرف.

(٩) السيرة النبوية لابن هشام: ج/١، ص/٤٤٧-٤٤٨، تحقيق وضبط مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، تراث الإسلام، ومسند الإمام أحمد: ج/٣، ص/٤٦٢.

لَأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (المتحنة: ٤).

لطائف وأسرار آية البراءة:

الأول: جاء إعلان البراءة من الله مباشرة، يتبعه في ذلك النبي ﷺ والمؤمنون من المشركين، مما يوحي بخطورة الإعلان، حيث لم يكن معلنا من قبل رسول السماء ولا رسول الأرض، بل جاء الإعلان من الملك العزيز الجبار، (المستحق لكمال الولاية)^(١).

الثاني: الإعلان باسم الله ورسوله وهذا تشريف عظيم من الله تعالى لسيدنا رسول الله ﷺ. فلم يحظ به أحدٌ من الأنبياء والمرسلين قط.

الثالث: تقدم فعل البراءة من الله تعالى ليضفي على الإعلان الأهمية القصوى، والمهابة والرهبة والشدّة والقسوة، لبيان خطورة الشرك وأهله

الرابع: هذه البراءة واصلة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين^(٢)، ولا بد أن تكون البراءة واصلة من المؤمنين إلى المشركين.

الخامس: تقدمت براءة الله براءة رسوله ﷺ، أيضا لتوحي بأهمية الإعلان وخطورته.

السادس: جاء الإعلان على الملأ يوم الحج الأكبر، مستخدما أعظم وسيلة إعلامية يستخدمها البشر في حينها، لضرورة أن يصل الخبر إلى جميع الأمم،

السابع: لا بد من أن يلعب الإعلام دورا مهما في نصرته الدين وإدارة المعارك والدفاع عن جميع قضايا المسلمين الدينية والوطنية والسياسية والاجتماعية، وبالتالي يجب استخدام كافة الوسائل الإعلامية وأفضلها لنشر دين الله في الأرض.

الثامن: أبقى باب التوبة مفتوحا جل جلاله لمن أراد أن يتوب، لتشترك الآية الكريمة أن هدف الإعلان ليس القطيعة التامة، وإنما هو تحذير، وبيان بخطورة الشرك.

التاسع: ضرورة الاطمئنان لقوة الله وعظمته وعلمه وقدرته، وأنه القاهر فوق عباده، وأن الكفار مهما بلغت قوتهم لا يعجزون الله تعالى في شيء.

العاشر: إرسال أبي بكر ﷺ ثم علي ﷺ يعطينا أهمية العمل الجماهيري في نصرته قضايا الأمة.

الحادي عشر: لا ولاء إلا لله ولرسوله وللمؤمنين، ولا شيء مقدم على حب الله والرسول والمؤمنين وحب الجهاد^(٣).

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٦١،

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٤، ص/٢١٧.

(٣) الأساس في التفسير لسعيد حوى: ج/٤، ص/٢٢٢٢.

المطلب الثالث: الإعجاز التربوي في الولاء والبراء

البند الأول: أقسام الناس في عقيدة الولاء والبراء:

إن مظاهر الكافرين على المؤمنين سنة قديمة في ضعاف النفوس من البشر، والذين يجدون قوتهم في مناصرة عدوهم على إخوانهم وأهلهم، والناس في هذه العقيدة المستمدة من شرع الله تعالى مبنية على الحب في الله والبغض فيه، فعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله)^(١)، وعن أبي أمامة رضي الله عنه (٢) عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من أحب الله، وأبغض الله، وأعطى الله ومنع الله، فقد استكمل الإيمان)^(٣)، ويقول الإمام الطبري: (نهى الله المؤمنين أن يتخذوا الكفار أعواناً وأنصاراً وظهوراً، وأن يوالوهم على دينهم، ويظاهروهم على المسلمين، ويدلونهم على عوراتهم، فمن يفعل ذلك فقد برئ من الله، وبرئ الله منه بارتداده عن دينه، ودخوله في الكفر)^(٤).

والناس في الولاء والبراء ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المؤمنون: وجبت محبة المؤمنين الخالص من الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، الذين لا يكون ولاؤهم إلا لله وبراءتهم لله، وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ وزوجاته أمهات المؤمنين وأهل بيته الطيبين وصحابته الكرام رضي الله عنهم من الخلفاء الراشدين والعشرة المبشرين والمهاجرين والأنصار وأهل بدر وبيعة الرضوان وبقية الصحابة رضي الله عنهم ومن ثم التابعين والقرون المفضلة وسلف الأمة وأمتها الأربعة، قال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾** (الحشر: ١٠)، وهؤلاء هم من قام بوظائف الإسلام وأخلص أعماله وأفعاله وأقواله لله، وانقاد لأوامره^(٥).

القسم الثاني: أعداء الله: من الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين، الذين يعادون المؤمنين ويخرجونهم من ديارهم، ويظاهرون على عداوتهم بكل ألوان المظاهرة من قتل وتعذيب وسجن وحصار وحرمان، وكل من يوالونهم من المبغضين لهذه الأمة الغادرين الحاقدين على اختلاف مسمياتهم وأجناسهم ومشاربهم، قال الله تعالى: **﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلَكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** (المتحنة: ٩)، وكذلك كل من ترك شيئاً من الدين بالضرورة، أو

(١) سنن أبي داود: ك/ السنة، ب/ مجانية أهل الأهواء وبغضهم، ص/ ٧٢٥، ح/ ٤٥٩٩، (صححه الألباني).
(٢) أبو أمامة الباهلي صدق بن عجلان آخر الصحابة موتاً بالشام سنة ٨٦هـ، انظر تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/ ٢، ص/ ٥٥٠.
(٣) سنن أبي داود: ك/ السنة، ب/ الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، ص/ ٧٣٧، ح/ ٤٦٨١. (صحيح)
(٤) جامع البيان للطبري: ج/ ٣، ص/ ٢٢٨ باختصار وتصرف.
(٥) شرح أصول العقيدة الإسلامية، د. نسيم ياسين: ص/ ٢٧٩ بتصريف.

صرف نوعا من أنواع العبادة لغير الله كالحب والدعاء والرجاء والتوكل والتعظيم والخشية والاستغاثة والاستعانة والخضوع، واتبع غير سبيل المسلمين، أو ألد في أسمائه وصفاته^(١).

القسم الثالث: عصاة الأمة: وهم من يحب من وجه ويبغض من وجه^(٢)، من الظالمين لأنفسهم، فلا استحلوا حراما ولا حرموا حلالا، خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، تحبه لإيمان فيه، فيتطلب ذلك مناصحته وإنكار معصيته، التي تبغضه لأجلها، فلا يجوز السكوت عليها، لذلك يؤمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كما لا يبغضون بغضا خالصا أو يتم التبرؤ منهم، فلا يحبون من أجل ما اقترفت أيديهم، ولا يعطوا موالاته كاملة، كما لا يؤمنون ولا يؤتمنون لمعاصيهم، بل يعتدل في شأنهم على منهج أهل السنة والجماعة، فلسنا كالخوارج بتكفير مرتكب الكبيرة، ولسنا كالمعتزلة نخرجهم من الإيمان^(٣)، ولا كالمرجئة على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، ظنا منهم أن دخول الجنة يقتضي عدم عذابه^(٤).

هذه هي الأصناف الثلاثة في عقيدة الولاء والبراء، الأول محبوب ومحبوب فيه، والثاني مبغوض، ومبغوض فيه، والثالث بحسبه، مع وجوب نصحه عسى أن يكون من الصنف الأول، وألا يكون من الصنف الثاني، نماذج واضحة جلية، بعد أن التبس الأمر على كثير من الناس ردحا من الزمان. مع أن سلف الأمة الصالحين كانوا يدركون هذه الحقائق، فهذا ابن عمر رضي الله عنهما يقول: (والله لو صمت النهار لا أفطره وقمت الليل لا أنامه، وأنفقت مالي في سبيل الله ثم أموت وليس في قلبي حب لأهل الطاعة وبغض لأهل المعصية، ما نفعني ذلك شيئا)^(٥).

فضرورة محبة أهل الإيمان ضرورة عقدية، وواجب شرعي، على كل مؤمن، وكراهية أهل الكفر والبدع والضلالات، لكفرهم وبدعهم، وضلالاتهم، وليسوا لذواتهم أو أشخاصهم بل بسبب ما اقترفت أيديهم، وحملت نفوسهم من مرض خبيث.

البند الثاني: قواعد الولاء والبراء من خلال سورة التوبة:

إن مخالفة أوامر الله تعالى وعدم الالتزام بشرعه، يوجد شرخا عظيما في تنظيم العلاقات الإسلامية الداخلية والخارجية، مما يقوض أسس البناء الإسلامي الذي أراده الله بابتعاث رسوله صلى الله عليه وسلم بكلمة التوحيد: "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، لذا فالقرشيون لم يستطيعوا قولها حتى بألسنتهم لإدراكهم لوازمها ومقتضياتها، مما يتطلب منهم أفراد الله بالعبادة، وهم

(١) شرح أصول العقيدة الإسلامية، د. نسيم ياسين: ص/ ٢٨٠.

(٢) المصدر السابق: ص/ ٢٨٠.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، لأبي العز الحنفي: ص/ ٤١٧.

(٤) الإيمان أركانه حقيقته نواقضه، د. محمد نعيم ياسين: ص/ ١٩٩.

(٥) فيض القدير للمنأوي: ج/ ٣، ص/ ٢٦٤.

الذين عددوا آلهتهم، وتلزمهم محبة الله ورسوله والمؤمنين على الملأ قولا وعملا، وهم الذين في عداوة دائمة معهم.

لذا فعقيدة الولاء لله والبراءة من المشركين لها قواعد استندت على أوامر الله ونواهيه المتعددة، منها قتالهم، والنهي عن موالاته أقرب الناس لهم، وأخرى بهجرهم، وغير ذلك من القواعد المستنبطة من سورة التوبة تحديداً^(١):

القاعدة الأولى: براءة الله من الكفار والمشركين في أول السورة أوجبت البراءة منهم أحياء، كما أن النهي عن الاستغفار لهم، أكدت على البراءة منهم أمواتاً.

القاعدة الثانية: إن تقديم البراءة من الكافرين على البراءة من كفرهم، تؤكد على البراءة من أشخاصهم — رغم شناعة كفرهم — تأكيداً على القطيعة معهم، وعدم معاملتهم، لأنه لولا نفوسهم المريضة لما عَشَّعَشِ الكفر فيها، وما كان الكفر لينتشر لولا حركتهم به، ولن يكون للكفر أثر فاعل، لولا إفسادهم به في الأرض.

القاعدة الثالثة: إذا كان معاداة الآباء وتحريم موالاتهم، جاءت صريحة، قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}** (التوبة: ٢٣). فمعاداة الكفار الأبعاد، وعدم موالاتهم أولى.

القاعدة الرابعة: نهى الله عن تولي الآباء إن استحباوا الكفر على الإيمان، فمن يواليهم يرد عن دينه، قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}** (المائدة: ٥٤)، فالارتداد عن الدين بسبب الولاء لليهود والنصارى. قد يكون ظلماً أو فسقاً، قال الله تعالى: **{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}** (التوبة: ٢٣)، وقوله: **{وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}** (التوبة: ٢٤).

القاعدة الخامسة: إن معاداة الكافرين لا بد أن تكون باديةً وظاهرة، وهل هناك أوضح وأظهر من قتال المشركين المعلن بالحرب، فالقتال لا يكون مستتراً أو مخفياً، وربما تكون المعاداة مخفية عند المسلم المستضعف أو الضعيف، ولقد جاء الأمر بقتال الكفار والمشركين في سورة التوبة في عدة مواضع متفرقة منها، فبعد آية البراءة قال تعالى: **{فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ}** (التوبة: ٥)، ثم توالى الآيات تارة بالقتال وتارة بالجهاد حتى نهاية السورة، فقال: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}** (التوبة: ١٢٣).

(١) الفكرة مقتبسة من محاضرة بعنوان القواعد العشر في الولاء والبراء للدكتور ناصر بن يحيى الخنيني، خصصت قواعدها بسورة التوبة، انظر: <http://saaaid.net/Minute/53.htm>

القاعدة السادسة: إن معاداة الكافرين وبغضهم أمر تعبدي أوجب الله كما أوجب فرائض الدين، قال الله تعالى: **{قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}** (التوبة: ٢٤)، لقد توعد الله تعالى من أثر ذوي القربى وأخص المال لنفسه، وأعزّه على الله ورسوله والجهاد في سبيله، بالمجهول المتربص بهم، وماذا ينتظر الموالون لأعداء الله ورسوله غير حرب الله؟

القاعدة السابعة: البراءة من أعداء الله ومعاداتهم، هي شرعة فرضها الله على الأنبياء جميعاً من نوح الذي قال له ربه عندما قال: **{إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي}** (هود: ٤٥)، قال له ربه معلماً ومؤدباً ومربياً: **{قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}** (هود: ٤٦)، وهذا إبراهيم يتبرأ والمؤمنون من أقرب الناس إليهم، فقال: **{وَأَعْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}** (مريم: ٤٨)، وقالوا: **{إِنَّا بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}** (المتحنة: ٤)، وأصحاب الكهف اعتزلوا قومهم الذين كفروا حفاظاً على دينهم وتوحيدهم، قال الله تعالى: **{وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ}** (الكهف: ١٦)، وهذا سيدنا رسول الله ﷺ أعلن براءته من قومه، قال الله تعالى: **{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}** (الأنعام: ١٩)، وأعظم البراءة وأشدّها على المشركين قول الله تعالى: **{بِرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** (التوبة: ١).

القاعدة الثامنة: لقد أشرك المشركون مع الله آلهة أخرى، وأنكروا نبوة النبي ﷺ، وبما أن عقيدة الولاء والبراء مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بكلمة التوحيد التي تتضمن: نفي العبودية عن سواه، وإفراد العبادة لله وحده، والإيمان بأن محمداً ﷺ عبده ورسوله، أرسله ليظهره على الدين كله، قال تعالى: **{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}** (التوبة: ٣٣)، كما قرن طاعته بطاعة رسوله ﷺ، وحذر من أذيته أو التطاول عليه، وفي ذلك كلمة الكفر، فقال: **{يُحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولَاؤُا لَمْ يَتَّوَلَوْا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}** (التوبة: ٧٤)، في معنى كلمة الكفر عدة أقوال، منها: تكذيبهم بما وعد الله رسوله ﷺ بالفتح^(١)، ومنها: ("كلمة الكفر" قول الجلاس^(٢)): "إِنْ كَانَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ حَقًّا لَنَحْنُ أَشْرٌ مِنْ

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/٥، ص/١٩٦.

(٢) هو الجلاس بن سويد بن الصامت الأوسي الأنصاري، كان منافقاً ثم تاب وحسنت توبته، وله صحبة، وذكر في المغازي، انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير: ج/١، ص/٣٩٧.

الحمير")،^(١)، أدرك الذين تربوا على حب الله ورسوله ﷺ ، خطورة الكلمة، وثقلها، إنه عمير بن سعد^(٢) الذي تربي في حجر جئاس ليقول له: (لقد قلت مقالة إن ذكرتُها فَضَحْتُكَ، وإن أخفيتُها خنت أمانتي وأهلكت نفسي وديني، وقد عزمتُ على أن أمضي إلى رسول الله ﷺ ، وأخبره بما قلت، فكن على بينة من أمرك)^(٣). مما يدل أن من أنكر دين الرسول أو كذب أو استهزأ به ﷺ كفر وخرج من دين الإسلام، إلا أن يتوب الله عليه.

القاعدة التاسعة: إن مدهنة الكافرين لغرض دنيوي، أو مادي، مع إضمار نية الكفر، أو الردة عن الإسلام، يعدُّ من الكبائر، وهو نوع من أنواع الموالاة التي حذر الإسلام منها، ومن مظاهره: حضور أعيادهم، وتهنئتهم بها والبشاشة في وجوههم، وأما الموالاة بإخفاء الكفر أو إضماره يأتي بمعنى التولي، وهو: الدفاع عن الكفار والتعاون معهم أمنياً ضد المسلمين، ونصرتهم بالمال والبدن والرأي والمشورة ولو بكلمة، فهذا كفر صريح وخروج من الملة، قال تعالى: {وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ} (التوبة:٧٤). وكما جاءت الآيات بذلك صريحة^(٤).

القاعدة العاشرة: شدة عداوة عموم الكافرين لأهل الإيمان، قال تعالى: {كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا نَمَةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ} (التوبة:٨)، هذه سنة المجرمين في كل زمان ومكان، حيث يتحينون الفرص للانقضاض على المسلمين، ليظهروا عليهم بحقدهم وكرهيتهم بكثرة مذابحهم، فالتاريخ يقص (ما صنع المشركون مع نوح وهود وصالح وإبراهيم وشعيب وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، وأتباعهم، ثم ما صنعوا برسول الله ﷺ)^(٥)، وما صنع النصارى ببغداد وأهلها، يقول ابن كثير: (ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان.. ومن نجا منهم هرب إلى أعالي الأمكنة، فيقتلونهم بالأسطحة.. وقد اختلف في كمية من قتل ببغداد من المسلمين، فقليل: ألف وثمانمائة ألف، وقيل: ألفي ألف نفس)^(٦)، والتاريخ اليوم يعيد نفسه، فما صنع الأمريكان في العراق كما فعل النصارى بل أشد، وكما تحالف علاقة النصارى، يتحالف اليوم علاقة العصر مع الأمريكان، وكلُّ أطلق كلابه لتلغ في دماء المسلمين؟ فكم هي المذابح التي ارتكبت في حق المسلمين وديارهم؟ وها هي فلسطين والعراق وأفغانستان، وأهلها المؤمنون خير شاهد على عداوة أهل الكتاب، وبغض المنافقين، حيث عاثوا فيها قتلاً وتكليلاً وحصاراً حاقداً مقيناً.

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/ ١٣٦ و الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/٥، ص/١٩٦-١٩٧..
(٢) إنه عمير (عامر) وقيل عمران بن سعد بن النعمان بن قيس بن عمرو بن أمية الأوسي الأنصاري، كان أبوه أبو يزيد القاري ممن شهد بدرًا، له مناقب كثيرة، واختلف في وفاته، انظر تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٤، ص/ ٤٠٩.
(٣) صور من حياة الصحابة، د. عبد الرحمن رأفت الباشا، ص/٢٤٥، دار الأدب الإسلامي، القاهرة، ط/١، ص/١٩٩٧م.
(٤) انظر أيضا الولاء والبراء من إصدارات الجمعية الإسلامية - جاليا، ط/ مارس/٢٠٠٦م بتصرف.
(٥) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٠٨.
(٦) البداية والنهاية لابن كثير: ج/١٣، ص/٢٢٨-٢٢٩ باختصار، دار الحديث/ القاهرة، ط/٢٠٠٢م.

من هذه القواعد ننطلق إلى أقسام الولاء والبراء:

أولاً: ولاء يخرج من الملة وهي ما تسمى موالاته مطلقاً عامة، ولكي ينجو المرء من خطورة ذلك لا بد من التوجه إلى الله تعالى بحسن الطاعة ومتبرئاً من كل ما هو مشرك. فمن يوجه ولاءه لغير الله يخالف أصول طاعة الله، كاتخاذ الكفار بطانة من دون المؤمنين، ورفع شأنهم وتفضيلهم ونصرتهم، وتعظيمهم، والدخول في سلطانهم وتحالفاتهم بإتباعهم والانقياد لهم، والتآمر معهم على المسلمين، وعلى ذلك تحمل الأدلة الواردة في النهي الشديد عن موالاته الكفار، وأن من والاهم يكفر^(١).

ثانياً: ولاء لا يخرج من الملة، وهي موالاته خاصة للكفار: لغرض دنيوي مع سلامة الاعتقاد، بمدحهم والثناء، لمصلحة: مثل التجارة، أو العمل، أو طلب العلم^(٢).

ثالثاً: علاقات حسن الجوار لا تسمى ولاءً وإنما معاملة الحسنى لغير المحاربين، الذين لم يظاهروا على حرب المسلمين، فأمرنا الله أن نبرهم ونحسن إليهم تأليفاً لقلوبهم^(٣)، فعن أسماء رضي الله عنها قالت: قدمت عليّ أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله إن أمي قدمت عليّ وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: "نعم، صليها"^(٤).

البند الثالث: الأثر التربوي في بعض الآيات على المسلمين في الولاء والبراء:

الأثر التربوي ظاهر وبيّن في كثير من آيات الله تعالى، وخاصة عندما نمعن النظر في توجيه الفاصلة القرآنية لهذه الآيات والتي كثيراً ما تدعو لبيان عظمة الله تعالى من خلال التعرف على أسماء الله وصفاته وأثرها على نفوس المؤمنين من ذلك ما يلي:

الآية الأولى: {فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ^(٥) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (التوبة:٥). التوجيه الرباني للمؤمنين:

- استشعار خطورة الشرك في نفوس المؤمنين، من عظمة الإعلان من عظمة المعن ومن عظمة المحفل في أكبر عدد من الناس وأقدس مكان وأعظم زمان.
- {فَإِنْ تَابُوا} هذه العبارة تعطي المسلمين مساحة من الصبر على اللأواء^(٦) والشدة من جراء دعوة المشركين إلى دين الله تعالى، لأن توبة المشركين ستكون نتيجة جهد الدعاة وصبر المجاهدين الذين تحلوا بالصبر واتخذوا الجهاد سبيلاً لنصرة دينهم.

(١) دراسات في الفكر العربي الإسلامي، د. إبراهيم زيد الكيلاني وآخرون: ص/١٠٩، دار الفكر للطباعة والنشر/عمّان، ط/١٩٩٧م

(٢) منهاج المؤمن د. مصطفى مراد: ص/١٨ بتصرف.

(٣) شرح أصول العقيدة الإسلامية، د. نسيم ياسين: ص/٣٠٣ بتصرف.

(٤) صحيح البخاري: ك/ الجزية والموادعة، ب/١٨، ج/٢، ص/٦٤٣، ح/٣١٨٣.

(٥) اسم للموضع الذي يرصد فيه العدو أو يمر به، وترصدت الشيء: إذا ترقبته، انظر إعراب القرآن الكريم لمحيي الدين الدرويش:

ج/٣، ص/١٨١، والقاموس المحيط للفيروز أبادي: ج/١، ص/٤٠٨.

(٦) اللأي: الجهد والشدة والحاجة، انظر: لسان اللسان لابن منظور، ج/٢، ص/٤٩٠.

- المشرك الذي يدخل هذا الدين يحتاج إلى فترة زمنية ليتعلم الصلاة، لذا يجب أن يتبع هذا الجهد جهد تربوي وأخلاقي.
- يقول البقاعي: (لما قرر أمر البراءة إثباتاً ونفياً، أمر بما يصنع ما ضربه لهم من الأجل، إذا انقضى ومضى وقت الأشهر الحرم، فاقتلوا الناكثين بعد أجل الإحسان والكرم، بأي طريقة تتمكنون من غرة^(١) أو اغتيال^(٢)).
- رغم كون المشركين خارج الرحمة الربانية بإعلان البراءة منهم، ورغم هذه الصورة القاسية وما فيها من قتل وأخذ وحصار وتضييق السبل عليهم، إلا أن الله المتصف بتمام القوة والعظمة وكمال العلم، أيضاً متصف بكمال التوبة والرحمة والمغفرة، فترك الباب مفتوحاً للمشركين لتكون لهم فرصة دخول الإسلام، ليعلم المؤمنون عظم فضل الله تعالى عليهم وعلى الناس.
- كيف يتقرب المؤمن إلى ربه بقتل الكافر، حتى تصبح توبته الصادقة مشروع قربي لله، إنه السر العجيب في قوله تعالى: {فَإِنْ تَابُوا} لتحول العدو الحقود إلى صديق سمح ودود.
- إنها التربية التي تجعل كل من يدخل في الإسلام صادقاً، أن يلقي كل ما على ظهره من عفن الجاهلية، ويخلع ثوب الوثنية بالتبرؤ من كل هذا، التربية التي تقرب ولا تبعد، تبشر ولا تنفر، (رغم الحرب المعلنة على المشركين كافة بعد انسلاخ الأشهر الحرم، يظل الإسلام على سماحته وجديته وواقعيته بعثة هداية، وليست حرب إبادة على المشركين)^(٣).

الآية الثانية: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (التوبة: ٧).

تناولت هذه الآية الكريمة أمورا تربوية غاية في الأهمية:

- أولاً: تعلم الأمة قضية الثوابت وأهميتها، وأنه لا يجوز التنازل أو التهاون في ثوابت الأمة من خلال المحافظة على دينه ونفسه وعرضه وكرامته وأرضه وماله، فالمسلم محفوظ عند الله بثوابته وكرامته، فهذه الثوابت ليس موضوع نقاش.
- ثانياً: جاء الاستفهام الاستنكاري ليفيد استبعاد^(٤)، أن يكون للمشركين بعد ذلك عهد عند الله وعند رسوله، وكذلك المؤمنين، بل ولينهي أية حالة من التعاقد مع المشركين، يقول البقاعي: (ولما كان استفهام الإنكار في معنى النفي، صح الاستثناء منه، فكأنه قيل: لا يكون للمشركين عهد)^(٥).

(١) غرة: أتيته على غرة: أي على غفلة، وأتانا على غرار: إي على عجلة، انظر: لسان اللسان لابن منظور: ج/٢، ص/٢٦١.

(٢) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٧١، بتصريف.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٠٢.

(٤) إعراب القرآن الكريم لمحيي الدين الدرويش: ج/٣، ص/١٨٤.

(٥) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٧٣.

ثالثاً: الوفاء بالعهود من سمات المتقين، مع ضرورة الوفاء بها مع المشركين ما استقاموا لكم فيها، لتكون الإشارة إلى تحذير الغدر من قبل المشركين.

رابعاً: أبقى الباب موارباً لاستقبال المشركين في دين الله ليكونوا مسلمين.

خامساً: الأثر التربوي مقصود من خلال سعي المسلم لهديتهم، كي لا تأخذ العلاقات منحى القطيعة، لحين ترقب لحظات الوفاء والخير فيهم، وفرصة الدخول إلى قلوبهم.

الآية الثالثة: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} (التوبة: ١١).

المطلوب لحصول الأخوة الإيمانية، أربعة شروط، وهي:

الشرط الأول: دخول الإسلام، لقوله (فإن تابوا) أي من الشرك^(١)، كالكالات والعزى وشهدوا شهادة التوحيد فإخوانكم^(٢)، أي بالإيمان^(٣)، وتبرؤوا من الشرك وآمنوا^(٤).

الشرط الثاني: إقامة الصلاة، والدوام والمحافظة على فروضها وأركانها في أوقاتها بخشوع وتضرع، (فلقد احتج الشافعي بهذه الآية على أن تارك الصلاة يقتل، ذلك لأن الله أباح دماء الكفار مطلقاً، وحرّمها عند مجموع هذه الثلاثة، وهي التوبة، والصلاة، والزكاة)^(٥).

الشرط الثالث: إيتاء الزكاة، فما ذُكرت الصلاة إلا وذُكرت الزكاة، لذلك أدرك أبو بكر رضي الله عنه فقال: (والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها)^(٦).

الشرط الرابع: فمن دخل في الإسلام وصدق في توبته ونزع حب الشرك من قلبه، حصلت له الأخوة الإيمانية التي تستجلب المحبة والنصرة ومرضاة الله تعالى.

الآية الرابعة: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ^(٧) وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (التوبة: ١٦)

في هذه الآية مجموعة من اللطائف والإشارات نفتبس منها:

• إن كلمة "ولجنة" ذكرت مرة واحدة في سورة التوبة، وكذلك مرادفتها "بطانة" مرة في سورة آل عمران، في القرآن الكريم^(٨).

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/٥، ص/٩٤.

(٢) فتح القدير للشوكاني: ج/١، ص/٧١٢.

(٣) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٧٦.

(٤) تنوير المقياس من تفسير ابن عباس: ص/١٥٤، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٥) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٤، ص/٢٢٥.

(٦) صحيح البخاري: ك/ الزكاة، ب/ أخذ العناق في الصدقة، ج/١، ص/٢٨٦، ح/١٤٥٦.

(٧) من ولج، كل شيء أدخلته في شيء وليس منه فهو وليجة، وليجة الرجل من يداخله في باطن أموره، والوليجة: البطانة، انظر:

إعراب القرآن الكريم لمحيي الدين الدرويش: ج/٣، ص/١٨٩.

(٨) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي: ص/٧٦٣، و/١٢٤.

- يقول الراغب الأصفهاني^(١): في معنى بطانة: (أي مختصا بكم يستبطن أموركم وذلك استعارة من بطانة الثوب بدلالة قولهم ليست فلانا إذا اختصته وفلان شعاري وثناري)^(٢)، ويقول ابن منظور في مادة ولج: (الْوَلُوجُ: الدُّخُولُ.. ووليجة الرجل بطانته وخاصته ودخلته. وكل شيء أدخلته فيه وليس منه، والرجل يكون في القوم وليس منهم)^(٣)، وفي البحر المحيط: (المدخل يدخل فيه على سبيل الاستسرار، شبه النفاق به، وفي هذه الآية طعن على المنافقين الذين اتخذوا الولائج، لا سيما عند فرض القتال، فلا بد من اختباركم أيها المؤمنون)^(٤)، فالضيق والاستتار والغربة دلالات تحيط بلفظة الوليجة تميزها عن البطانة، مما يعزز معنى الاستتار في (الوليجة)، كشف النقاب عنه في ختام الآية بقوله، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، فقابل المعنى بنقضه^(٥).
- المعنى اللغوي لمعنى الوليجة تحديداً يكشف خطورة من اتخذ ويتخذ أعوانا ومستشارين من غير المسلمين على خصوصياتهم وأسرارهم، ويبين مدى الخطر الكبير للمنافقين.
- لن يمضي عمر المسلم دون أن يُخْتَبَرَ في دينه، بالجهاد في سبيله وأن يصرف تمام ولاءه لربه ومولاه.
- ومن أجل أن يميز الله الخبيث من الطيب، فلا بد من الابتلاء والتمحيص، ليعلم الذين جاهدوا، ومن الذين ينصرون الله ورسله بالغيب، ومن لهم ولاء الله تعالى.
- يوجه الله تعالى المسلمين إلى خطورة اتخاذ أي نوع من الولاء لغير الله تعالى، بشيء من التوبيخ ليدركوا خطورة استخدام مولى من غيرهم على خاصة أمورهم، يقول الشوكاني: الهمة والاستفهام للتوبيخ، والمعنى: كيف يقع الحساب منكم بأن تتركوا على ما أنتم عليه من غير أن تبتلوا بما يظهر المؤمن والمنافق الظهور الذي يستحق به الثواب والعقاب^(٦).
- شرف الله تعالى المؤمنين عندما جمعهم مع رسوله محمد ﷺ خير خلقه وأفضل رسله، وشرف سيكون أعظم لمن لا يتخذ من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة، ليجمعهم مع أهل الله وخاصته لا يكون لديهم أي بطانة من غير المسلمين على المسلمين.
- إقامة الحجة على كل من اتخذ بطانة من غير بطانة المسلمين وتحذيرهم، بقوله: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾.
- لا بد من صرف تمام المحبة والنصرة لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين.

(١) أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصفهاني أو الأصبهاني من الحكماء والعلماء توفي ٥٠٢ هـ. الأعلام للزركلي: ج/٢، ص/٢٥٥.
(٢) مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ج/١، ص/٥١،
(٣) وتطلق الولاية على الحيات والسباع لأنها تستتر في النهار، انظر: المنجد في اللغة والأعلام، ص/٩١٧، منشورات دار المشرق/بيروت، ط/١٩٩٢م.
(٤) لسان اللسان لابن منظور: ج/٢، ص/٧٥٩-٧٦٠، مادة ولج.
(٥) تفسير البحر المحيط لأبي حيان التوحيدي، ج/٥، ص/١٨،
(٦) الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق لمحمد نور الدين المنجد، ص/٢٠٤، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط/١/٢٠٠١م.
(٧) فتح القدير للشوكاني: ج/١، ص/٧١٣ بتصرف.

- يعتبر الجهاد من أهم مسببات الولاء الصادق لله تعالى، والبراءة من المشركين، يقول محمد رشيد رضا: (هذه الآية تحث على مقاتلة المشركين لتطهير جزيرة العرب من الشرك وقف إصرار الراسخين في الشرك على عداوة المسلمين، فمقاتلتهم تضع حدا للفصل التام بين الفريقين على الوجه الذي قامت به الحجج الناصعة على كون المؤمنين على الحق في هذا القتال)^(١).
- الولاء لله هو الولاء للرسول ﷺ وكذلك الولاء للمؤمنين، وأن الولاء للمؤمنين هو ولاء الله ورسوله ﷺ، فلا ينبغي التفريق بين الله ورسوله، ولا بين المؤمنين ورسوله ﷺ.
- الخطاب هنا فيه تذكير للمؤمن، وتنبيه للغافل، وتحذير للمنافق، وهذا من قوله: لوالله خبير بما تعملون { أي عالم بخفايا ما تعلمون ومحيط بدقائقه الآن وبعد الآن، فالتكليف الذي يشق على الأنفس هو الذي يمحص ما في القلوب ويميز الخبيث من الطيب^(٢).
- التحذير من صحبة الأقارب الكفار واتخاذهم وليجة من دون المؤمنين، فأخوة الإيمان أقوى بكثير من أخوة الدم والنسب؛ لأنها الباقية في الدنيا والجامعة في الآخرة.

الآية الخامسة: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْنَاكُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ** { (التوبة: ٢٣):

عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود وقال: "انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ^(٣) فإن بها طعينة^(٤) معها كتاب فخذوه منها" فانطلقنا تعادي بنا خيلنا، حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالطعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي من كتاب. فقلنا: لتخرجن الكتاب، أو لتلقين الثياب. فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: "يا حاطب ما هذا؟" قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ إني كنت امرأً ملصقا في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهلهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي، ما فعلت ذلك ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: "إن هذا قد صدقكم" فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال: "إنه شهد بدرا، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: "اعملوا ما شئتم فإنني قد غفرت لكم"^(٥).

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/٥، ص/٢٠٠ بتصرف.

(٢) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/٥، ص/٢٠٢-٢٠٣، باختصار وتصرف.

(٣) بخاءين معجمتين، وهي بين مكة والمدينة، بقرب المدينة، انظر حاشية صحيح مسلم، ج/٤، ص/١٩٤١.

(٤) الطعينة الزوجة أو المرأة مادمت في اليهودج: المنجد ص/٤٨٠، وسميت بها الجارية لأنها تكون فيه انظر: صحيح مسلم: ج/٤، ص/١٩٤١.

(٥) صحيح البخاري: ك/الجهاد والسير، ب/الجاسوس وقول الله تعالى: { لا تتخذوا عدوي وعدوكم } الممتحنة، ج/٢، ص/٦٠٤، ح/٣٠٠٧.

• قصة حاطب رضي الله عنه متقدمة على آية البراءة فما الذي جعل عمر رضي الله عنه يسمه بالمنافق ويستوجب قتله؟ إنها العقيدة التي تربي عليها الصحابة رضي الله عنهم فهما وسلوكا قبل نزول الآية، إنها عقيدة الولاء والبراء، الموالاتة لله ولرسوله وللمؤمنين والبراءة من كل ما هو شرك ومشرك، كيف لا؟ وهم الذين عاشوا قصة سعد بن أبي وقاص وأمه واقعا، ورأوا أبا عبيدة عامر بن الجراح يقتل والده، وكيف كان أبو بكر يبحث عن ابنه ليقتله؟ إنها الممارسات العملية لعقيدة الولاء والبراء قبل نزول آية البراءة.

لقد جاءت آية التوبة هنا لترسم معالم جديدة في العلاقات الإسلامية وتحدد نوعية العلاقة حتى مع الوالدين، وتُرسَخَ لأمرٍ عقديٍّ في نفوس المسلمين، منها:

- يبقى المؤمن مؤمنا عندما يقطع كل ولاية وأية علاقة مع أعداء الله تعالى، ولو كانوا أولي قربي، لإزالة أية شبهة في التحرج في قطع العلاقات معهم، وإن كانوا آباءً أو إخوة^(١).
- إذا كان مولاة الآباء والأخوة فيه تبع لهم ولكفرهم، فكيف بمن يوالي اليهود والنصارى.
- إن القرابة الحقيقية هي قرابة الدين والعقيدة، وليست قرابة الأبدان^(٢).
- لم يذكر الأبناء في الولاية لأنهم في الغالب تبع الآباء، والهيئة والإحسان مستثناه من الولاية^(٣).

• إن قطع الولاية للوالدين المشركين والبراءة منهما لا يعني عدم صلتها وبرهما، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، قالت: قدمت عليّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: نعم صلي أمك^(٤).

• إن المفردات القرآنية تبين بعضا من المعاني والمقاصد القرآنية، فاستخدام كلمة استحباوا، تبين أمرا غاية في الخطورة، هو أن الكفار يطلبون الكفر محبة فيه، ومحبتهم هذه تستوجب قتال خصومهم من المؤمنين، فكيف لمؤمن أن يوالي أمثال هؤلاء بنوعيتهم الحاقدة^(٥)، وما أكثر أمثالهم اليوم، وكيف يتربصون بالمؤمنين الدوائر، وأسننتهم حداد عليهم.

• ومن يتولّى أعداء الله تعالى ولا يبرأ منهم، فإنه يكون قد ظلم نفسه وجماعة المؤمنين، بوضعه الولاية موضع البراءة، والمودة محل العداوة، فحملته نكرة الجاهلية والعصبية القبلية على ولاية أعداء الله ورسوله والمؤمنين بنصرهم ومظاهرتهم^(٦)، وهذا ما حمل

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٨، بتصرف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/٥، ص/١٠٨، بتصرف.

(٣) المصدر السابق: ج/٥، ص/١٠٩، بتصرف.

(٤) صحيح البخاري: ك/ الهيئة، ب/ الهدنة للمشركين، ج/٢، ص/٥١٨، ج/٢٦٢٠.

(٥) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٨، بتصرف.

(٦) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/١٠، ص/٢٢٤-٢٢٥، باختصار وتصرف.

البعض اليوم على مناصرة اليهود والنصارى ضد أبناء المسلمين، رغم زعمهم أنهم مسلمون.

- إن الإنسان جبل وفطر على الإيمان، وأن الله تعالى يحب ذلك لخلقه، قال الله تعالى: **{لَوْ كُنَّ اللَّهُ حَبِّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَرَبِّيَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ}** (الحجرات: ٧)، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول: **{فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}** (الروم: ٣٠)^(١). يقول البقاعي رحمه الله تعالى: **{على الإيمان}** نبه بصيغة الاستفعال على أن الإيمان لكثرة محاسنه وظهور دلائله معشوق بالطبع، فلا يتركه أحدًا إلا بنوع معالجة ومكابرة لعقله ومجاهدة^(٢)، فالإيمان أمر فطري في الإنسان، وأراد استفعاله فيهم بالحث عليه، ولا يخرج المرء من إيمانه إلا من كان في الأصل مستكبرا عنيدا ججودا لأنعم الله تعالى، وهذا من فضل الله تعالى على الناس أجمعين.

الآية السادسة: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ} (التوبة: ٦٣):

- التوجيه الرباني يرتكز على خطورة محاددة الله ورسوله:
- المحاددة تعني المشاققة والبغضاء والمعاداة^(٣)، وبدأت الآية باستفهام إنكاري وتوبيخي ليبين خطورة المحاددة والمشاققة والمعاداة^(٤).
- إن معادتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم واستهزائهم به صلى الله عليه وسلم، أوقعتهم في شر أعظم هو معاداة الله تعالى، ومن ثم تعرضهم للخزي في الدنيا المؤدي إلى خزي الآخرة الدائم^(٥). الذي يترتب عليه خلود في النار، ولا يكون هذا الخزي العظيم إلا لمن أوغل نفسه في الكفر والنفاق إلى حد عدم الرجوع عنه، ولذلك قال الله تعالى: **{خَالِدًا فِيهَا}**.
- إن هذه المحاددة تؤدي إلى ضرورة قطع العلاقة مع المشركين، يقول البقاعي: **{من يحادد الله}** ويظهر المحاددة، بما أشار إليه الفك، إلى أن يقول: بأن يفعل معهما فعل من يخاصم في حد أرض فيريد أن يغلب على حد خصمه، ويلزمه إلى أن يكون في حد غير حده^(٦).

(١) صحيح البخاري: ك/التفسير، ب/ {لا تبديل لخلق الله}، ج/٣، ص/٩٧٣، ح/٤٧٧٥.

(٢) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٩١.

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه لمحيي الدين الدرويش: ج/٣، ص/٢٣٤.

(٤) المصدر السابق: ص/٢٣٦.

(٥) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٤١، بتصريف.

(٦) المصدر السابق: ج/٣، ص/٣٤١.

- العقوبة المنتظرة يوم القيامة تحدد طبيعة العلاقة في الدنيا، حيث أن فعلهم المشين يبين سوء خلقهم، فلا ينبغي للمؤمن أن يقيم أي نوع من العلاقة مع أمثال هؤلاء، إذا ما اتخذوا من المشاققة والبغضاء والعداوة منهجا ضد المؤمنين.

الآية السابعة: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (التوبة: ٦٧):

طبيعة المنافقين التشابه بتوارث بعضهم صفات بعض، فإن أصاب أحدهم مكروب، أو ذهب جاهه وسلطانه تخلو عنه، وهذه من أعظم صفاتهم المستترة فلا ولاء بينهم إلا بقدر مصالحهم، ومن خلال ذلك تظهر التوجيهات الربانية والتربوية، منها:

- المنافق هو من أظهر الإيمان وأبطن الكفر^(١)، ونفاقهم هذا من جمودهم على الهوى وحب الذات والأنانية، التي جبلوا عليها لحبهم للمنكر وأمرهم به ونهيبهم عن المعروف لبقاء سوادهم، بأية وسيلة مهما دنت، فحالهم يضاد حال المؤمنين في صفاتهم وسلوكهم^(٢).
- هذه الصفات توجه المؤمنين إلى ضرورة أخذ الحيطة والحذر من خبث وسوء طويتهم.
- لا بد من محاصرتهم بالخيرية التي اختصنا الله بها، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} (آل عمران: ١١٠)، وأن لا يسمح لهم أن يأمروا بالمنكر، أو أن ينهوا عن معروف، فإن غضضنا الطرف عنهم، سارعوا إليه، وفي ذلك تظهر خبيثة نفوسهم المريضة، وينكشف حبهم للمنكر، وينتشر خيرهم ويستفحل شرهم.
- إن كراهيتهم للمعروف يظهر من خلال قبض أيديهم فيه، فكانوا أشد الناس بخلا فيه، إضافة إلى بخلهم وشحهم في الإنفاق.
- (إن سبب تركهم من رحمة الله تعالى)، كما قال البقاعي: أنهم أقدموا على ترك الخير والعمل فيه في الدنيا، وسعيهم الدؤوب بالمنكر بين الناس^(٣).
- إن اختصاصهم بكمال الفسق، أدى إلى خروجهم عن دائرة ما ينفعهم، وذلك بسبب استهانتهم بأوامر الله وتطبعهم بالنفائض كلها، مما أدى إلى نقمته عليهم^(٤).

الآية الثامنة: {وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} (التوبة: ٨٤):

يبين الله تعالى أموراً تربوية وأحكاماً فقهية منها:

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٤٤.
(٢) المصدر السابق: ص/٣٤٤، باختصار.
(٣) المصدر السابق: ص/٣٤٤، بتصرف.
(٤) المصدر السابق: ص/٣٤٤-٣٤٥، بتصرف.

- إنهم لا يستحقون شرف الصلاة عليهم، ولا الشفاعة، ولا طلب الرحمة لهم^(١)، ليتبين للمؤمنين مآل المنافقين والخزي الذي ينالهم في الدنيا قبل الآخرة
- تحقير شأنهم في حياتهم بإبلاغهم بعدم الصلاة عليهم، وتحقير أهلهم ممن يوالونهم بعدم الصلاة عليهم.
- حقر الله من شأنهم وأهانهم عندما منعهم من الغزو مع المؤمنين، إذلالاً لهم كونهم خذلوا المؤمنين^(٢).
- إن تمام التبرؤ من المنافقين بعدم الصلاة عليهم، يؤدي إلى تمام القطيعة معهم، يتطلب هذا تحريّ الدقة في التعامل معهم، خوفاً من التباس الأمر، وحدوث ما لم تحمد عقباه.
- عدم الاستغفار لمنافق مات معلوم النفاق أبداً، يقول الرازي: (واعلم أن قوله: "ولا تُصَلِّ أبداً" يحتمل تأييد النفي ويحتمل تأييد المنفي، والمقصود هو الأول، لأن قرائن هذه الآيات دالة على أن المقصود منعه من أن يصلي على أحد منهم منعا كلياً دائماً)^(٣).
- ينبه الله المؤمنين إلى أن المنافق أسوأ من الكافر، لأن بعض الكفار قد يتحلَّون ببعض مكارم الأخلاق كالوفاء والأمانة والصدق، إلا إن المنافق يفتقدها، وذلك أنهم عاشوا كافرين، وماتوا على غدرهم وخيانتهم وكذبهم وكيدهم ومكرهم وخداعهم، يقول الرازي: (فالمنافقون لما كانوا موصوفين بهذه الصفات وصفهم الله تعالى بالفسق بعد أن وصفهم بالكفر، تنبيهاً على أن طريق النفاق طريقه مذموم عند كل أهل العالم)^(٤).

الآية التاسعة: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١٠٠):

صورة من صور الولاء الحقيقي لله ولرسوله وللمؤمنين، جاءت هذه الآية بين آيتين تتحدث عن الأعراب المؤمنين منهم والمنافقين، وبين الآيتين ذكر سادة الناس يوم القيامة لتظهر (ميزة السابقين في الإيمان وفي الزمان والمكان)^(٥)، في كل مصر وفي كل عصر، وفي ذلك توجيه للمؤمنين عظيم: (المؤمن أن لا يعطي محبته وولاءه لأحد غير الله ورسوله والمؤمنين)^(٦).

ومن هذه الصور الرائعة والتوجيهات الربانية التالي:

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٧٠، بتصرف.
(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٥٢، بتصرف.
(٣) المصدر السابق: ص/١٥٣، منقول.
(٤) المصدر السابق: ص/١٥٣-١٥٤، منقول.
(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/٥، ص/٣٢١، بتصرف.
(٦) جند الله ثقافة وأخلاقاً، سعيد حوى: ص/١٦٦، بتصرف، دار السلام للطباعة والنشر/ القاهرة، ط/١٩٩٨م

- المؤمنون حقا أهل الولاء الحقيقي لله، وهم أول من تبرأ من قومهم المشركين بهجرتهم، وأهل المحبة الكاملة لله ولرسوله وللمؤمنين بنصرتهم، فسبقوا الناس بالإيمان والهجرة والنصرة، يقول ابن عباس رضي الله عنهما (بالإيمان الذين صلوا إلى قبلتين وشهدوا بدرا)^(١)، يقول الرازي: (لم يبين أنهم سابقون فيما ذاء، فبقي اللفظ مجملا، إلا أنه وصفهم مهاجرين وأنصارا، فوجب صرف اللفظ إلى ما به صاروا مهاجرين وأنصارا)^(٢). قال الله تعالى: **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ** (الحشر: ٨-١٠)^(٣)، فالذين سبقوا التابعين هم المهاجرون والأنصار، بما سبقوا من الإيمان الذي شمل أركان الدين في أول الدعوة وانتشارها، توحيد وولاء وحب ونصرة لله ودينه، وتبرؤ من كل ما هو عدو لله ولرسوله وللمؤمنين.
- من فضل الله تعالى أن يسبق رضاه عن عباده وما أعد لهم من نعيم مقيم، رضا وعبادة المخلصين من عباده.
- جمع السابقون أفضل أعمال التقرب إلى الله تعالى، والتي حازوا فيها فضل السبق، إيمان وحب ونصرة وبيعة وجهاد الأولين^(٤)، بل وكل منقبة من مناقب الشريعة^(٥).
- تظهر أفضلية الصديق رضي الله عنه على سائر الصحابة رضي الله عنهم وذلك (لأنه كان في خدمة الرسول صلى الله عليه وسلم ومصاحبا له في الهجرة وفي كل مسكن وموضع)^(٦)،
- كشف الله سريرة الصحابة رضي الله عنهم، وشهد لهم بالإيمان والتقوى، عندما قال "رضي الله عنهم" وهذا يدل على سلامة إيمانهم ونقاء نفوسهم، (فياويل من أبغضهم، أو سبهم، ولا سيما سادتهم وأخيارهم، فالطائفة المخدولة من الرافضة^(٧) يعادون ويسبون ويبغضون من صلى الله عليه وسلم عيادا بالله من ذلك، وأما أهل السنة فإنهم يترضون عن المؤمنين، ويوالون من والى الله، ويعادون من عادى الله، وهم متبعون مقتدون لا مبتدعون، مبتدون^(٨)).

(١) نور المقياس من تفسير ابن عباس: ص/١٦٥.

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٦٨ باختصار.

(٣) الأساس في التفسير لسعيد حوى: ج/٤، ص/٢٣٤٣ بتصرف.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/٥، ص/٣٢١.

(٥) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٦٩ بتصرف.

(٦) فرق من أصحاب الشيعة وهم الذين تركوا قائدهم في حرب أو سواها، ومنه قولهم/ لا خير في الروافض، المنجد: ص/٢٧٢.

(٧) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج/٢، ص/٤٢٢ باختصار.

- رضا الله تعالى طال كل من تبع السابقون بإحسان ، وفي ذلك توجيه أن فضله ما انقطع ولن ينقطع عن هذه الأمة، وأن بشارة النصر والفرج للصالحين من أمة محمد ﷺ قائمة

الآية العاشرة: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ* وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ* وَمَا كَانَ لِلَّهِ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ* إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} (التوبة: ١١٣-١١٦):

نموذجان لنبيين كريمين، خاتم النبيين ﷺ وأبو الأنبياء ﷺ يظهر من خلالهما صورة الولاء الحقيقي لله تعالى والتبرؤ من المشركين:

- فقد جعل الله تعالى رسوله ﷺ قدوة للمسلمين في كل شيء، فما صح ولا استقام، ولا ينبغي لأحد من المؤمنين أن يستغفروا للمشركين^(١)، بعد أن منع الله رسوله ﷺ من ذلك.
- جمع الله في نهيه البليغ النبي والمؤمنين عن الاستغفار لمن مات مشركا، وعلم مآلهم^(٢).
- من حكمة الله تعالى أن يكون التبرؤ حدا فاصلا بين المؤمنين والمشركين والمنافقين، وامتنالا لأمر الله؛ لأن المؤمنين أولى ببعض من المشركين^(٣).
- أن لا يتوهم أحد أن الله منع نبيه محمد ﷺ مما أذن لإبراهيم ﷺ فيه^(٤)؛ لأن البراءة عقيدة متواصلة مع الأنبياء والمرسلين، لذا بين لهم سبب سعادتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة.
- إن عدم موالات الأبعاد من الكافرين حجة على الأقارب المؤمنين الذين يوالون الله ورسوله بضرورة قطع موالات أقاربهم الكافرين والتبرؤ منهم، لأن الله هو الولي وهو الناصر^(٥).
- رغم كون إبراهيم ﷺ كثير التوجع والتفجع لآلام الناس، إلا أنه تبرأ من أبيه عندما تبين أنه عدو لله^(٦)، ليكون نموذجا وأسوة حسنة قال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ..} (الممتحنة: ٤)، ليكون لنا مدعاة للتبرؤ من عموم المشركين، أحياء وعدم الاستغفار أو الترحم على أحد منهم مات أبداً.

(١) قيس من القرآن الكريم للصابوني: ج/٢، ص/٩٧، بتصرف.

(٢) المصدر السابق: ص/٩٧.

(٣) الأساس في التفسير لسعيد حوى: ج/٤، ص/٢٣٦٠ بتصرف.

(٤) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٢١٠ باختصار.

(٥) المصدر السابق: ص/٢١٠.

(٦) المصدر السابق: ص/٢١٠.

البند الرابع: بعض صور الولاء والبراء قديما وحديثا:

ذكرت براءة الله وبعض رسله في كتاب الله عشر مرات^(١)، فهذا نوح أول المرسلين يتبرأ من قومه، فقال: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ} (هود:٣٥)، (أي من الكفر والتكذيب)^(٢).

• التبرؤ من الولد، وبعد أن علمه ربه أهمية العمل الصالح وخصوصا الولد، فقال: {وَإِنْ لَمْ تَغْرِ لِي وَتَرْحَمْنِي}، عندما ظن أن ولده من أهله {إِنْ ابْنِي مِنْ أَهْلِي} لأنه لم يكن يعلم أنه ممن سبق عليه القول^(٣). وقال: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ} (هود:٣٥). فنوح عليه السلام، يعلن براءته من إجرام المجرمين.

• وهذا إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن من أبيه، قال الله فيه: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَاهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} (التوبة:١١٤)، وقال: {فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} (الأنعام:٧٨). ثم يتبرأ من قومه ومما يشركون، بل وأعلن ذلك.

• كما إنه عليه السلام يعلن تبرؤه مما يشرك به قومه، فقال تعالى: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} (يونس:٤١).

• وهذا نبي الله هود عليه السلام يعلن براءته مما يشرك به المشركون، يقول تعالى: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} (هود:٥٤).

• وسيد الخلق: عليه السلام يتبرأ مما يشرك به المجرمون، قال تعالى {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} (الأنعام:١٩).

• وهذا سيدنا رسول الله عليه السلام يثبت براءة المشركين من إيمانه وبالتالي عليه السلام برئ من أعمالهم الكفرية والشركية، وقال الله تعالى: {فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} (الشعراء:٢١٦).

• وها هو رسول الله عليه السلام يعلن أيضا براءته من أعمال المشركين.

لتظهر صورة البراءة مع كل رسول أرسله الله إلى قومه، صورة ماضية إلى يوم القيامة. إنه الدين والإيمان مع أول رسالة وأول رسول إلى رسالة خاتم النبيين عليه السلام.

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فواد عبد الباقي: ص/١١٦-١١٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/٥، ص/٣٥٨.

(٣) فتح القدير للشوكاني: ج/١، ص/٨٤١ بتصرف.

ومن أروع صور البراءة ما سطرته سورة التوبة لترسم واقعا ملموسا إلى يوم الدين قول الله تعالى: {وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} (التوبة: ٣).

وَأَذَانٌ^(١)، كما جاءت براءة منونة للتفخيم، فالبراءة بسبب قطع المشرك سبب علاقته بربه^(٢)، فبراءة الله بمثابة فصل واقعي وتام بين أهل الشرك وشركهم وأهل الإيمان وإيمانهم، يقول سيد قطب (إن مقدمة السورة نزلت متأخرة عن بقيتها، وإن كان جاء ترتيبها في مقدمتها، وهو يتضمن إنهاء كل العقود القائمة بين المسلمين والمشركين، سواء منها المقيدة، والمطلقة، والناكثين لها، ولم ينقصوا المسلمين شيئا، أو ظاهروا أحدا عليهم، بل وإنها مبدأ التعاقد معهم، بل واستنكار أن يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله)^(٣).

فالصورة بكل مكوناتها: المجاهدون في ساحة الوغى لصد العدوان، ومن خلفهم من الذراري والدور والغلمان، والمتخلفون الذين يرجفون في المدينة يبيثون السموم، وأهل الغدر يأترون للانقضاض، يقول سيد قطب: (إنه لما خرج رسول الله ﷺ أرجف المنافقون، وأخذ المشركون ينقضون عهودهم، فأنزل الله الآيات بالنسبة لهؤلاء، مع إمهالهم أربعة أشهر^(٤)).

ولما كانت هذه هي الأسباب القريبة والمباشرة، كان لا بد من اتخاذ الخطوة الأخيرة والحاسمة، بسبب تعارض المنهجين، وعدم إمكان التعايش بينهما، إلبا فترات اضطرارية تنتهي حتما^(٥)، فعن أبي هريرة ؓ قال: بعثني أبا بكر ؓ في تلك الحجة في المؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. قال حميد: ثم أوقف رسول الله ﷺ بعلي بن أبي طالب ؓ وأمره أن يؤذن ببراءة. قال أبو هريرة ؓ فأذن معنا عليّ يوم النحر ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان^(٦). وهذا هو إعلان المفصلة، لنرى من هذه الصورة إشراقه دين الإسلام على الأمم بالسلم والأمان، من خلال إبعاد شبح الغدر والخيانة ونقض العهود والمواثيق، لقد ظهرت الصورة واضحة جلية عند انحسار الظلم وأهله من كل بلد يخرجون منه أو يزويهم نور الحق، بفضل الله تعالى.

لقد جاءت هذه البراءة لتحدد معالم طريق الأمة، وترسم واقعا جديدا بتشريع حتمي، يقول سيد قطب: (نشر منهج الله في الأرض بإزالة كافة الحواجز المادية التي تحول دون

(١) أن: علم، المختار الصحاح للرازي: ص/٥، وأذنتي: أعلمني، وفعله بإذني، أي بعلمي، انظر ك/العين للفراهيدي: ج/١، ص/٦٢،

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن لأبي الطيب صديق بن حسن بن علي بن الحسين الفتوح: المكتبة العصرية/بيروت، ط/١٩٨٩م.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٥٨٦، بتصرف.

(٤) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٥٨٧، بتصرف.

(٥) معالم التنزيل للبيهقي: ج/٢، ص/٢٢٦.

(٦) صحيح البخاري: ك/التفسير، ب/سورة التوبة، ب/ {وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} ج/٣، ص/٩٣٢-٩٣٣، ح/٤٦٥٦.

ذلك، من إضعاف المشركين وكف أذاهم، وليصبح هذا قوة مهاب الجانب، خطوة خطوة، لأن عموم المشركين يسوؤهم انتشار الإسلام، ويغيظهم بنيان الحق وكثرة سواده، قال الله تعالى: **﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾** (البقرة: ١٠٩)، وقال: **﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾** (البقرة: ١٢٠)، ويقول تعالى: **﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾** (البقرة: ٢١٧)^(١)، بعد هذه الصورة الجلية، أبقى للمجرمين وأهل الغدر ودّ ومحبّة موصولة بهم؟ وهم الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر، وإن ظهروا لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة.

ولكي ندرك حقيقة قوله تعالى، لا بد من أن نرى واقع المشركين ولسان حالهم، فهذا القس زويمر في مؤتمر القدس سنة ١٩٣٥م يخاطب (المبشرين) بالنصرانية في العالم الإسلامي يقول: (إن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية، ليست إدخال المسلم في المسيحية، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها..)^(٢)!! ويقول: (لقد قبضنا في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية المستقلة أو التي تخضع للنفوذ المسيحي..)^(٣)!!

وها هم يبثون سموم الاغترار بحضارتهم الزائفة وكذبهم المنمق، وغزوهم الفكري والعسكري المتواصل، فبدأ من خلال ابتعاث الوفود إلى دولهم الكافرة، ليتحقق لديهم أفضل النتائج، وتنكسر صفة التميز بين المسلم والكافر، وينتذبذب ولاء المسلم^(٤).

ساعين بكل جهدهم ومحاولين بكل حقدهم تحويل البطولات إلى خرافات، والدين إلى أساطير، يعاونهم في ذلك المنافقون الذين بدلوا وغيروا واستباحوا الحرمات، ونشروا الفساد والفاحشة والرذيلة والموبقات والأفكار الهدامة.

كل ذلك يهدف إلى محاولة فرض قيمهم اللا أخلاقية وطمس معالم الدين وتغييب دور المساجد، والعلماء، بل وجعلوا كل ذلك مثاراً للسخرية، وأحيوا الفضائيات الماجنة ودور الخنا، وثقافة الغير التي تسيء إلى كل ما هو مسلم، ليزداد الناس جهالة بدينهم وقيمهم، لتكون هذه أدواتهم، التي تعتبر أشد مضاء من أدوات الذبح والقتل التي استخدمها المجرمون عبر العصور، وأثرا واضحا من مظاهر الولاء للكافرين.

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٥٩٢-١٥٩٣ باختصار وتصرف.

(٢) جذور البلاء لعبد الله النل: ص/ ٢٧٥. المكتب الإسلامي/بيروت، ط/٣/١٩٨٥م.

(٣) المصدر السابق: ص/٢٧٦.

(٤) الولاء والبراء في الإسلام لمحمد بن سعيد الفحطاني: ص/ ٣٩٩-٤٠٠ باختصار وتصرف.

البند الرابع: بعض صور الولاء والبراء قديما وحديثا:

١/ الهجرة إلى بلاد الكفر والإقامة بين ظهرانيهم بدون عذر شرعي، لما في ذلك من خطر بين على الدين والسلوك، لذا حرم الله تعالى إقامة المسلم بين أظهرهم، قال الله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}** (النساء: ٩٧)، فلم يعذر إلا المستضعفين، ومن لا يملك حيلة أو يهتدي إلى الهجرة سبيلا^(١)، كما بريء رسول الله ﷺ ممن يقيم بين أظهر المشركين دون داع، فقال: (أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين)^(٢). وقال ﷺ: (من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله)^(٣)، وما أكثر الأمثلة التي تنطبق عليهم في زماننا.

٢/ إعاتتهم أو الاستعانة بهم أو اتخاذهم بيت سر لهم، قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ}** (آل عمران: ١١٨)، تكشف هذه الآية دخائل الكفار وما يكون في صدورهم من ضغينة وغيظ، ومكر يدبرونه للمسلمين، ومضرة يسعون إليها حبا في أديتهم^(٤)، فما الذي يجعل المسلم بعد أن يدرك هذه الحقيقة، ورسول الله ﷺ قدوتنا رفض الاستعانة بهم في القتال فقال لرجل لحق بالنبي ﷺ ليقاقل معه، فقال ﷺ ("ارجع" ثم اتفقا فقال: "إنا لا نستعين بمشرك")^(٥). فكيف بمن استعان بهم على أدق أسرار الدولة، بل على دمايتهم، وجعلوا قيادتهم العسكرية واحدة.

٣/ التشبه بهم في الملابس والمأكُل والعبادات حبا ورضا بما يفعلون، خطرة ذلك تكمن في أنها بداية الولاء للكافرين والتبرؤ من المؤمنين، لأن التشبه يدل على محبة المتشبه بمن تشبه به^(٦)، وهذا للأسف الشديد واقع بأبناء الأمة اليوم بكثرة طغت على نمط حياتنا، لولا فضل الله بظهور الصحوة الإسلامية، لضاعت قيمنا وأخلاقنا، وهنا مكمن الخطر، لذلك حذرنا رسول الله ﷺ من ذلك فقال: (من تشبه بقوم فهو منهم)^(٧).

٤/ مودتهم ومحبتهم والثناء عليهم ومشاركتهم أعيادهم أو تهنئتهم بها، وذلك أن هذه المشاركة لا تكون إلا عن إعجاب أو محبة، أو تقليد لمنهجهم وسلوكهم، اغترارا بمدنيتهم وتقدمهم المغرور بحضارة زائفة، قال الله تعالى: **{لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ***

(١) الولاء والبراء في الإسلام لصالح الفوزان: ص/٧-٨ مختصرا

(٢) سنن الترمذي: ك/السير، ب/ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين، ص/٣٧٨، ح/١٦٠٤. (صححه الألباني)

(٣) سنن أبي داود: ك/الجهاد، ب/في الإقامة بأرض الشرك، ص/٤٤٦، ح/٢٧٨٧. (صححه الألباني)

(٤) الولاء والبراء في الإسلام، لصالح الفوزان: ص/٩-١٢ مختصرا.

(٥) سنن أبي داود: ك/الجهاد، ب/في المشرك يُسهم له، ص/٤٣٧، ح/٢٧٣٢. وابن ماجه ح/٢٨٣٢، (صححه الألباني)

(٦) الولاء والبراء في الإسلام، لصالح الفوزان: ص/٧ بتصرف.

(٧) سنن أبي داود: ك/اللباس، ب/في لبس الشهرة، ص/٦٣٥، ح/٤٠٣١. (حسن صحيح قاله الألباني)

مَتَاعَ قَلِيلٍ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} (آل عمران: ١٩٦-١٩٧)، حيث نزلت هذه الآية في بعض المؤمنين الذين اغتروا بالمشركين وما كانوا عليه من رخاء ولين من العيش يتجرون ويتعمون، فقالوا: إن أعداء الله تعالى فيما نرى من الخير وأنواع المكاسب، ونحن في الجهد، وكذلك ضربهم في الأرض وتصرفهم في البلاد للتجارة؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية {لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ...}، كما أن الخطاب للنبي ﷺ والمراد جميع المؤمنين^(١)، إن هذا الاغترار ناتج عن هزيمة نفسية بفعل الغزو الفكري، والتقليد الأعمى، بما هم عليه من ضلالات وكفر إما عن رضا أو دون تفكير بذلك^(٢)، ولذلك حذرنا ﷺ من هذا إتباع اليهود والنصارى، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "لنتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا ذراعا حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموه". قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: "فمن؟"^(٣).

٥/ طاعتهم فيما يأمرهم وإقامة تحالفات سياسية أو عسكرية وثقافية، لما لهذه الطاعات وهذه التحالفات من معارضة واضحة لمبدأ العبودية لله التي أمرنا الله أن نتعبده بها، إضافة إلى انقفاء وتغييب الشخصية الإسلامية السيادية على النفس والأرض المسلمة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (آل عمران: ١٠٠-١٠١)، يقول الألوسي^(٤) رحمه الله تعالى: (إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب خوفا من إنكارهم ما أنتم عليه من الحقيقة والطريق الموصل إليه سبحانه، يردوكم بعد إيمانكم الراسخ فيكم كافرين لأن إنكار الحقيقة كفر كإنكار الشريعة)^(٥). ويقول الشاطبي^(٦): (فإذا ترك الجاهل استصلاح نفسه في غير شرع الله، فكيف له بالعصمة، وقد خلا منها إلى تدبير نفسه بغيره، فهو حقيق في البعد عن رحمة الله.. وبالتالي فإن الاعتصام بحبل الله هو تقوى الله، وأن ما سوى ذلك تفرقة)^(٧).

وهنا تظهر خطورة تولي غير الله ورسوله والمؤمنين، لما يترتب على ذلك امتثال لأوامر الكافرين، وبالتالي الرضا بكفرهم، يقول الطاهر ابن عاشور: (الخطاب للمؤمنين لتحذيرهم من كيد أهل الكتاب وسوء عدائهم للمؤمنين)^(٨)،

(١) معالم التنزيل للبغوي: ج/١، ص/١٥٤ اختصار وتصرف.

(٢) شرح أصول العقيدة الإسلامية د. نسيم ياسين: ص/٢٩٠ بتصريف.

(٣) صحيح البخاري: ك/ الاعتصام، ب/ قول النبي ﷺ لنتبعن سنن من كان قبلكم، ج/٤، ص/١٤٤٧، ح/٧٣٢٠.

(٤) هو محمد بن عبد الله الشهاب أبو الثناء الحسيني البغدادي، ولد ببغداد ١٨٠٦م له الكثير من المؤلفات أهمها تفسير القرآن المسمى روح المعاني، توفي ١٨٥٩م انظر أعلام الإسلام لأنور الجندي، ص/١٢٨.

(٥) روح المعاني للألوسي: ج/٤، ص/٣٢.

(٦) إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي العلامة المحقق الحافظ الفقيه له الكثير من المؤلفات توفي ٧٩٠هـ، انظر مقدمة ك/ الاعتصام

(٧) الاعتصام للشاطبي: ج/١، ص/١١٣، بتصريف واختصار، دار المعرفة للطباعة والنشر/بيروت، تعريف محمد رشيد رضا،

(٨) التحرير والتنوير لابن عاشور: ج/١، ص/٧٩٤.

ويقول الله تعالى: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} (الأنعام: ١٢١)، يقول القرطبي: (إنما يكون المؤمن بطاعة المشرك مشركا إذا أطاعه في الاعتقاد)^(١)، ويقول ابن كثير: (أي عدلتكم عن أمر الله وشرعه إلى قول غيره، فقدمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك، كقوله تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ} (التوبة: ٣١)^(٢)، وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فقال: يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعتة يقرأ في سورة براءة {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ} قال: (أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أكلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه)^(٣). وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (التوبة: ٢٣)، فإذا كان الله قد نهانا أن نتولى آبائنا، وإخواننا أولياء من دون المؤمنين إن استحبوا الكفر على الإيمان، أيعقل أن نتولى اليهود والنصارى وعموم الكافرين، لقد تحول الولاء إلى تحالف عقدي خاضت فيه دولا تنتمي إلى المسلمين، حروبا ضرورسا ضد المجاهدين ودولا إسلامية، كأفغانستان والعراق، ولننظر إلى باكستان التي تخوض حربا بالوكالة عن دول الكفر الصليبي ضد المجاهدين في أفغانستان، حيث أبيتت قرى ومدناً بأكملها وعشرات الألوف من القتلى، بل مئات الآلاف، وكم من الأسرى المسلمين تمَّ اقتيادهم سرا في جنح الظلام إلى دول الكفر الحاقدا، لتظهر صورة هذا التحالف الأثيم بين المنافقين والكافرين بأبشع صورته.

أضف إلى هذه صورة فلسطين المحتلة بمسرى رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم والأقصى الجريح والمدنس بالمشركين، فلسطين المكلومة بشهادتها، وكثرة أسراها وجراحاتها المثخنة، فلسطين المحتلة بأبنائها المحاصرين بأبشع أنواع الحصار وأقذر وسائله، يفرضه أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود، ومعهم دول التحالف الصليبي، والمنافقون بشتى صنوفهم وألوانهم ومللهم وأسمائهم ومسمياتهم، عربية كانت أم مستعربة، إنها الصورة التي وضحت كثيرا في زماننا، بعد أن كانت غامضة بعض الشيء قبل سنوات قليلة.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: نقلا عن ابن العربي ج ٤، ص ٣٥٦

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج ٢، ص ١٩٢.

(٣) سنن الترمذي: ك/ التفسير، ب/ تفسير براءة، ص ٦٩٤، ح/ ٣٠٩٥. (حسن الألباني)

الفصل الثاني

الجهاد في سبيل الله من خلال سورة التوبة

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: الجهاد في سبيل الله.

المبحث الثاني: الجهاد ضرورة أمنية وحاجة إسلامية.

المبحث الأول

الجهاد في سبيل الله

ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: تحديد أهداف ومقاصد الفصل الثاني وتحليلها.

المطلب الثاني: تعريف الجهاد لغة واصطلاحاً.

المطلب الثالث: الجهاد فريضة إلهية وسنة كونية:

ويشتمل على ثلاثة بنود:

البند الأول: أنواع الجهاد.

البند الثاني: حكم الجهاد وأحكامه.

البند الثالث: الجهاد فريضة إلهية وسنة كونية.

المطلب الرابع: أهمية الجهاد وأهم فوائده من خلال سورة التوبة.

المطلب الأول: تحديد أهداف ومقاصد الفصل الثاني وتحليلها:

أولا تحديد أهداف الفصل الثاني وتحليلها:

تحدثت سورة التوبة عن الجهاد بشيء من الإسهاب والوضوح، وبينت آياتها الكثير من الأهداف والأحكام الجهادية والهدايات القرآنية، لتكون نبراسا وهدى للمؤمنين واستمرارا للحياة الكريمة الخالية من ألوان الذل والهوان، فمن هذه الأهداف:

- وجوب جهاد وقتل كل مشرك نكث اليمين ونقض عهد المسلمين، باستثناء (الضعفاء والمنعزلين غير المحاربين)^(١). {... فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ..} (التوبة:٥).
- أن يفعل الإمام كل ما يراه موافقا لمصلحة المسلمين، من أخذ الأسرى، وحبس أعداء الله بمحاصرة معاقلمهم حتى ينزلوا على حكم المسلمين^(٢). {إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ}
- مراقبة تحركات الأعداء في أماكن تواجدهم^(٣). بمراقبة استقامتهم: {فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ} (التوبة:٧).
- مقاتلة أئمة الكفر ومن طعن في دين الله أو استهزأ بالمؤمنين، {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَنْتُمْ أَكْفَرُ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} (التوبة:١٢).
- أن لا يخشى المؤمن أحداً إلا الله تعالى، فلا يوجد أحق منه بالخشية سبحانه. {...أَتَخَشَوْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (التوبة:١٣).
- أن يعلم المسلم أن الجهاد من أفضل الأعمال إلى الله بعد الإيمان، قال تعالى: {... وَكَمَا يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ...} (التوبة:١٦)، وسئل ﷺ عن أي الأعمال أفضل؟ قال: (الإيمان بالله، والجهاد في سبيله...)^(٤).
- أن لا يتوانى المجاهد في أن يبذل قصارى جهده واستطاعته المادية والبدنية في سبيل الله.
- أن يعلم المؤمن أن عمارة الأرض لا تستوي أركانها، إلا بمن آمن بالله ورسوله واليوم الآخر، على ما علم من الدين فيندرج فيه الإيمان بنبوة النبي ﷺ حتماً^(٥).
- إن عمارة البيت الحرام من قبل الكافرين، لا تستوي مطلقا مع الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله، مع ضرورة تعظيم حال المؤمن بأعماله الإيمانية^(٦). يقول البقاعي: (فقد نفى عنهم المساواة من غير تصريح، ليشد التشوف إلى التصريح فيكون ذلك اثبت في النفس وأوقر في القلب)^(٧).

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/٥، ص/٩٣. بتصرف

(٢) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/١٠، ص/١٦٦ بتصرف.

(٣) المصدر السابق: ص/١٦٦.

(٤) صحيح مسلم: ك/ الإيمان، ب/ كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، ج/١، ص/٨٩، ح/٨٤.

(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود: ج/٢، ص/٣٩١-٣٩٢.

(٦) إعراب القرآن الكريم لمحيي الدين درويش: ج/٣، ص/١٩٣ بتصرف.

(٧) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٩٠.

- أن يدرك المؤمن أن الفائز الحقيقي، هو المجاهد في سبيل الله، وأن له الدرجات العلا من الجنة، (أصحاب الرتب العالية الفائزون بالخير الباقي في الدارين، فانقلوا بإيمانهم وجهادهم، من مرتبة العبدية إلى مرتبة العندية)^(١).
- أن يتوحد المؤمنون كافة في مواجهة كافة المشركين، فعن علي عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله قال: "المؤمنون تكافؤ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم..."^(٢).
- أن لا يتناقل المؤمنون عن الجهاد، وألا يتشبهوا بالمنافقين بتخلفهم وتقاعسهم عن الجهاد.
- أن يستعد المؤمن للقتال بالجهاد والمرابطة في مواجهة الكفار، تأميناً لثغورهم وحدودهم.
- لا بد من بذل الغلظة في مجاهدة الكافرين والمنافقين، دون رافة أو رحمة.
- أن يعلم المسلمون أن أهل الجهاد هم المؤمنون حقاً.
- أن الدعاء من أهم أسلحة المؤمنين فتكاً.
- أن يدرك المؤمن أن الجهاد من أهم وسائل ومقتضيات الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، والبراءة من المشركين والمنافقين، لأنه الفاصل بين الحق والباطل^(٣).
- أن يدرك المؤمن أن أهم وسائل التربية الجهادية اقتفاء الخلف لسلف الأمة من السابقين بالجهاد، فأهم عوامل سبقهم جهادهم في سبيل الله تعالى.
- على المؤمن أن يعلم أن الجهاد عزٌّ وتمكين في الدنيا، وسبب سعادته في الآخرة.
- أن يبذل المؤمن قصارى جهده، ويوجد بنفسه رخيصة في سبيل الله تعالى، قال الشاعر:
يجود بالنفس إذ ضنَّ البخيل بها ***
*والجود بالنفس أسمى غاية الجود^(٤).
- أن يستبشر المؤمنون دائماً بوعد الله ونصره.

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٩٠.

(٢) سنن النسائي: ك/ القسامة، ب/ القود بين الأحرار والمماليك في النفس. ص/٧٢٣، ح/٤٧٣٥. (صحيح)

(٣) الولاء والبراء في الإسلام لمحمد بن سعيد القحطاني: ص/٢٩١.

(٤) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي لأحمد قيش: ص/٧٦، دار الرشيد/ دمشق وبيروت، ط/٣/١٩٨٥م.

ثانياً: تحديد المقاصد الفصل الثاني وتحليلها:

- أن تكون كلمة الذين كفروا السفلى، وأن تكون كلمة الله هي العليا.
- نشر الأمن والأمان والسلم والسلام، فلا ينطلق الإسلام من عصبية عمياء، ولا همجية شعواء، ولا فكر ظالم أو جبروت طاغية^(١).
- تحرير النفس المريضة الكافرة من جهلها وخبثها، نحو الطهارة، ومن ثم التوبة والإسلام.
- تمييز أهل الكتاب عن المشركين في الحكم، لأن الواجب فيهم: الإسلام أو الجزية أو القتال، والواجب في المشركين: الإسلام أو القتال^(٢). {فإن تابوا وأقاموا الصلاة}
- جعل الله التضييق على المشركين، سبباً في هدايتهم. {فأعدوا لهم كل مرصد}
- المقصد من قتال أئمة الكفر، التسريع في هزيمة جيشهم، ليكون ذلك أسرع في هدايتهم.
- إن خزي الكفار بهزيمتهم، إشعارٌ لهم بخطورة معاداتهم لله ولرسوله، ولأن لبوس المهزوم بخزي الدنيا مدل، فكيف بلبوس المقتول المحتم عليه خزي الآخرة؟
- شفاء لصدور المؤمنين، وإذهاب غيظ قلوب الأعداء للوصول إلى التوبة.
- أخذ الجزية قصد منها حقن دماء الكافرين، وفرصة التعرف على دين الله ومحاسنه عليهم يسلمون^(٣).
- بيان سبب خيرية هذه الأمة بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسبب لحقن دماء المسلمين.
- تعظيم أمر الجهاد وبيان آثاره الإيجابية هو الدافع للمجاهدين في عبادتهم لدوام عمارة الأرض.
- بيان أهمية الصبر الجميل وأنه دلالة على الإيمان.
- نصرة المظلوم ورد العدوان من أهم أهداف الجهاد.
- بيان عظم أجر الجهاد والمجاهدين.
- خطورة القعود عن الجهاد وعقابه في الدنيا بسنة الاستبدال، والعذاب الأليم في الآخرة.
- بيان ما أعد الله من ثواب عظيم للمجاهدين في الآخرة.
- بيان عظم دلائل نصرة الله العملية لنبِيِّهِ ﷺ من هجرته إلى يوم القيامة بعظيم آياته.
- بيان انقطاع أعداء القاعد والمتخلف القادر عن نصرة الدين والحق ساعة النفير العام^(٤).
- أن تكون الأمة مرهوبة الجانب، منظوراً إليها لدى الأمم بعين الوقار، يُخشَى بِأَسْهَأ^(٥).

(١) فكاها الأنواق من مشارع الأشواق، للشيخ محمود العالم: ص/ ٨-٩ باختصار، دار الجيل/ بيروت، ط/ ١/ ١٩٩١م

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/ ١٥، ص/ ٣٠

(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/ ١٥، ص/ ٣١ باختصار.

(٤) جريدة الإخوان المسلمون: بتاريخ ١٤/٤/١٩٣٦، من مقال للإمام حسن البنا بتصريف، منقول من مجلة المجتمع وموقعها:

<http://www.almujtamaa-mag.com/detail.asp?InNewsItemID=147731&InTemplateKey=print>

(٥) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، لمحمد الطاهر بن عاشور: ص/ ٣٣٨، دار النفائس/ عمان، ط/ ١/ ٢٠٠١م.

المطلب الثاني: تعريف الجهاد لغة واصطلاحاً:

الجهاد لغة: الجَهْدُ: ما جَهَدَ الإنسانَ من مرضٍ أو أمرٍ شاقٍ، فهو مَجْهُودٌ، والجُهْدُ: شيءٌ قليلٌ يعيشُ به المقلُّ على جَهْدِ العَيْشِ، والجَهْدُ بلوغك غاية الأمر الذي (لا) تَألوا عن الجَهْدِ فيه، وأَجْهَدَ القومَ علينا العداوة، وجاهدتُ العدوَّ مجاهدةً، وهو قتالك إياه^(١).

الجهاد اصطلاحاً: قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الأنفال: ٣٩)^(٢)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله. ويؤمنوا بي وبما جئت به. فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله"^(٣)، وكذلك لدفع ظلم الكافرين وكبح جماح المنافقين والشدة في ذلك قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (التوبة: ٧٣)^(٤)، وهذا وذاك يتطلب بذل أقصى الجهد وكبير الطاقات كي يتحقق مبتغى الجهاد من القتال.

لذا فمفهوم الجهاد اصطلاحاً: بذل الجهد في قتال الكفار^(٥).

وهذا الجهد يشمل كل ضروريات الحياة ومستلزماتها بفروعها المختلفة، إضافة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باستعداد نفسي وذهني وبدني، وعمل متواصل، والتناصح بالكلمة الطيبة، إضافة إلى القتال، هذا المفهوم الواسع، بينه ﷺ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحابٌ يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنه تخلف من بعدهم خلوف"^(٦). يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل"^(٧).

وفي تعريف آخر: بذل مسلم وسعه وطاقته بالنفس والمال واللسان في قتال كافر غير ذي عهد بعد عودته للإسلام لإيائه لإعلاء كلمة الله^(٨).

وبما أن الجهاد خاص بالمسلمين، لذا أرى أن تعريف الجهاد يكون كالتالي:

بذل المسلم ما بوسعه من جهد ونفس ومال وطاقته وفكر وكلمة، في قتال الكفر وأهله، دفاعاً عن الدين والعرض والأرض والأموال، إعلاءً لكلمة الله في الأرض.

(١) كتاب العين للفراهيدي: ج/١، ص/٢٦٨-٢٦٩.

(٢) صحيح مسلم: ك/الإيمان، ب/الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ج/١، ص/٥٢، ح/٣٤.

(٣) الولاء والبراء لمحمد بن سعيد القحطاني: ص/٢٩١.

(٤) الخلوف جمع خُلف بضم اللام، الخالف بشر، ويفتح اللام الخالف بخير، انظر حاشية صحيح مسلم: ص/٧٠.

(٥) صحيح مسلم: ج/١، ك/الإيمان، ب/بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ج/١، ص/٦٩-٧٠، ح/٥٠.

(٦) بدائع الصنائع للكسائي: ج/٩، ص/٤٢٩٩.

المطلب الثالث: الجهاد فريضة إلهية وسنة كونية:

البند الأول: أنواع الجهاد:

يقول ابن تيمية: الجهاد (واجب على المسلمين عموماً على الكفاية منهم؛ وقد يجب أحياناً على أعيانهم)^(١)، واعتبر ترك الجهاد من أعظم الظلم، فقال: (فَظَلُّمُ الْمُقَاتِلَةِ بِتَرْكِ الْجِهَادِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَعْظَمِ ظُلْمٍ يَكُونُ)^(٢)؛ لأن ترك الجهاد يؤدي إلى استباحة الحرمات، ولأن القتال دفاعاً عنها أمر فطري، وأوجبته جميع الشرائع الوضعية السابقة والإلهية، ففي سفر التنبيه: (حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب فيها يكون لك بالتسخير، ويستعبد لك، وإن لم تسالمك، عملت معك حرباً، فحاصرها، وإذا دفعها الرب إليك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف..)^(٣)، وفي إنجيل متى: (لا تظنوا أنني جئت لألقي سلاماً على الأرض، ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً)^(٤)، وسمي في الإسلام بالجهاد، وهو ما يعرف عرفاً بالحرب أو القتال عند الآخرين، بين دولتين فأكثر، وهو أمر فطري وطبيعي عند كل الأمم والشعوب^(٥). لقد فرض الله الجهاد في كتابه وسنته، وحث عليه بالنفير إعلاءً لكلمته ونشر دينه في الأرض، وهو ينقسم إلى قسمين:

أولاً جهاد الدفع:

هو الدفاع عن الدين والحرمات. فالعدو هو الصائل^(٦) الذي يفسد الدين والدنيا، ولا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه، فلا يشترط له شرط، بل وجب دفعه بأية وسيلة ممكنة. ويجب التفريق بين دفع الصائل الظالم وبين طلبه في بلاده. فجهاد الدفع، دفع كل معتد، ولهذا أبيض للمظلوم أن يدفع عن نفسه، قال تعالى: {أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا} (الحج: ٣٩)، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد)^(٧)؛ و(له أي الشخص (دفع كل صائل) مسلم وذمي حر وعبد وصبي ومجنون على نفس أو طرف أو بضع أو مال)^(٨). فجهاد الدفع ناتج عن الأسباب التالية:

- الدفاع عن المسلمين ضد أي عدوان، قال الله تعالى: {أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} (الحج: ٣٩-٤٠)، يلزم هذا جميع المسلمين بدفع كل من اعتدى عليهم من المعتدين^(٩).

(١) فقه الجهاد لابن تيمية: ص/٢٦، تهذيب وتعليق زهير شفيق الكبي، دار الفكر العربي/بيروت، ط/١٩٩٢م.

(٢) المصدر السابق: ص/٢٧.

(٣) العهد القديم: دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط سفر التنبيه، الإصحاح: ٢٠، العدد: ١٠، ص/٣١١.

(٤) العهد الجديد: دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، إنجيل متى، الإصحاح: ١٠، العدد: ٣٤، ص/١٨.

(٥) فقه السنة لسيد سابق: ج/٣، ص/١٢٥، دار القبلة للثقافة الإسلامية/جدة، ط/١٩٦٥م.

(٦) من صال يصول استطال وصال عليه، والصؤل هو الجمل إذا صار يقتل ويعدو على الناس، المختار الصحاح للرازي: ص/١٥٦.

(٧) صحيح مسلم: ك/الإيمان، ب/ومن قتل دون ماله فهو شهيد، ج/١، ص ١٢٤-١٢٥، ح/٢٢٦.

(٨) قلوبوي وعميرة، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد: ك/الصبال وضمان الولاية، ج/٤، ص/٢٠٦، المكتبة التوفيقية/القااهرة، بدون طبعة.

(٩) الجهاد والنظم العسكرية د. أحمد شلبي: ص/٥٨-٥٩، باختصار، مكتبة النهضة المصرية/القااهرة، ط/١٩٧٤م.

- وجوب الدفاع عن المظلومين من المسلمين ممن هم تحت سلطان جائر في دولة كافرة، أو تعرضوا لأي اعتداء، أو منعوا من أي من شعائر الدين، مع وجوب نجدتهم وتخليصهم من الضيم الذي وقع عليهم^(١).
- منع الفساد في الأرض ومحاربة المفسدين رحمة بهم، والرحمة بهم قسوة بالأخيار، وأن التسامح معهم لا يأتي إلا بشر^(٢).

ثانياً: جهاد الطلب:

يقول الشيخ يوسف القرضاوي^(٣): (الجهاد الذي يكون فيه الكفار في أرضهم، والمسلمون يطلبونهم في دارهم، توكياً لخطرهم مستقبلاً، وأماناً لشرهم، ومنعاً للحواجز للوصول إليهم لتبليغهم كلمة الإسلام، وإخضاعهم له ولنظامه)^(٤)، وهذا عقبة بن نافع التابعي^(٥) يقول: (إني قد بعثت نفسي من الله عز وجل، فلا أزال أجاهد من كفر بالله)^(٦)، فاستمر الخلف يتبع السلف إلى أن دانَ لدين الله أهل الجزيرة ومن جاورها، حتى فتحوا البلاد، وأنقذوا العباد، ونشروا العدل والرحمة، والله درّ التابعي الجليل عقبة بن نافع الفهري القرشي، فاتح بلاد المغرب وشمال أفريقيا، عندما اصطدم بالمحيط الأطلسي قال، كما حكى ابن الأثير^(٧) عنه: "يا ربّ لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك. ثم قال: اللهم اشهد أنّي قد بلغتُ الجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بالله حتى لا يعبد أحدٌ من دونك"^(٨)

البند الثاني: حكم الجهاد وأحكامه:

فَرَضَ اللهُ الجِهَادَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِلهَجْرَةِ، وَهُوَ فَرَضُ كِفَايَةِ، إِذَا قَامَ بِهِ البَعْضُ سَقَطَ عَنِ الآخِرِينَ^(٩)، لقول الله تعالى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} (التوبة: ١٢٢).

ويكون القتال فرض عين في أحد الأمور الآتية:

أولاً: إذا حضر المكلف صف القتال والمعركة، والتقى الزحفان، وجب عليه، لقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (الأنفال: ٤٥).

(١) الجهاد والنظم العسكرية د. أحمد شلبي: ص/٥٩-٦٠، باختصار.

(٢) فكاهاة الأنواق من مشارح الأشواق لعمود العالم: ص/٩ باختصار.

(٣) هو الشيخ علامة عصره، ولد ١٩٢٦م، ونشأ ببيتنا وحفظ القرآن صغيراً، تلقى علومه وكان من المتقوفين دائماً، حصل على الدكتوراة ١٩٧٣م، انظر: (يوسف القرضاوي، كلمات في...)، ص/١٩-٢٨، دار السلام القاهرة، ط/١/٢٠٠٤م.

(٤) <http://www.islamonline.net/arabic/contemporary/2003/07/article04a.shtml> يوسف القرضاوي، باختصار.

(٥) عقبة بن نافع بن عبد القيس القرشي الفهري، ولد ق/١ هـ، باني مدينة القيروان قتل ٦٣ هـ، انظر كتاب الأعلام قاموس وتراجم، لخير الدين الزركلي: ج/٤، ص/٢٤١، دار العلم للملايين/بيروت، ط/٥/١٩٨٠م.

(٦) عقبة بن نافع الفهري: اللواء الركن/محمود شيبث خطاب: ص/١٢٨، دار الفكر للطباعة والنشر/بيروت، ط/٥/١٩٧٧م.

(٧) هو المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم، حي الدين المحدث اللغوي، الأصولي، ولد ٥٤٤ هـ ونشأ بجزيرة قرب الموصل، ألف تصانيفه املاءً على تلامذته، الأعلام للزركلي: ج/٥، ص/٢٧٢.

(٨) الكامل لابن الأثير: ج/٣، ص/٤٢-٤٣.

(٩) فقه السنة لسيد سابق: ج/٣، ص/١٢٩، باختصار.

ثانيا: إذا أغار العدو أو نزل بلداً إسلامياً، تعين على كل قادر دفعهم، قال تعالى: **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** (البقرة: ١٩٠).

ثالثا: إذا عيّن الإمام أو استتفر أحداً للقتال تعيّن عليه القتال^(١)، قال تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ** (التوبة: ٣٨)، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا)^{(٢)(٣)}.

يتبين مما سبق أن فرض العين ناتج عن حاجات أمنية، وخطر يتهدد الوجود الإسلامي، وسمي بذلك لدفعه الخطر، وأما الكفاية، فلحاجات دعوية يطلب العدو في أرضه وقد فصل د. محمد عياش الكبيسي^(٤) في ذلك فقال:

- جهاد الطلب فرض كفاية، والدفع فرض عين.
- يشترط في جهاد الطلب إذن الإمام، وأما جهاد الدفع لا يلزم إذن الإمام ولا غيره، وذلك لأن الجميع في الوجوب سواء، والإمام في ذلك يكون تنفيذياً وليس تشريعياً.
- جهاد الطلب عبادة محضة، تلزمه النية قبل القتال، فعن عمر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنما الأعمال بالنيات"^(٥)، ولطلب الأجر والثواب، أما جهاد الدفع، فالنية والإخلاص فيها لا بد منها، وإن كان الخروج ألزم قبل النية، وإن لم يستحضرها المقاتل في حينها، لأن همّ الدفاع عن المحرمات شغله عن أي شيء آخر.
- جهاد الطلب مفهوم إسلامي بحت يخص المسلمين وحدهم، وجهاد الدفع يخص جميع المواطنين بكافة أطيافهم، لأن واجب الدفاع عن النفس والوطن، حق إنساني، كفلته جميع الشرائع الدينية والوضعية والأعراف الدولية والفترة الإنسانية، ومن حق المسلمين كغيرهم الدفاع عن أنفسهم وأن يطلبوا التأييد العالمي لقضيتهم^(٦).
- جهاد الطلب يعلن عنه باستتفار الناس، وأن تكون له راية، أما جهاد الدفع فيلزم تنظيم الأمر والاستعداد بالإمكانات المتاحة دون تأخير.
- جهاد الطلب يسبقه دعوة إلى الإسلام بالحسنى. وجهاد الدفع لا يلزم ذلك.
- يلزم جهاد الطلب استئذان الوالدين إن كانا حيين أو أحدهما، والدائن، وجهاد الدفع لا يلزم هذا^(٧).

(١) فقه الجهاد في الإسلام للشيخ حسن أبوب: ص/٨١-٨٢ باختصار وتصرف، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط/١، ٢٠٠٢م، وانظر الجهاد والنظم العسكرية لأحمد شلبي: ص/٦٥-٦٨ وانظر فقه السنة ج/٣، ص/١٢٩-١٣٠. باختصار وتصرف

(٢) صحيح البخاري: ك/الجهاد والسير، ب/ فضل الجهاد والسير، ج/٢، ص/٥٦٤، ح/٢٧٨٣.

(٣) الفقه الإسلامي وأدلته، د. وهبة الزحيلي: ج/٦، ص/٤١٧، دار الفكر/دمشق، ط/١، ١٩٨٩م.

(٤) الناطق الرسمي باسم هيئة علماء المسلمين خارج العراق، وأستاذ الشريعة في جامعة قطر حالياً.

(٥) صحيح البخاري: ك/ بدء الوحي، ب/ كيف كان بدء الوحي، ج/١، ص/٣، ح/١.

(٦) من فقه الجهاد والمقاومة د. محمد عياش الكبيسي: انظر باختصار وتصرف انظر: www.e-prism.org/images/_1605

(٧) فقه السنة لسيد سابق: ج/٣، ص/١٣٠ باختصار.

- الإسلام في جهاد الطلب ينهي فيه عن قتل النساء والأطفال والشيوخ إلا أن يكونوا مقاتلين. أما جهاد الدفع فكل من تواجد على ديار المسلمين معتديا فوجب صده أياً كانت الوسيلة، لا فرق بين صبي وامرأة ورجل من المعتدين^(١).
- إن جهاد الدفع والطلب سبب سلامة الحياة الآمنة الموصلة لنعيم الآخرة.

البند الثالث: الجهاد فريضة إلهية وسنة كونية:

تحدث سورة التوبة عن سنن أربعة فيها وهي:

السُّنَّةُ الْأُولَى: ضرورة قتال الكفار والمشركين والبيغاة: لقول تعالى: {أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَوُكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ...} (التوبة: ١٣)، وقوله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} (التوبة: ٢٩)، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ..} (التوبة: ١٢٣)،

بعض الهدايات القرآنية:

- ضرورة عرض دين الله تعالى على كل الناس، ودعوتهم إلى الإسلام.
- ضرورة قتال من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر وجاهدهم، لأن في ذلك أمن عقدي، وأمن عسكري، وأمن اجتماعي، وأمن سياسي، وأمن اقتصادي، نقل الشوكاني عن عكرمة: (أغناهم بإدرار المطر والنبات وخصب الأرض، وأسلمت العرب فحملوا إلى مكة ما أغناهم به، وقيل أغناهم بالفيء)^(٢).
- بيان كفر من استباح الحرمات واستحلها كالأعراض والأموال والطعام والشراب.. إلخ^(٣).
- (فالكفر بمحمد ﷺ كفر بالله، فالطعن فيه والاستهزاء به يستوجب الجهاد والقتال)^(٤).
- قتال من لا يدين بشرع الله، (اشتق من الدين فعلا، ثم أضافه إلى صفته إغراقا في اتخاذه بذلك الوصف الذي أخذت عليهم رسلهم العهود والمواثيق بإتباعه)^(٥).
- إن أخذ الجزية ممن رفضوا دخول الإسلام سنة ماضية فإن أسلموا رفعت عنهم لقوله ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله)^(٦)، ومن حكمته فرض الزكاة على المسلمين، ليكون العدل في المعاملة باختلاف المسميات، دون ظلم أو حيف)^(٧).

(١) فقه السنة لسيد سابق: ج/٣، ص/١٣٠-١٣٤ بتصرف واختصار

(٢) فتح القدير للشوكاني: ج/١، ص/٧٢٠.

(٣) أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري: ج/٢، ص/٢٧٦ بتصرف. مكتبة العلوم والحكم/المدينة المنورة، ط/٢٠٠٣م.

(٤) في رحاب التفسير للشيخ كشك: ج/٢، ص/١٥٤٥ بتصرف.

(٥) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٢٩٩.

(٦) صحيح مسلم: ك/ الإيمان، ب/ الأمر بقتال الناس.. ج/١، ح/٣٣، وانظر: مسند الإمام الشافعي: ص/٢٠٨.

(٧) في رحاب التفسير للشيخ عبد الحميد كشك: ج/٢، ص/١٥٤٤.

السُّنَّةُ الثَّانِيَّةُ: دِينَ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَطْفِئَ نُورَهُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} (التوبة: ٣٢): من هدايات هذه الآية الكريمة التي نتقيوُ ظلالها التالي:

- إن محاولات المجرمين الكيدية والحثيثة، في إطفاء نور الله لن تفجح، يقول البقاعي: (إن قتال أهل الطاعة قتال الله وأنه لا ينفذ غرضهم بل يريد غير ما يريدون... (ويأبى الله) الذي له جميع العظمة والعز والنفوذ إلا إتمام نوره على التجدد والاستمرار)^(١).
 - (جمع الله المشركين واليهود والنصارى في سلك واحد في كيدهم للإسلام)^(٢).
 - (إن جملة "يريدون" تمثيل لحالهم في محاولتهم إبطال نبوة محمد ﷺ بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم)^(٣).
 - مكرُّ المجرمين الكبير محاط من قبل الله، رغم كون مكرهم لتزول منه الجبال، قال تعالى: {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} (إبراهيم: ٤٦).
 - مواصلة هدفهم للقضاء على هذا الدين، (فصورة الحقد اليهودي والصليبي لإطفاء نور الله، متمثل في أقوالهم وأفعالهم وثقافتهم، وإرادتهم المتواصلة لذلك)^(٤). ومعهم أهل النفاق.
 - شَبَّهَ عَظْمُ جُهِودِهِمْ بِنَفْخَةِ مَنْ أَفْوَاهِهِمُ الَّتِي لَنْ تَتَعَدَّاهَا، احْتِقَارًا لَهُمْ وَلِشَأْنِهِمْ وَلِجُهِودِهِمْ.
 - سُنَّةُ اللَّهِ قَائِمَةٌ بَرْدُ كَيْدِ الْمَجْرِمِينَ وَإِتْمَامُ نُورِهِ عَلَى الْعَالَمِينَ. يقول محمد عزة دروزة^(٥): (لقد تعرض هذا الدين لكثير من الدسائس والمؤامرات منذ فجر الدعوة ولا يزال وروايات التاريخ وحوادثه الحاقدة شاهدة على ذلك، لكن الله تعالى مكن لدينه في الأرض ليكون دين البشرية العام ولو كره الكافرون)^(٦)، فسنته ماضية رغم جور الظالمين، وعجز الصالحين، وقلة حيلة المجاهدين، لأن الطائفة المنصورة موجودة، ظاهرة لدينها قاهرة لعدوها، لا يضرها المتخاذلون، ولا ينال من عزيمة إيمانها المجرمون، فهم الثابتون على عهدهم، رغم النقاب الليلي بظلماتها، واشتداد الخطوب وأهوالها، دون أن تضطرب نفوسهم، أو تضعف أمام بريق سلطة أو منصب أو جاه، كيف؟ وهم الذين باعوا كل ذلك لله وأنفسهم قبلها، ولم يبيعوا آخرتهم بدنيا غيرهم، كما فعل بعض علماء السلاطين، والله در القائل:
- عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى *** وللمشتري دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه *** بدنيا سواه فهو من ذين أخيب^(٧).

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٠٣-٣٠٤ بتصرف.

(٢) قيس من نور القرآن الكريم للصابوني: ج/٢، ص/٣٠.

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه، لمحيي الدين درويش: ج/٣، ص/٢٠٨.

(٤) الأساس في التفسير لسعيد حوى: ج/٤، ص/٢٢٧٥.

(٥) محمد عزة عبد الهادي دروزة ولد ١٨٨٢م باحث ومؤرخ فلسطيني له أكثر من ثلاثين كتابا مات ١٩٨٤م، انظر معجم الأدباء،

كامل سلمان الجبوري، ج/٥، ص/٤٣٩، دار الكتب العلمية/بيروت، ط/٢٠٠٣م.

(٦) القرآن والمبشرون، لمحمد عزة دروزة: ص/١٠، المكتب الإسلامي/دمشق، ط/١٩٧٧م.

(٧) انظر: <http://www.yasoob.com/books/html/m025/29/no2924.html>

السُّنَّةُ الثَّانِيَّةُ: دِينُ اللَّهِ مَنْصُورُ الْآيَةِ الثَّلَاثَةِ: {إِلَّا تَتَّصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (التوبة: ٤٠): هذه الآية فيها من الهدايات القرآنية الكثير، منها:

- تحذير المسلمين أن يتهاونوا في نصره دينهم ورسولهم ﷺ.
- ترغيب في الجهاد، بصدق الوعد بقرب النصر، (لأن الله نصره وقواه)، حال ما لم يكن معه إلا رجل واحد^(١). فنصرة الله لدينه ورسوله قائمة قبل نصره الناس له.
- نصر الله سنة قائمة لهذا الدين، وللصالحين من المرسلين وأتباعهم إلى يوم الدين.
- الحزن أمر طبيعي وفطري، وخاصة عند اضطراب النفس وخوفها من المجهول، إلا أن المجهول عند الله معلوم يقينا، فيجب أن تطمئن نفس المؤمن لما عند الله بغيبه وشواهد.
- حزن المؤمن مؤقت مرتبط بالآيات والمواعظ، عندها يتوقف حزن النفس، باطمئنانها لله.
- تنزل سكينه الله تعالى لمن اطمأن قلبه لربه، بل ويمدهم الله بجند من عنده.
- فضل الله وسنته على عباده المؤمنين أن جعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمته هي العليا.
- لا بد أن يستنزل المؤمن عظمة الله وقدرته ونصره، بحسن الطاعة والاطمئنان لوعده.

السُّنَّةُ الرَّابِعَةُ، هَلَاكُ الظَّالِمِينَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ^(٢) أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (التوبة: ٧٠). من هدايات الآية الكريمة وتوجيهاتها:

- هلاك الظالمين والمكذابين سنة قائمة ودائمة إلى يوم القيامة، قال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} (الأنعام: ١١).
- إخبار وتقدير وتحذير^(٣) للمشركين والمنافقين على السواء من سوء أفعالهم الإجرامية.
- إن منكم أيها المنافقون، وما ينتظركم من العذاب كمثل من سبقكم من المشركين، (فعلتم كأفعال الذين من قبلكم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف)^(٤)، فاحذروا عذاباً أصاب من قبلكم، ولن يحيد عنكم إذا أصبتم ما أصابوا من الكفر والجحود والنكران.
- سنة الإهلاك قائمة لمن ظلم نفسه، بعد أن استنفذ الحجج والبراهين، وبعد أن أقيمت عليه الدلائل والبيانات.
- أخذ العبرة والعظة مما حدث للسابقين، مع إقامة الحجة على الحاضرين.

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٦٢.

(٢) مدائن قوم لوط، وسموا بالمؤتفكات لانقلاب أحوالهن من الخير إلى الشر، أو المنقلبات التي جعل الله عاليها سافلها، انظر إعراب القرآن الكريم لمحيي الدين درويش: ج/٣، ص/٢٤٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/٥، ص/١٩٣ بتصرف

(٤) المصدر السابق: ج/٥، ص/١٩٢.

المطلب الرابع: أهمية الجهاد وأهم فوائده من خلال سورة التوبة:

أهم فوائد الجهاد:

- للجهاد فوائد جمّة وأهمية قصوى وأحكاما جليلة تناولتها سورة التوبة، أهمها:
 - إعلاء كلمة الله تعالى ورايته، وأن تكون كلمة الذين كفروا السفلى، وهذا من أهم مقاصد الجهاد وغاياته.
 - الجهاد هو: دلالة على سرعة الامتثال لأوامر الله، وصدق الإيمان الحقيقي.
 - درء المفسد العاجلة والآجلة، فالعاجلة أنه يطوي صفحة الكفر، وما يتبعه من ظلم وفسق وفساد، والآجلة بهداية الكافرين، ومن ثم سلامة المسلمين من مكر الظالمين.
 - تربية الناس وتهيئتهم لدخول الإسلام، (فالمجاهد ليس رجلا عسكريا بل هو رجل مبدأ تربي عليها وفهمها، فهو لا يهدف تحقيق النصر على الأعداء من باب الزهو والتوسع، وإنما فقط يقاتل من يقف في طريق الدعوة ويحول بينها وبين الناس)^(١)، وبالتالي سبب رئيس لهداية الناس، فإن تحققت الغاية والمقصود بالتوبة، انتفت الوسيلة، قال تعالى: {فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (التوبة:٥). يقول النسفي^(٢): {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ} إن الله غفور بستر الكفر والغدر بالإسلام، {رَحِيمٌ} برفع القتل قبل الأداء بالالتزام^(٣).
 - فَضْلُ اللَّهِ أَنْ تَكُونَ الْغَلْبَةَ وَالنَّصْرَ لِلْمُسْلِمِينَ، ومن هذا الفضل ضمان للمغلوب توبة ومغفرة من الله بدخولهم في دين الله، واعتزافا من قبلهم بالوجود الإسلامي ليكون أمراً واقعا، قال تعالى: {..فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (التوبة:٥)، يقول سيد قطب: (فما كان أحدهم ليعلن توبته ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة إلا وهو يعني الإسلام كله، ويعني استسلامه له ودخوله فيه)^(٤).
 - يوفر الجهاد للمشركين الأمان، قال تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ} (التوبة:٦). يقول البقاعي: (إذا استجارك من أمرناك بقتاله (فأجره)، أي فأمنه ودافع عنه، من يقصده بسوء)^(٥)، ويرد كيد الظالمين، ويردع بسيف الحق كل من تسول له نفسه بالمسلمين شرا أو سوءاً.

(١) منهج التغيير الإسلامي في عهد عمر بن عبد العزيز، نافذ سليمان الجعب: ص/٢٢٦، منشورات أفاق/ غزة، ط/٢٠٠٦م.
 (٢) هو عبد الله بن أحمد بن محمود أبو البركات النسفي، له الكثير من التصانيف القيمة مات ٧٠١هـ وقيل ٧١٠هـ انظر مقدمة التفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي: ج/٢، ص/١٤٧، المكتبة التوفيقية/ القاهرة،
 (٣) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٠٢.
 (٤) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/ ٢٧٢ بتصريف. (أي رد من أراد المستأمن بسوء)^(٥)

- تستقيم أمور الدولة بالجهاد ويكون لها الهيبة والسيادة، فلا يمكن أن يكون لدولة سلطان، وهي منتهكة الحدود، ولا قيمة لعهودها وموائيقها، إن لم تحفظ بالجهاد حدودها، قال تعالى: **{كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}** (التوبة: ٧).
- يرد الله العدوان بالجهاد وبه يدفع الأذى وتسترد الحقوق، قال تعالى: **{أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَوُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}** (التوبة: ١٣)، يقول الرازي: (واعلم أنه تعالى ذكر ثلاثة أسباب موجبة لقتالهم، نكثهم العهد، وهموا بإخراج الرسول، وهم بدؤوكم أول مرة)^(١).
- يعذب الله تعالى الكافرين بالمجاهدين، ويتحقق بهم النصر، وينزل سخطه على الكافرين، ويخزيهم، ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم بتوبتهم، ويدخلهم في رحمته، **{قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ* وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}** (التوبة: ١٤-١٥)، يقول سيد قطب: (قاتلوهم يجعلكم الله ستار قدرته، وأداة مشيئته، فيعذبهم بأيديكم ويخزهم بالهزيمة وينصركم عليهم، ويشف غيظكم المكظوم، ويرد بعض المشركين إلى الإيمان، وتتالون أجر جهادكم، وينال الإسلام قوة جديدة بهؤلاء المهتدين التائبين)^(٢).
- يمحص الله بالجهاد الصادقين من الكاذبين والمؤمنين من المنافقين، قال تعالى: **{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}** (التوبة: ١٦)، يقول سيد قطب: (إنه لمن مصلحة الجماعة والعقيدة أن تهتك الأستار وتكشف الولايج، فيمتاز المكافحون المخلصون، ويكشف المدارون الملتون، ويعرف الناس كلا الفريقين على حقيقته)^(٣).
- ينال المجاهد أعظم الدرجات بسبب إيثار الله ورسوله على الدنيا وما فيها، قال تعالى: **{الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ* يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ* خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}** (التوبة: ٢٠-٢٢)، يقول سيد قطب: (يضع الله حبه وحب رسوله وحب الجهاد في سبيله في كفة، والدنيا وما فيها من نفس ومال في كفة، وللمسلم الخيار)^(٤).

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٤، ص/٢٣٥ باختصار.

(٢) في ظلال القرآن سيد قطب: ج/٣، ص/١٦١٢ باختصار.

(٣) المصدر السابق: ج/٣، ص/١٦١٣

(٤) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦١٥ بتصرف.

- وضع الله الجهاد في أعظم المراتب، قال تعالى: **{.. أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا..}** (التوبة:٢٤)، فقد جعله مقروناً مع الله ورسوله في هذه الآية، لذلك فهو ذروة سنام الإسلام، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه؟) قلت: بلى يا رسول الله، قال: (رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد)^(١). يقول النسفي: (والآية تنعي على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين، إذ لا تجد عند أروع الناس ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والأموال والحظوظ)^(٢). بالتالي لا يجوز التهاون في الجهاد، لأن التهاون والتقصير فيه تقصير في حب الله ورسوله.
- تسود روح الإخاء والتعاون والمحبة، وحب الإيثار بين المسلمين، قال تعالى، **{قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}** (التوبة:٢٤)، يقول سيد قطب: (وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده، إنما تطالب به الجماعة والدولة المسلمة، فلا اعتبار ولا تقديم لأي علاقة أو مصلحة على مقتضيات العقيدة والجهاد في سبيل الله)^(٣).
- يشترك المؤمنون مع الملائكة، في تحقيق النصر بطريقة ربانية، قال تعالى: **{ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ}** (التوبة:٢٦). فكم من شواهد في واقعنا من آثار عظمة الله في الظالمين، حيث كان دمُ الشهداء القشَّة التي قصمت ظهر بعير الظلم في زماننا، ليحتار الظالمون أشد الحيرة، ليقفوا عاجزين أمام كف لا يملك إلا إرادة مواجهة مخرز ظلم اليهود وأهل الصليب وعدوانهم في بيت المقدس وأكنافه، لولا فضل الله تعالى ومدده بملائكته وجنده.
- سببٌ لتوبة الكثير من الناس وكذلك الدخول في دين الله، قال تعالى: **{ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** (التوبة:٢٧). يقول الرازي: (إنه تعالى قد يتوب على بعضهم بأن يزيل عنهم الكفر ويخلق فيهم الإسلام، ويمن عليهم بالتوبة التي حصلت لهم من قبل)^(٤)، ولقوله تعالى: **{ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا}** (التوبة:١١٨).
- يؤمنُ الله بالجهاد رزق المسلمين، فلا مسوغ شرعي أن يخاف المسلم عيلة^(٥)، فالله عليم بأحوال الناس، حكيم بما ينفعهم ويلزمهم، فقد تكفل جل في علاه بذلك، فقال: **{يَا أَيُّهَا**

(١) سنن الترمذي، ك/ الإيمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ب/ ما جاء في حرمة الصلاة، ص/ ٥٩٠، ج/ ٢٦١٦. (صححه الألباني)

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التنزيل للنسفي: ج/ ٢، ص/ ١٥٢، المكتبة التوفيقية القاهرة، إشراف توفيق شعلان.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/ ٣، ص/ ١٦١٦.

(٤) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/ ١٥، ص/ ٢٣.

(٥) الفاقة والافتقار والحاجة، انظر ك/ العين للفراهيدي: ج/ ٣، ص/ ٢٦٣، والمختار الصحاح للرازي: ص/ ١٩٥.

الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} (التوبة: ٢٨-٢٩)، يقول البقاعي: (ولما كان سبحانه الملك الغني القادر القوي الذي لا يجب لأحدٍ عليه شيء، فقد كفل الله للإنسان رزقه)، فمن توكل على الله حق التوكل رزقه الله كما يرزق الطير، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً^(١) وتروح بطاناً^(٢))^(٣).

(١) خماص جمع خمص: الجائع الضامر البطن، انظر: لسان اللسان، لابن منظور: ج/١، ص/٣٦٨.

(٢) بطاناً: عَظْمُ بطنه من الشبع، انظر: لسان اللسان لابن منظور: ج/١، ص/٩٢.

(٣) سنن الترمذي: ك/الشهادات عن رسول الله ﷺ، ب/التوكل على الله، ص/٥٢٩، ح/٢٣٤٤. (صححه الألباني)

المبحث الثاني

الجهاد ضرورة أمنية وحاجة إسلامية

ويشتمل على ستة مطالب:

المطلب الأول: أوجه الشبه والاختلاف بين اليهود والنصارى.

المطلب الثاني: خطورة التشبه بأهل الكتاب، وتتبعهم.

المطلب الثالث: الجهاد ماض إلى قيام الساعة.

المطلب الرابع: النتائج السلبية على ترك الجهاد في سبيل الله.

المطلب الخامس: نصر الله قائم بتخاذل المتخاذلين وجهاد المخلصين.

المطلب السادس: عوامل النصر والأثر التربوي على المجاهدين.

ويشتمل على أربعة بنود:

البند الأول: عوامل النصر.

البند الثاني: الأثر التربوي على سلوك المسلم أثناء جهاده.

البند الثالث: الأخلاق التربوية أثناء المعركة.

البند الرابع: الآثار المترتبة على الخشية من الناس دون الخشية من الله تعالى.

المطلب الأول: أوجه الشبه والاختلاف بين اليهود والنصارى من خلال السورة:

اليهود والنصارى أهل كتاب سماوي، نقاط الالتقاء بينهم كثيرة، أهم ما يجمعهم عداوتهم للمسلمين، ونقاط الاختلاف أكثر من أن تحصى، إلا أنهم تناسوها حسداً من عند أنفسهم لدين الله تعالى، وحباً في عداوتهم للمسلمين.

وما يهمننا في هذا الأمر، اجتماعهم على خصومة المسلمين بشديد عداوتهم، وخاصة أن النصارى متأكدون وجازمون حسب زعمهم أن اليهود هم الذين قتلوا عيسى عليه السلام، وأن اليهود عادوا النصارى لأن عيسى عليه السلام كونه أرسل إليهم، ليُقومَ انحرافاتهم العقدية والسلوكية، فأمن به فريق، وكثير به كفر، قال الله تعالى: {وَأِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} (الصف: ٦)، واليهود لا يخفون حقدهم وحسدهم على المسلمين، فأيات الله أكثر من أن تحصى في هذا المجال.

بداية لا بد من تعريف اليهودي والنصراني، لنتعرف على طبيعة كل واحد منهم وسلوكه.

فاليهودي وحسب القانون الإسرائيلي هو: من كانت أمه يهودية، أو جدة أمه أو جدة جدته يهودية بالدين، أو تحول شخص إلى اليهودية بطريقة تُرضي السلطات الإسرائيلية^(١)، من خلال هذا التعريف، نتعرف على العقلية اليهودية التي وصفها الله تعالى في كتابه، وتميز استنكارهم، قال الله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} (آل عمران: ٢٤)، كما بين سبحانه سوء أدبهم وتجروؤهم على الله تعالى، فقال: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} (المائدة: ٦٤). وقال تعالى: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُونِ عَذَابِ الْحَرِيقِ} (آل عمران: ١٨١)، فهذه النصوص تفيد أن اليهود كانوا يتكلمون على القرآن الكريم، عندما يدعو الناس إلى الإنفاق، ويستهزئون بتعاليم الإسلام، التي تحض على الجود والسخاء، ويصفون الله عز وجل بما هو منزله عنه^(٢).

أما النصارى فقد بدلوا وغيروا الكثير، (لن تمض بضع سنين على رفع المسيح عليه السلام حتى أخذت مظاهر الشرك والزيغ والانحراف تنتسب إلى معتقدات الفرق المسيحية، فانقسم

(١) التاريخ اليهودي والدين اليهودي، ثقل ثلاثة آلاف عام، إسرائيل شاحاك، ص/٨، مؤسسة يناير للإعلام، ط/٢٠٠١م
(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة لسيد طنطاوي، ص/٤١٧، دار الشروق، القاهرة، ط/١٩٩٧م.

المسيحيون حينئذ إلى طائفتين، طائفة جنحت بعقائدها إلى الشرك بالله، وطائفة حافظت على التوحيد^(١). وكشف الله تعالى سوء سلوكهم، فقال: **{لَوْ أَنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَسْنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لَتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** (آل عمران: ٧٨)، وكشف عن فساد معتقدتهم فقال: **{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** (المائدة: ١٧)، ثم حذرهم فقال: **{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ}** (المائدة: ٧٢).

لقد اجتمعت في اليهود والنصارى عداوة المسلمين، فأظهروا حقدهم الدفين من خلال حروبهم المتتالية، ومذابهم البشعة، لقد تناسى الطرفان خلافتهم القديمة، أمام حقدهم الأسود على الإسلام والمسلمين، فتواصلوا في عداوتهم المتمثلة في احتلال فلسطين وتعاونهم العسكري الذي يشمل جميع الدول العربية والإسلامية. وأوضح الله تعالى أن اليهود والنصارى على السواء يكونون العداوة بعدم رضاهم على المسلمين إلا باتباع ملتهم، فقال: **{لَوْ كُنَّ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَلَنْ تَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}** (البقرة: ١٢٠). يقول الشوكاني: ليس غرضهم ومبلغ رضاهم أن تجيبهم على ما يقترحونه عليك، ويوردونه من التعنتات، فإنك لو فعلت لن يرضوا عنك، حتى تدخل في دينهم وتتبع ملتهم^(٢).

ومن خلال الكثير من الآيات القرآنية، وتحديدًا سورة التوبة، يظهر وجه الشبه الكبير في المعتقد والسلوك والعداوة بين اليهود والنصارى:

أولاً: أمر الله بقتالهم على السواء، وبأخذ الجزية منهم عنوة وهم أذلة صاغرون، ليتبين عدم وجود فارق في عداوتهم للمسلمين، قال الله تعالى: **{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}** (التوبة: ٢٩).

يقول رشيد رضا: لا يؤمنون بالله تعالى على الوجه الحق، ولا باليوم الآخر، ويتبعون تقاليد وجدوا عليها آباءهم وأحبارهم ورهبانهم^(٣). وقال: (فوصف أهل الكتاب الذين بين حكم قتالهم، بأربع صفات سلبية هي علة عداوتهم للإسلام: عدم الإيمان بالله واليوم الآخر وتركهم

(١) الأسفار المقدسة د. على عبد الواحد وافي: ص/ ١٢٠-١٢١، دار نهضة مصر للطباعة والنشر/ القاهرة، ط/ ١٩٩٦ م.

(٢) فتح القدير للشوكاني: ج/ ١، ص/ ١١٣ باختصار.

(٣) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/ ١٠، ص/ ٣٢٢ باختصار.

ما حرّم الله ورسوله، وترك الخضوع لدين الله في موضع العمل الصالح^(١)، وهذه صفات الشبه التي جمعتهم لعداوة المسلمين.

ثانياً: يفضح الله عقائد أهل الكتاب الفاسدة، حيث تتوالى أوجه الشبه بينهما وأخطرها إدعاء كل منهما الولد لله — معاذ الله — وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، كما أنهم قلدوا من قبلهم من الوثنيين والمشركين في دعواهم الكاذبة، قال الله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ^(٢) قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ^(٣)}، يقول سيد قطب: (إن المقصود بها أن قولهم ببنوة أحد الله، تماثل قول المشركين العرب ببنوة الملائكة لله)^(٤)، ويقول الرازي: قول النصارى المسيح ابن الله يضاهي قول اليهود عزير ابن الله، وأن هذا القول من اليهود والنصارى يضاهي قول المشركين بنات الله، فتشابهوا حتى في انصرافهم عن الحق بعد وضوح الدليل^(٥)، وفي ذلك قمة إفكهم وافترائهم.

ثالثاً: كذلك تشابهوا في اتخاذ الأخبار: (علماء اليهود)، والرهبان: (علماء النصارى)، أرباباً من دون الله، أطاعوهم في معصية الله فضلوا وأضلوا، فعن عدي ابن حاتم، قال أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: (يا عدي اطرح هذا الوثن)، وسمعتة يقرأ في سورة براءة: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ^(٦)}، قال: أمّا إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا شيئاً حرّموه^(٧)، قال الله تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ^(٨)}، وهذه الطاعة التي تخرج المرء من دينه وهو يعلم أو لا يعلم، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ^(٩)} (آل عمران: ١٠٠)، لذلك حذر النبي ﷺ من تتبع وطاعة أهل الكتاب في أي شيء، يقول الشوكاني: وفي هذه الآية ما يزر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد في دين الله، كاتخاذ اليهود والنصارى للأخبار والرهبان أرباباً من دون الله، للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم وحرّموا ما حرّموا، وحلّوا ما حلّوا، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة^(١٠).

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/١٠، ص/٢٨١.

(٢) المشاكلة: المختار الصحاح للرازي: ص/١٦١ يماثلون ويحاكون: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/١٠، ص/٣٤٠. المتابعة:

مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٣٦.

(٣) في ظلال القرآن سيد قطب: ج/٣، ص/١٦٤٠.

(٤) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٣٦ يتصرف

(٥) الترمذي: ك/ القراءات عن رسول الله، ب/ ومن سورة التوبة: ص/٦٨٤، ح/٣٠٩٥. (حسنه الألباني)

(٦) فتح القدير للشوكاني: ج/١، ص/٧٢٣.

رابعاً: من أوجه الشبه بين اليهود والنصارى سعيهم في محاربة الإسلام والمسلمين، ومحاولاتهم هذه لم تقتصر على زمن وبلد دون آخر، بل تجاوزت مؤامراتهم وحروبهم ضد المسلمين حدود الزمان والمكان من أول يوم ظهر الإسلام فيه، تشهد على ذلك صفة بنت حبي بن أخطب، وتخبر ببداية المكر اليهودي على الإسلام والمسلمين وعداوتهم، فتقول: (كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حبي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلين^(١))، قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى. قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحدٌ منهما، مع ما بهما من الغمّ. قالت: وسمعت عمي أبا ياسر، وهو يقول لأبي حبي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله قال أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم؛ قال فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت^(٢)).

إن محاولاتهم لم ولن تتوقف، بل جهدهم دؤوب، وسعيهم حثيث لإطفاء نور الله تعالى، قال تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ* هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} (التوبة: ٣٢-٣٣)، وقوله تعالى: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} (النساء: ٨٩).

يقول سعيد حوى: (هذا تمثيل حالهم في طلبهم إبطال الإسلام، وتكفير الناس بمحمد ﷺ بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الأفاق يريد أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى من الإشراق ليطفئه بنفخة فما أشد جنونه)^(٣).

ويقول سيد قطب: (إن أهل الكتاب لا يقفون عند حد الانحراف عن دين الله، وعبادة الأرباب، وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر، إنما يعلنون الحرب عليه؛ ويريدون إطفائه، بكل الأكاذيب والدسائس والفتن والوقوف سدا في وجهه، وهو الواقع على مدار التاريخ... وهذا التقرير وإن كان يراد به استجاشة قلوب المؤمنين، إلا أنه يصور طبيعة الموقف الدائم لأهل الكتاب من نور المتمثل في دينه الحق الذي يهدي الناس بنور الله)^(٤).

واليوم إضافة للأكاذيب والفتن والدسائس، والحقد الدفين، يشنون حرب إبادة شاملة على المسلمين في ديارهم، بيدهم وبيد من جندوهم من المنافقين لاستئصال شأفة المؤمنين بكل

(١) ظلام آخر الليل، والتغليس ورد الماء أول ما ينفجر الصبح، انظر: لسان اللسان لابن منظور: ج/٢، ص/٢٧٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ج/١، ص/٥١٨-٥١٩.

(٣) الأساس في التفسير لسعيد حوى: ج/٤، ص/٢٢٤٢.

(٤) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٤٢ باختصار وتصرف.

الوسائل والطرق، التي لاقت وستلاقي بفضل تعالى أمر الله الفشل الذريع، حيث يابى إلا أن يتمّ نوره، وبالتالي هي البشارة الدائمة؛ إنه الفشل الدائم لأهل الكتاب والمنافقين في محاولاتهم لإطفاء نور الله، فإنّ أحدا لا يتصور مهما بلغت قوة نفخه أن يطفى جذوة نار مشتعلة، فكيف بما هو أعظم؟ بل تجاوز الأمر حد البشارة وفشل المحاولات؛ إلى أن يظهر أمر الإسلام على جميع الأديان، ليتبين المقصد والعظيم من قتال أهل الكتاب وجهادهم، **{لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}** (التوبة: ٣٣)، يقول سيد قطب: (وهو الوعد الحق من الله، الدال على سنته التي لا تتبدل، في إتمام نوره وإظهار دينه ولو كره الكافرون)^(١).

خامسا: إضافة إلى صدهم عن سبيل الله تعالى، فإنهم يأكلون أموال الناس بالباطل، والغريب العجيب أن الذي يأكل الأموال بالباطل هم سادتهم وكبراءؤهم أحبارهم ورهبانهم، ليبين مدى التشابه العجيب بين أئمة الكفر في ضلالهم وفسقهم، قال الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}** (التوبة: ٣٤)، يقول البقاعي: (أقبل الله سبحانه على أهل وده، متلطفًا إياهم بمناداتهم باسم الإيمان الذي أسسه على الإنفاق، لا على التحصيل بحق، فكيف بمن يفترض أن يكونوا قيّمين على ذلك، إشارة إلى تحقير الأحبار والرهبان بأنهم يفعلون ما ينافي ما أقاموا أنفسهم فيه، بأخذ الرشى وأنواع التصيد)^(٢)، كذلك تحقير كل من يتشبه بهم من المنافقين.

المطلب الثاني: خطورة التشبه بأهل الكتاب، وتتبعهم:

إن إعلان البراءة من المشركين يتطلب قوة سيادية على الذات بتمام العبودية لله تعالى، وامتنال أوامر الله، واجتتاب نواهيه، إضافة إلى القوة المادية والمعنوية التي تمكن لفرض شرط البراءة من المشركين وإعلان الحرب عليهم وإيقافها، والانتصار وأخذ الجزية من المهزومين وهم صاغرون، مما يتطلب سلامة الجبهة الداخلية، من أي خور قد يصيبها أو يعثرها، لذلك نجد أن سياق الآيات توصلنا إلى الحقائق التالية:

- بيان أن العلاقة مع أهل الكتاب قائمة على أن الإسلام دين الله للعالمين، وأن الإسلام فتح القلوب بالرحمة والألفة ولم يفتحها بالقسوة والوحشة^(٣).
- لا بد من معرفة الحكم الشرعي لإقامة العلاقات مع المشركين وتحديدها.
- التحذير من موالاتة المشركين، وخصوصا ذوي القربى منهم، أو إيثارهم على الله ورسوله والجهاد في سبيله، أو تقريبيهم لما يترتب على موالاتهم من أخطار لا تحمد عقباها.

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٤٣

(٢) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٠٥ باختصار.

(٣) دراسات في الفكر العربي الإسلامي لإبراهيم الكيلاني وآخرون: ص/٣٥٧-٣٥٨.

- التحذير من غرور النفس، والاعتزاز بها أو بشيء من أسباب القوة الدنيوية.
- الطمأنينة والرضا من أسباب الوصول إلى رحمة الله تعالى ورضوانه.
- النصر والعزة والتمكين نتيجة الرضا بحسن امتثال أوامر الله تعالى.
- لا بد من جهاد من توفرت فيه أسباب عداوة المسلمين وإظهارها.
- التحذير من التشبه بأفعال وسلوك اليهود والنصارى، وتتبع خطواتهم.

فكل مسلم لا يبرأ من المشركين، أو يواليهم ويؤثرهم على أبناء دينه، يتولد في نفسه حبه، مما يجعله متعلقاً بأسباب الدنيا الظاهرة، المتمثلة بقوة من يواليهم المادية، وتقبلهم في البلاد، ومن ثم يغتر بهم ويتصف بصفاتهم، إنهم المنافقون الذين أفقدهم غرورهم وكبرهم حب الله ورسوله والمؤمنون. لذلك تظهر حميم العلاقة بينهم وبين أهل الكتاب التي بين الله خفايا هذه العلاقة وأسرارها بقوله: **لَا يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ*يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ}** (التوبة: ٣٤-٣٥).

لقد قرن الله تعالى بين صفات الأحرار والرهبان من حيث أنهم يأكلون أموال الناس بالباطل، عموم الناس فلا يتوانون أن يأكلوا أموال من يتبعوهم وذويهم وأهلهم، فكيف بمن يعادونهم، وأنهم أي الأحرار والرهبان ليصدون عن سبيل ويمنعون أي محاولة للخير، هذه هي أشهر صفاتهم لأنهم لو آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر، ما فعلوا ذلك.

ثم قرن بينهم بالأحرار والرهبان، فما سر هذه المقارنة؟ إن السياق القرآني والحديث عن أهل الكتاب قبل هذه الآية والتي تلتها، والعذاب الذي سيصيبهم من جراء كنزهم لهذه الأموال ليظهر صنف هؤلاء الناس الذين أسهب القرآن في ذكر أخبارهم ومخازيهم، فمعلوم أن المنافقين لا يتوانون لحظة عن أكل أموال الناس بأي طريقة كانت، وبالتالي فهم من أكثر الناس حبا للمال وجمعه وإمساكه، يقول الرازي في تفسير {الذين} احتمالات ثلاثة:

الأول: أولئك الأحرار والرهبان.

الثاني: يحتمل أن يكون المراد منه مانعوا الزكاة من المسلمين.

الثالث: ويحتمل أن يكون المراد كل من كنز المال ولم يخرج حقوقه الواجبة، سواء كان من الأحرار والرهبان، أو كان من المسلمين، ونقل عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قولاً يؤيد الاحتمال الثالث، رداً على معاوية رضي الله عنه عندما قال: "هذه الآية نزلت في أهل الكتاب" فقال أبو ذر: "إنها فيهم وفينا"^(١).

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٤٣، فتح القدير للشوكاني: ج/١، ص/٧٢٥، وزاد المسير للجوزي: ص/٥٨٠ باختصار،

وبعد استعراض الأقوال أرى أن قوله تعالى: {وَالَّذِينَ} تخصُّ المسلمين فقط ممن يرفضون دفع الزكاة، للأسباب التالية:

١- أن إعمار المساجد لا يكون إلا ممن آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة، قال الله تعالى: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} (التوبة: ١٨).

٢- إن أئمة اليهود والنصارى على علمهم بخطورة كنز المال، إلا أنهم مطالبون بالإسلام قبل إيتاء الزكاة، كما بينت الآية السابقة، وأنهم سيحاسبون على عدم إيمانهم بالله ورسوله واليوم الآخر، قبل أن يحاسبوا عن عدم الإنفاق في سبيله.

٣- أنهم تهاونوا في تطبيق شريعتهم، أفنطلب منهم أن ينفقوا من أموالهم في سبيل الله؟

٤- إن المسلمين هم المطالبون بالإنفاق في سبيل الله.

٥- سورة التوبة تحدثت عن أهل الكتاب تمهيدا للحديث عن المنافقين الذين يتتبعون خطى اليهود والنصارى شبرا بشبر وذراعا بذراع، كما بين الحديث الشريف (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا وذراعا ذراعا حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم) قلنا يا رسول الله آليهود والنصارى؟ قال: (فمن؟) (١).

ويقول الشيخ على الصابوني: (وإنما قرن الله تعالى بين اليهود والنصارى وبين الكانزين للمال، تغليظا عليهم، وتنبهها على أن من يأخذ السحت من أهل الكتاب، ومن لا يعطي من المسلمين من طيب ماله) (٢)، إنه التشابه الوثيق بين أهل الكتاب والمنافقين، والعلاقة الوطيدة بينهما، علاقة الولاء التي أقاموها على أساس قول رأس المنافقين وإمامهم عبد الله بن أبي بن سلول، عندما حكى الله عنه فقال: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} (المائدة: ٥٢)، يتوارثون سلوكه وطريقته في تتبع أهل الكتاب، وموالاتهم، إنه الكفر الذي يعشعش في قلوبهم المريضة، خوفهم الدائم والمستمر من مجهول الأيام حسب اعتقادهم، كونهم يقرؤون الواقع أكثر مما يقرؤون القرآن وآيات الله وسننه.

(١) صحيح البخاري: ك/ الاعتصام بالكتاب والسنة، ب/ لتتبعن سنن من كان قبلكم، ج/ ٤، ص/ ١٤٤٧، ح/ ٧٣٢٠

(٢) قيس من نور القرآن الكريم للصابوني: ج/ ٢، ص/ ٣١

المطلب الثالث: الجهاد ماضٍ إلى قيام الساعة:

إن لكل منهج ونظام ثوابت ومتغيرات، فثوابت ديننا وأسسها لا تتغير بتغير الزمان والمكان ولا بتغير من يحمل لواءه ورايته، لأنه يحمله من خلال إيمان لا يرقى إليه شك، فأصبحت تلك الثوابت كالجبال الراسيات، وعلامات يهتدي بها كل من يحمل راية هذا الدين، . وأما المتغيرات فهي متحركة فرعية في المنهج لا في المبدأ، تتغير بتغير الزمان والمكان حسب حاجات الأشخاص بما لا يخالف الثوابت، هذه المتغيرات لها ضوابط تخضع إلى تقدير المجتهدين بالأدلة، وقابلة للحوار والنقاش، دون المساس بالثوابت والأصول.

لذلك نصّت الشريعة على نصوص ثابتة ليكون الجهاد شعاراً وراية ورمزاً لنشر هذا الدين الحنيف واسترداداً للحقوق ودفعاً للظالمين والمعتمدين. فلا بد من التركيز على فقه الجهاد وثوراته، وتحديدًا في هذه الأيام التي أراد فيها الكثير من المتخاذلين أن يجعلوا ثوابت الأمة متغيرات، في الوقت الذي استباحت فيه بيضة المسلمين، وانتهكت أعراضهم وسفكت دماؤهم، وتجرعوا من مرارة القلة والذلة وآلام الجراح المثخنة الكثير.

إن أول هذه الثوابت وأهمها الجهاد الذي عليه تقوم أسس الدولة الحرة صاحبة السيادة، لتكون مهابة الجانب، ليعبد الله وحده وتكون كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، لذلك يقف العالم الكافر ومعه كل المنافقين في هذا العصر، بكل ما يملك من قوة مادية ومعنوية وعقدية وإعلامية وثقافية، واقتصادية وعسكرية، في مواجهة هذا الدين ورجاله وذروة سنامه، محاولين انتهاز أية فرصة للقضاء عليه، قال الله تعالى: **{كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا نِمْةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ}** (التوبة:٨)، لذا لم يوكل الله تعالى الجهاد لأحدٍ ليحافظ عليه، بل أوكل حفظه لنفسه، فصار جزءاً من عقيدتنا وكتابنا.

إن الجهاد فريضة حاضرة إلى قيام الساعة، فأخر ما نزل من القرآن سورة التوبة التي فيها آيات الجهاد والمقاومة، مع إعطاء الدعوة مساحة واسعة ليدخل الناس في دين الله تعالى فقال: **{فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصِرُواهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** (التوبة:٥)، إنها ديمومة الرحمة والهداية، باستمرار الجهاد ودعوة المشركين الذين يحتاجون دوماً للهداية، فإن توفرت أسباب التوبة تحيى السيف جانباً، يقول سيد قطب: (رغم حرب الإبادة التي شنّها المشركون ضد المسلمين، يفتح لهم طريق الهداية، بل ويأمر نبيه والمسلمين أن يكفوا أيديهم عنهم، إن هم اختاروا طريق التوبة، والتزموا شعائر الإسلام التي تدل على اعتناقهم إياه)^(١)، مما يعني انتفاء حاجة المسلمين للجهاد إن أسلم هؤلاء الناس.

(١) في ظلال القرآن سيد قطب: ج/٣، ص/١٦٠٢ باختصار.

وقال تعالى: **﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾** (النوبة: ٢٩)، فالذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله وجب فيهم الجهاد لأنهم يخالفون الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾** (التوبة: ٧٣). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله) ^(١). فجعل القتال غاية حتى يسلم الناس، وبالتالي فالجهاد ماضٍ ما بقي الكفر في الناس إلى يوم القيامة.

لذلك فإن محاولات الكفار والمنافقين الحثيثة والشيطانية، لحذف الجهاد من قاموس المسلمين، وتسميته وأهله بغير اسمه، سنبوء بالفشل، لأن أهم مفردات جهادنا أنه ماضٍ إلى يوم القيامة بنص القرآن والأحاديث النبوية، ولأن الجهاد معلوم من الدين بالضرورة. فعن عروة بن الجعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (الخيال معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة) ^(٢)، وليس ذلك فحسب بل إن الجهاد ماضٍ مع البر والفاجر، كما بوب البخاري باباً بهذا العنوان، باب الجهاد ماضٍ مع البر والفاجر، فعن عروة البارقي رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: (الخيال معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغرم) ^(٣).

يقول ابن حجر ^(٤) في الفتح عندما استدلل البخاري بهذا الحديث على مضي الجهاد مع البر والفاجر قال "سبقه إلى الاستدلال بهذا الإمام أحمد، لأنه ﷺ ذكر بقاء الخير في نواصي الخيل إلى يوم القيامة، وفسره بالأجر والمغرم، المغرم المقترن بالأجر إنما يكون من الخيل بالجهاد، وفي الحديث الترغيب في الغزو على الخيل، وفيه أيضا بشرى ببقاء الإسلام وأهله إلى يوم القيامة، لأن من لوازم بقاء الجهاد؛ بقاء المجاهدين وهم المسلمون، وهو مثل الحديث الآخر (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق....) ^(٥).

وقال النووي ^(٦) في شرحه لصحيح مسلم تعليقا على هذا الحديث "قوله ﷺ (الخيال في نواصيها الخير إلى يوم القيامة) جاء تفسيره في الحديث الآخر في الصحيح (الأجر والمغرم)،

(١) صحيح البخاري: ك/ الإيمان، ب/ (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) (التوبة: ٥)، ج/ ١، ص/ ١١، ح/ ٢٥.

(٢) صحيح البخاري: ك/ الجهاد والسير، ب/ الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، ج/ ٢، ص/ ٥٧٦، ح/ ٢٨٥٠.

(٣) صحيح البخاري: ك/ الجهاد والسير، ب/ الجهاد ماضٍ مع البر والفاجر، ج/ ٢، ص/ ٥٧٧، ح/ ٢٨٥٢.

(٤) ابن حجر شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن حجر العسقلاني، تصانيفه أكثر من مائة وخمسين مؤلفا، ولد ٧٧٣هـ وتوفي ٨٥٢هـ انظر: أعلام الإسلام لأنور الجندي: ص/ ٧٤.

(٥) فتح الباري لابن حجر العسقلاني: ج/ ٦، ص/ ٨٠-٨١، دار مصر للطباعة/ القاهرة، ط/ ٢٠٠١م.

(٦) هو: محيي الدين يحيى بن شرف بن مري النووي، نسبة إلى نوى، ولد ٦٣١هـ، حفظ القرآن وتعلم الفقه صغيرا، تولى مشيخة دار الحديث وعمره: ٣٤، كان غزير العلم، غزير الإنتاج في التأليف، صالحا ورعا زاهدا، توفي ٦٧٦هـ، انظر مقدمة نزهة المتقين في شرح رياض الصالحين: ص/ ١١-٤ باختصار.

وفيه دليل على بقاء الإسلام والجهاد إلى يوم القيامة، والمراد قبيل القيامة بيسير، أي حتى تأتي الرياح الطيبة من قبل اليمن تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة. كما ثبت في الصحيح^(١).

فطريق الجهاد ومنذ زمن الرسول ﷺ، قد حُددت معالمه ومفاهيمه، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (ثلاث من أصل الإيمان: الكف عن من قال لا إله إلا الله ولا نكفره بذنوب ولا نخرجه من الإسلام بعمل، والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل، والإيمان بالأقدار)^(٢)، وللحديث رغم ضعفه، تقويه أحاديث كثيرة، ويعتد به للدلالة على استمرار الجهاد وبقائه إلى يوم القيامة، كما جاء في الصحيحين وغيرهما ولللفظ لمسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة)^(٣)، وفي رواية البخاري (لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم)^(٤)، وقوله (لا تزال) دليل على استمرارية الجهاد، يقول النووي: (وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة، فإن هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالى من زمن النبي ﷺ إلى الآن، ولا يزال حتى يأتي أمر الله المذكور في الحديث)^(٥).

لذا فالأئمة متفقون وبلا خلاف على استمرار الجهاد وأن الرسول ﷺ قد أخبر عن استمراره خبراً لا يتغير ولا يتبدل، وهذه النصوص تبين أنه لا يمكن أبداً أن يخلو زمان من الأزمنة منذ بعثة النبي ﷺ إلى يوم القيامة من راية جهاد حق مرفوعة في سبيل الله تعالى، فمن علم هذه النصوص وتيقن ثبوت أصولها، ثم أنكرها فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ.

فهما اشتدت الظروف وساءت الأحوال لا ينبغي لمسلم أن يتخلى عن الجهاد أو دعم رايته، لأن راية الجهاد في كل زمان ومكان مرتبطة بالطائفة المنصورة المرضي عنها، والتي لا يلزم أن تكون في مكان واحد، وأنها تقاتل على الحق ظاهرة بدينها، وقاهرة لعدوها.

فإذا اعتقدنا أن الجهاد جزء من عقيدتنا، فلا بد أن نجزم بأن قوى الكفر والنفاق العالمي لا يمكن أبداً أن يفلحوا في إخماد راية الجهاد والمجاهدين، أو يستطيعوا تعطيلها بحال من الأحوال، ربما يستطيعون محاصرة المجاهدين أو قتلهم في مكان، أو مكانين أو أكثر، لكنهم لن يستطيعوا إسقاط راية الجهاد، ولو اجتمع إنسهم وجنهم على ذلك، فراية الجهاد باقية خفاقة، لأن الله قضى على نفسه أن تشترك آخر أمة محمد ﷺ مع عيسى بن مريم ﷺ في مقاتلة الدجال، هذه هي الحقيقة التي يجب أن يدركها كل مجاهد وينطلق من خلالها كل مؤمن، ليكون ذلك عقيدة راسخة ويقينا صادقا، وثقة كاملة بوعد الله ونصره سبحانه وتعالى.

(١) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي: ج/٧، ص/١٦، دار الفكر للطباعة والنشر/بيروت، ط/١/٢٠٠٤م.

(٢) سنن أبي داود: ك/الجهاد، ب/الغزو مع أئمة الجور، ص/٤٠٥، ج/٢٥٣٣ (ضعفه الألباني).

(٣) صحيح مسلم: ك/الإمارة، ب/لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين، ج/٣، ص/١٥٢٤، ج/١٩٢٣.

(٤) صحيح البخاري: ك/المناقب، ب/...، ج/٢، ص/٧٢٩، ج/٣٦٤١.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي: ج/٧، ص/١٦، دار الفكر للطباعة والنشر/بيروت، ط/١/٢٠٠٤م.

المطلب الرابع: النتائج السلبية على ترك الجهاد في سبيل الله:

بعد أن بين الله تعالى خطر المشركين وأهل الكتاب على المسلمين، وطرقهم المتواصلة وحيلهم الخبيثة لوأد الإسلام وأهله، بين لهم أن هذا الخطر يزول، ولن يكون له وجود، إذا ما سلك المسلمون طريق الجهاد وسيلة لدفع ضرهم وعدوانهم، قال الله تعالى:

لَيَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ^(١) إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوه شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّقْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^(٢) (التوبة: ٣٨-٤١).

الدعوة إلى الجهاد جاءت عن طريق الاستفهام الاستكثاري، الذي يوبخ المتثاقلين المتباطئين والمتفاعسين، عن الجهاد، يقول الزمخشري: (ما تصنعون إذا قيل لكم؟)^(٣)،

فقد استحث الله تعالى عباده المؤمنين مستعطفهم ببناء نعمة الإيمان، وبعد أن ختم الآية السابقة: {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}^(٤)، وكأنه يقول لهم: (أي إذا دعيتم إلى الجهاد تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار)^(٥)، من هذه النتائج:

أولاً: ترهل في الجسد الإسلامي، الفردي والجماعي، المتمثل بالتخمة، الناتج عن حب الدعة والراحة، فعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي قوم يشهدون ثم يأتي من بعدهم قوم يتسمنون ويحبون السمّ يعطون الشهادة قبل أن يسألوها)^(٦)، وعن جعدة رضي الله عنها قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عندما رأى رجلاً سميناً، فجعل يومئ بيده إلى بطنه، ويقول: (لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك)^(٧)، وهذا ناتج عن كثرة الأموال المركونة، لعدم إنفاقها في سبيل الله، مما يسبب ترهلاً معنوياً، المتمثل في حب الذات والأنا، الوهن والضعف، الذي حذرنا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: يصبح التضخم ميزة المجتمع بكثرة المترهلين لمنعهم الزكاة، فيكثر الفقراء، وترتفع الأسعار، مما يؤثر سلباً على الاقتصاد الوطني، وعندما نستقري من سبقنا من

(١) اثاقلتم، تثاقلتم، وبه قرأ الأعمش، أي تباطأتم وتفاعستم، انظر: الكشاف للزمخشري: ج/٢، ص/٢٩٩.

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري: ج/٢، ص/٢٩٩.

(٣) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣١٧ بتصرف.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج/٢، ص/٣٩٤.

(٥) سنن الترمذي: ك/الشهادات، ب/منه، ص/٥٢٠، ج/٢٣٠٢. (صححه الألباني)

(٦) مسند الإمام أحمد: ج/٣، ص/٤٧١. إسناده ضعفه الأرنؤوط.

الخيرين، الذين امتثلوا أمر ربهم في الجهاد والإنفاق، والعفة، كيف كثرت لديهم الخدمات العامة، وبنيت المستشفيات وشقت الطرق، وتم تشغيل الفقراء والمحتاجين، وتم دفع أذى المعتدين، فبالإنفاق والجهاد والعفة، إضافة إلى القيم والاتجاهات الخيرة الناتجة عن حب الجهاد والإنفاق، مثل: (العدالة، والحرية والشورى، والصبر، والتوكل، والمسؤولية الفردية، والتعاون، والإيثار، والاستقلالية)^(١).

ثالثاً: الدنيا مهما كثرت فهي قليلة وزائلة، فقد نقل ابن كثير لما حضرت الوفاة عبد العزيز بن مروان^(٢) قوله: (ائتوني بكفني الذي أُكفَّنُ فيه أنظر إليه، فلما وضع بين يديه نظر إليه، فقال: أما لي من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولَّى ظهره فبكى وهو يقول: أف لك من دار إن كان كثير لقليل، وإن كان قليلاً لقصير، وإن كنا منك لفي غرور)^(٣).

رابعاً: استباحة أرض المسلمين وانتهاك مقدساتهم، وضياع ثرواتهم.

رابعاً: ضياع كرامة المسلمين وهيبتهم وعزتهم، وامتئانهم واستخدامهم لمصالحهم أعدائهم.

خامساً: ضعف المسلمين وتهاونهم في حقوقهم، يجعلهم مطمع الأعداء.

سادساً: يكثر أعداء الله في الصد عن دين الله مما يؤدي إلى توقف الدعوة ونشر الدين وعدم الدخول في دين الله المترتب على ترك الجهاد في سبيل الله.

سابعاً: وقوع العذاب على كل من تناقل وقعد عن الجهاد، يقول البقاعي: (لما هددهم بما يضرهم، أخبرهم أنهم لا يضرهم بفتورهم غير أنفسهم)^(٤).

ثامناً: يؤدي إلى ضعف المسلمين وتشتتهم وتفرق كلمتهم.

تاسعاً: تزداد نسبة الأمية والجهل وتكثر حوادث الإجرام كالسرقة والقتل والاختصاب.

(١) أصول الاقتصاد الإسلامي د. رفيق المصري: ص/٢٥، دار القلم/ دمشق، ط/١/١٩٨٩م..

(٢) عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن العاص، أمير، مصر ثقة قليل الحديث، مات ٨٦هـ، تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٣، ص/٤٧٢

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج/٢، ص/٣٩٤.

(٤) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣١٨.

المطلب الخامس: نصر الله قائم بتخاذل المتخاذلين وجهاد المخلصين:

لقد تكفل الله تعالى بحفظ دينه ونشره في الأرض رغم مكر الماكرين وكيد الكائدين من المشركين والكافرين والمنافقين، قال الله تعالى: **{يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ* هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}** (التوبة: ٣٢-٣٣).

إن سعي أعداء الله تعالى دؤوب لإطفاء نور الله، ومحاولاتهم حثيثة متواصلة في محاربة الإسلام والمسلمين ووأده من جذوره، سُنَّةُ الله في الظالمين، بأن جعل لرسوله أعداء ومجرمين، قال الله تعالى: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا}** (الفرقان: ٣١)، سنة الله في أتباع المرسلين أن يتعرضوا للاستئصال من قبل المجرمين، قال الله تعالى: **{كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا نِمَّةً يَرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ}** (التوبة: ٨)، وقال: **{لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا نِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ}** (التوبة: ١٠)، يقول القرطبي في المجرمين: (ليس تكريرا، ولكن الأول لجميع المشركين، والثاني لليهود خاصة)^(١)، ويقول النسفي في المؤمنين: (ولا تكرار، لأن الأول على الخصوص حيث قال: **{فِيكُمْ}** والثاني على العموم لأنه قال: **{فِي مُؤْمِنٍ}**)^(٢)، مما يتبين أن عموم المشركين واليهود على الوجه الخصوص، دائمي الكيد والمكر، فلا يتركون شاردة ولا واردة إلا واستخدموها ضد المسلمين، وهذه سنتهم ضد كل مؤمن في كل زمان ومكان، حتى نتبع ملتهم، قال الله تعالى: **{وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ..}** (البقرة: ١٢٠)، فذلك مبتغاهم ونهاية رضاهم، فواقع حالهم أن المسلم الجيد هو المسلم الميت الذي طوته الأرض، أو ميت حكما تابع لهم كما يودون، قال الله تعالى: **{.. وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا..}** (البقرة: ٢١٧)، ولذلك حالهم؛ أن محاولاتهم دائمة فاشلة، قال تعالى: **{يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}** (التوبة: ٣٢)، ومحاولاتهم دائما خائبة ومردودة، بل وينجعون دوما مرارة فشلهم أمام إرادة الله تعالى، (فهم كمن يحاول أن يبطل نبوة محمد ﷺ بالتكذيب، ونبوة النبي ورسالته المنيرة ماضية بأمر الله، لا يضيرها مطلقا من أراد أن ينفخ في نورها الذي بلغ المدى في الإشراق والوضاءة بنفخة من فمه)^(٣). ثم قال: **{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}** (التوبة: ٣٣)، ليطمئن المؤمنون أن الله مظهر دينه على كل دين، رغم كره المشركين، بل وبشر الله تعالى المؤمنين بنصره فقال:

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/٥، ص/٩٨

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي: ج/٢، ص/١٤٨.

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري: ج/٢، ص/٢٩٤ بتصرف

{إِلَّا تَتَصَرَّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (التوبة: ٤٠).

يقول النسفي: (إلا تتصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد، فدل بقوله: {فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ} على أنه ينصره في المستقبل كما نصره في ذلك الوقت، {إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ} (١)، من هنا كانت البشارة لجميع المؤمنين الصادقين، والوعيد بالذلة والهوان والاستبدال في الدنيا، لكل متخاذل متناقل، والسخط والعذاب المهين في الآخرة. وحتى يطمئن المؤمنون اطمئناناً لا حزن (٢) فيه ولا ريباً، أن نصر الله قائم لا يؤخره تناقل المتناقلين ولا خذلان المتخاذلين، ولن يستطيعوا ضرراً رسول الله ﷺ ولا دينه لأنه الله ﷻ وعده بالعصمة والنصرة، ووعد نافذ وكائن لا محالة.

والاطمئنان نابع من معية الله تعالى بعظمته وقدرته وعونه ونصره وتمكينه، يقول البقاعي: (ثم علل نهيه لصاحبه، بالاسم الأعظم، مستحضراً لجميع ما جمعه من الأسماء الحسنى والصفات العلى التي تخضع لها صلاب الرقاب، وتندك بعظمتها شوامخ الجبال،،،، ثم يقول: فالذي تولى نصره بالحراسة في ذلك الزمان، كان قادراً على أن يأمر الجنود التي أيده بها، أن تهلك الكفار في كل موطن من غير أن يكون لكم في ذلك أمر، .. ويقول: وكما أنه كان موجوداً في ذلك الزمان بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، هو على ذلك في هذا الزمان وكل زمان) (٣).

يأتي هنا دور المخلصين في شد عزيمة الأمة وثباتها، يأتي دور القائد المسلم الأمين ليكون مصدر اطمئنان وثبات لأمته وجنوده، كما ويأتي دور الأتباع الخالص الصادقين، ودورهم في الاطمئنان لقائدهم والوثوق به، إنها السنن الصالحات، من تتبعتها نال ما نال الأولون من المرسلين وأتباعهم، ومن تتكب الطريق، ضل وأضل، وخاب وخسر وحلت به سنة الاستبدال.

لذلك بينت هذه الآية مكانة الصديق أبي بكر ﷺ، وعظيم قدره وتقدمه وسابقته في الإسلام، وعلو منصبه، وفخامة أمره، ما لا يعلمه إلا الذي أعطاه إياه؛ لأنه أول من آمن من الرجال، ونصر دين الله، ورسوله ﷺ بنفسه وأهله وماله، واستنقاه ﷺ للهجرة معه، وكان منه قلق الخائف الذي أدركه الحزن لشدة وجده وألمه؛ أن يحصل لنبي الله شيء، فاستحق السكينة بمعية الله التي اطمأن لها بصحبة النبي ﷺ (٤).

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي: ج/٢، ص/١٥٩.

(٢) الحزن: هم غليظ بتوجع يرق له القلب، انظر نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣١٩.

(٣) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٢٠.

(٤) المصدر السابق: ص/٣٢٠ بتصرف.

المطلب السادس: عوامل النصر والأثر التربوي على المجاهدين:

البند الأول: عوامل النصر:

ترجع انتصارات الرسول ﷺ في غزواته، وأصحابه الكرام ﷺ وفتوحاتهم، ومن جاء بعدهم من التابعين، في معاركهم العديدة، إلى ركيزتين أساسيتين:

الأولى: تحقيق المعية الإلهية:

تتحقق بامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه بصدق وإخلاص، يقول الله تعالى: **{.. إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا..}** (التوبة: ٤٠)، إن هذه المعية تحققت لرسول الله ﷺ وصاحبه وخليفته من بعده ﷺ، فكان التأييد بالنصر بعد نزول السكينة على المجاهدين من الله تعالى، كما قال ابن عباس في: **{عَلَيْهِ} أي الصديق، لأن السكينة لم تفارق النبي ﷺ** (١).

هذه المعية توفر التأييد الإلهي للمجاهدين بجند الله ومدده وملائكته، وهذا أمرٌ قد كتبه الله على نفسه، فقال: **{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ}** (غافر: ٥١)، هذه المعية توفر النصر والتأييد إلى يوم القيامة؛ فعن جابر ﷺ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة) (٢). إنه ليس له ولصاحبه في حينه، ولا في حياته وزمانه، ولا لأصحاب رسول الله ﷺ، بل نصرٌ يحمله كلٌّ من توفرت فيه شرط المعية: التقوى والإحسان، قال تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}** (النحل: ١٢٨)، لقد حققوا معية الله عندما نصرُوا دين الله؛ فنصرهم الله، قال الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}** (محمد: ٧).

الثانية: الأخذ بأسباب القوة المعنوية والمادية:

١- ذكر الله تعالى الأسباب والعوامل المعنوية للنصر في سورة التوبة، والتمثلة: إيمان بالله ورسوله، وحب لهما، تتوفر فيها شروط الإيمان، المتمثلة في طاعة الله، وحسن ذكره، والتوكل عليه، واليقين بنصره، ورغبة في أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، ودفاعاً عن دين الله، وإرادة إرادة صلبة وقوية، في استرداد الحقوق والدفاع عن المظلومين. قال الله تعالى: **{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}** (التوبة: ٧١)،

(١) نظم الدرر للبقاعي: ص/٣٢١.

(٢) صحيح مسلم: ك/الإمارة، ب/لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين، ج/٣، ص/١٥٢٤، ح/١٩٢٣.

٢- وفي سورة الأنفال ذكر الأسباب المادية للنصر، والتي تعتبر التوبة متممة أو موضحة لسورة الأنفال، قال الله تعالى: **{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}** (الأنفال: ٦٠)، والاستطاعة تشمل الإعداد الجيد، إعداد تربوي وعسكري تشمل قوة العقيدة وقوة البدن، العسكرية منها والنفسية، ونوعية العتاد، الكمية منها والكيفية. وغير ذلك من الإعداد والاستطاعة.

٣- قيادة مؤمنة، تتوفر فيها الشروط التالية:

- **صفات ذاتية إيمانية**، يتجلى فيه إخلاص النية لله، لنيل مرضاة الله تعالى، مروراً بصفات التواضع، والرحمة، والصدق، والأمانة، وانتهاءً بالحرص على إتيان النوافل والمواظبة عليها؛ وقيام وصيام وذكر وتفكير، ليكون القائد فيها تقياً ورعاً، وقُدوة حسنةً لجنده.
- **صفات ذاتية فكرية**: نابعة من فكر المرء وأدبياته، تشمل القدرة على التصور والتفكير، والتحليل، والتخيل، ذو رؤية مستقبلية في فهم المشكلات وحلها، والقدرة على رؤية الموضوع، واتخاذ المواقف السريعة والحاسمة، بحسن التخطيط، واختيار الرجل المناسب في المكان المناسب، وتقييم الأمر العام والحكم على الأشياء بحنكة وحصافة.
- **صفات ذاتية شخصية**: قوة في الشخصية، وإرادة صلبة، وعزيمة وهمة عالية، والحزم، مشهود له بالشجاعة، والحكمة، والعفو والمسامحة، والثقة بالنفس، واللباقة، والمرونة، يتمتع بروح المرح والملاطفة، والهدوء والحلم والأناة، وسعة الصدر، وحب الإيثار، والتأثير في الآخرين، يشاورهم، ويلطفهم ويتودد إليهم، متواضع لله يخفض جناحه لهم، شديداً في موضع الشدة، ليناً من غير ضعف.
- **صفات ذاتية مهنية**: أن يكون ذو كفاءة عالية وعلم (شرعي وعسكري وسياسي) وقدرة بالغة في أداء المهام والواجبات، كالحيلة والحذر، وكتمان الأمر والسر، وبث العيون وحسن الاستطلاع^(١).

كل ما سبق من صفات تتبثق أصلاً من الإسلام الذي يعطي كل هذه الصفات التي يجب ألا تخلو من أي قائد يُستعمل على أمور المسلمين العامة والخاصة، حيث كان اختيارهم على أساس من الخيرية التي اختصت بها أمة الإسلام ذات الأبعاد القيميَّة والأخلاقية التي تنرسخ في نفوس أبنائها ووجدانهم النابع من دينهم، حيث يظهر الأثر التربوي على القائد وجنوده في أي ميدان من ميادين الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية والأخلاقية^(٢).

(١) الصفات القيادية للشيخ الإمام أحمد ياسين، د. صالح الرقب، قراءة باختصار وتصرف من ك/ مؤتمر الإمام الشهيد أحمد ياسين، ج/٢، ص/٩٠٦-٩٢٧ بتصرف، من إصدارات الجامعة الإسلامية - غزة، مارس/٢٠٠٥م
(٢) منهج التغيير الإسلامي في عهد عمر بن عبد العزيز، نافذ سليمان الجعب: ص/١٨٠-١٩٠ اقتباس وتصرف.

البند الثاني: الأثر التربوي على سلوك المسلم أثناء جهاده:

ظلَّ رسولُ الله ﷺ في قومه ثلاثة عشر سنة يبلغهم رسالة ربه، لاقى خلالها وأصحابه شتى أنواع الأذى، وأشكال العذاب، وصنوف البلاء، ومحاولة الإذلال، من أعداءٍ لثام طوال بقائه في مكة، وكانوا يتحمسون لرد العدوان الواقع عليهم، لكن الله لم يأذن لهم بعد، فكانت فترة التربية على العقيدة، وترسيخ المبادئ والثبات على الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر في نفوسهم، حتى إذا ما تغلغل اليقين الذي لا يخالجه شك، وأطمأنت نفوسهم بوعده الله ونصره، أدن الله لهم بالقتال، قال الله تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ*الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْ لَنَا اللَّهُ دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمْتُمْ صَوَامِعَ وَبِيَعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدٍ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٣٩-٤٠)،

ما يكون عليه المسلم قبل الجهاد: قبل الجهاد لا بد من تحقق أركان الإيمان الستة: إيماناً بالله لا يخالطه شك أو ريب، وإيمان بكتبه ورسوله وملائكته واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، ثم لا بد من أمور تربوية وإيمانية وعقدية: كحسن التوكل على الله، وتمام اليقين بالله ونصره، ليكون لديهم الاستعداد النفسي والبدني لمحاربة عدوهم الذي أمر الله بقتالهم، والسعي الحثيث لهدايتهم ودعوتهم لهذا الدين بشيء من الحكمة والعلم والتقوى.

البند الثالث: الأخلاق التربوية أثناء المعركة:

الأركان الإيمانية الستة تعتبر أموراً ارتكازية وأساسية في التربية لا بد منها، حتى يترسخ عند المؤمن حب الله ورسوله وحب المؤمنين، فالمؤمنون باختلاف ألوانهم وأجناسهم وأعراقهم، إخوة، قررتها حقائق القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ..﴾ (الحجرات: ١٠)، فعن أبي موسى الأشعري ؓ عن النبي ﷺ قال: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)^(١)، هذه الأخوة التي يستشعرها المؤمن تجاه أخيه المؤمن، بمجرد أن يعلم أنه مؤمن، أو بمجرد علمه أنه دخل في الإسلام والإيمان، إنها التربية التي ترسخت وتترسخ في ذهن كل من يقول: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، فكيف يتحول الشعور من الحرب والعداوة، إلى المودعة والمسالمة والمحبة، لذلك نجد الكثير من التوجيهات التربوية خلال الآيات الجهادية.

الآية الأولى: قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ٥)،

(١) صحيح البخاري: ك/الأدب، ب/تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً، ج/٣، ص/١٢١٢، ح/٦٠٢٦.

فما هي هذه التربية التي تربي عليها المجاهد أثناء المعركة؟ إنه الاستعداد التام للجهاد المرتكز على أسباب النصر الرباني ألا وهو الإيمان الصادق بالله ورسوله، مع الأخذ بأسباب النصر البشري كالبدني والعسكري والتسليحي، الذي يناسب طبيعة كل معركة، هذا الاستعداد يصاحبه استعداد نفسي وتربوي، مع تمام اليقظة وأخذ الحذر وبث العيون ورصد العدو، حتى يخوض المسلمون معركة تباغت العدو في زمن قصير وتحدث لديه المفاجأة بسرعة النصر، مما يخفف من وطأة الحرب، ليكون لدى العدو الاستعداد على الاستسلام، وتكون لديهم فرصة استقبال دعوة الله تعالى لهدايتهم وفرصة التوبة والإنابة.

كل هذه الأمور تحتاج إلى فترة زمنية يتربى فيها المجاهد على كيفية التعامل مع المحاربين والأسرى، بعزة وكرامة أثناء القتال، وتوادة واطمئنان، واثق بنصر ربه، يسعى لأحدى الحسينيين، دون أن يعطي الدنيا في دين الله تعالى لعدو مهما بلغت قوته، هذا العدو اللدود، بعداوتة التي تضرب أطناها بين جموع كفرهم، تواجهه بصورة مشرقة للتربية الإسلامية في قلوب المؤمنين، التي تحول العدو إلى أخ وصديق، من خلال المعاملة المباشرة لهداية هذا العدو الكافر ليكون مسلماً جديداً؟ إنه المشروع الأثمن لدخول الجنة، لقول الرسول ﷺ لعلي عليه السلام (أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْرِ النَّعَمِ)^(١). لتبدأ مرحلة الأخوة الإيمانية عند قوله **{فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ}** (التوبة:٥)، لتبدأ الأخوة التي تعني المحبة والرحمة والرأفة والصدقة، بدأت هذه الرحلة مع هذا المسلم الجديد طريقها إلى قلبه، حتى ولو أعلن إيمانه كاذباً، إنه السر الإلهي في الإعجاز التربوي، في تكوين العلاقات المبنية على أسس من المحبة والإخاء والتعاون والوفاء، فما هذا السر العجيب الذي يحول القلوب الجاحدة إلى مؤمنة؟ ثم يمن عليهم بالتوبة، إنه فضل الله يؤتية من يشاء.

بقول سيد قطب: (إنه الأخذ بعد الإنذار، والنزب بعد الإعلام وبدا منهم غدر اللئام، غير أنها لم تكن حملة إبادة أو انتقام، إنما حملة إنذار ودفع للإسلام، لقد آذوا المسلمين وفتنواهم عن دينهم، من حرب للمسلمين وتأليب على دولتهم؛ إلى سماحة وعفو، ومن فتنة وحرب وتشريد وقتل؛ إلى الكف عنهم إذا اختاروا التوبة والإسلام، ليظل الإسلام على جديته وسماحته وواقعيته وعفوه، إنها حملة هداية ورحمة)^(٢)، ويقول رحمه الله تعالى: (إن هذا الدين إعلام لمن لا يعلم، وإيجار لمن يستجير، ويقابل حامل السيف بفرصة العفو حتى يسمع كلام الله، يأمن الناس في كنفه، يحرسهم ويكفلهم، حتى يبلغوا مأمهم، حتى وهم يرفضون منهج الله)^(٣).

(١) صحيح البخاري: ك/فضائل أصحاب النبي، ب/مناقب علي عليه السلام، ج/٢، ص/٧٤٣، ح/٣٧٠١.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٠١-١٦٠٢ باختصار وتصرف.

(٣) المصدر السابق: ص/١٦٠٣ باختصار وتصرف.

الآية الثانية: قول الله تعالى: {أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُوْكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ اتَّخَشَوْنَهُمْ فَالَلَهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (التوبة: ١٣)،

إن الفطرة الإنسانية تدعو إلى رد العدوان ودفع الأذى، ومنع كل من يحاول إخراج صاحب حق من حقه، وعملا بالمثل القائل: (البادي بالكرم أكرم، والبادي بالظلم أظلم)^(١). فمن المسلم به أن يركن الضعيف إلى الأقوى، وأن يبتغي طالب العزة من العزيز الكريم، وأن يستنصر المغلوب من الناصر على النصر، فإله أمرنا أن نخشاه لأنه الله جل في علاه، وأن الخشية من الناس تولد أمورا لا تحمد عقباها.

الآية الثالثة: قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (التوبة: ٧٣)،

في هذه الآية أمران، أمر بالمجاهدة، وأمر بالغلظة^(٢)، والسؤال الذي يطرح نفسه، ألا يوجد في الجهاد غلظة؟ غلظة ناتجة عن الطعن، وكثرة الجراح، وفصل الرؤوس عن الرقاب، ألا يوجد في ذلك غلظة وغلظة شديدة؟

- إن رسول الله ﷺ مطبوع بالرفق واللين والسماحة، وهكذا يجب أن يكون المسلم الذي اتخذ من النبي ﷺ قدوة، فيكون الخطاب بالمؤمنين أولى، لأنه ﷺ مجاهد في سبيل الله منذ أن بعثه الله تعالى، ولأن الغلظة ليست من طبعه ﷺ، فكان الأمر بها أمرا ضروريا، ليسرع الرسول ﷺ في معالجة العضو الفاسد بالبت، سلامة للأمة من الفساد العام الذي قد يهددها.
- في الآية بدأ الأمر بجهاد الكفار وتنى بالمنافقين، وفي قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارِ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} (التوبة: ٦٨)، بدأ وعيده بالمنافقين وتنى بالكافرين، ليعلم المؤمن خطورة الكفر المعلن والظاهر، وليكن شديد الحذر من المنافقين لإظهارهم الإسلام وإخفائهم الكفر، يقول البقاعي: (فقدّم في كل سياق الأليق)^(٣). لتظهر حقيقة الفريقين وليطمئن العبد بنصر ربه، من أهم الدروس التربوية ومن أعظم الهدايات الربانية في الآية، يقول البقاعي: (فإنك ظاهر عليهم وقاهر لهم وهم طعام السيف وطوع العصا)^(٤).

- ويقول القرطبي: (الخطاب للنبي ﷺ وتدخل فيه أمته من بعده، قيل: المراد جاهد بالمؤمنين الكفار، وقال ابن عباس: أمر بالجهاد مع الكفار بالسيف، ومع المنافقين باللسان وشدة

(١) معجم الأمثال الفلسطينية، لحسين على لوباني: ص/١٩٠، مكتبة لبنان/بيروت، ط/١٩٩٩م.
(٢) الغلظة: الشدة، ك/العين للفراهيدي: ج/٣، ص/٢٨٧، والفظاظة: نقيض الرأفة وخشونة الجانب، المختار الصحاح للرازي ص/٢٠٠.
(٣) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٦٠.
(٤) المصدر السابق: ص/٣٦٠.

الزجر والتغليظ^(٥). فلا بد من مجاهدة من وضعهم الله في سلة واحدة، وخاصة ممن يكونون على اتصال في أرض المعركة، وفضح المنافقين وبيان سوء طبعهم، وخبث سريرتهم، (فقد لاينهم رسول الله ﷺ كثيراً، وأغضى وصفح كثيراً، وقد بلغ الحلم غايته، والسماحة أجلها، واللين أمدّه، ليكلفه ربه بجهاد هؤلاء وهؤلاء جهادا عنيفا غليظا لا رحمة فيه ولا هودة، وليكن الحسم القاطع)^(١)، بالتالي ينقسم جهادهم إلى قسمين:

القسم الأول: جهادهم باليد، والسيف والغلظة عليهم كالكافرين سواء؛ لأنهم يُنمَّون بعضهم بعضا، كون المنافقين الجزء الناقص في الكافرين، وكونهم عيونا ومناصرين لهم على المسلمين^(٢).

القسم الثاني: مجاهدة المنافقين معلومي النفاق باللسان والمقال والموعظة والهداية^(٣). وأرى والله أعلم أن المنافق المعلوم النفاق، من خلال ولائه لليهود والنصارى المناصرين له، ويتبادلون معه المحبة والنصرة، المتأمرين على الإسلام وأهله، وجب الجهاد فيهم بكل أنواعه والغلظة فيهم، التي أرادها الله تعالى، لما فيهم من غدر وخيانة ونذالة بعد كفر صريح لنا فيه من الله برهان وبينة.

الآية الرابعة: قال الله تعالى: **لَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** {التوبة: ١٢٣}

يبين الله تعالى لعباده خطورة الكفار وخاصة المجاورين للحدود، والمحتمل خطرهم المتجدد على حدود الدولة الإسلامية، لذلك أمر المجاهدين بدوام الغلظة على هؤلاء المجاورين لردعهم وإخافتهم، (ليتم تحديد طريق الحركة الجهادية بعد أن أصبحت الجزيرة كلها قاعدة للإسلام ونقطة انطلاق ليكون الدين كله لله)^(٤).

ليظهر مفهوم الولاء والبراء ويترسخ في أذهان المؤمنين الذي يعطي أبعادا روحية وتربوية، تشمل: إخلاص العبودية لله هداية واستقامة على أمر الله، بحسن التوكل عليه، وأبعادا وجدانية ونفسية، كالعزة والكرامة، والأمن والأمان، والطمأنينة والسعادة، وأبعاداً أخلاقية كالصدق والوفاء والعدل والإقدام والصبر والثبات والتواضع، وأبعاداً اجتماعية وتشمل: صلة الأرحام، والتكافل الاجتماعي، والتعاون على البر والتقوى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصلاح ذات البين، ونصرة المظلوم.

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/٥، ص/١٩٥.

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٧٧ باختصار.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/٥، ص/١٩٥ بتصرف.

(٣) المصدر السابق: ص/١٩٥، بتصرف.

(٤) ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٧١٥ باختصار.

كل ذلك وغيره ناتج عن الثقة بالله والاطمئنان لأوامره، وعدم الثقة بالكافرين والمنافقين، مع أخذ الحيطة والحذر منهم، لأن المنهج التربوي قائم أصلاً على الثقة بالله وحسن التوكل عليه واليقين بنصره تمام اليقين، لأن الاطمئنان للكافرين يولد في النفس حالة من الاضطراب والقلق من غدرهم، لأن الفطرة البشرية إلى القلق من أمثال هؤلاء، لذلك أمر الله تعالى بمقاتلة من يلون المؤمنين لتوقع شرهم القريب وخطرهم الداهم، لذا وجب الحذر.

البند الرابع: الآثار المترتبة على الخشية من الناس دون الخشية من الله تعالى:

- ضعف وخور يصيب النفس قبل ما يصيب البدن.
 - زعزعة الثقة بالنفس، واضطراب يتبعه قلق دائم.
 - تبقى النفس تحسب حساب المعتدين وأي ظهور لهم يولد لديه خوف دائم.
 - تكون العيون دوماً وجلة وزائغة تنظر يمنة ويسرة، من كل مجهول، وأفئدة هواء.
 - يستعد الجبان لقبول كافة الشروط المهينة من العدو، متنازلاً عن ثوابت الأمة ومبادئها، والتهاون في مقدساتها.
 - سيضرب الذل أطنابه في مملكة يقطنها الخور والضعف، لأنها بلا حاكم ولا سيادة، بالتالي ستصبح الحياة بلا معنى؛ لتمام تفریطها بقيمتها وأخلاقها بسبب قبول الدنية في الدين، والرضا بالذل والهوان.
- فلا ينبغي لمؤمن بعد كل ذلك أن يخشى أحداً غير الله، لأن في خشيته عزة وكرامة ونصر وتمكين، فسبحان من استعبدنا لطاعته، فجعلنا أحراراً وسادة وكراماً.
- يقول سيد قطب: (فالمؤمن لا يخشى أحداً من العبيد، ولا يخشى أحداً إلا الله، فهو أولى بالمخافة والخشية، وما يجوز أن يكون لغيره مكان في قلوب المؤمنين)^(١).

(١) في ظلال القرآن سيد قطب: ج/٣، ص/١٦١٢ بتصرف

الفصل الثالث

المنافقون من خلال السورة

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: صفات المنافقين وأصنافهم:

المبحث الثاني: خطورة المنافقين داخل المجتمع المسلم.

المبحث الأول

صفات المنافقين

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: تحديد أهداف ومقاصد الفصل الثالث وتحليلها.

المطلب الثاني: النفاق لغة واصطلاحاً.

المطلب الثالث: أنواع النفاق:

ويشتمل على بندين:

البند الأول: النفاق الاعتقادي.

البند الثاني: النفاق العملي.

المطلب الرابع: أصناف الناس من خلال السورة.

ويشتمل على أربعة بنود:

البند الأول: المشركون.

البند الثاني: أهل الكتاب.

البند الثالث: المؤمنون.

البند الرابع: المنافقون.

المطلب الخامس: صفات المنافقين من خلال السورة.

المطلب الأول: تحديد أهداف ومقاصد الفصل الثالث وتحليلها:

أولا تحديد أهداف الفصل الثالث وتحليلها:

هذا المقطع من أطول مقاطع السورة، إذ يفصح الله فيه المنافقين، ويكشف حقيقة نواياهم وحيلهم ومعاذيرهم في التخلف عن الجهاد وكيف يرغبون الفتنة في الصف المسلم^(١). لقد فصح الله أهداف ومقاصد المنافقين، من خلال سلوكهم، وكشف مكنون صدورهم، وخبينة نفوسهم، وشدة عداوتهم، لتعطي المؤمنين الضوء الأحمر من شدة خطرهم، وبالتالي لا بد من بيان أهداف هذا الفصل ومقاصده وتحليلها، حتى ندرك مخاطر هذه الفئة المريضة تفصيلا:

- أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله مقدم على المال والأهل والولد.
- أن يطمئن المؤمن لتربص الله بأعداء الله تعالى من المنافقين وعموم الكافرين.
- أن يدرك المؤمن أن المنافقين والأخبار والرهبان يجمعهم في عداوتهم لأهل الإسلام محاولتهم إطفاء نور الله تعالى، والصدُّ عن سبيل الله وأكل أموال الناس بالباطل.
- أن يدرك المؤمن صفات المنافقين ويستشعر خطرهم من خلال موالاتهم لأعداء الله .
- أن يدرك المؤمن أن متابعة المنافقين للمؤمنين، لا يكون إلا في مصلحتهم.
- أن تصديق المؤمن للمنافقين لا ينفع المنافقين ولا يضر المؤمنين.
- أن يعلم المؤمنون مدى كراهية المنافقين لانتصار الإسلام وحرزهم لذلك وفرحهم بانتصار الكافرين، وسعيهم بالفتنة بين المسلمين من أهم خصالهم الدنيئة.
- أن الإيمان بالقضاء والقدر، من أركان الإيمان ومن أهم عوامل الفرج والنصر.
- أيا كانت أعمال المنافقين فإنها ليست مقبولة؛ بسبب ولائهم للكافرين.
- أن يدرك المؤمن أن سبب نعيم المنافقين في الدنيا من أعمال وأموال وأولاد، هي سبب شقاوتهم في الآخرة، لجحودهم فضل الله ولعدم ولائهم لله ولرسوله وللمؤمنين.
- أن يسعى المؤمن ببيان جبن المنافقين وخوفهم الدائم، وفصح مؤامراتهم.
- التعرف على حقيقة قلوب المؤمنين وصفاء سريرتهم، وطيب نفوسهم في إلقاء المودة على المنافقين وغيرهم طمعا في هدايتهم، رغم سوء ظن المنافقين بهم.
- ضرورة حذر نفاق المنافقين الظاهر والباطن لتلافي خطرهم المحتمل وغير المتوقع.
- بيان خطورة من يسعى لمرضاة الناس على حساب مرضاة الله ﷻ، ورسوله ﷺ.
- أن يعلم المؤمنون أن الاستهزاء بالله وبرسوله وآياته وبالمؤمنين؛ كفر بعد إيمان، قال الله تعالى: {لَا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ...} (التوبة: ٦٦).

(١) مقاصد وأهداف سورة التوبة، (مذكرة جامعية) د. زهدي أبو نعمة، د. عصام العبد زهد: ص/٩ باختصار، الجامعة الإسلامية/غزة، ط/١٩٩٧م.

- تشابه سلوك وأعمال وأخلاق المنافقين بالمشركين سابقا ولاحقاً.
- أن يتجنب المؤمن الاستغفار للمنافقين، أو الصلاة عليهم، والدعاء لهم.
- أن يتجنب المؤمن التخلف عن الجهاد، والبخل في الإنفاق، والضحك والاستهزاء؛ حتى لا يتشبه بأخطر صفات المنافقين التي لها الأثر الكبير والخطير في النفوس.
- أن يحذر المؤمن غدر المنافقين وخيانتهم، وتوليهم وإعراضهم.
- أن يتخذ المؤمنون كافة وسائلهم الاحتياطية للحفاظ على سلامة المجتمع ضد أي تجمع للمنافقين للتفريق بين المؤمنين، مع مراقبتهم جميع اتصالاتهم المحلية والخارجية.
- أن يدرك المؤمن أن شرف الجهاد لا يناله إلا من اعتمر قلبه بالإيمان وانشغل بالطاعات، واجتنب المعاصي.

ثانيا: تحديد مقاصد الفصل الثالث وتحليلها:

- بيان فشل كل المخططات لإطفاء نور الله تعالى مهما بلغت جهودهم.
- أن يكون الدين الحق لله الحق بتمام الظهور وكمال الشريعة^(١).
- بيان تشابه المنافقين وأهل الكتاب في الصد عن سبيل الله وأكلهم أموال الناس بالباطل.
- بيان دوام جهاد الكفار والمنافقين والغلبة والشدة فيهم، سنة ماضية إلى يوم القيامة.
- بيان سعي اليهود والنصارى والمنافقين الدؤوب للقضاء على الإسلام والمسلمين.
- بيان فضح العلاقة الخفية والعلنية بين المنافقين وأهل الكتاب.
- كشف حقيقة المنافقين، وبيان أفعالهم الخفية والصريحة، وفضح نواياهم الخبيثة.
- ضرورة سرعة استجابة المؤمنين لأمر الجهاد.
- تبكيت المنافقين واحتقارهم، بفصلهم عن المؤمنين، ورفض خروجهم.
- بيان خطورة الاستماع للمنافقين، وسعيهم الدائم في ابتغائهم فتنة بين المسلمين
- توضيح وفضح شدة مكر المنافقين وكيدهم وخداعهم بكثرة دسائسهم. وإثارتهم للقائل وافتعال الفتن بين المؤمنين، وتأليب الكفار عليهم.
- بيان قبح المنافقين (في إثبات الخفايا من الأعدار المانعة لهم من الجهاد)^(٢).
- بيان أن إنائهم كذكورهم في تلك الأعمال المنكرة والأفعال الخبيثة، في صفة النفاق^(٣).

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٤٤ بتصرف

(٢) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٧٤

(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٢٦.

المطلب الثاني: النفاق لغة واصطلاحاً:

النفاق لغة: من نفق، نفق الدابة: ماتت^(١).

نَفَقَ مَالُهُ وِدْرَاهِمُهُ وَطَعَامُهُ نَفَقًا وَنَفَاقًا، كِلَاهُمَا: نَقَصَ وَقَلَّ، وَقِيلَ فَنِيَ: ذَهَبَ. وَأَنْفَقَ الرَّجُلُ إِذَا افْتَقَرَ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِذَا لَأْمَسْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ} (الإسراء: ١٠٠)؛ أَي خَشْيَةَ الْفَنَاءِ وَالنَّفَادِ. وَالنَّفَقُ: سَرَبٌ فِي الْأَرْضِ، وَفِي التَّنْزِيلِ: {فَإِنْ اسْتِطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ} (الأنعام: ٣٥)، وَسُمِّيَ الْمُنَافِقُ مُنَافِقًا لِلنَّفَقِ وَهُوَ السَّرَبُ فِي الْأَرْضِ، وَقِيلَ: إِنَّمَا سُمِّيَ مُنَافِقًا لِأَنَّهُ نَافِقٌ كَالْبُرْبُوعِ وَهُوَ دَخُولُهُ نَافِقَاءَهُ، فَيُقَالُ هَكَذَا يَفْعَلُ الْمُنَافِقُ، يَدْخُلُ فِي الْإِسْلَامِ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ^(٢).

والنفاق: الخلف والكفر، يقول الشاعر:

للمؤمنين أمورٌ غير محزنةٍ * * * * *
وللمنافق سرٌّ دونه نفاقٌ^(٣).

النفاق اصطلاحاً:

مما سبق من المفردات السابقة يتبين أن المعنى اللغوي، يتقارب مع المعنى الاصطلاحي الذي اتفق عليه العلماء.

فالنفاق اصطلاحاً: هو إظهار الدين، وإبطان خلافه، وهو أخص من المعنى اللغوي، من إظهار الدين ثم إبطان ما يخالف الدين. وذلك إما أن يكون فسقا أو كفراً، فإذا أظهر الإيمان، وأخفى التكذيب بأصوله، فهذا هو المنافق الذي توعدده الله تعالى بالدرك الأسفل من النار^(٤)، وإن كان الذي يخفيه غير الكفر بالله وكتابه ورسوله وإنما هو شيء من المعصية لله فهو الذي فيه شعبة أو أكثر من شعب النفاق.

وسمي بالمنافق لإظهاره غير ما يضمرة تشبيهاً بالبربوع الذي يكتم أحد جحريه ويظهر غيره^(٥).

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

المعنى التوفيقي بين المعنى الاصطلاحي واللغوي، الذي أراه مناسباً في المنافق: أنه رجل خفي المعالم والأسرار، غامض الطرق والحيل والأخبار، لا يستقيم على حال، لشدة قلقه واضطرابه النفسي، يظهر دينه عصمة لدمه، ويخفي كفره حبا في قومه، لأنه منهم وهم منه، قال الله تعالى: {وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ} (التوبة: ٥٦).

(١) مختار الصحاح للرازي: ص/٢٨٠.

(٢) لسان العرب لابن منظور: ج/١٤، ص/٢٤٣.

(٣) كتاب العين للفراهيدي: ج/٤، ص/٢٥٢.

(٤) النفاق وأثره في حياة الأمة لسيد جمعة سلام: ص/١٩ باختصار، مكتبة الإيمان، المنصورة،

(٥) المنافقون في القرآن الكريم د. محمد يوسف عبد بن حسن: ص/٣٠، دار النشر والتوزيع الإسلامية/القاهرة، ط/١٩٩١.

المطلب الثالث: أنواع النفاق:

كثير من العلماء بيّنوا أن النفاق نوعان:

النوع الأول نفاق عقدي: وهو ما يسمى بالنفاق الأكبر، مخرج من الملة، ينعقد قلب صاحبه على بغض الإسلام وأهله، وهو المتبادر للذهن عند إطلاق النفاق دون تقييد.

النوع الثاني نفاق عملي: لا يخرج من الملة، وهو اختلاف السر والعلانية في الواجبات، لا يخرج من الملة لسلامة المعتقد، وصحة الإسلام، وأبرز خصاله: الكذب، وخلف الوعد، وخيانة الأمانة، والفجر في الخصومة^(١).

البند الأول: النفاق الاعتقادي:

هو الذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، ويسمى فاعله بالمنافق، مع إخراج من الملة وتكفيره، سواء كان بالقول أو العمل أو الاعتقاد، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله ﷺ، ونزل القرآن بدم أهله وتكفيرهم، وأخبر أنهم في الدرك الأسفل من النار، قال تعالى:

{**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا**} (النساء: ١٤٥).

ولهذا النفاق علامات كثيرة، منها:

- ١- تكذيب الرسول ﷺ، أو تكذيب بعض ما جاء به ﷺ.
- ٢- بغض الرسول ﷺ، أو بغض بعض ما جاء به ﷺ.
- ٣- المسرة بانخفاض دين الرسول ﷺ، أو الكراهية بانتصار دين الرسول ﷺ.
- ٤- الاستهزاء بالله ورسوله وآياته، {**..قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ* لَا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ..**} (التوبة: ٦٥-٦٦).
- ٥- الاستهزاء من المؤمنين، ولمزهم في الصدقات، قال تعالى: {**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**} (التوبة: ٧٩).
- ٦- محاولة التدمير والتغيير في الإسلام، قال تعالى: {**..وَهُمُوا بِمَا نَمَّ يَنَالُوا..**} (التوبة: ٧٤).
- ٧- الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، لنشر الرذيلة في المسلمين، ورغبة في إفسادهم، قال تعالى: {**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**} (التوبة: ٦٧).

(١) النفاق وأثره في حياة الأمة لسيد جمعة سلام: ص/٢١ بتصرف.

٨- موالاة الكفار من المشركين وأهل الكتاب، قال الله تعالى: **لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** {التوبة: ٢٣}.

٩- تثبيط عزيمة المؤمنين، للنيل منهم والسعي لهزيمتهم، كما فعلوا في أحد وغيرها من المواقع، قال تعالى: **لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَافَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ...** {التوبة: ٤٧} (١).

البند الثاني: النفاق العملي:

هو التخلق ببعض أخلاق المنافقين الظاهرة كالكذب، والخيانة، والغدر، وخلف الوعد، والتكاسل عن الصلاة، مع الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، كما ورد في الحديث، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان" (٢)، وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أربع من كن فيه... وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر) (٣). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أتقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء، وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً) (٤).

وبالتالي فإن النفاق العملي هو القول الخطير، والعمل الشنيع، النابع من كراهيتهم للحق وأهله، فلا يعرفون لحب الله ورسوله طريقاً، بعكس المؤمنين الصادقين، الذين استعدوا ويستعدون للقاء الله من خلال إيمانهم بالله ورسوله دون شك أو ريب مجاهدين بأموالهم وأنفسهم حباً في الله ورسوله، قال الله تعالى: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}** {الحجرات: ١٥}، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة، قال له صلى الله عليه وسلم: (ما أعددت لها؟) قال ما أعددت لها كثيراً من عمل غير أنني أحب الله ورسوله، فقال: (المرء مع من أحب) (٥).

المطلب الرابع: أصناف الناس من خلال السورة:

تناولت السورة أصناف الناس من بدايتها، فكانت على النحو التالي: المشركون، اليهود.. النصارى.. المؤمنون المجاهدون، ثم ذكّر المنافقون بصفاتهم في أطول مقاطع السورة، يتخللها الحديث عن الأعراب وأصنافهم، وكذلك الحديث عن المؤمنين وبيعتهم مع الله، وصفاتهم، والترتيب الموضوعي الحالي للعناوين حسب تسلسلها الوارد في السورة:

(١) منهاج المؤمن د. مصطفى مراد: ١٧-١٩ يشيء من التصرف.

(٢) صحيح البخاري: ك/الإيمان، ب/ علامة المنافق، ج/١، ح/٣٣، ص/١٣.

(٣) المصدر السابق: ج/١، ح/٣٤، ص/١٣.

(٤) سنن ابن ماجه: ك/الصلاة، ب/صلاة العشاء والفجر جماعة، ص/١٥٠، ح/٧٩٧. (صححه الألباني).

(٥) مسند أبي يعلى الموصلي للحافظ أحمد التميمي: ج/٦، ص/٢٥٦، دار المأمون للتراث/دمشق/ط/١/١٩٨٦م.

البند الأول: المشركون:

تناولت السورة الحديث عن المشركين في اثني عشرة موضعا^(١)، ففي أول السورة تم إعلان البراءة من القسم الأول من المشركين الذين نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ، مع بيان وتوضيح غدرهم، وأن غدرهم هذا وحقدهم وكراهيتهم مهما بلغ؛ لن يعجزوا الله في شيء، ثم كانت البراءة منهم إعلاناً على رؤوس الأشهاد في أعظم محفل عرفه التاريخ يومها، لبيان خطورة الشرك، فإذا انقضت المدة ولم يسلموا فليس أمامهم إلا القتل والتربص بهم وأخذهم، وحصارهم، وترصدهم، لإجبارهم على الهداية والإسلام، (الإسلام، الجزية، الحرب).

أما القسم الثاني منهم فهم الذين التزموا مدتهم وأعطوا فرصتهم، وفرصة الاستماع منهم إلى كتاب الله، وبعد انقضاء المدة التي منحهم الله إياها، وأما القسم الثالث، ما ينبغي أن يكون لهم عهد عند الله، وعند رسوله، لأنهم كفروا بالله وأصروا عليه، بعد أن أقيمت عليهم الحجة، وأخذوا مدتهم، وصفهم الله تعالى بأنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، مما يدل على شدة قساوتهم وبغضهم وكراهيتهم للمسلمين، لذلك أمر الله مرة أخرى بقتالهم ليس لأنهم كفار ومشركون فقط؛ بل لأنهم أهل غدر وخيانة، وظلم وعدوان وهموا بإخراج الرسول، وبدؤوا العدوان، لتكون نتيجة قتالهم وخزيهم وتعذيبهم يقودهم إلى بر الإسلام.

ثم نهى الله عن إعمار المشركين لبيت الله تعالى، وما ينبغي لهم ذلك، لعدم إيمانهم بالله تعالى، ثم تبين الآيات إلى ضرورة إعلان البراءة تماما من المشركين ولو كانوا أولي قربي من الآباء والأبناء وغيرهم، ثم بين علة البراءة ألا وهو نجس المشركين المعنوي والحسي، ثم ربط أهل الكتاب بالمشركين وأمر بقتالهم كونهم مشركين من قولهم على الله زورا وبهتانا عظيما، فأشركوا بالله، عزيزاً والمسيح عليهما السلام، ولمحاولاتهم العدوانية لإطفاء نور الله، واستمرارهم على الشرك، وتم استخدام الفعل المضارع "يشركون" للدلالة على استمرار شركهم وعدوانهم، وضاعة فعلهم الشركي والمستمر بإدعائهم الولد لله، تنزه الله عما يقولون علوا كبيرا، قال تعالى: {سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (التوبة: ٣١)، ليبين نوع الصلة التي تجمع المشركين بأهل الكتاب في ادعائهم الولد لله تعالى، وكذلك صلنتهم بالمنافقين.

البند الثاني: أهل الكتاب:

ذكر الله أهل الكتاب في سورة التوبة في مقطع صغير، بعد الحديث عن المشركين، ليحدد طبيعة العلاقة الشركية بين الوثنيين وبين أهل الكتاب، ونوعية العلاقة القديمة التي ينتهجها أهل الكتاب من خلال عدم إيمانهم بالله ورسوله ولا يمتثلون دين الحق، فلا يحلون حلالا ولا يحرمون حراما، لذا أوجب الله قتالهم لهذه الأسباب، ليكون هذا القتال من قبل

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي: ص/٣٨٠-٣٨١.

المسلمين بمثابة رفض لسلوكهم ومعتقداتهم الشركية القائمة فيهم، وأن هذا الرفض يعني تحديد العلاقة معهم، ولاستخدامهم كثيراً من الأقوال والأفعال الشركية، كإدعاء اليهود بقولهم الشركي {عزير ابن الله}، وكذلك النصارى: {المسيح ابن الله}، وكذلك اتخاذهم الأبحار والرهبان أرباباً من دون الله.

ثم يعرج على نوعية شركهم القبيح والشنيع في ادعائهم الباطل، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، كما ويحذر منهم ومن سوء فعالهم، ويصف عظم كيدهم ومكرهم، وحجم مساعيهم في حربهم الضروس والدؤوب للقضاء على الإسلام والمسلمين، من خلال محاولاتهم إطفاء نور الله، هذه المحاولات تحتاج إلى جهد كبير ومتواصل، بحرب الاستتصال التي يسعون فيها للقضاء على المسلمين، مستخدمين كافة الوسائل العسكرية والإعلامية المتاحة لديهم، وبما أن فشلهم قائم، رغم عظم كيدهم ومكرهم ووسائلهم المتعددة في حربهم الإعلامية الكاذبة التي لا تتوقف، وهي المتبعة عبر العصور دائماً.

(جملة {يُرِيدُونَ} أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ} حالية لتمثيل حالهم في محاولاتهم أن يبطلوا نبوة محمد ﷺ بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم)^(١).

ثم يبشر الله عباده المؤمنين بقهر أهل الكتاب من خلال تشبيه محاولاتهم الحثيثة لإطفاء نور الله بأفواههم التي ستبوء حتماً بالفشل، يقول الرازي: (فكان هذا جارياً مجرى من يريد إبطال نور الشمس بسبب أن ينفخ فيها، وكما أن هذا باطل وعمل ضائع، فكذا ههنا، وأن الله قاهرهم، بإنجاز وعده لنبيه، وظهور دينه، بمزيد من النصر والقوة وإعلاء الدرجة وكمال الرتبة)^(٢)، وهم مرغمون كارهون.

ثم ذكر بعض صفات أئمتهم وأسيادهم من الأبحار والرهبان، في الصد عن سبيل الله وأكل أموال الناس بالباطل، ومن تشبه بهم، ليكونوا حلقة الوصل بين المشركين الوثنيين والمنافقين، في محاربة هذا الدين والكيد لأهل الإيمان والجهاد، فكانوا من فئام الناس المعتدين الذين يُجَاهِدُونَ من قبل المؤمنين الصادقين المجاهدين.

(١) إعراب القرآن الكريم لمحيي الدين درويش: ج/٣، ص/٢٠٨.
(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٣٩. بشيء من التصرف

البند الثالث: المؤمنون:

لقد كان الحديث عن المؤمنين في سورة التوبة من خلال مقاطع صغيرة، من أول السورة من خلال الحديث عن المنافقين، ومن باب المقارنة بينهم وبين المنافقين، والحديث عنهم من زاوية الجهاد في سبيل الله، فمن بداية السورة حث الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين بمجاهدة المشركين والقيود لهم كل مرصد، وأن يكون المؤمنون هم أهل للوفاء، وأن ينبذوا عهود أهل الغدر والخيانة، ثم التركيز على مقاتلة المشركين، فما ينبغي لمؤمن إثارة نفسه وأهله، أو أي شيء من زخرف الحياة الدنيا، على الله ولا على رسوله أو الجهاد في سبيل الله، فضرورة مجاهدة المشركين وأهل الكتاب كافة، أمر حتمي للمؤمنين، نصرته لدين الله ورفعته لشأنه، وتمكين لهم في الأرض، يقول الرازي: (اعلم أنه تعالى لما شرح معاييب هؤلاء الكفار فضائحهم، عاد إلى الترغيب في مقاتلتهم)^(١)، فكان الخطاب للمؤمنين ترغيباً في الجهاد والنفير، وتحقيراً للقاعدين، وبين سوء فعال المتخلفين بتناقلهم عنه، ويبين حقارة الدنيا، بنعيمها القليل الزائل، مع خطورة عدم الامتثال لأوامر الله تعالى، وأن عدم امتثال أوامر الله لا يضر إلا المتخلفين المتناقلين، بتعرض المؤمنين لسنة الاستبدال والتدافع.

ثم بين طريقاً آخر للترغيب في الجهاد وعظم فضله، من خلال معية الله معهم، لأن جهادهم لا يجلب لهم إلا الأجر العظيم والنفع العميم في الدنيا والآخرة، أما رد العدوان، فقد تكفل الله برده ونصرة دينه ونبيه، فجهادكم تعبير عن حسن امتثالكم لأوامر الله، وحسن طاعتهم له.

ومن بين ثنانياً هذا الترغيب العظيم في الجهاد، حذر المؤمنين خطر القعود، وشرف المعية الإلهية في النصر والتمكين، لذلك حث الله تعالى على الجهاد في مواضع كثيرة في السورة ورجب فيه وبين عظيم أجر المجاهدين، قال تعالى: **{لَيْكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** (التوبة: ٨٨).

فكان الجهاد بالنفس والمال للكبير والصغير والضعيف والقوي، من أهم صفات المؤمنين الصادقين الذين غمر الإيمان قلوبهم واختلجت ضلوعهم بحب الله ورسوله، فسارع إلى نصرته دينه ورسوله، فمن حسن الامتثال لأوامر الله؛ الإسراع في الجهاد، وبعد أن رغبت في الجهاد وأنتى عليهم في أول السورة وما أعد الله تعالى لهم من الأجر والدرجات العلاء من الجنة، قال تعالى: **{الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ}** (التوبة: ٢٠).

عرض عليهم الصفقة الربحية بشراء أنفسهم وأموالهم، فقال جل في علاه:

(١) مفاتيح الغيب للفر الرأزي: ج/١٥، ص/٥٩.

{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (التوبة: ١١١)، وفي الآية التالية يبين أهم صفات المبايعين الصادقين بقوله تعالى: {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} (التوبة: ١١٢)، ثم يختم السورة ببيان أهم صفاتهم ألا وهي الاستبشار والفرح بآيات الله {..فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَدْتُهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} (التوبة: ١٢٤)، فمن كانت هذه صفاته كان حقا أن يشرفه الله بشرف الانتساب إلى رسول الله ﷺ، ثم تختتم السورة بأهم الصفات الإيمانية؛ ألا وهي حسن التوكل على الله، {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} (التوبة: ١٢٩).

البند الرابع: المنافقون:

حقيقة المنافقين:

بداية لا بد من بيان حقيقة المنافقين، وطبيعة نفوسهم المريضة التي جبلوا عليها، فمنذ ظهور الإسلام وإلى يومنا، والمنافقون (كانوا مركز الفتن والنكبات الداخلية التي تعرض لها المسلمون، فمعظم الفرق المنحرفة نشأت بسببهم، فأسسوا لفرق الباطنية، والتي كان لها وثيق الصلة باليهود الذين يكون أشد الحقد على الإسلام وأهله، وهم الذين ساروا في ركاب الأعداء، ونقلوا لهم الأخبار، وفتحوا لهم الأبواب في السلم والحرب، وثبطوا روح الجهاد لدى المسلمين وما زالوا)^(١).

إن واقعا خير شاهد على طبيعتهم الخبيثة، لذلك تحذرنا الآيات بإشارات واضحة جلية على أن النفاق صنيعة شيطانية، وأن المنافقين يحرصون على المنافع الدنيوية العاجلة، ويسعون إلى احتقار الناس، وجحود الحق ونكرانه، بوسائلهم الخبيثة من مكر وخداع وكذب، وغيرها من الأدوات الدنيوية التي كشفت عنها السورة، ليظهر هذا السلوك الغريب، الساعي في الخير ظاهراً، والشر باطناً، حيث تكمن صناعة التلؤن في قلوبهم، لذا تحدثت السورة عن قلوبهم في تسعة مواضع^(٢).

إن القلوب موضع الإيمان والكفر في الإنسان وبيتهما الحصين، لذا ونحن بصدد الحديث عن المنافقين فإن قلوبهم مصنفة متنوعة:

قلوب مرتابة مترددة: قال تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} (التوبة: ٤٥)، إن المنافقين فيهم صفة الشك والتردد،

(١) ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ لعبد الرحمن حسن الميداني: ص/٢٠-٢١ باختصار، دار القلم/دمشق، ط/١٩٩٣م.

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي: ص/٥٤٩-٥٥١.

الذي يولد الاضطراب والقلق، فينتج عن ذلك الخوف والجبن، هذه الصفات المتتالية والمتوالية في قلوب المنافقين، تجعلهم في ريب يترددون، فيستأذنون للانصراف عن الجهاد.

قلوب حائرة متذبذبة: قال تعالى: **{يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ}** (التوبة: ٦٤)، إن حذرهم يجمع بين الخوف من أن تنبئهم بما في قلوبهم، ورغبة في الاستهزاء، لذلك قال الله فيهم: **{مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا}** (النساء: ٤٣)، فتارة إلى أهل الكفر يميلون، وأخرى إلى أهل الإيمان، متذبذبين بين الفريقين، فأجسادهم تسكن مع المسلمين، وقلوبهم ترفض الإيمان وتكره المؤمنين، ومصالحهم مرتبطة بالكافرين، لذلك هم خائفون على مصالحهم، لذلك هم في خوف وتذبذب دائم.

قلوب منافقة مضطربة: قال تعالى: **{فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}** (التوبة: ٧٧)، بسبب وعدهم الذي أخلفوه، والإنفاق الذي منعه بخلهم، وتوليهم وإعراضهم عن امتثال أوامر الله تعالى، كان اضطرابهم، يقول الرازي: (تلك العقوبة هي حدوث الغم في قلوبهم وضيق الصدر وما ينالهم من الذل والذم... فنقض العهد، وخلف الوعد يورث النفاق)^(١).

قلوب استمرأت الجهل: قوله تعالى: **{رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}** (التوب: ٨٧)، وقوله تعالى: **{إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}** (التوبة: ٩٣)، وذلك لأنهم لا يقرؤون السنن الكونية، ولا يعتبرون بغيرهم وبمن سبقهم، حتى بمن يعايشوهم، يقول الرازي: (لأجل ذلك الطبع لا يعلمون ما في الجهاد من منافع الدين والدنيا)^(٢).

قلوب مهمومة مغمومة، بدوام حزنها وأسفها على نفسها: قال تعالى: **{لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}** (التوبة: ١١٠)، عند كل هزيمة يتعرضون لهم، بل عند كل انتكاسة يزيد همهم وغمهم، ويزداد حزنهم، إضافة إلى ريبهم وترددهم واضطرابهم، وخوفا على أنفسهم من القتل ونهب الأموال، وأن هذه الصفات في قلوبهم باقية أبداً، وتنشق قلوبهم غمًا وحسرة^(٣)، وفي ذلك بشارة للمؤمنين بهزيمة المنافقين النفسية قبل العسكرية والميدانية.

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٤٢ بتصرف.

(٢) المصدر السابق: ص/١٦٣ منقول.

(٣) المصدر السابق: ص/١٩٧-١٩٨ باختصار وتصرف.

قلوب مريضة: قال تعالى: **﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾** (التوبة: ١٢٥)، يقول الرازي: (يدل على أن الروح لها مرض، فمرضها: الكفر والأخلاق الذميمة، وصحتها الأخلاق الفاضلة)^(١). بل إن عظم مرضهم يكمن في رجسهم؛ الذي جمعوا فيه كل الأخلاق المذمومة في التاريخ وعند جميع الناس.

قلوب مطبوع عليها بالكفر: قوله تعالى: **﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾** (التوبة: ١٢٧)، يقول الرازي: صرفهم عن الإيمان، بما أورثهم من الغم والكيد، والألطف التي يختص بها من آمن واهتدى، بل صرفهم عن كل رشد وخير وهدى، فأضلهم وطبع عليها بكفرهم^(٢).

المطلب الخامس: صفات المنافقين من خلال السورة:

يكثر ظهور النفاق عندما تنتصر الدعوة وينحسر الكفر، ويذهب سلطان الظلم، ويعم الخير، ويزول الشر، فيخفي المنافقون كفرهم، ويظهرون إيماناً تلبسوه، فيكونون بذلك أسوأ من الكافرين وأضر منهم؛ لأنهم تساوا في الكفر وزادوا عليه فن الخداع والتضليل، فيكون ضررهم أشد؛ لعدم معرفة خطرهم، ولجهل الناس فيهم، فتظهر صفاتهم التي يعرفون بها، لقد جاءت سورة التوبة لتفضحهم وتكشفهم، وتحفر على أساساتهم، وتحذر المسلمين منهم من خلال صفاتهم التي من خلالها كادت أن تسميهم السورة بأسمائهم وهي:

- **مولاة الكافرين ومعاداة المؤمنين:** المنافقون بطبعهم الكفري الشيطاني، يميلون إلى من هم على شاكلتهم، فيوالونهم لأنهم منهم، لذلك حرّم الله مولاة الكافرين، لما في هذه الولاية من اختلاط العقائد الشركية والوثنية والمصلحية التي لا تليق بعظمته ووحدانيته، ولو كانت هذه الولاية لأولي القربى، فقال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** (التوبة: ٢٣)، يقول سيد قطب: (وهكذا تنقطع أواصر الدم والنسب؛ إذا انقطعت أصرة القلب والعقيدة، وتبطل ولاية القرابة في الأسرة إذا بطلت ولاية القربى في الله، فله الولاية الأولى)^(٣).

- **إيثارهم الدنيا وزخرفها على الله ورسوله:** لقد تربص الله تعالى كل من يقدم النفس والأهل والمال؛ على الله ورسوله، والجهاد في سبيله، بالعذاب ونصر الله للمؤمنين، فقال: **﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ**

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ص/٢٣٢.

(٢) المصدر السابق: ص/٢٣٥ بتصرف.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٥.

اَفْتَرَقْتُمُوهَا وَتِجَارَةً تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (التوبة: ٢٤)، ومعلوم أن المنافق يؤثر العزوة،^(١) والدنيا وزخرفها على كل شيء، دون النظر إلى مصلحة الجماعة والأمة، وعدم تجرده لله ولرسوله، وكرهية الجهاد، يقول سيد قطب: فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة يرتفع على مقتضيات العقيدة في الله ومقتضيات الجهاد في سبيله^(٢)، فكيف بمن أبطل الجهاد؟

• **الصد عن سبيل الله وأكل أموال الناس بالباطل:** وهذا ضمن علاقاتهم الخفية مع أهل الكتاب، وتشابه صفاتهم، قال الله تعالى: **لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}** (التوبة: ٣٤)، ولقد سبق القول الراجح لَدَيَّ في أن الذين يكتزون الذهب والفضة، هم مانعوا الزكاة من المسلمين^(٣). انظر: الصفحة (١٤٠-١٤١)

• **دعوى الإيمان، وأنهم من المؤمنين:** إنهم يزعمون الإيمان رياءً، قال الله تعالى: **{وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ}** (التوبة: ٥٦)، فإله يفضحهم ويكذبهم بقبح دعواهم، بإظهارهم الإيمان وإسرارهم الكفر والنفاق، وهو قوله تعالى: **{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ}** (البقرة: ١٤١)^(٤). فهو لاء ليسوا منا ولسنا منهم.

• **كثرة الحلف والكذب من أشهر صفات المنافقين:** قال الله تعالى: **{لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}** (التوبة: ٤٢)، هذه الخصلة مما اشتهر به المنافقون؛ لأنهم مرتبطون بخوفهم الدائم والمرتبط بالفزع والكذب والخداع، وتسويغ الأخطاء، ولو ارتبط الأمر بمصلحة من منافع الدنيا، لأسرعوا إليه، ولذا عدَّ الذهبي^(٥) حالف اليمين كاذبا من أهل الكبائر^(٦)، فكيف بمن يكذب على الله ورسوله؟ ويقول الرازي: (ثم بين تعالى أنهم يهلكون أنفسهم بسبب كذبهم وأيمانهم الكاذبة ونفاقهم، وأن الأيمان الكاذبة توجب الهلاك)^(٧).

(١) انتماء الرجل إلى قومه، انظر كتاب العين للفرهيدي: ج/٣، ص/١٥٠،

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٦.

(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٤٣ باختصار.

(٤) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٩٦ باختصار.

(٥) شمس الدين محمد بن عثمان بن قابماز التركماني الذهبي، ولد في دمشق ٦٧٢ هـ تلقى العلوم عن كثير من شيوخ الشام والحجاز ومصر، عمي في ٧٤١ هـ توفي ٧٤٨ هـ ترك ثروة عظيمة من المؤلفات في التراجم والتاريخ والحديث: مقدمة كتابه الكبائر: ص/٥.

(٦) كتاب الكبائر للذهبي: ص/١٠١.

(٧) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٧٢.

- الاستئذان عن الجهاد والتخلف عنه: قال الله تعالى: {لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} (التوبة: ٤٤)، وهو من علامة الكفر والنفاق، يقول الرازي: (لما كان عدم الإيمان قد يكون بسبب الشك، مما يدل على أن الشاك غير مؤمن بالله)^(١)، فكيف يجاهدون وهم أصلاً لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، فطبيعتهم تفرض عليهم الاستئذان للعود، والتخلف عنه.
- أهل ريب وشك وتردد: فما أكثر ترددهم وشكهم، قال الله تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} (التوبة: ٤٥). والسبب عدم إيمانهم الذي يولد الريب والشك والاضطراب الدائم لديهم.
- قلوبهم مريضة خبيثة يشتد فيها الزيغ والتردد: يقول البقاعي: (ولما كانت هذه صفة المصارحين بالكفر، بين أن المراد: المنافقون بقوله: {وارتابت قلوبهم}، أي تابعت الوسواس وتعمدت المشي معه وتخلقت بالشك؛ ولما كان الشاك لا يزال يتجاذبه حسن الفطرة وسوء الوسوسة، قال: {في ريبهم يترددون}، أي بين النفي والإثبات دأب المتحير لا يجزمون بشيء منهما وإن صدقوا أن الله موجود، فإن المشركين يصدقون بذلك، ولكنه لا ينفعهم للإخلال بشرطه)^(٢).
- دعوى الحنكة وحسن التصرف: فيهم صفة الجهل بدعوى الذكاء والحنكة وحسن تصرفهم، حسب اعتقادهم فيفرحون بمصيبة المسلمين، ويحزنهم خيرهم، قال تعالى: {إِنْ تَصَبَّكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصَبِّكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ} (التوبة: ٥٠)، فإن من الله على عباده بالنصر والتمكين والنكاية في العدو؛ اشتعلت نار قلوبهم حقداً وحسداً، وامتألت نفوسهم غمماً وهمماً وحزناً، وإن أصاب المسلمين مصيبة؛ كانوا أهل الرأي والفهم والدراية، يقول الرازي: (وإن تصبك مصيبة من نكبة وشدة ومكروه يفرحوا به، ويقولوا قد أخذنا أمرنا الذي نحن مشهورون فيه، وهو الحذر والنتيظ والعمل بالحزم)^(٣).
- دائمى التربص بالمؤمنين، وقد تجلت هذه الصفة اليوم فيهم، أكثر من أي وقت مضى، فوسائل التربص لديهم كثيرة: تخذيل وتشيط وإرجاف واستهزاء، ومؤامرات ودسائس، قال الله تعالى: {قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ} (التوبة: ٥٢)، إنهم يتربصون بالمسلمين إحدى الحسينيين، والمؤمنون يتربصون عذاب الدنيا من

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٧٦-٧٧ بتصرف.

(٢) نظم الدرر للبقاعي: ص/٣٢٨ منقول.

(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٨٤ منقول.

هزيمة واسر وذل وهوان، وعذاب الآخرة عند القتل، يقول سيد قطب: (فماذا يتربص المنافقون بالمؤمنين، النصر جزاؤهم في الأرض، والذي تعلو به كلمة الله، أو الشهادة وأعلى الدرجات، وتربص المؤمنون بالمنافقين عذاب يأخذهم كما أخذ من قبلهم من المكذبين؛ أو يبطش بهم المؤمنون، كما وقع من قبل للمشركين)^(١).

• **كسل عن الصلاة:** فإن أمنوا المذمة أحجموا عنها، وتركوها وما قاموا إليها إلا وهم كسالى، قال تعالى: {وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ} (التوبة: ٥٤). فمعنى الكسل عند الرازي كما يقول: (يدل على أنه لا يصلي طاعة لأمر الله، وإنما يصلي خوفا من مذمة الناس)^(٢).

• **الجبن والخوف والهلع:** قال الله تعالى: {لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ} (التوبة: ٥٧)، يقول سيد قطب: (إنها لصورة مزرية للجبن والخوف والملق والرياء)^(٣).

• **الغمز واللمز والطعن بالمسلمين:** كاد القرآن أن يسميهم، وهم يطعنون في عدالة الرسول ﷺ وتقواه، ليس رغبة في حق أو عدل، وإنما طمعا في الصدقات، فعن جابر بن عبد الله ﷺ أن رجلا قال لرسول الله ﷺ وهو يقسم الغنائم: يا محمد! اعدل. قال ﷺ: (ويلك! ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل)^(٤)، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال بينا النبي ﷺ يقسم جاء عبد الله ذي الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: "ويلك، ومن إذا لم أعدل"^(٥)، وما أكثرهم في زماننا، وشاع الكفر، الذي أتاح لهم أن يصلوا ويجولوا بوجههم القبيح، لأي فرصة متاحة لهم، قال الله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ} (التوبة: ٥٨)، يقول سيد قطب: (لا يقولون ذلك غضبا للعدل، ولا حماسة للحق، ولا غيرة على الدين، إنما يقولونه لحساب ذواتهم وأطماعهم، وحماسة لمنفعتهم وأنانيتهم)^(٦)، ويطعنون بالمؤمنين ويسخرون بهم، ويقول تعالى: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (التوبة: ٧٩)، إن نظرهم في الإنفاق في سبيل الله وسلوكهم تجاه المؤمنين، تظهر صفتهم وحقيقة نفوسهم المنحرفة.

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٦٥ بتصرف

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٩٠.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٦٦.

(٤) صحيح مسلم: ج/٢، ك/الزكاة، ب/ذكر الخوارج وصفاتهم، ص/٧٤٠، ح/١٠٦٣. وخبت وخسرت بالفتح الذي تكلم وبالضم النبي ﷺ

(٥) صحيح البخاري: ك/استنابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، ب/ من ترك قتال الخوارج للثأف .. ج/٤، ص/١٣٧٣، ح/٦٩٣٣.

(٦) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٦٧.

- حب أدية المؤمنين طبع فيهم: قال الله تعالى: {وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (التوبة: ٦١)، بسبب استكبارهم واستعلائهم، يقول الرازي: ثم ذكر ما يدل على فساد طعنهم، وهو قوله: {يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ} والمعنى أن من كان موصوفاً بهذه الصفات: فكيف يجوز الطعن فيه، وكيف يجوز وصفه بكونه سليم القلب سريع الاغترار؟^(١)
- الاستهزاء بالمؤمنين: يعني الاستهزاء بالله ورسوله وآياته، فجرأتهم على الله وآياته ورسوله من جرأتهم بالسخرية والاستهزاء بالمؤمنين، قال الله تعالى: {وَلَوْ كُنَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ} (التوبة: ٦٥). سبب نزول هذه الآية، أن رجلاً قال في غزوة تبوك: (ما رأينا مثل قرآن هؤلاء، ولا أرغب بطوننا، ولا أكذب السنة، ولا أجبن عند اللقاء منهم، فقال له رجل: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك ﷺ ونزل القرآن، قال ابن عمر: فأنا رأيت متعلقاً بحقب ناقه رسول الله ﷺ والحجارة تتكبه وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ، يقول: {أبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ}.^(٢)
- الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف: من أكثر صفاتهم تأثيراً في المجتمع للإفساد والفساد، إضافة إلى تخلفهم عن الجهاد في سبيل الله تعالى، وقبض الأيدي شحاً وبخلاً في الإنفاق والعمل الصالح، قال الله تعالى: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (التوبة: ٦٧)، (فأعظم منكرهم تكذيب الرسول ﷺ، وأعظم المعروف الذي ينهون عنه الإيمان بالله تعالى)^(٣).
- التشبه بالظالمين والمجرمين: قال الله تعالى: {كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثْرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخُلُقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} (التوبة: ٦٩)، يقول الرازي: (اعلم أنه تعالى لما شبه المنافقين بالكفار المتقدمين في الرغبة في الدنيا وفي تكذيب الأنبياء والمبالغة في إيذائهم، بين أن أولئك الكفار المتقدمين منهم)^(٤).

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١١٧.

(٢) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي: ص/١٤٤.

(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٢٦.

(٤) المصدر السابق: ص/١٢٩.

- الظلم وحبهم لظلم أنفسهم: لأن صفة الظلم مستأصلة بسبب كفرهم ونفاقهم، وفسادهم وإفسادهم، {أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (التوبة: ٧٠). يقول الرازي: أن العذاب الذي أوصله الله إليهم ما كان ظلما من الله، بل لأنهم استحقوه بسبب أفعالهم القبيحة^(١).
- ناكروا الجميل، يضمرون الحقد والحسد، ولديهم حب الانتقام، قال الله تعالى: {يَحْتَفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} (التوبة: ٧٤)، يقول سيد قطب: (فما من سيئة قدمها الإسلام لهم ينقمون عليه هذه النعمة من أجلها)^(٢)، مما يدل على جودهم الذي جاء به رسول الله ﷺ، بل بقي الجميل مستمر عليهم وإليهم، وباب التوبة مفتوح بقوله: {فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ}.
- الغدر والخيانة ونقض العهد والبخل وخلف الوعد: قال الله تعالى: {وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لِنُنَّا آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ* فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخُلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ* فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} (التوبة: ٧٥-٧٧)، يقول الرازي: (وهذا يدل على أنه تعالى وصفهم بصفات ثلاثة: الأولى: البخل وهو عبارة عن منع الحق، الثانية: التولي عن العهد، والثالثة: الإعراض عن تكاليف الله وأوامره)^(٣).
- كراهيتهم للجهاد بسبب كفرهم وفسقهم وفسادهم: الخفي كما الكفر باطنهم، يمنعهم من الجهاد، فيتخلفون، قال تعالى: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ* فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} (التوبة: ٨٠-٨١)، هذا النفاق الذي أورثهم حب الدنيا، مما أقعدهم عن الجهاد فأورثهم القعود والتخلف الكفر والفسوق، يقول الرازي: الخالفين الذين لا يبرحون البيت، وقيل هو المخالف، وقيل من خلف عن كل خير فهو فاسد، واللفظ يصلح حمله على كل ذلك، لكونهم موصوفون بجميع هذه الصفات^(٤)،

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٣٠.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٧٦.

(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٤١.

(٤) المصدر السابق: ص/١٥١ بتصرف.

- يختلقون الأعذار تهربا من الواجبات: ليقوا في دائرة الإيمان ظاهراً في أعين المؤمنين، قال الله تعالى: {يَعْتَدِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَدِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (التوبة: ٩٤)، يقول البقاعي: (فهم يوسعون حيلهم في وجه يدفع عنهم قصورهم، لأخذ الإذن بما اعتذروا كاذبين، ويقعدوا عن الغزو)^(١).
- التستر بالأعمال المشروعة للإضرار بالمؤمنين: قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضُرَّاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} (التوبة: ١٠٧). فكثيرا ما نسمع من أمثالهم: دعوى الإيمان والتوحيد والإصلاح، والإرشاد، عندما يواجهون بحقائق نفاقهم، يحلفون أنهم يريدون من وراء ذلك العمل الخير، ومقصدهم فيه الحسنى، فكانت الآية السابقة لهذه الآية، اطلاع الله تعالى على أعمال المؤمنين، والفيصل فيها الله تعالى يوم القيامة، يقول البقاعي: (وقد بان بهذا كله أن سبب فضيحتهم ما تضمنه فعلهم من عظيم الضرر للإسلام وأهله)^(٢).
- القذارة والخسة والدناءة والحنق والكمد والهم والغم: مجموعة من الصفات الحقيرة التي لا تنفك عنهم، بسبب نفاقهم ورجسهم، فلا ينفعهم القرآن إذا تلاوه أو استمعوه، بل يزيدهم رجسا إلى رجسهم {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ}، (التوبة: ١٢٥). لقد ذكرت كلمة الرجس في القرآن الكريم ست مرات، ثلاث في صفة المنافقين من سورة براءة، وواحدة في يونس بمعنى العذاب، وأخرى في الحج بمعنى القذارة، والسادسة في سورة الأحزاب، بمعنى الإثم، كما وجمع ابن منظور في معنى الرجس الكلمات التالية: (القدر، ورجل مرجوس، نجس، العذاب، المأثم، الشك، شدة الصوت، والفعل الحرام، والفعل القبيح، والعقاب، والغضب، والكفر، والخمر، والأنصاب، والأزلام، وسوسة الشيطان، هدير البعير، التباس واختلاط ودوران، والعمل الذي يَقْبُحُ فعله، ويرتفع في القبح، ورجست السماء إذا رعدت، اسم لكل ما استقذر من عمل فبالغ الله تعالى في ذم هذه الأشياء، والاضطراب، والشيء الكريه)^(٣). وبالتالي نجد أن الله تعالى قد جمع في كلمة واحدة كل صفاتهم القبيحة، التي لا تليق إلا بهم ولتكون علامة مميزة لهم، وإشعارا بخطرهم المحقق الذي يمثله المنافقون في المجتمع المسلم.

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٧٤ باختصار وتصرف.

(٢) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٨٦ منقول.

(٣) لسان اللسان لابن منظور: ج/١، ص/٢٤٩ مادة رجس.

المبحث الثاني

خطورة المنافقين داخل المجتمع المسلم

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: علاقة المنافقين بأهل الكتاب والمشركين.

المطلب الثاني: صور من فضائح المنافقين وإرجافهم في خذلان المسلمين.

المطلب الثالث: الحلف عند المنافقين.

المطلب الرابع: قصة ثعلبة وحيثياتها.

المطلب الخامس: الأعراب في السورة.

المطلب السادس: الأثر التربوي على المؤمنين من خلال مواقف المنافقين.

المطلب الأول: علاقة المنافقين بأهل الكتاب والمشركين:

المنافقون هم الشر النائم، والخطر الدايم، والعدو الدائم، وصدق الله فيهم: {..هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} (المنافقون:٤)، هذه العداوة الباقية ما بقي لهم بأعداء الأمة اتصال، ولنفاقهم وصال، (ولا شك أن ضرر المنافقين أشد من ضرر الكفار؛ لدخولهم بين المسلمين، يتعلمون أسرارهم، ويُشيعُونَهَا لأعدائهم كاليهود، وغيرهم)^(١).

فالمنافقون لا يستقيم لهم حال، ولا يهدأ لهم بال، ولا يطمئن لهم قرار، بسبب اضطراب نفوسهم وكثرة ترددهم، وريبهم المتواصل بالمؤمنين، وبالتالي فإنهم يسعون للاستتار بعدو؛ استقواءً به على المسلمين، أي كان هذا العدو، المهم أن يكون العدو أقرب، والخطر المباشر، والأشد على المسلمين، هذه سنتهم في كل زمان ومكان، وبما أن اليهود وعلى مدار التاريخ كانوا الخطر المباشر على المسلمين بعد الوثنية، والتي تمثلت في قريش، فباتوا الخطر المحقق بالمؤمنين، من خلال مؤامراتهم وكثرة دسائسهم المتواصلة، ونقضهم للعهود، ونكثهم للأيمان، وعدوانهم المتواصل على المسلمين، وبما أن المنافقين تلك صفاتهم، فقد اجتمعت صفاتهم في قلوبهم قبل أبدانهم للتأمر.

يقول سيد قطب: إن طبيعة العلاقة بين منهج الله ومناهج الجاهلية قائمة على المواجهة بمختلف مسمياتها بحركة مكافئة... لتكون العلاقة معهم من خلال المعطيات التالية: "شرك، كفر، نفاق" ثم ينطلق من هذه الوقائع حكماً نهائياً، لتحديد هذه العلاقة^(٢). وبما أن المنافقين ضمن دائرة هذه المعطيات الخفية، فعلاقتهم مع أهل الكتاب قائمة على الأمور التالية:

أولاً: الكفر بالله: لقد بينت سورة التوبة نوعية العلاقة الخفية بين المنافقين وأهل الكتاب، من خلال تشابه في صفاتهم الكثيرة، قال الله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} (التوبة:٢٩)، لهذه الأسباب؛ أوجب الله قتال أهل الكتاب، لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق، ويضاهئون^(٣) قول الذين كفروا من قبل، فما الذي يجمع المنافقين بأهل الكتاب. إن هذه الصفات الأربع تمثلها المنافقون واقعا ملموسا، قال تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} (التوبة:٤٥). فالمنافقون لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، لا يدينون دين الحق بولائهم غير المشروع مع أهل الكتاب، والعلاقات الحميمة، والاستتصار بهم على المسلمين، قال الله فيهم:

(١) أحسن القصص لعلى فكري: ج/٢، ص/٢٤٧، مكتبة عيسى البابي الحلبي وأولاده/ القاهرة، لا يوجد رقم للطبعة، إيداع/ ١٩٧٠ م.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/ ١٦٢٠-١٦٢١ بتصرف.

(٣) المضاهاة: المشكلة: لسان اللسان لابن منظور: ج/٢، ص/٧٤، يضاهئون: يقولون مثل قولهم:ك/العين للفراهيدي: ج/٣، ص/٢٩.

{الْمَ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ} (التوبة: ٦٣)، يقول الرازي في معنى المحاددة: (المجانبة والمعاداة والمخالفة، واشتقاقه من الحد، ومعنى {يُحَادِدِ اللَّهَ} أي يصير في حد غير حد أولياء الله بالمخالفة، ثم للمفسرين ههنا عبارات: يخالف الله، يحارب الله، يعاند الله، يعاد الله^(١))، فعلاقتهم قائمة على أسس هذه المحاددة، يقول فضيلة الشيخ أحمد شاكر^(٢) رحمه الله تعالى: (أما التعاون مع الإنجليز، فهو الردة الجامعة، والكفر الصَّراح، لا يقبل فيه اعتذار، ولا ينفع معه تأول)^(٣)، فكيف بعلاقات العرب اليوم مع الأمريكان ودولة الغاصبين في فلسطين؟

ثانيا: الكيد للإسلام والحقد على أهله في محاولاتهم لإطفاء نور الله تعالى: إن محاولات أهل الكتاب القضاء على المسلمين والكيد لهم لم ولن يتوقف، فأهل الكتاب هذا دينهم ومسعاهم ومبتغاهم، قال تعالى: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} (التوبة: ٣٢)، وقال الله تعالى في المنافقين: {قَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ} (التوبة: ٤٨)، وقال: {وَمِنْهُمْ مَّن يَمُزَّكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِن أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِن لَّمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسَخَطُونَ} (التوبة: ٥٨)، {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ} (التوبة: ٦٥)، فما أكثر المستهزئين بالمسلمين ودينهم من المنافقين، وما أكثر لمزهم وغمزهم، وما أكثر تأليبهم، وكم قلبوا الأمور للمسلمين، وترصدوهم، وكم تمنوا وانتظروا أعداء الله لغزو ديار المسلمين، كل ذلك من خلال علاقاتهم الحميمة القائمة بينهم.

ثالثا: الصد عن دين الله وأكل أموال الناس بالباطل: قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} (التوبة: ٣٤)، هذه أهم أعمال أهل الكتاب وأئمة كفرهم، في صدهم عن دين الله، بعدوانهم المتواصل على المسلمين، يشترك معهم المنافقون بأبشع أنواع الصد، بمؤامراتهم الدنيئة، لو أد الإسلام باحتلال دياره، مع أن محاولات إطفائهم لنور الله، ليست مرتبطة فقط باحتلال الديار، بل يمكن أن يكون لهم نفوذ من خارج دار الإسلام، للقضاء عليه وتدميره، بإحاطة مؤامرات القتل والتعذيب بأبشع وسائلها، مستعينين ببعضهم البعض، كما حدث في كثير من البلاد التي قطعت أوصالها، وفرض عليها أسوأ وأشد أنواع الحصار في التاريخ، يعاونهم المنافقون، بكل أنواع الحقد والكراهية، في ابتزاز الأموال وأكلها بالباطل، وحرمان الكثير من أموالهم، انتقاما منهم لثباتهم

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١١٩-١٢٠ باختصار

(٢) أحمد شاكر من كبار علماء الحديث في العصر الحديث، ونبغ في التفسير والفقاه، ولد ١٨٩٢م وتوفي ١٩٥٨م. انظر: ك/التربية الإسلامية/١٢، لمجموعة من المؤلفين: ص/١٠٩

(٣) التربية الإسلامية للصف الثاني عشر د. مروان قديمي وآخرون: ص/١٠٩، إصدار: وزارة التربية والتعليم/رام الله، ط/١/٢٠٠٦م.

على دينهم وعدم تنازلهم عن حقوقهم؛ من أجل تتبع خطى أهل الكتاب شيرا بشير وذراعا بذراع، كما أخبر النبي ﷺ، وبيت المقدس وأكفاه خير شاهد على ذلك.

المطلب الثاني: صور من فضائح المنافقين وإرجافهم في خذلان المسلمين:

لقد رسم القرآن بمجموعة من الآيات شخصية المنافق، المشتتة على مجموعة من الصور المقيتة والخطرة، (فجوانب شخصيتهم المرتبطة إما بأسباب النزول، أو من خلال حوادث واقعية تمثل في مجملها نمطا من أنماط حياتهم وسلوكهم لترسم حركة المجتمع)^(١)، ليدرك المؤمنون خطرهم الحقيقي، وفنهم في المرواغة والالتفاف، ولعبة التلون، التي يجيدونها، لتظهر حقيقة المنافقين ومقاصدهم الخبيثة، وعداوتهم الخفية والبيئة للمؤمنين، وليأخذ المؤمنون حذرهم منهم، ومن هذه الصور:

الصورة الأولى: كثرة الحلف والتعلل الكاذب: {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْغُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ} (التوبة: ٤٢-٤٣)،

أظهر الله حقيقتهم في سعيهم لمصالحهم دون شوكة، فتعللوا بطول الشقة وبُعد المسير ليتخلفوا، واستعدوا بالحلف الكاذب ليسلموا، يقول سيد قطب: (كثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق فيتخلفون عن الركب من أجل عرض تافه أو مطلب رخيص، يصاحبهم كذب الضعيف، ولو بدا في صورة الجبارين، ويخيل إليهم أن كذبهم سينجيهم، والله يكشفه للناس، فيهلكهم في الدنيا بكذبهم، وفي الآخرة عذاب أليم؛ يوم لا ينفع النكران ولا الحلفان)^(٢).

{عَفَا اللَّهُ عَنْكَ} بدأ الله هذه الآية بالعفو على سيد البرية ﷺ ليرسم صورة من الرحمة، ويضفي جوا من الألفة والطمأنينة على قلب نبيه ﷺ، حيث **{عَفَا}** في معرض المعاتبة الهينة اللينة، ورأفة به ﷺ. وأحسن من قال: إن من لطف الله تعالى بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب، ولو قال له ابتداءً: **{لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ}** لتقطر قلبه ﷺ^(٣)، كما أن الآية تعطينا إحساسا بتحري الخطر ومكامنه وأخذ الحذر، فلا بد من تتبع أمر المرجفين، (حتى لا يتدارى المتخلفون خلف إذن الرسول ﷺ، بالقعود قبل أن ينكشف أمر الصادق من الكاذب، فتتكشف حقيقتهم ويسقط عنهم "النفاق" ويظهرون على طبيعتهم، ولا يتوارون خلف رسول الله)^(٤)، أو من يمثله ومن ينوب عنه.

(١) الشخصيات القرآنية د. نزيه محمد اعلاوي: ص ٢٦٣، دار صفاء للنشر والتوزيع - عمان، ط/١/٢٠٠٦ م.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٦٢ بتصرف.

(٣) إعراب القرآن الكريم لمحيي الدين درويش: ج/٣، ص/٢٢٠.

(٤) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٦٢.

الصورة الثانية: أهل الريب والتردد: لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ* إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} (التوبة: ٤٣-٤٤).

وضع القرآن قواعد أسس إدارة العلاقات البشرية، وبيان طبقات الناس وغير ذلك، ففي هذه الآية ترسخ لدى المؤمن، قاعدة حب الجهاد سابقا، **{انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا}**، بعد أن علموا خطورة المتعاصيين بقوله: **{إِنَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ}**، لذا فهم لا يستأذنون في أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، ولا يليق بمؤمن أن يستأذن، يقول سيد قطب: (فالذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، لا ينتظرون أن يؤذن لهم، ولا يتكأون في تلبية داعي النفرة.. بل يسارعون خففاً وثقالاً، طاعة لأمره.. وابتغاء مرضاته..)^(١)، هذه هي الفئة التي فضحت نفسها بالأعداء الواهية، فضحت سوءتها، ببيان خبيثة قلوبها المريضة والمرتابة والمترددة.

الصورة الثالثة: حب نشر الفتن: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتَهُمْ فَتَبَطَّهْمُ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ* لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَافَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ* لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ* وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} (التوبة: ٤٦-٤٩).

لقد امتلكوا وسائل الخروج، فاعتذروا كراهية في الجهاد، فعاقبهم بعقاب يرغبونه، فجعلهم من القاعدين، يقول سيد قطب: (تخلفوا مع الذين لا يستطيعون الغزو، فهذا مكانكم اللائق بالهمم الساقطة، والقلوب المرتابة، والنفوس الخاوية من اليقين)^(٢). فخرجهم بكذبهم وإرجافهم في الصف المجاهد، وفتنتهم فيه، إنما لبث الخور والضعف والتخذيل والتفريق بين المؤمنين، لذا كره خروجهم، مراعاة لأوليائهم، يقول سيد قطب: (ولكن الله يرضى دعوته ويكلاً رجالها المخلصين، كفى المؤمنين فتنة، فترك المنافقين المتخاذلين قاعدين: **{وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}**.. والظالمون هنا معناهم "المشركون" فقد ضمهم كذلك إلى زمرة المشركين!^(٣)).

لقد فضح الله مكرهم الخفي، ومؤامراتهم المتواصلة، ودسائسهم الدنيئة، وكشف خبث بواطنهم، وسعيهم بالفتنة ليس وليد خوفهم من شوكة في غزوة تيوك، بل من أول قدوم المسلمين المدينة، (وظهرت أول خيانة خسيصة قاموا بها، في غزوة أحد حيث تمرد ثلث الجيش ورجعوا، قال تعالى: **{لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ}** (ال عمران: ١٦٧)^(٤)، وقبل ذلك، يقول

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٦٢ باقتباس.

(٢) المصدر السابق، ص/١٦٦٣.

(٣) المصدر السابق، ص/١٦٦٣.

(٤) القصص القرآني للأستاذ الدكتور أحمد الكبيسي: ص ٢٨٠ باختصار. دار الكتاب الجامعي- العين الإمارات، ط/١/٢٠٠٣م.

الرازي: (أي قبل وقعة تبوك.. أن اثني عشر رجلا من المنافقين وقفوا على ثنية الوداع ليلة العقبة ليفتكوا بالنبي ﷺ)^(١)، فقد كان سعيهم الحثيث في افتعال الدسائس والمؤامرات والكيد بشتى الحيل وما زالوا، وكيف تخرج أفواههم سموم قلوبهم وما تخفي صدورهم أكبر من حقد وحسد وكراهية، عندما يجيء الحق ويعلو أمر الله، ولنا في أيامنا الحاضرة صورا من صور كراهيتهم. فأيا كان سبب نزول الآيات، (فإنها ترسم صورة مشهد مرعب لهؤلاء المنافقين وهم يسقطون في فتنهم، وقد سدَّت جميع المنافذ عليهم، وجهنم محيطة بهم، جزاء كذبهم وتخلفهم ومعاديرهم المفضوحة، مخافة الفتنة التي سقطوا فيها وهم كافرون)^(٢).

الصورة الرابعة: حب الشر للمؤمنين: {إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ. قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ. قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُونَ} (التوبة: ٥٠-٥٢).

أمران في غاية البيان في وصف المنافقين، وطبيعة نفوسهم المريضة، فالأمر الأول أن أي حسنة تصيب المسلمين تسوؤهم، والأمر الثاني أن أي مصيبة تقع بالمسلمين تفرحهم، وأنهم قد احتاطوا بالذكاء والحكمة كما يزعمون، سلامة لأنفسهم، باعتقادهم أنهم على خير، ولأنهم يعدون البلاء نقمة، بحسب ما يرونها أمامهم، يعيرون على المسلمين جهادهم وصبرهم وقت المحن، يقول سيد قطب: (ذلك أنهم يأخذون بظواهر الأمور، ويحسبون البلاء شراً في كل حال، ويظنون أنهم يحققون لأنفسهم الخير بالتخلف والقعود)^(٣). فحقيقة الإيمان تتطلب من المؤمنين؛ الاستسلام الكامل لقضاء الله وقدره، في أي مصيبة تصيبهم، وأن الخير كل الخير، يكمن في تلك المصيبة إن أحسنوا الصبر، وأحسنوا التوكل على الله تعالى، في أي وجه من وجوهه الأربعة: طلب الأسباب في جلب منفعة، والتعرض للأسباب بالادخار، ومباشرة الأسباب الدافعة للضرر، وأخيرا السعي في إزالة المرض^(٤).

إن المنافقين يتربصون بالمؤمنين تربص الغدر والخيانة والإغواء والفتنة والضلال، تربصهم ردُّهم عن دين الله، أو يلجئونهم للتنازل عن مبادئهم وثوابتهم، إخفاء لمعالم دينهم، إن تربصهم بالمؤمنين تربص المنتظر هزيمة ساحقة أو مصيبة ماحقة، فحقدهم أعمى أبصارهم؛ ومكرهم أدمى قلوبهم، وما علموا أن تربصهم يستجلب الخير للمؤمنين، يقول ابن قيم الجوزية:

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٨٣.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٦٤ بتصرف.

(٣) المصدر السابق: ص/١٦٦٤..

(٤) مختصر منهاج القاصدين لأحمد بن قدامة المقدسي: ص/٤١٦، تحقيق عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية/ القاهرة، ط/١٩٩٧.

(إن أصاب أهل الكتاب والسنة عافية ونصر وظهور ساءهم ذلك وغمهم، وإن أصابهم ابتلاء من الله وامتحان يحص به ذنوبهم، ويكفر عنهم سيئاتهم أفرحهم ذلك وسرهم. وهذا يحقق إرثهم وإرث من عداهم، ولا يستوي من موزوثة الرسول ﷺ ومن موزوثة المنافقون^(١)).

أما تربص المؤمنين بأعداء الله تعالى، هو النصر عليهم في الدنيا بأيدي المؤمنين بفضل الله تعالى، وإما عذاب الله بهم الآخرة، يقول الرازي: (اختلفوا في تفسير قوله: {بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا} قيل: من عند الله أي بعذاب ينزله الله عليهم في الدنيا، أو بأيدينا بأن يأذن لنا في قتلهم. وقيل: بعذاب من عند الله، يتناول عذاب الدنيا والآخرة، أو بأيدينا بالقتل)^(٢).

الصورة الخامسة: عدم قبول نفقاتهم: {قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِكْمَ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ} وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ} فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} (التوبة: ٥٢-٥٥).

إنها محاولة التزلف والتقرب إلى المسلمين هي محاولة مكشوفة؛ لذا فضح الله صورتهم وكشف مدخول نفوسهم، وإن تخفوا في صفوف المسلمين، وإن تظاهروا بالإنفاق طائعين، والله يعلمهم، ويحفر على أساساتهم لبيان حقيقة نفوسهم المريضة، وليعلموا أن إنفاقهم طائعين أمام الناس، أو كارهين بعلم الله لقلوبهم، لن يتقبل الله منهم، بسبب فسقهم وكفرهم بالله ورسوله، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، وأن لا ينفقون إلا وهم كارهون في جميع الأحوال، ففضحهم الله تعالى بذلك، لذا حذر المسلمين عموماً ونهاهم عن النظر في أموالهم وأولادهم، فهي سبب هلاكهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة، يقول سيد قطب: (ولقد كان أولئك المنافقون يديسون أنفسهم في الصف، لا عن إيمان واعتقاد، ولكن عن خوف وتقية، وعن طمع ورهب. ثم يحلفون أنهم من المسلمين، أسلموا اقتناعاً، وآمنوا اعتقاداً)^(٣). (فما أكثرهم! وهم الأقلون. وما أجبرهم! وهم الأذلون. وما أجهلهم! وهم المتعالون. وما أغرهم! إذ هم بعظمتهم جاهلون {وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ} (التوبة: ٥٦)^(٤)).

(إنهم يمتازون باتخاذ أيمانهم الكاذبة درعا لهم يتقون بها غضب المؤمنين، فكان التلون والتذبذب شعاراً لهم ودياراً، وأنهم بأيمانهم أصبحوا مع المسلمين ومنهم.. فلا تغتروا يا معشر المؤمنين بأيمانهم الكاذبة)^(٥)، وما أكثر صورهم اليوم، وادعاءاتهم الباطلة التي يرسموها لأنفسهم، وهي منهم براء.

(١) مناهج السالكين لابن قيم الجوزية: ج/١، ص/٣٨٥، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/١٩٨٨م. هكذا وردت وأحسبها: أهل القرآن

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٨٧.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٦٦ اقتباس وتصرف.

(٤) مناهج السالكين لابن قيم الجوزية: ج/١، ص/٣٨٤-٣٨٥.

(٥) قيس من نور القرآن للصابوني: ج/٣، ص/٤٦-٤٧ باختصار.

الصورة السادسة: الحين، وحب الطعن بالمؤمنين: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا^(١) لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ* وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزَكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِن أُعْطُوا مِنْهَا رِضًا وَإِن لَّمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (التوبة: ٥٧-٥٨).

إنها الصورة الغربية لجبنهم وتخوفهم من القتل، الصورة المضطربة في نفوسهم لكثرة ترددهم وربيبهم، بفكرهم المشغول في الهروب والنجاة إلى أي مكان، وبأية وسيلة من وسائلهم ولا يجدونها، إنها النفس التي تصورها السورة وهي منشغلة في مصالحها، صورة الطعن في المسلمين، من خلال لمزهم وغمزهم وهمزهم، إضافة إلى تخذيلهم وإرجافهم، إنها صورتهم التي لن تتغير، حتى وإن حاول بعض الناس مدهانتهم؛ لأن طبيعتهم تفضحهم ولا تتفك عنهم، يقول الصابوني: (تذكر السورة اتهامهم الشنيع للرسول ﷺ بعدم العدل في قسمة الغنائم والطعن في الرسول طعن في الدين لذا شدد الله فيه النكير.. فإن أعطيتهم استحسنا ففعلك، وإن لم تعطهم سخطوا وعابوا، كما حدث مع ذي الخويصرة^(٢))، لذا فإن الرضا بحكم الله ورسوله؛ من أصل الإيمان، والويل كل الويل لمن لا يرضى بحكم الله ورسوله، أو يتخذها مطية لغرض من أغراض الدنيا، والأهواء والمصالح الشخصية.

الصورة السابعة: البخل حب الاستهزاء بالمؤمنين: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ قُلٌ أذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوْا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ* وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ* لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعَفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ* الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ* وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (التوبة: ٦٣-٦٨).

صورة متعددة الأبعاد، لارتباط الكل في الجزء، والجزء لا ينفك عن الكل، إنه حب الذات المتمثل بالاستهزاء والأذى، والكبر المرتبط بحب الاستعلاء المرتبط بالخوف الدائم لقلوبهم المريضة، الذي لا يدل إلا عن غياب مستحکم في نفوسهم، رغم ادعائهم الكاذب: بالحكمة والذكاء، إنه الكفر الذي يتولد نتيجة كراهية الخير والنهي عنه، وحب الشر والفساد والأمر به، إنه البخل المستحکم في نفوسهم، إنها صورة الرجس المقبوح الذي وصف الله

(١) الملجأ: الحصون، المغارات: الكهوف في الجبال، المدخل: السرب تحت الأرض، نحو الآبار، والأقرب أن يحمل كل واحد منها على غير ما يحمل الآخر عليه، مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٩٦ باختصار وتصرف.
(٢) قيس من القرآن للصابوني: ج/٣، ص/٤٧-٤٨ باختصار.

تعالى هذا النسيج الغريب في المجتمع المسلم، (والصنف الدخيل الذين يثير الفتن ويفرق الصفوف ويثبط العزائم، إنهم المرجفون في المدينة، الطابور الخامس في كل مدينة، المتواجدون في كل زمان لتأجيج نار العداوة بين المسلمين)^(١)، بأراجيفهم التي لا تتفك عن أذية العباد، كيف لا؟ وهم الذين آذوا رسول الله ﷺ بالاستهزاء، وما زالوا على نفس النهج بما تمّ وصفهم به، يقول الرازي: (واعلم أنهم كانوا يسمون سورة براءة، الحافرة، حفرت عن قلوب المنافقين)^(٢)، لقد تجاوزا حدود الأدب بحذرهم بعد استهزائهم برسول الله ﷺ أن ينزل الله قرآنا يتلى فيهم، يقول الرازي: (حذر المنافق كان على وجه الاستهزاء، لأنهم يُكذِّبُونَ بالوحي، ولأن الله أطلع رسوله ﷺ على مكنون صدورهم، والرسول ﷺ يذكر كل شيء عنهم، فوقع حذر الخوف في قلوبهم، بسبب شكهم، وحسدهم، وشديد عنادهم، رغم علمهم بصدقه ﷺ، لذا فالأجدر بهم أن يحذروا، ليكون معنى الحذر التهديد)^(٣)، ومع ذلك، ورغم كل الشواهد التي تبين صدق نبوته ﷺ، وكذب ادعاءاتهم وافتراءاتهم، يستهزئون، فكان استهزائهم الكفر البواح الذي لا يحتاج إلى اعتذار، {لَا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} (التوبة: ٦٥)، ويتعدون ذلك بالإيذاء بشتى أنواعه وصنوفه، ليتجاوزوه إلى القتل والإهانات والعذابات والتغييب، كما كان يفعل بنو إسرائيل بأنبيائهم، وما يفعل المنافقون وما زالوا في كثير من بلاد المسلمين، وخصوصا قتل العلماء، أو تعذيبهم، أو تغييبهم في سجون من يُعرفون ومن لا يُعرفون، وما علموا أن رسول الله ﷺ ومن حمل هديته وسنته؛ كانوا سبباً في هداية الكثير منهم، بدعوتهم لدين الله تعالى، فإن استجابوا كانوا رحمة من الله عليهم، وإلا فقد أعذروهم، يقول سيد قطب: (وعندما يصل السياق إلى هذا الحد في استعراض تلك النماذج من أقوال المنافقين وأعمالهم وتصوراتهم، يعمد إلى تقرير حقيقة المنافقين بصفة عامة، وعرض الصفات الرئيسية التي تميزهم.. فهم من طينة وطبيعة واحدة.. منبعها سوء الطوية ولؤم السريرة، والغمز واللمز والنذالة والذس، والجبن، يعظمون تلك الفعال الخسيسة وأهلها، ويحتقرون المعروف وأهله)^(٤)، إنها صورتهم الوضيعة في أماكن جبروتهم، ويخفونها أمام تعاضم قوة المسلمين وسيادتهم.

الصورة الثامنة: أهل جحود ونكران: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} (التوبة: ٧٤).

(١) قيس من نور القرآن للصابوني: ج/٣، ص/٤٩ بتصرف.

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٢٠.

(٣) المصدر السابق: ص/١٢١، باختصار وتصرف.

(٤) في ظلال القرآن لسيد قطب: ص/١٦٧٣، باختصار.

إنها صورتهم الكفرية المتعددة، في ثيابهم المتلونة، بطول ألسنتهم، وقلة أدبهم، وفَضْحُهُمْ بما أرادوا ولم ينالوا من انتقامهم بشيء، إنها صورتهم السوداء، وحقدهم الأعمى، الذي بين الله تعالى بعض فصولها؛ أتريدون الانتقام ممن كان سببا في غناكم وثرائكم، ومع ذلك ما أعظم فضل الله تعالى، يترك باب التوبة مفتوحا أمام من أراد الانتقام من رسول الهدى ﷺ، يترك باب التوبة لهؤلاء الحاقدين الحاسدين، يعطيهم الفرصة تلو الأخرى، حتى الرمق الأخير، فإن تابوا فهو خيرٌ لهم وإن تولوا فليس لهم في الآخرة إلا أليم العذاب، وشديد العقاب، وهوان الذلة والصغار، يقول سيد قطب: (سيظل باب التوبة مفتوحا على مصراعيه، فمن شاء نفسه الخير فليدلف، ومن أراد عكسه، فالعذاب الأليم في الآخرة، وانعدام الناصر والمعين في الدنيا، ولمن شاء أن يختار، وهو وحده الملوم)^(١).

الصورة التاسعة: السخرية بالمؤمنين: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (التوبة: ٧٩-٨٠).

إنها الطبيعة المتأصلة فيهم، الكبر والاحتقار والاستهزاء، إنه الحقد المدفون لكل خير، والمكنون في صدورهم، يظهره متى لاحت الفرصة المناسبة وغير المناسبة للطعن في المسلمين، من خلال اتهام المكثرين بالرياء، واحتقار جهد المقلين، إنه الطعن المتواصل في المؤمنين، وسخريتهم التي قابلها الله بسخرية تليق بعظمته وكبريائه، وبما يستحقون، يقول سيد قطب: (ويالهلولا من سخرية وعاقبة، فمن شرذمة صغيرة هزيلة مريضة النفس، وسخرية الخالق الجبار تنصب عليهم وعذابه يترقبهم)^(٢)، إنه شأنهم وعادتهم، (ومن نقائص هؤلاء المنافقين مع بخلهم أنهم يعييون على الموسرين من المؤمنين تصدقهم على المحتاجين، ويسخرون بغير الموسرين من المؤمنين لتصدقهم مع قلة أموالهم وقد جازاهم الله على سخريتهم بما كشف من فضائهم، وجعلهم سخرية للناس أجمعين ولهم في الآخرة عذاب شديد)^(٣)، ولسوء فعالهم وتوضيحا لصورتهم الخبيثة، نهى الله عن الاستغفار لهم، وسواء كثر استغفار الرسول ﷺ لهم، أو لم يستغفر، فلن يغفر الله لهم؛ لسوء طويتهم، وخبث سريرتهم وسوء أعمالهم وطغيانهم وجبروتهم، وتمردهم على شرعه ودينه، لذلك لا أمل لهم في توبة الله، فمن ساء عمله وخبثت سريرته ونيتته، ختم على قلبه، فلا تنفعه شفاعة الشافعين، ولا دعاء المقربين ولو كان سيد المرسلين، وبالتالي لا يليق من مأواه جهنم أن يُسْتَغْفَرَ له.

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ص/١٦٧٨ باختصار.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٨١ باختصار وتصرف.

(٣) المنتخب في تفسير القرآن الكريم: ص/٢٧٣.

الصورة العاشرة: حب المال وإيثاره على كل شيء: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ* فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ* فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ* وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ* وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ* وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطُّولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ* رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} (التوبة: ٨١-٨٧).

إنها الفضائح المتتالية، بتخلفهم فرحا لمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ ، ولم يكتف بذلك فحسب، بل كشف مستور قلوبهم ومكنون صدورهم بكراهيتهم للجهاد، وسعيهم المتواصل بالتخذيل والإرجاف للوقعة بين المسلمين، ومن ثم يبين حقيقة ينكرونها في أنفسهم، ألا وهي الجهل وعدم إدراكهم لحقائق الحياة وسننها، فقدموا الأموال والأولاد والنفس على الله ورسوله، وقدموا الدنيا على الآخرة، إنه الفرح المقطوع لديهم ببهجة الدنيا وزخرفها وغرورها، لذا وصفهم الله تعالى في أول المقطع: {لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} وفي آخر المقطع: {فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}. فإصرارهم على الجهالة والاستهزاء والصلف والغرور، يقابل بتحذيرهم وتهديدهم؛ بأن ضحكهم واستهزاءهم ما هو إلا قليل، أمام العذاب الشديد، الذي ينتظرهم، جزاء ما كسبوا في الدنيا، من معاداة الله ورسوله، وضحك واستهزاء بالمؤمنين، وتخلف وعود عن الجهاد، عندها ستكون الحسرة والندامة علامتهم التي لن تجدي نفعاً، يقول الطبري: (فرح هؤلاء المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، في هذه الدنيا الفانية ولهوهم عن طاعة ربهم، سيبكون طويلاً في جهنم مكان ضحكهم القليل في الدنيا، جزاءً على معصيتهم، وتركهم النفر إذ استنفروا إلى عدوهم وعودهم في منازلهم خلاف رسول الله ﷺ، وبما كانوا يجترحون من الذنوب)^(١).

لقد، (فقدتم حركم في شرف الخروج، وشرف الانتظام في الكتيبة، والجهاد عبء لا ينهض به إلا من هم له أهل، فلا سماحة في هذا ولا مجاملة)^(٢)، فلا يعقل أن يجد المجاهدون القتل والجراح والظماً والنصب والمخمصة، وأنتم في دعة ورغد من العيش، فليس لكم أيها المستهزئون إلا الإهانة والطرده، لتكون الإهانة أشد بنهي الاستغفار لكم، فمن لم يشارك المؤمنين جهدهم وجراحهم، ليس له مكان في مشاركتهم أفراحهم ونصرهم.

(١) جامع البيان للطبري: ج/١٠، ص/١٣٩.
(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٨٢.

لقد قطعتم بضحككم واستهزائكم، وتخلفكم عن الجهاد، ونفاقكم، كل أوامر العلاقة مع المسلمين، فلا يمكن أن يكون لشخصكم المتقلبة أية قيمة، ولن يكون لكثرة أموالكم وأولادكم التي غرَّتكم سبب للصلاة عليكم، ولن يعمل لكم ولا إلى من خلفكم أي اعتبار لدى المؤمنين، وخاصة أنكم خذلتهم بها المؤمنين وجهادهم، فأموالكم وأولادكم نتاج أعمالكم الخبيثة، وتبع لرجسكم، فلا يمكن النظر فيها مهما عظمت، حتى وإن صرفتموها، فإنكم صرفتموها بهرجة ووجاهة، أو أفقتموها رياءً وسمعة، يقول الطبري: (ولا تعجبك يا محمد أموال هؤلاء المنافقين وأولادهم فتصلي على أحدهم إذا مات وتقوم على قبره من أجل كثرة ماله وولده، فإنني إنما أعطيته ما أعطيته من ذلك لأعذبه بها في الدنيا بالغموم والهموم، بما ألزمه فيها من المؤن والنفقات والزكوات وبما ينوبه فيها من الرزايا والمصيبات)^(١).

لقد فضح الله استئذانهم بعودهم مع العجزة والضعفاء، وهم الذين يملكون أسباب الجهاد، يقول سيد قطب: (فإذا أنزلت سورة تأمر بالجهاد، جاء الذين يملكون وسائل الجهاد والبذل، لا ليتقدموا الصفوف كما تقتضي الضرورة والمقدرة؛ ولكن ليتخاذلوا ويكونوا مع النساء.. دون أن يستشعروا ذلة القعود وهوان السلامة التي يطلبون من خلالها الدنية)^(٢)، فلو كانوا يعقلون ما آثروا ذل الدنيا، وعذاب الآخرة، على ما أعد الله للمؤمنين في الآخرة.

الصورة الحادية عشر: أهل الرجس والجهالة: وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ. أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ. وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ {التوبة: ١٢٤-١٢٧}،

الصورة الأخيرة من صور المنافقين، صورة الاستهزاء المبطن من كتاب الله وآياته، صورة الوجوه المقيتة المتشائمة والمشمئزة من كتاب الله وآياته، صورة القلوب المريضة والمضطربة التي صرقت وجوهها عن كتاب الله وسماع آياته، فصرفها الله عن الإيمان به وطاعته، إنها صورة الجهالة المتأصلة فيهم، يقول سيد قطب: (من خلال استحضار تغامزهم غمز المريب، وهم يتسللون تسلل الخائن الحذر، تلاحقهم عين الذي لا يغفل ولا ينام، وهم منصرفون من عند رسول ﷺ)^(٣). هذا السلوك الغريب يقابل بجميل عفو الله، بترك باب رحمته مفتوحا للجميع، مذكرا إياهم بالابتلاءات مرة أو مرتين في العام، علَّهم يتوبون، إلا إن المنافقين المستكبرون بجهلهم وجحود نفوسهم ونكرانها لآيات الله تعالى، تزيدهم رجسا إلى

(١) جامع البيان للطبري: ج/١٠، ص/١٤٢-١٤٣ باختصار

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ج/٣، ص/١٦٨٤. بتصرف.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٧٤٢ باختصار.

رجسهم، لقد تمَّ التعرض لمعنى الرجس في معرض استعراض صفات المنافقين، ولكي تتم وضوح صورتهم، قارنها الله تعالى بصورة المستبشرين بآياته، الذين خفت قلوبهم بحب الله ورسوله، فاستشعروا عظمة الله، فزادتهم إيماناً مع إيمانهم، فشتان بين الثرى والثريا.

المطلب الثالث: الحلف عند المنافقين:

يخفي المنافقون بكثير من سواثر نفاقهم شديد خطرهم، بكثرة الحلفان. **الحلف في القرآن:** لقد وردت مادة الحلف بمشتقاتها ثلاثة عشر مرة^(١) في كتاب الله تعالى، اثنا عشر مرة، سبعة منها في سورة التوبة، وثلاثة في المجادلة، وواحدة في النساء، وأمّا التي في سورة القلم، فإنها تخص المشركين، وللمنافقين منها نصيب كبير. **الحلف لغة:** الحَلْفُ: القسم^(٢)، والعهد بين القوم^(٣)، والأيمان على الأولياء في الدم^(٤). **الحلف الاشتقاقي:** هو اليمين وأطلق عليه الحلف لأنهم إذا تحالفوا أخذ كل يمين صاحبه، واليمين في الشرع توكيد المحلوف عليه بذكر اسم الله أو صفة من صفاته عز وجل^(٥).

العلاقة بين المعنى اللغوي والاشتقاقي: لقد نهى الشارع عن اليمين الكاذبة وجعلها من الكبائر التي تستوجب غضب الله وتدخل صاحبها النار إذا لم يتب منها قبل مماته^(٦). فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من كان حالفاً؛ فليحلف بالله، أو ليصمت)^(٧)، الآيات التالية ستكشف لنا طبيعة المنافقين وسلوكهم.

الآية الأولى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (التوبة: ٤٢)، نزلت هذه الآية الكريمة في فضح المنافقين الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك^(٨)، لبيان مخازيهم، باستعظام غزو الروم، واستعدادهم للأعداء بالحلف المهلك لنفوسهم.

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي: ص/٢١٥.

(٢) ك/العين للفراهيدي: ج/٢، ص/٣٤٧.

(٣) المختار الصحاح، ص/٦٣.

(٤) المختار الصحاح للرازي: ص/٢٢٣.

(٥) الفقه على المذاهب الأربعة، لعبد الرحمن الجزيري: الكبيرة التاسعة اليمين الغموس، ج/٥، ص/٤٤٥ بتصرف.

(٦) المصدر السابق: ج/٥، ص/٤٤٥ بتصرف.

(٧) صحيح البخاري: ك/الشهادات، ب/كيف يستحلف، ج/٢، ص/٥٣٣، ح/٢٦٧٩.

(٨) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٧٢. وتفسير الجلالين، ص/١٩٤.

الآية الثانية: {وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ} (التوبة: ٥٦)،

يفضح الله كذب إسلامهم عندما يبين سبب خوفهم من انكشاف حقيقة نفاقهم وكذب إيمانهم، وما حلفوا إلا طلباً للأمان المفقود لديهم، الذي يبحثون عنه لهم ولأولادهم وأموالهم، يقول سيد قطب: {وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ}، (بكل أدوات التوكيد) مداراة لأنفسهم، ولينتقوا انكشاف طويتهم^(١)، وما أشبه الليلة بالبارحة، إنهم يتوارثون أمراض القلوب وما فيها من ريب وتردد وقلق واضطراب وجبن وخوف وكذب، بل ويحلفون بالله وما زالوا أنهم مسلمون.

الآية الثالثة: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ ليرضوكم وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ} (التوبة: ٦٢)،

يستخدم المنافقون دوماً ضمان سلامتكم في الدنيا على حساب الآخرة، ولخوفهم من المؤمنين؛ يحلفون لهم ليرضوهم، ولو كانوا يؤمنون بالله وباليوم الآخر، لحق عليهم أن يرضوا الله تعالى، وليس أحداً غيره، يقول الرازي: (اعلم أن هذا نوع آخر من قبائح المنافقين، وهو إقدامهم على اليمين الكاذبة..، إنهم حلفوا على أنهم ما قالوا ما حكي عنهم، ليرضوا المؤمنين بيمينهم، وكان من الواجب أن يرضوا الله بالإخلاص والتوبة)^(٢).

الآية الرابعة: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولَاؤُا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} (التوبة: ٧٤).

كثيراً من المنافقين يفضح الله أمرهم بزلة لسانهم، التي تهتز لها الجبال، وكلمات كفر، لو غمست بماء البحر أفسدته، في هذه الآية يفضح الله تعالى بعض المنافقين بكلمة كفر نطقوها، وإذا بهم يحلفون أنهم ما قالوها، فتزداد فضيحتهم، ويزداد خزيهم وعارهم، يقول سيد قطب: (والنص في عمومته يستعرض حالة المنافقين في كثير من مواقفهم، ويشير إلى ما أرادوه مراراً من الشر للرسول ﷺ وللمسلمين^(٣)، وهذا ما هو حاصل في يومنا هذا، وما أكثر حلفانهم، ولو استعرضنا حلفانهم لضاق بنا المقام والمكان.

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٦٦.

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١١٩.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٧٧.

الآية الخامسة والسادسة: ﴿سِيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ*يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٩٥-٩٦).

في آيتين متتاليتين، يكشف الله تعالى خبث نواياهم وسوء طويتهم في إصرارهم واستعدادهم العجيب على استمرار طعنهم وغدرهم في المسلمين، فإن تمكنوا لا تأخذهم في المسلمين إلا ولا ذمة، وإن انقلب المسلمون بنصرهم، غمرهم الغيظ والكمد، واستعدوا مكرهين للأعداء والحلفان لضمان سلامتهم في الدنيا، دون اعتبار للأخرة، يقول سيد قطب: (إنهم يطلبون من المسلمين العفو والصفح عن قعودهم، ليتدرجوا إلى طلب الرضا منهم، ليضمنوا السلامة في المجتمع المسلم، وضمان تعاملهم بالإسلام، ليجنبوا أنفسهم الغلظة التي أمر الله معاملتهم بها، إن طلب رضا المسلمين بالحلف المغلظ لن يجدي شيئاً أمام غضب الله عليهم، ولن تنفعهم أعدارهم إلا الرجوع عن فسقهم، وبذلك يتم تقرير العلاقات النهائية بين المسلمين والمنافقين، كما قررها سابقاً مع المشركين وأهل الكتاب)^(١).

الآية السابعة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (التوبة: ١٠٧)،

قدم المنافقون الكثير من الأعداء والمسوغات لتخلفهم عن الجهاد في الآيات السابقة، وفي هذه الآية يحلفون وبالتأكيد على أن أعمالهم حسنة وخيرة، إلا أن الله يفضحهم، ويكشف سر أعمالهم الخبيثة، وخاصة علاقاتهم الخفية مع أهل الكتاب، الذين ارتبطوا بهم ارتباطاً وثيقاً، وأنهم لو كانوا صادقين فيما فعلوا من أعمال صالحة، ما حلفوا ولا غلظوا الأيمان؟ فقد فضح الله خبيثة قلوبهم، وبين على أي أساس بنوا بنيانهم، يقول الرازي: (أي ليحلفن ما أردنا ببناؤه إلا من أجل الرفق بالمسلمين في التوسعة على أهل الضعف والعدة والعجز، وأصحاب الحاجة... وأن الله أطلع الرسول ﷺ على أنهم حلفوا كاذبين)^(٢). يقول سيد قطب: (وتكشف عن نهاية كل محاولة خادعة تخفي وراءها نية خبيثة، وتطمئن العاملين المتطهرين من كل كيد يراد بهم، مهما لبس أصحابه مسوح الصالحين)^(٣).

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٩٦-١٦٩٧ باختصار.

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٩٤.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٧١١.

إنهم الذين لا يعلم سرهم إلا الله تعالى، (فمنذ أن تكونت هذه الفئة في المدينة، كانوا بمثابة الغدة السرطانية في جسد الأمة، حيث أعيت المسلمين بالأعياب الماكرة، وأتعبت الرسول ﷺ بتصرفاتها المشينة التي تلتزم السرية والتكتم^(١)).

لم يكتف المنافقون بالحلف لتسويغ أفعالهم الدنيئة؛ بل ويحلفون كذبا وهم يعلمون، قال تعالى: **{وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** (المجادلة: ٤)^(١)، ويوم القيامة يحلفون لله تعالى أنهم على خير، قال تعالى: **{فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ}** (المجادلة: ١٨)، يقول ابن كثير: (فلقدهم ماتوا على نفاقهم فهل سيبعثون على غير نفاقهم)^(٢).

المطلب الرابع: قصة ثعلبة وحيثياتها:

إن التخفي خلف دعاوي الخير والعمل الصالح، والأيمان الكاذبة، يجعل خطر المنافقين على المؤمنين شديداً، قال الله تعالى: **{وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لئن آتانا من فضله لنصدقنَّ ولنكوننَّ من الصالحين* فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون* فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون* ألم يعلموا أنَّ الله يعلم سرهم ونجواهم وأنَّ الله علام الغيوب}** (التوبة: ٧٥-٧٨)،

ذكر معظم أهل التفسير أن هذه الآيات نزلت في ثعلبة بن حاطب الأنصاري^(٣)، قال السيوطي: أخرج الطبراني وابن مردويه وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل بسند ضعيف عن أبي أمامة أن ثعلبة قال: يا رسول ادع الله أن يرزقني مالا، قال: (ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه) قال: والله لئن آتاني الله مالا لأؤتين كل ذي حق حقه، فدعا له فاتخذ غنماً فنمت حتى ضاقت عليه أزقة المدينة، ففتحى بها وكان يشهد الصلاة ثم يخرج عليها ثم نمت حتى تعذرت عليه مراعي المدينة ففتحى بها، فكان يشهد الجمعة ثم يخرج إليها ثم نمت ففتحى بها فترك الجمعة والجماعات، ثم أنزل الله **{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا..}** (التوبة: ١٠٣)، فاستعمل على الصدقات رجلين وكتب لهما كتابا، فأتيا ثعلبة فأقرأه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: انطلقا إلى الناس، فإذا فرغتم فمروا بي ففعلا، فقال: ما هذه إلا أخت الجزية فانطلقا. فأنزل الله: **{وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لئن آتانا من فضله.. إلى قوله يكذبون}** (التوبة: ٧٥).

(١) غزوة تبوك محمد أحمد باشميل: ص/١٩٢-١٩٣ باختصار وتصرف. دار الفكر/.....، ط/١٩٧٨م.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج/٤، ص/٣٤٦، بتصرف.

(٣) ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عوف بن مالك الأنصاري الأوسي صحابي جليل، أخى الرسول ﷺ بينه وبين معقب بن الحمراء شهد بدرًا وأصيب في أحد ومات متأثراً بجراحه في ٣هـ انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد: ج/٣، ص/٤٦٠، وأسد الغابة لابن الأثير: ج/١، ص/٥٩٠، والإصابة لابن حجر: ج/١، ص/١٩٨.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه (١). ورغم اشتهار هذه القصة عند المفسرين، فقد اختلف أهل التفسير والحديث اختلافا كبيرا، للأسباب التالية:

أولاً: أخذ الزكاة فريضةً على من ملك المال بشروطه من المسلمين، وليس لأحد الخيار في قبول أو رده، فكيف برسول الله صلى الله عليه وسلم، وخليفته أبو بكر رضي الله عنه الذي حارب المرتدين؟

ثانياً: أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري بدري كما ذكر القرطبي في تفسيره، فقال: قلت: وثعلبة بدري أنصاري وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان، مما يتنافى مع أفضلية البدرين (٢).

ثالثاً: الاختلاف فيمن نزلت كما ذكر ابن الجوزي أربعة أقوال في ذلك: أحدهما أنها في ثعلبة بن حاطب الأنصاري.. والثاني رجلاً من بني عمرو بن عوف.. والثالث ثعلبة، ومعتب بن قشير.. والرابع نبتل بن الحارث، وجد بن قيس، وثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير.. وأنه قال: هو شيء نووه في أنفسهم ولم ينكلموا به: **{أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ}** (التوبة: ٧٨) (٣). مما يجعل الرواية مضطربة.

رابعاً: مخالفة تلك القصة للتاريخ وتسلسل الأحداث، فقد فرضت الزكاة في السنة الثانية للهجرة (٤)، يقول محمد رشيد رضا: (وفي الحديث إشكالات تتعلق بسبب نزول الآيات وظاهر سياق القرآن أنه كان في سفر غزوة تبوك، وظاهره أنها نزلت عقب فرض الزكاة) (٥).

خامساً: الخبر مخالف لنصوص الشريعة، فكيف ترد توبته وزكاته، وقد ثبتت توبته الظاهرة ببكائه، يقول محمد رشيد رضا: (وبعدم قبول توبة ثعلبة وظاهر الحديث ولا سيما بكائه، أنها توبة صادقة، وكان العمل جارياً على معاملة المنافقين بظواهرهم.. وأن النبي صلى الله عليه وسلم وخليفته عاملاه بذلك لا بظاهر الشريعة، وهذا لا نظير له في الإسلام) (٦).

سادساً: سند الخبر منكر، فالسيوطي ذكر في نقله للرواية أنها ضعيفة، كما ذكر الألباني أن سند الرواية ضعيف جداً (٧)، وسبقه الكثير ممن ضعف الرواية، من أهل الحديث (٨).

سابعاً: لقد اختلف في وفاة ثعلبة رضي الله عنه على ثلاثة أقوال: الأول: وفاته في حياة عثمان، وهذا القول مردود من حيث السند، لأنه والقصة أتى بإسناد واه. والثاني: استشهاده في غزوة

(١) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي: ص/١٤٦. والواحد: ص/٢٠٨-٢١٠، جامع البيان للطبري: ج/١٠، ص/١٣٠، ج/٥، ص/٢٨٩، (انظر: أسباب النزول المسمى المصنف الحديث لعبد الله إسماعيل عمار: ص/٢٠٠-٢٠٢، آفاق/غزة-فلسطين. وانظر الطبقات الكبرى لابن سعد، ج/٣، ص/٤٦٠، وانظر: أسد الغابة لابن الأثير، ج/١، ص/٥٩٠، وانظر: الإصابة لابن حجر، ج/١، ص/١٩٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/٥٥، ص/١٩٩، وانظر: ثعلبة بن حاطب الصحابي المقترى، عذاب محمود الحمش: ص/١١٥،

(٣) زاد المسير لابن الجوزي: ص/٥٩٦. وانظر ثعلبة بن حاطب الصحابي المقترى عليه لعذاب الحمش: ص/١١٧.

(٤) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة لعبد الرحمن بن محمد الجزيري: ج/١، ص/٥٧١، مكتبة الإيمان المنصورة، ط/١٩٩٩م.

(٥) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/١٠، ص/٥٦١.

(٦) المصدر السابق: ص/٥٦١.

(٧) سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني: مجلد/٩، ص/٧٨، ح/٤٠٨١، مكتبة المعارف/الرياض، ط/٢٠٠١م.

(٨) انظر: ملتي الفجر الإسلامي: <http://www.alfajrsite.com/vb/archive/index.php/t-1940.html>

أحد، وهذا ذكره ابن عبد البر وابن حجر، والثالث: استشهاده في غزوة خيبر. وما دام احتمال ضعف الأول، فإن القولين الأخيرين ينسفان القصة من أساسها^(١).

ثامناً: كثير من الصحابة أخطأ في حياة الرسول ﷺ، واستغفر لهم، ككعب بن مالك وتخلفه عن غزوة تبوك، فكيف ترد صدقة ثعلبة ﷺ؟^(٢)

مما سبق يتضح أن القصة لا أساس لها من الصحة، وصدق القائل "الصحابي المفترى عليه"، ومع ذلك فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالمعنى ينطبق على كل من يعاهد ربه أو وليه بعمل صالح ثم يخلف ما عاهد عليه، بل ويستمرئ ذلك، فإن الله يعقبه نفاقاً في قلبه إلى يوم يلقي ربه، يقول سيد قطب: (وسواء هذه الواقعة مصاحبة لنزول الآيات أو كان غيرها، فإن النص عام؛ وهو يصور حالة عامة، ويرسم نموذجاً مكرراً للنفوس التي لم تستيقن)^(٣)، وبالتالي فإن المنافقين أكثر الناس خلفاً للعهد، وأكثر الناس بخلاً في الخير، وإن كان للمال وجه للصرف؛ فإنه يصرف في الإسراف والتبذير ومعصية الله تعالى.

المطلب الخامس: الأعراب في السورة:

تناولت السورة أنواعاً من الناس، باختلاف مذاهبهم وملهمهم ومشاربهم، بشتى طبقاتهم كالمشركين، وأهل الكتاب، والمجاهدين، والمنافقين، وكذلك المؤمنين الصادقين، كما وتتناول صنفاً آخر من الناس بتنوعاتهم ومستوياتهم العقديّة والفكرية ممن سبق ذكرهم، لكنهم بمسمى جديد، ألا وهم الأعراب؛ فمن هم الأعراب؟

الأعراب لغة: من (العرب) جيل من الناس والنسبة إليهم عربي، وأهل الأمصار. والأعراب سكان البادية خاصة، والنسبة إليهم أعرابي، والأعراب ليس جمعاً لعرب، بل هو اسم جنس^(٤).

لقد ذُكرت لفظة الأعراب في عشر مواضع من القرآن الكريم، ست منها في التوبة^(٥)، وموضع في الأحزاب، كصنف من الناس لا علاقة لهم بالمسلمين، وموضعين في سورة الفتح تتحدث عن أخطر صفات المنافقين، ألا وهو التخلّف عن الجهاد في سبيل الله، والموضع الأخير من سورة الحجرات، تتحدث عن صفة خطيرة من صفات المنافقين؛ ألا وهو المنُّ بالإسلام، أما المواضع الستة من سورة براءة فهي:

(١) ثعلبة بن حاطب الصحابي المفترى عليه، لعذاب الحمش: ص/١١٨.

(٢) المصدر السابق: ص/١١٩-١٢٠.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٨٠.

(٤) المختار الصحاح للرازي: ص/١٧٧.

(٥) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي: ص/٤٥٦.

الآية الأولى: {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (التوبة: ٩٠)،

في هذه الآية تتحدث عن أخطر صفات المنافقين، ألا وهي صفة القصور عن الجهاد،
بحيث يتقدم بعضهم بغير أذار، وبعضهم بأذارٍ واهية وأكاذيب مضللة، علَّهم يحصلون على
عفوٍ من رسول الله ﷺ، متجاهلين خزي الدنيا، وعذاب الآخرة الأليم، وفي الآية التي تلي هذه
الآية يبين الله تعالى عفوهِ وجميل كرمهِ للصنف الذي تخلف بعذر كالضعفاء والمرضى،
ليظهر شنيع فعل الذين استئذنوا بغير عذر، فكيف بمن تخلف ولم يستأذن ولم يعتذر؟ ليتوعد
الذين تخلفوا من غير عذر بالعذاب الأليم، بعد أن حكم عليهم بالكفر والنفاق.

الآية الثانية: {الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى
رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (التوبة: ٩٧)،

وصف الله تعالى في هذه الآية الأعراب بأنهم أشد كفرا ونفاقا، مما يدل على قساوة
قلوبهم وجفاوة نفوسهم، كما سبق في تعريف ممن سكن البادية من الأعراب لغة، فعن ابن
عباس ؓ، عن النبي ﷺ قال: (من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن اتبع السلطان
افتتن)^(١)، لذا فكل من يهجر حلق الذكر والعلم، يبعد عن المؤمنين، يزداد جهالة وجفوة
وجحودا ويقبل من حظوظ نفسه في العلم، مما يزيد من قسوة القلب، فيجعل صاحبه أقرب إلى
الكفر والنفاق، ومن قُرِبَ منهما كاد أن يدخل فيهما، وبالتالي من الأجدر ألا يعلموا حدود ما
أنزل الله، خوفا من التعدي على الحدود، ولكي لا يتعدى الحدود لا بد من ازدياد الطاعات
على علم، مما يتطلب مخالطة الصالحين، وأهل العلم، وطول سهر في ذلك وصحبة الأمجاد،
قال الإمام الشافعي^(٢):

تغرب عن الأوطان في طلب العلى *** وسافر ففي الأسفار خمس فوائد.

تفرج همم، واكتساب معيشة *** وعلم، وآداب، وصحبة ماجد^(٣).

فإنه عليم بأحوالهم، حكيم في إمهالهم، يعلم من هو أشد كفرا ونفاقا ممن ينتشق حرَّ
الهواء بلا سائس أو مؤدب يؤدبهم، مما تولد لديهم فساد الطبع، فهل يستوي هو، ومن أصبح
وأسمى مشاهدا لرسول الله ﷺ.. فالأولى ألا يعلم حدود ما أنزل الله أدلة الأحكام والعدل
والتوحيد^(٤).

(١) سنن النسائي: ك/الصيد والذبايح، ب/اتباع الصيد، ص/٦٦٣، ح/٤٣٠٩. (صحيح)

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي المصلي ولد في غزة ١٥٠ هـ تلقى علومه في شتى البلاد وعلى يد ثلثة من عظام العلماء
اشتهر بالورع والتقوى والزهد والعلم، له الكثير من المصنفات في شتى العلوم توفي بمصر ٢٠٤ هـ انظر: الإمام الشافعي ناصر السنة
وواضع الأصول، لعبد الحلیم الجندي: ص/٢٧-٣٣، ط/٣، دار المعارف/ القاهرة. ولعلم والعلماء لأبي بكر الجزائري: ص/٣١٩-
٣٤٠ باختصار.

(٣) ديوان الإمام الشافعي: ص/٤١، دار الجبل/بيروت، ط/٣، ١٩٧٤ م.

(٤) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٦٦ باختصار.

الآية الثالثة: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: ٩٨)،

فضيحة أخرى تكشف خبث نواياهم ومكنون صدورهم باعتبار نفقتهم المرذودة حسرة عليهم، وفي ذلك بيان لأخطر صفاتهم ألا وهي كراهيتهم للمسلمين وتربصهم بالموت الساحق والهزيمة الماحقة، هذه الصفة ليست في منافقي الأعراب فحسب، بل في كل المنافقين الذين يوالون أعداء الله تعالى، وما أكثرهم في تحالفاتهم الخبيثة في كثير من ديار المسلمين! حيث باتوا يتمنون لأئمة الكفر من اليهود بالشفاء ليواصلوا إجرامهم في المسلمين قتلاً، بل ويتعجلونهم لغزو ديارهم، والحمد لله أن الله متربص بهم، يقول الرازي في ذلك: (الآفة والمضرة والشر والبلاء والمكروه المحيط بالإنسان كالدائرة التي ليس منها مخلص)^(١).

الآية الرابعة: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ٩٩)،

صنف آخر من الأعراب مختلف بالكلية عن سبقهم من الذين يعتبرون إنفاقهم غرامة، فهم ليسوا سواء، فإن كان منهم المنافقون؛ كذلك منهم المؤمنون الذين يتقربون إلى الله بالجهاد وسرعة الإنفاق، ويعتبرون ذلك قربات لله ورسوله، يقول الرازي عن الفريق الثاني: (...كونه بحيث يتخذ ما ينفقه قربات عند الله وصلوات الرسول ﷺ، الذي هو أحرص من المؤمنين على أنفسهم في كل شيء)^(٢). فمغفرة الله لكل من يؤمن بالله ويعمل صالحاً حبا وتقرباً في الله ورسوله.

الآية الخامسة: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ*وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ*خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠١-١٠٣)،

دعوة من الله تعالى للمؤمنين أن يأخذوا حذرهم من المنافقين المخفيين من الأعراب، حول المدينة ومن فيها الذين مردوا^(٣) على النفاق، ولا يعلمهم كثير من الناس، الذين سيعذبهم الله في الدنيا، بفضحهم وبيان كذبهم، وإما سيعذبهم بالقتل والسبي، ليزيدهم عذاباً فوق عذابهم، وإما بانتصار الإسلام والمسلمين، فيزدادون عذاباً وقهراً مع قهرهم، وغيظاً فوق غيظهم.

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٦٦-١٦٧ باختصار.

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٦٧.

(٣) تمرّد: عصوا واستعصوا، ومرد عتا وطغى، انظر: كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي: ج/٤، ص/١٣٢.

ولتمام عدله وسعة رحمته وعظيم ومغفرته، بيّن فريقاً آخر من الأعراب الذين لم يتخلفوا نفاقاً عن الجهاد، ولم يخلقوا الأكاذيب والأعداء الواهية، بل جاءوا بتوبتهم نادمين مقرين بما اقترفت أيديهم، بعد تخلفهم عن الجهاد، ثم طمّعتهم الله بتوبته فأمر رسوله ﷺ أن يأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم، ليدلّوا على إخلاص توبتهم، وصدقهم في ذلك ليخرجوا من شح نفوسهم وضيقها إلى رحابة عفو الله وكرمه وجوده، يقول سعيد حوى: (وفي ذلك دلالة على أن الصدقة تكفر الذنوب والخطايا... ثم لبيان أهمية دعوات الرسول ﷺ التي يسعى إليها المؤمنون الصادقون... لتكون سنة أن يدعو الجابي لصاحب الصدقة إذا أخذها)^(١).

الآية السادسة: {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ* وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (التوبة: ١٢٠-١٢١)،

إن هذه الآية تفضح الأعراب الذين أحسنوا فن التخلف والقعود عن الجهاد، ليتم تذكير المؤمنين وتحذيرهم من خطورة نفاقهم وعاقبة تخلفهم عن الجهاد، بل وخطورة أن يؤثر المرء نفسه عن دين الله تعالى، وعن رسوله ﷺ، في كل زمان ومكان، يقول سيد قطب: (إنه الواجب الذي يوجبه الحياء من رسول الله ﷺ؛ فضلاً على الأمر الصادر من الله)^(٢). (كما أن هذه الآية تستوجب الجهاد على عموم القادرين من المسلمين عليه)^(٣)، لذا كان الحض الخفي للمؤمنين على الجهاد بهذا النهي: {مَا كَانَ}، لهم أن يرغبوا بأنفسهم عن نفس رسول الله ﷺ يقول الزمخشري: (التي هي أعز نفس عند الله وأكرمها عليه؛ فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدة وهول، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له، فضلاً أن يضمنوا بها على ما سمح بنفسه عليه)^(٤)، مما يستوجب نصرة رسول الله ﷺ اليوم دفاعاً عن دينه والذود عنه بكل ما يستطيع المرء من قوة، فكل طاعة في سبيل لها أجر عظيم، يقول الرازي: (من قصد طاعة الله، كان قيامه وقعوده ومشيته وحركته وسكونه، مكتوبة عند الله تعالى)^(٥)، فكان لكل ظمأ أو نصب أو مخمصة أجر نتيجة اقتحام المجاهدين لأوكار المجرمين، وأماكن تجمعاتهم، لإحداث الهزيمة أو النكاية فيهم، فكيف إذا فعلوا ذلك وأنفقوا؟ وكيف إذا قطعوا الأودية ليفكوا الحصار عن أنفسهم لينالوا من عدوهم نيلاً ومغنماً بقتيل أو

(١) الأساس في التفسير لسعيد حوى: ج/٤، ص/٢٣٤٧ بتصرف

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٧٣٤.

(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٢٢٤، باختصار.

(٤) تفسير الكشاف للزمخشري: ج/٢، ص/٣٤١ بتصرف.

(٥) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٢٢٤.

أسير لتحرير ديارهم من أشد الناس عداوة للذين آمنوا، فلكم الله يا أهل بيت المقدس في جهادكم وصبركم، وأنزل عليكم سكينته ونصره.

المطلب السادس: الأثر التربوي على المؤمنين مقارنة بمواقف المنافقين:

إن الاستعداد النفسي والإعداد التربوي والاجتماعي تشكل الأرضية الصلبة للبناء الإسلامي المهيأ للتجاوب مع التحديات الكبرى التي يواجهها المسلمون مع المنافقين وغيرهم من أعداء الأمة، تعتمد على نظرية تربوية واحدة وشاملة، حيث يستطيع كل مسلم أن يستخدمها في أي زمان ومكان بغض النظر عما يتوفر لديه من إمكانيات، معتمداً أن يكون القرآن الكريم والسنة النبوية المصدر الأساس للأثر النفسي والتربوي والعقلي والعلمي والعملية، في مواجهة المنافقين وأعداء الأمة، في إعداد جيل مسلم، يتشرب خلالها المؤمن آيات الله وسنة رسوله ﷺ، فتعيش فيه ويتعايشها، فلا تؤثر فيه كل وسائل المحبطين والمنتبطين، وبالتالي نرى أن الله تعالى يوجه المؤمنين لتربية ربانية خالصة، لترسيخ الإيمان في قلوب المؤمنين، وتترك في نفوسهم أثراً تربوياً طيباً، أثناء التعامل مع المنافقين ومن خلال مواقفهم وصفاتهم، ومن هذه الآثار التي نستقرؤها ما يلي:

- ضرورة مناصرة دين الله، والذود عنه ضد الهجمات الكفرية والنفاقية التصفية^(١) والكلامية^(٢)، حتى يحوز المناصرون شرف معية الله في إتمام نوره ومظاهرة دينه ونصرة نبيه، قال الله تعالى: **{يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِمْ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ..}** (التوبة: ٣٢).
- حب الإنفاق في سبيل الله ومساعدة الناس بكل الحب والرضا حباً في الله وطمعاً في جنته، ونجاةً من أليم عقابه، ومخالفةً لأعدائه من أهل الكتاب والمنافقين، قال تعالى: **{هَذَا مَا كُنَزْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ}** (التوبة: ٣٥).
- حب الثواب وعظيم الأجر رغم طول المشقة، **{وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ}** (التوبة: ٤١).
- ضرورة التربية على ثقافة الجهاد والاستعداد النفسي لملاقاة الأعداء، مع أخذ الحيطة والحذر، وتأمين جميع الثغور، حتى لا يؤتى المؤمنون على حين غرة، قال الله تعالى: **{وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً}** (التوبة: ٤٦).
- خطورة مجالسة المنافقين، والاستماع إلى أحاديثهم، حفاظاً على الدين وسلامة من الظلم والنفاق، قال الله تعالى: **{وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ..}** (التوبة: ٤٧).

(١) حرب الاستئصال التي يخوضها المنافقون والكافرون ضد المجاهدين في كل مكان بكافة الوسائل الدعائية.

(٢) هي الحرب الدعائية والإعلامية، وحملات الكذب التي ما توقف المنافقون والكافرون عنها يوماً.

- أن يتيقن المؤمن حق اليقين بانتصار هذا الدين، وعلو أمره، وأن يستعد لهذا النصر بدفع ثمنه من طاعات وتضحيات، قال الله تعالى: **{حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ}** (التوبة: ٤٨).
- خطورة الاستئذان الكاذب، والتخلف عن الجهاد بدون عذر شرعي، قال الله تعالى: **{وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي}** (التوبة: ٤٩).
- الإكثار من الصالحات إصابة للخير والحسنات، وخاصة حث النفس على حسن الصبر والرضا عند الابتلاءات، حتى لا يؤثر في المؤمن فرح المنافقين عند مصائبهم وجراحاتهم، قال الله تعالى: **{إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ}** (التوبة: ٥٠).
- ضرورة التوكل على الله تعالى حق التوكل في كل الأمور سعياً للاطمئنان عند المصائب، والرضا بقضاء الله، قال تعالى: **{قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}** (التوبة: ٥١).
- ضرورة الاستعداد التام لملاقاة أعداء الله تعالى: عقدياً وإيمانياً وعسكرياً قولاً وعملاً، من جميع النواحي: الذهنية، والنفسية، والإعدادية، وكذلك البدنية، حتى لا يفت في عضد المسلمين تربص أعدائهم، قال تعالى: **{قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُونَ}** (التوبة: ٥٢).
- ضرورة إنفاق الطائعين لله المحبين له، حتى لا يتشابه المؤمنون بالمنافقين، قال تعالى: **{قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ}** (التوبة: ٥٣).
- ضرورة حسن الاتصال بالله من خلال صلاة المحبين النشطاء، المداومين على أدائها في وقتها، المحافظين على جماعتها، القائمين في ركوعها وسجودها، والخاشعين لتمامها، عسى يتقبلنا ربنا وهو راض عنا، قال تعالى: **{وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ إِذْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ..}** (التوبة: ٥٤).
- عدم النظر في أموال وأولاد المنافقين مهما عظمت، أو كثرت، لأنها نتاج أعمالهم القبيحة، وسبب من أسباب عذاباتهم، قال تعالى: **{فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}** (التوبة: ٥٥).
- الاطمئنان إلى عظمة الله، وأن الفضل له سبحانه وتعالى في تثبيت المؤمنين، وإعزازهم، ورفع شأنهم، وبثه الرعب في قلوب المنافقين، قال تعالى: **{وَيَحْضُرُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمَنَّكُمْ وَكَانَهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ}** (التوبة: ٥٦).

- العمل وفق أوامر الله سعياً لمرضاته، دون النظر إلى رضا المغرضين والمرجفين، أو سخطهم، قال تعالى: **{وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ}** (التوبة: ٥٨).
- الرضا (ما أحسب أن شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أرفع من الرضا وهو رأس المحبة)^(١)، قال تعالى: **{وَلَوْ أَنَّهُمْ رِضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ}** (التوبة: ٥٩).
- ضرورة تجنب إلقاء الكلمات جزافاً بعلم أو بدون علم في أذية المؤمنين، مع انتقاء الكلمات الطيبة في التعامل مع الناس، مع حسن الثقة بهم، قال تعالى: **{وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ قُلٌ أذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** (التوبة: ٦١).
- إخلاص العمل لله، بأن يكون الأساس في عمل كل مؤمن وأمله طلب مرضاة الله تعالى، وألا ينازع الله أحدٌ في مرضاته، سرا وعلانية، قال تعالى: **{يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ}** (التوبة: ٦٢).
- أن تكون سريرة المؤمن كما علانيته في عبادته لله، **{يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ..}** (التوبة: ٦٣).
- إن الاستهزاء بالمؤمنين وجهادهم إنما هو استهزاء بالله وآياته ورسوله، ومن وقع في شيء من هذا، لا بد أن يسارع إلى التوبة الصادقة، مخافة أن يموت كافراً، قال الله تعالى: **{وَلَوْ كُنَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ* لَا تَعْتَدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ}** (التوبة: ٦٥-٦٦).
- خطورة الكلمة الخبيثة، والهم بالشر ونية السوء، مع ضرورة حفظ الجميل، وخطورة نكرانه، قال تعالى: **{يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولُو قُلُوبٍ غَافِلِينَ}** (التوبة: ٧٤).
- المؤمن إذا قال صدق، وإذا وعد أوفى، وإذا أوتمن أدى، وإذا عاهد التزم، وإذا خاصم رحم، وإذا أنفق كرم، وليس للبخل إلى نفسه طريق، حتى لا ينازع المنافق في أي من صفاته، قال تعالى: **{وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ نَأْتَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ* فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ}** (التوبة: ٧٥-٧٦).

(١) المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين ابن أحمد الأبيشيبي، ب/١٠، الفصل/٢، في القناعة والرضا بما قسم الله تعالى، ص/٨١. المكتبة التوفيقية/ القاهرة، بدون طبعة.

- إن اللمز والغمز والسخرية ليست من أخلاق المؤمنين، فالترفع عنها سلامة من النفاق: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (التوبة: ٧٩).
- إذا تخلف المؤمن عن الجهاد قصرا ولا يجد ما ينفق في سبيل الله، حزن حزنا شديدا، قال تعالى: {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ} (التوبة: ٩٢)، في حين أن المنافقين يملكون المال، ومع ذلك يستأذنون كرهاً في الجهاد، فقال الله فيهم: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} (التوبة: ٨١).
- المؤمن في الدنيا بين الخوف والرجاء يطمع في رحمة الله تعالى ويخشى أليم عقابه، بخلاف المنافقين الذين لا يحسبون للأخرة أي حساب، قال تعالى: {فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} (التوبة: ٨٢).
- خطورة التخلف والقعود عن الجهاد؛ لأن المؤمن يتربى ويتزعم على حب الجهاد طلبا لمرضاة الله، وخوفا من طبع القلوب على النفاق، {وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةً أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ* رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} (التوبة: ٨٦-٨٧).
- الدعوة إلى وحدة الصف المسلم والاجتماع على المساجد الجامعة، التي توحد ولا تفرق، على أساس من الحب والنصرة، مع حرمة الاستتصار بالكافرين، قال تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} (التوبة: ١٠٧).

الفصل الرابع

غزوات الرسول من خلال السورة

ويشتمل على مقدمة ومبحثين:

المقدمة

المبحث الأول: غزوة حنين

المبحث الثاني: غزوة تبوك

المقدمة

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تحليل أهداف ومقاصد الفصل الرابع وتحليلها.

المطلب الثاني: الأشهر الحرم:

ويشتمل على بندين:

البند الأول: تعريف بالأشهر الحرم.

البند الثاني: تعريف النسئ.

المطلب الأول: تحديد أهداف ومقاصد الغزوات من خلال السورة:

أولا تحديد الأهداف وتحليلها:

- أن يدرك المؤمن أن الله ناصر دينه ومعزّ رسولَه وأوليائه.
- خطورة الاغترار والعجب وأثره السلبي على النفس.
- يجب أن يعلم المؤمن أن الصحابة ﷺ لم تنفعهم صحبتهم عندما اغتروا بأنفسهم.
- بيان فضل الله تعالى في إنزال السكينة وأثرها في نفوس المجاهدين.
- أن يأخذ بأسباب القوة المادية والمعنوية دون الاعتماد عليها.
- أن يسرع المؤمن في الاستغفار عند أي خطأ يرتكبه.
- ألا يتخلف أحد من المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله.
- أن لا يتأخر المؤمنون في جهاد الظالمين والمعتدين وقتالهم.
- أن يدرك المؤمن أن خير الدنيا والآخرة في الجهاد في سبيل الله تعالى.
- (أن يتيقن المؤمنون أن النصر من عند الله تعالى).
- إدراك أن الفضل لله في تثبيت أقدام المجاهدين، والربط على قلوبهم.
- بيان اعتماد المؤمنين في كل أعمالهم على الله تعالى.
- ألا يركن أحد من المؤمنين إلى نفسه، أو إلى أي من أسباب الدنيا المادية^(١).

ثانيا: تحديد المقاصد وتحليلها:

- فضل الله تعالى في نصره وتثبيتته للمؤمنين.
- النصر لا يكون بكثرة عدد ولا عدة.
- الله جنود السموات والأرض لا يعلمها إلا هو، ينصر بها من يشاء من عباده المؤمنين.
- عظيم فضل الله بتوبته على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار ﷺ وعموم المؤمنين.
- سعة رحمة الله وعظيم فضله وكرمه.
- توبة الله على عباده فضل عظيم، وأنه غفور رحيم.
- أن الله تعالى لا يضيع أجر المحسنين، ويجزي على القليل؛ الكثير بأعظم الجزاء.
- شدة ظلم الكافرين نتيجة جهلهم وحمقهم، وقساوة قلوبهم.
- العلم بأن الله لا يحب المجرمين من الكفار والظالمين والفاستقين.
- التعرف على أن الله مع المتقين بالحب والتأييد والنصرة والتمكين.

(١) غزوات خُذ القرآن الكريم ذكرها د. محمد أبو النيل: ص/٢٦٨ - ٢٦٩، بتصريف، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع/الكويت، ط/٢٠٠٣م.

المطلب الثاني: الأشهر الحرم:

البند الأول: تعريف الأشهر الحرم:

قال الله تعالى: **{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}** (التوبة: ٣٦).

فالأشهر الحرم هي: ذو القعدة وذو الحجة، والمحرم، ورجب، فعن النبي ﷺ قال: (الزمان استدار يوم خلق السموات والأرض: السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم: ثلاثة متواليات - ذو القعدة وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان..)^(١)، يقول القرطبي: وقيل له: رجب مضر، لأن ربيعة بن نزار كانوا يحرمون شهر رمضان ويسمونه رجباً، وكانت مضر تحرم رجب نفسه، فلذلك قال النبي ﷺ (الذي بين جمادى وشعبان)^(٢)، كما كانوا يسمون رجب بـ"مَنْصَلِ الْأَسْنَةِ" فعن أبي رجاء العطاردي^(٣)، أنه قال: (كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاء فحلبنا عليه ثم طفنا به فإذا دخل شهر رجب قلنا منصل الأسنة، فلم ندع رمحا فيه حديدة ولا سهما فيه حديدة إلا نزعناها فألقيناه شهر رجب؟)^(٤).

بينت الآيات السابقة لهذه الآية الكريمة محاولات عموم الكافرين إطفاء نور الله والصد عن سبيله وأكلهم أموال الناس بالباطل، محاولين بكل السبل تغيير معالم الدين لبقاء مصالحهم بما يناقض الفطرة التي فطر الله الناس عليها، يقول الرازي: (من قبائح اليهود والنصارى والمشركين، إقدامهم على السعي في تغيير أحكام الله بالنسيء، فكان ذلك سعيًا منهم في تغيير حكم السنّة بحسب أهوائهم، زيادة في كفرهم وحسرتهم... فبسبب نقصان أيام السنة القمرية عن الشمسية، وتتقل الشهور القمرية من فصل إلى فصل، شق عليهم حضور الحج حيث يكون سببا في إخلال تجارتهم)^(٥)، فأحدثوا النسيء يقدمونه ويؤخرونه حسب أهوائهم، ويقول البقاعي: (وكانوا يحترمون الأشهر الحرم، فلا يعرض الرجل لقاتل أبيه فيها، فيشق عليهم ترك حروبهم لثلاثة أشهر متوالية، فجعلوا النسيء لذلك، فنتأخر الأشهر الحرم عن وقتها **{زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ}** خلاف ما شرعه الله، وستر تحريم ما أظهر الله تحريمه)^(٦)، وفي ذلك بيان لشدة الظلم الذي كان عليه العرب والمرضى الذي يملأ قلوبهم الخاوية من الإدراك والفهم.

(١) صحيح البخاري: ك/المغازي، ب/حجة الوداع، ج/٢، ص/٨٧٢، ح/٤٤٠٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/٥، ص/١٤٠.

(٣) عمران بن ملحان وقيل بن تميم، العطاردي البصري، أدرك النبي ﷺ ولم يره، روى عن عمر وعلي وعثمان وعائشة وغيرهم، وعنه أبووب وجريز بن حازم وغيرهما الكثير، ثقة أم قومه أربعين سنة توفي ١٠٧هـ، تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٤، ص/٤٠٦.

(٤) صحيح البخاري: ك/المغازي، ب/وفد بني حنيفة، ج/٢، ص/٨٦٧، ح/٤٣٧٦.

(٥) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٤٩-٥٠ باختصار وتصرف.

(٦) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٠٨ بتصرف.

وبما إن قوامه الدين تعتمد على العدل في كل شيء، لاستمرار الحياة القائمة على تحريم الظلم الذي حرّمه الله على نفسه وحرمه على خلقه، فعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يروي عن ربه أنه قال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا..)^(١)، فالظلم الواقع على الأبرياء من قبل الظالمين أوجب على المتقين قتالهم من باب إقامة العدل فيهم، كي لا يعتدوا، يقول سيد قطب: (فالكف عن قتال المعتدين يضعف الخيبرين المنوط بهم حفظ المحرمات، ووضع حد للمعتدين والمفسدين، وتعم الفوضى في الأرض)^(٢)

البند الثاني: النسيء:

النسيء لغة: نسئت المرأة: تأخر حيضها، ونسأ الشيء أخره، والنسيء: التأخير يكون في العمر والدين، والنسيء شهر كانت العرب تؤخره في الجاهلية، فنهى الله عز وجل عنه^(٣). يقول الواحدي^(٤) (كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً، فيجعلون المحرم صفراً، فيستحلون المحرمات، فأنزل الله هذه الآية)^(٥): {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحَلِّثُونَ عَمَّا وَيُحَرِّمُونَهُ عَمَّا لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} (التوبة: ٣٧)، فتتغير مواقيت العبادة التي وضع مواقيتها العليم الخبير.

يقول السيوطي: (إن العرب كانوا أصحاب حروب وغارات، فسق عليهم تركها في الأشهر الحرم؛ لأنها كانت محرمة عليهم، فيحرمون شهراً آخر بدلاً من الشهر الحرام. وربما أحلوا المحرم وحرّموا صفر، حتى يكملوا في العام أربعة أشهر محرمة)^(٦). ويقول البقاعي: (ولمّا بين ما في النسيء من القباحة تحرر أنهم وقعوا على ضد مرادهم فإنهم كانوا لو قاتلوا في الشهر الحرام قاتلوا وهم معتقدون الحرمة خائفون عاقبتها فكانوا غير خارجين عن دائرة التقوى بالكلية)^(٧).

لذا فإن من يسوغ لنفسه الرخص للتعدي على الحدود متعللاً بالمصالح عليه أن يعلم أن الخير في شرع الله والتزام حكمه، وأن أي تأخير أو تقديم لهذا الحكم يؤدي إلى انتهاك حرّامات الله وتجاوز حدوده.

(١) صحيح مسلم: ك/البر والصلة والآداب، ب/تحريم الظلم، ج/٤، ص/١٩٩٤، ح/٢٥٧٧.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٦٥٢ باختصار.

(٣) لسان اللسان لابن منظور: ج/٢، ص/٦١١، دار الكتب العلمية/بيروت، ط/١/١٩٩٣م

(٤) علي بن أحمد بن محمد أبو الحسن الواحدي النيسابوري، صنف في التفسير وأسباب النزول، وغيرها الكثير، مات ٤٦٨ هـ، انظر شذرات الذهب ٣/٣٣٠، والبداية والنهاية لابن كثير ١٢/١١٤ وغيرهم.

(٥) أسباب النزول للواحدى: ص/٢٠٣.

(٦) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي: ج/٢، ص/٥٤١.

(٧) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٠٨.

المبحث الأول

غزوة حنين

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف بالغزوة:

ويشتمل على بندين:

البند الأول: التعريف بالغزوة لغة واصطلاحاً.

البند الثاني: التعريف بغزوات الرسول ﷺ وعددها.

المطلب الثاني: الأبعاد العسكرية والأمنية لهذه الغزوات.

المطلب الثالث: التعريف العام بغزوة حنين وأسبابها.

المطلب الرابع: حال المسلمين كما وصفهم القرآن في هذه الغزوة.

المطلب الخامس: الأثر التربوي لغزوة حنين على المسلمين.

المطلب الثالث: غزوة حنين والتعريف بها:

البند الأول: التعريف بالغزوة لغة واصطلاحاً: غزا الشيء: أراده وطلبه، ومغزى الغزوة لغة: الكلام مقصده، والغزو القصد، والغزو: السير إلى قتال العدو، والمغزى: مناقب الغزاة^(١).

الغزوة اصطلاحاً: يقول ابن حجر: (وأصل الغزو القصد، ومغزى الكلام مقصده، والمراد بالمغزى هنا ما وقع من قصد النبي ﷺ الكفار لنفسه أو بجيش من قبله^(٢))، فهي: المعركة التي جهزها الرسول ﷺ وحضرها وخرج فيها، حارب فيها أم لم يحارب^(٣).

البند الثاني: التعريف بغزوات الرسول ﷺ وعددها:

شرع النبي ﷺ يؤمن حدود دولته بالعهود والمواثيق، والتحركات العسكرية كالسرايا والغزوات، وخاصة بعد أن أذن الله له بالقتال، بهدف:

- الاستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة، والمسالك المؤدية إلى مكة.
 - عقد المعاهدات مع القبائل التي مساكنها على هذه الطرق.
 - توجيه رسائل؛ تحذيراً لكل من تسول له نفسه بحرب المسلمين، وإشعاراً بقوتهم^(٤).
- بلغ عدد السرايا سبعا وخمسين سرية، أولها "سيف البحر" بقيادة حمزة ﷺ، وآخرها سرية "أسامة ﷺ"، أنفذها أبو بكر ﷺ بعد وفاة رسول الله ﷺ، وأما غزواته فهي:
- ١- غزوة الأبواء أو ودان: في صفر للسنة الثانية هـ، حيث خرج ﷺ في سبعين رجلاً، عقد فيها معاهدة مع بني ضمرة^(٥).
 - ٢- غزوة بواط^(٦): في ربيع الأول سنة ٢هـ، خرج فيها ﷺ في مائتين من أصحابه، يعترض فيها عيرا لقريش، فبلغ بواطاً من ناحية رضوى ولم يلق كيدا ثم رجع^(٧).
 - ٣- غزوة سفوان^(٨) بدر الصغرى: في ربيع الأول ٢هـ، خرج ﷺ في سبعين رجلاً، إثر غارة لبعض المشركين على مراعي المدينة، لم يدرك أحداً وعاد دون قتال^(٩).
 - ٤- غزوة ذي (ذات) العُشَيْرَة^(١٠): من ناحية ينبع، في آخر جمادى الأولى، خرج ﷺ في خمسين ومائة مهاجر، لاعتراض عيرا لقريش، فبلغ المكان وقد فاتته العير^(١١).

(١) لسان اللسان لابن منظور: ج/٢، ص/٢٦٦.

(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني: ج/٧، ص/٢٧٩.

(٣) كتاب التربية الإسلامية الصف الثامن تأليف د. أحمد جبر ود. زكريا الزميلي: ص/٣٦. مركز المناهج، رام الله، ٢/٢٠٠٦م.

(٤) الرحيق المختوم للمباركفوري: ص/١٨٤ بتصرف.

(٥) الغزوات والسرايا التي سيرها الرسول ﷺ لسليم شيعانية: ص/٣١ مكتبة الفارابي، دمشق، ط/١/١٩٩٩م.

(٦) جبل من جبال جهينة ضاحية رضوى، معجم البلدان لياقوت الحموي: ج/١، ص/٥٩٦.

(٧) الغزوات والسرايا التي سيرها الرسول ﷺ لسليم شيعانية: ص/١٨٦.

(٨) سفوان ماء على قدر مرحلة من باب المرید بالبصرة، وبه ماء كثير السافي وهو التراب، معجم البلدان للحموي: ج/٣، ص/٢٥٤.

(٩) الغزوات والسرايا التي سيرها الرسول ﷺ لسليم شيعانية: ص/١٨٦.

(١٠) موضع بالصُّمَّان معروف نسب إلى عشرة نابتة فيه، من ناحية ينبع بين مكة والمدينة، معجم البلدان للحموي: ج/٤، ص/١٤٣.

(١١) الغزوات والسرايا التي سيرها الرسول ﷺ لسليم شيعانية: ص/١٨٦.

- ٥- غزوة بدر الكبرى: في رمضان من السنة الثانية هـ، استنفر ﷺ المسلمين، لملاقاة عير قريش القادمة من الشام، وقدر الله فيها القتال والنصر للمسلمين^(١).
- ٦- غزوة بني سليم بالكُدُر^(٢): كانت في شوال من السنة الثانية هـ، خرج ﷺ في مائتي راكب، باغت فيهم بني سليم وغطفان الذين كانوا يحشدون لغزو المدينة^(٣).
- ٧- غزوة بني قينقاع: كانت في شوال من السنة الثانية هـ، حيث حاصر ﷺ اليهود إثر غدرهم، ثم نزلوا على حكمه ﷺ وعفا عنهم ثم أجلاهم بعد إلحاح ابن سلول^(٤).
- ٨- غزوة (القدر) السوق: في ذي الحجة من السنة الثانية هـ، إثر مهاجمة أبو سفيان ناحية من المدينة ليلاً، فقتلوا رجلاً وحليفاً له، وفروا تاركين أزوادهم يتخفون منها^(٥).
- ٩- غزوة (غضفان) ذي أمر: خرج ﷺ في أربعمئة وخمسين رجلاً في محرم الثالثة هـ، على بني ثعلبة ومحارب، وصل إلى مائهم فأقام فيها شهراً ثم رجع في صفر^(٦).
- ١٠- غزوة بحران: وهي معدن بالحجاز من ناحية الفرع، هي دورية قتالية قادها ﷺ، قوامها ثلاثمئة مقاتل. في ربيع الآخر من السنة الثالثة هـ، ولم يلق حرباً^(٧).
- ١١- غزوة أحد: الشهيرة في شوال السنة الثالثة هـ، أرادت قريش الانتقام لهزيمتها في بدر، تعرض المسلمون محنة شديدة وابتلاء عظيم بسبب مخالفة أمر النبي ﷺ^(٨).
- ١٢- غزوة حمراء الأسد^(٩): عقب غزوة أحد مباشرة، سار ﷺ بجيشه، يطارد جيش المشركين حتى بلغوا حمراء الأسد، خشي المشركون أن يعودوا للقتال^(١٠).
- ١٣- غزوة بني النضير: في ربيع الأول من السنة الرابعة هـ، بعد أن حاول بنو النضير الفتك برسول الله ﷺ، فتم إجلاؤهم إلى الشام، بعد حصار دام ست ليال^(١١).
- ١٤- غزوة نجد: خرج ﷺ، في أربعمئة رجل في ربيع الثاني أو جمادى الأولى من السنة الرابعة هـ، إلى بني ثعلبة ومحارب، وفيها شرعت صلاة الخوف^(١٢).
- ١٥- غزوة بدر الآخرة (الثانية، الصغرى، الموعد): خرج ﷺ في شعبان من السنة الرابعة هـ، في ألف وخمسمئة رجل لملاقاة أبي سفيان الذي رجع مرعوباً، وعاد ﷺ إلى المدينة^(١٣).

(١) مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير، جمع وتحقيق د. محمد الأعظمي: ص/١٣٢، مكتب التربية العربي/الرياض، ط/١٩٨١م

(٢) ماء لبني سليم قريبة من الأرضية، بينها وبين المدينة ثمانية بُرْد، معجم البلدان لياقوت الحموي: ج/٤، ص/٥٠١.

(٣) الرحيق المختوم للمباركفوري: ص/٢١٣-٢١٤ باختصار.

(٤) المصدر السابق: ص/٢١٦-٢١٨ باختصار.

(٥) مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير: جمع وتحقيق د. محمد الأعظمي: ص/١٦١، والرحيق المختوم ص/٢١٨-٢١٩ بتصرف

(٦) الرحيق المختوم للمباركفوري: ص/٢١٩ باختصار، والغزوات والسرايا التي سيرها الرسول ﷺ لسليم فهد شعبانية: ص/٤٤

(٧) المصدر السابق: ص/٢٢٢.

(٨) المصدر السابق: ص/٢٢٥-٢٥٧ باختصار.

(٩) موضع على ثمانية أميال من المدينة، معجم البلدان لياقوت الحموي: ج/٢، ص/٣٤٦.

(١٠) المختوم للمباركفوري: ص/٢٥٦ باختصار.

(١١) مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير: ص/١٦٤-١٦٥، والرحيق المختوم للمباركفوري: ص/٢٦١-٢٦٣، باختصار.

(١٢) السيرة النبوية لابن هشام: ج/٢، ص/٢٠٣-٢٠٨ باختصار.

(١٣) مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير: ص/١٨٣، وانظر: الرحيق المختوم، ص/٢٦٥-٢٦٦.

- ١٦- غزوة دومة الجندل^(١): في ربيع الأول من السنة الخامسة هـ، خرج ﷺ إلى دومة الجندل، ورجع قبل أن يصلها ولم يلق كيدا^(٢).
- ١٧- غزوة الأحزاب: وقعت في شوال من السنة الخامسة هـ، خرج المشركون بعشرة آلاف مقاتل، تعرض المسلمون خلالها لبلاء شديد، رد الله فيها كيد الأحزاب^(٣).
- ١٨- غزوة بني قريظة: خرج ﷺ الأحزاب بثلاثة آلاف مقاتل إلى بني قريظة، حاصروهم خمسا وعشرين ليلة، وتم أمر الله فيهم بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم^(٤).
- ١٩- غزوة بني لحيان^(٥): خرج ﷺ في ربيع الثاني أو جماد الأولى السادسة هـ، في مائتي رجل، يريد من غدروا بأصحاب الرجيع، رجع بعد أن أرسل بعض السرايا^(٦).
- ٢٠- غزوة المريسيع^(٧): خرج ﷺ في شعبان الخامسة وقيل السادسة هـ لملاقاة بني المصطلق، فيها تزوج جويرية بنت الحارث التي كانت سببا في هداية أكثر قومها^(٨).
- ٢١- غزوة الحديبية^(٩): خرج ﷺ في أصحابه لأداء العمرة، في ذي القعدة السادسة هـ، حيل بينه وبين العمرة، وتمَّ عقد الصلح مع قريش، ورجع ﷺ بعد أن نحر هديه وحلق شعره وامتنل المسلمون لأمره ﷺ^(١٠).
- ٢٢- غزوة الغابة أو غزوة ذي قرد^(١١): بعد الحديبية وقبل خيبر، في حركة مطاردة، قادها سلمة بن الأكوع^(١٢)، لفصيل من بني فزارة، قرصنوا لِقَاح رسول الله ﷺ، وما زال يرميهم، حتى ألجأهم إلى شعب "ذو قرد" فأجلاهم عنه وما ذاقوا قطرة ماء منه، حتى أدركه رسول الله ﷺ، وأسهم له ﷺ بسهمين، سهم الرجل وسهم الفارس^(١٣).
- ٢٣- غزوة خيبر: خرج ﷺ في ألف وأربعمائة رجل ليقضي على وكر الدسائس في خيبر، في المحرم ٧ هـ، فاجأهم صباحا، وحاصروهم، وتم له فتحها^(١٤).
- ٢٤- غزوة مؤتة^(١٥): أسماها البخاري باب: "غزوة مؤتة من أرض الشام"^(١٦). جهز ﷺ ثلاثة آلاف مقاتل انتقاما لمقتل سفيره، قتل قاداته الثلاثة الذين عينهم رسول الله ﷺ

(١) بين دمشق المدينة سبعة مراحل، قرب جبلي طيء من وادي القرى أربع ليل لثيماء، معجم البلدان للحموي: ج/٢، ص/٥٥٤.

(٢) سيرة ابن هشام: ج/٢، ص/٢١٣، والرحيق المختوم: ص/٢٦٦.

(٣) الرحيق المختوم للمباركفوري: ص/٢٦٧-٢٦٧٧ باختصار.

(٤) الرحيق المختوم للمباركفوري: ص/١٨٦-١٨٩، وغزوات خلد القرآن الكريم ذكرها، د. محمد عبد السلام أبو النيل: ص/١٧١-١٨١.

(٥) ردهة لبني أبي بكر بن كلاب، وهو الوشل الصديع في الأرض يخر فيه الماء، معجم البلدان لياقوت الحموي: ج/٥، ص/١٧.

(٦) الرحيق المختوم للمباركفوري: ص/٢٨٤ باختصار.

(٧) اسم ماء من ناحية قديد من ناحية الساحل لبني المصطلق، معجم البلدان للحموي: ج/٥، ص/١٣٩.

(٨) مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير: ص/١٩٠-١٩١، و الرحيق المختوم ص/٢٨٦ باختصار.

(٩) بين الحديبية ومكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسعة مراحل، وهي في الحرم لقول أنس، معجم البلدان للحموي: ج/٢، ص/٢٦٥.

(١٠) الرحيق المختوم للمباركفوري: ص/٢٩٤-٣٠٢ باختصار.

(١١) ماء على نحو بريد من المدينة مما يلي بلاد غطفان؛ وقيل على مسافة يوم منها، انظر: السيرة النبوية لابن هشام: ج/٢، ص/٢٨١.

(١٢) سنان بن عبد الله بن بشير الأسلمي، شهد بيعة الرضوان فارسا شجاعا سريع العدو، مات ٦٤ هـ وقيل ٧٤ هـ، انظر تهذيب التهذيب: للعسقلاني: ص/٣٧٩.

(١٣) اللقاح: الإبل الحوامل ذوات اللبن، انظر: الرحيق المختوم للمباركفوري: ص/٣١٤-٣١٥ باختصار.

(١٤) الرحيق المختوم للمباركفوري: ص/٣١٤-٣٢٨ باختصار.

(١٥) قرية من قرى اللقاء في حدود الشام، معجم البلدان لياقوت الحموي: ج/٥، ص/٢٥٤.

(١٦) صحيح البخاري: ب/ غزوة مؤتة من أرض الشام، رقم الباب ٤٤، ج/٢، ص/٨٤٥.

ورجع الجيش بقيادة خالد رضي الله عنه سالما لأن المعركة غير متكافئة معهم، قُتِلَ فيها أمراء الجيش الذين عينهم رضي الله عنه ^(١).

٢٥- غزوة عُمرة القضاء: خرج رضي الله عنه بألف وأربعمائة راجل وراكب إلى مكة، لأداء عمرة القضاء، من ذي الحجة سنة سبع، تسمّى هذه الغزوة غزوة المعنويات ^(٢).

٢٦- غزوة فتح مكة: خرج رضي الله عنه بعشرة آلاف مقاتل في غرة رمضان سنة ثمان هـ، إثر نقض صلح الحديبية، عفا عن أهلها، وأرسل منها البعوث والسرايا ^(٣).

٢٧- غزوة حنين: سيكون لها بحث خاص في هذا الفصل.

٢٨- غزوة الطائف: في شوال سنة ثمان هـ حاصر رضي الله عنه أهلها أياما، بعد انهزام هوازن في حنين، ثم أمر بالجيش فعاد، بسبب تحصنهم المكين، على أن يعود إليهم لاحقا ^(٤).

٢٩- غزوة تبوك: سيكون لها بحث خاص في هذا الفصل.

المطلب الثاني: الأبعاد العسكرية والأمنية لهذه الغزوات:

إن أي عمل عسكري؛ لا بد له من أهداف قريبة وبعيدة المدى، يسعى كل قائد يخوض غمار هذه الحرب لتحقيقها، بتخطيط، مسبق وبأبعاد سياسية واقتصادية، وعسكرية، وأمنية، فكيف برسول الله رضي الله عنه الذي ما قام بأي عمل خارج نطاق أمر الله، وهو محط أنظار الأمة، وقدوتها إلى قيام الساعة، من هذه الأهداف:

- التضييق على المشركين في تجارتهم ومعاشهم، مع توجيه رسالة مفادها: أن أمر تجارتهم بات في خطر ^(٥)، وذلك أن أي جيش لا يمكن أن تكون له القدرة على الحركة ببعده العسكري، دون تأمين بعده الاقتصادي تأميناً جيداً.
- دراسة واقية للوضع السياسي والعسكري المحاذي للمدينة، باستطلاع الأخبار ^(٦)، حتى تتبلور للقيادة فكرة تامة عن أية قوات قد تكون معادية، لئلا يؤتى الخطر من مكنه، وليكون الجيش على أهبة الاستعداد والحذر في جميع الأحوال.
- توجيه رسالة إلى جميع الطامعين من اليهود والمشركين وخاصة القرشيين مفادها يقظة المسلمين ^(٧)، إضافة إلى توقيع الاتفاقيات مع القبائل العربية المحاذية للمدينة.
- تحذير المنافقين داخل المدينة بخطورة الاتصال بالكافرين، حيث كانوا وما زالوا أكثر الناس تربصاً بالمؤمنين، ومن خلال تعاونهم مع الكفار للانقضاض على المسلمين.

(١) الرحيق المختوم للمباركفوري: ص/٣٣٤-٣٣٩ باختصار.

(٢) الرسول القائد لمحمود شيبه خطاب: ملحق، ص/٤٢٥، دار الفكر للنشر والتوزيع/بيروت، ط/٢٠٠٢م.

(٣) المصدر السابق: ص/٣٤٠-٣٥٣.

(٤) الغزوات والسرايا التي سيرها الرسول رضي الله عنه لسليم شيعانية: ص/١٦٣-١٦٥ باختصار.

(٥) منهج النبي رضي الله عنه في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة، د. محمد أمزون: ص/٢٩١ باختصار، دار السلام/القاهرة، ط/٢٠٠٦م.

(٦) المصدر السابق: ص/٢٩١.

(٧) المصدر السابق: ص/٢٩١.

- بث الروح القتالية والمعنوية لدى المسلمين وتحفيزهم على الجهاد من خلال كلماته التي تبث روح الاطمئنان في نفوسهم؛ ليعود الجيش بإذن الله مكللاً بالنصر والتمكين.

المطلب الثالث: التعريف العام بغزوة حنين وأسبابها:

تسميتها:

سميت بهذا الاسم نسبة إلى وادي حنين^(١)، الذي دارت فيه المعركة.

سببها:

خشيت قبيلة هوازن الدوائر، لما سمعت بفتح مكة، وأن ينال رسول الله ﷺ منهم، كما نال من قريش^(٢)، فقررُوا أن يقوموا بغزو المسلمين، قبل أن يقوم المسلمون بغزوهم، وأخذوا يحشدون قواتهما في منطقة الطائف^(٣).

ولما كانت القيادة لمالك بن عوف أشجع شجعانهم، أمرهم أن يخرجوا بنسائهم، وأولادهم، وأموالهم، وقد عارض ذلك دريد بن الصمة، الذي أُخْرِجَ معهم تيمناً برأيه ومعرفته بالحرب، فأبى مالك، قائلاً: إنك كبرت وكبر عقلك^(٤).

قوة المشركين:

اجتمع لمالك بن عوف النضري عدد كبير من ثقيف ونصر وجشم وسعد بن بكر، وبعض بني هلال، فأرسل النبي ﷺ مَنْ يستطيع أخبارهم، فتعذر ذلك لكثرة عددهم واختلاف عشائهم، وأنهم يحشدون قواتهم في وادي حنين، وأنهم ينوون مهاجمة المسلمين^(٥)، فقال ﷺ (تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله)^(٦).

قوة المسلمين:

اختلف في عدد عسكر رسول الله ﷺ، فقيل كانوا ستة عشر ألفاً، وقيل اثني عشر ألفاً، لم تعرف الجزيرة مثيلاً له، منهم ألفان من مسلمة الفتح، ومعهم أبو بكر ﷺ الذي قال: "لن نغلب اليوم من قلة". وقيل غيره^(٧).

سير المعركة:

تحصن مقاتلة مالك بن عوف هضاب الجبال المشرفة على وادي حنين، وما إن وصل المسلمون واستقروا فيه فجرأ إلى الوادي المنحدر، كأنهم يسبرون إلى هاوية، حتى انهال

(١) واد قبل الطائف، بينه وبين مكة ثلاث ليل من جهة عرفات، سمي باسم حنين بن ثابتة بن مهلاتيل، انظر: معجم البلدان لياقوت

الحموي: ج/٣، ص/٣٥٤، وفتح الباري: ج/٧، ص/٦٢١.

(٢) غزوات خُذ القرآن الكريم ذكراها، د. محمد عبد السلام أبو النيل: ص/٢٥٧ باختصار.

(٣) الرسول القائد، اللواء الركن: محمود شيت خطاب: ٣٦١، دار الفكر للطباعة والنشر/بيروت، ط/٦/٢٠٠٢م.

(٤) غزوات خُذ القرآن الكريم ذكراها، د. محمد عبد السلام أبو النيل: ص/٢٥٧ باختصار.

(٥) القدوة في السيرة النبوية د. أحمد رجب الأسمر: ص/٤٢٤-٤٢٥ بتصرف، دار الفرقان/عمان، ط/١/٢٠٠٤م.

(٦) سنن أبي داود: ك/الجهاد، ب/ في فضل الحراس في سبيل الله عز وجل، ص/٣٩٩، ح/٢٥٠١. (صححه الألباني)

(٧) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٢١.

المشركون عليهم رميا بالنبال، دون أن يعرف المسلمون مصدرها، ولكون مواضع المشركين مخفي، انسحبت مقدمة الجيش فجرفت أمامها بقية القوات، وانقلب الانسحاب إلى فرار وهزيمة، على الفور ترك المشركون مواضعهم لمطاردة المسلمين، فإن أدركوا أحدَهُم طعنوه، حتى انتشر الفرع بين المسلمين، وضافت بهم السبل، وارتبكت أرتالهم. وفي خضم هذا التولي ثبت ﷺ ومعه قريبا من مائة رجل من أهل بيته، وبعض أصحابه^(١)، وأخذ ينادي ﷺ (أين أيها الناس؟ أين؟ هلموا إليّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله)، ولكون الارتباك ساد الموقف، فلم يرد أو يسمعه أحد، فقام العباس ينادي ويكرر بصوته الجمهوري: (يا معشر الأنصار، يا أصحاب البيعة يوم الحديبية!)، فسمعه المهاجرون والأنصار، فعادوا يتقاطرون ويتمترسون حول رسول الله ﷺ لا يصطحبون معهم إلا سيفهم وترسهم قائلين: "لبيك" فاستقبل ﷺ بهم المشركين يكبدونهم الخسائر الفادحة؛ لتبدأ رحلة الانتصار والمطاردة الواسعة بصمود القلة المؤمنة بفضل الله تعالى؛ ليستسلم الكثير منهم، ويستولي المؤمنون على غنائم جمّة^(٢)، بعد أن أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وعذبَ بجنوده الذين كفروا.

المطلب الرابع: حال المسلمين كما وصفهم القرآن في هذه الغزوة:

يصف الله تعالى أحوال المسلمين في هذه الغزوة حينما اغتروا بأنفسهم، وأعجبتهم كثرتهم، كيف ضاقت بهم الأرض على كثرة اتساعها^(٣)، يقول الرازي: (أنكم لشدة ما لحقكم من الخوف ضاقت عليكم الأرض، فلم تجدوا فيها موضعا يصلح لفراركم عن عدوكم)^(٤)، وازدحمت بهم المسالك على كثرتها؟ وكيف اختلطت جموعهم؟ وقد أعمل العدو فيهم طعنا وتشريدا وقتلا؟ كما ويصف حال النلة القليلة التي من الله عليها بالثبات، وأنه أنزل السكينة عليهم، فثبتت مع رسول الله ﷺ، وقت نزول السكينة عليهم، ومن الله بعد ذلك على من يشاء بالنبوة، قال تعالى: **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** { (التوبة: ٢٥-٢٧). (يقول البراء بن عازب: والذي لا إله إلا هو، ما ولّى رسول الله ﷺ دبره قط، قال: ورأيتُه آخذ بالركاب،

(١) فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (لقد رأيتنا يوم حنين وإن الفئتين لمؤلّين وما مع رسول الله ﷺ مائة رجل) رواه الترمذي: ص/٣٩٤، ج/١٦٨٩، وقال: حديث (حسن صحيح). وأحمد ٤/٤٥٤، والحاكم في المستدرک: ١١٧/٢، وفي فتح الباري: ٢٩٨/٣٠، وغيرهم.

(٢) انظر الرحيق المختوم، للمباركفوري: ص/٣٥٦-٣٦٣، وغزوات خلد القرآن ذكرها، محمد أبو النبل: ص/٢٦٩، والقُدوة في السيرة النبوية، د. أحمد الأسمر: ص/٤٢٣-٤٢٩، والرسول القائد، محمود شيت خطاب: ٣٦١-٣٦٧ باختصار وتصرف.

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي: ج/٢، ص/١٨٩.

(٤) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٢١.

والعباس أخذ بلجام دابته وهو يقول: (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب) ووفق يركض نحو الكفار لا يبالي^(١).

لقد بدأ بعض المسلمون تصرفهم هذا بحادثة تدلل على عدم رسوخ الإيمان في قلوبهم، بتعلقهم بأوهام الجاهلية وأدرانها بداية، حيث ما زال في بعضهم حب تقليد المشركين وإتباعهم، في أول مظاهر الولاء لغير الله، عندما مروا بشجرة كان المشركون يتبركون بها، فعن أبي واقد الليثي^(٢)، أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مرَّ بشجرة للمشركين، يقال لها ذات أنواط^(٣)، يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} (الأعراف: ١٣٨) والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم^(٤).

لذا كان الأثر الجاهلي بيِّن على بعضهم من خلال هذه الحادثة، لهذا نهى الله عن الاغترار بتقلب الكافرين والإعجاب بهم، قال تعالى: {لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} (آل عمران: ١٩٦-١٩٧)، وحذر ﷺ من تتبع خطوات مشركي أهل الكتاب بمختلف فئاتهم ومسمياتهم، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شَبْرًا بِشَبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جَرَّ ضَبِّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ) قلنا يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: (فمن؟)^(٥). ليدل ﷺ على خطورة الاغترار بمنهج الكافرين، وفساد معتقداتهم، كما حذر ﷺ من خطورة التكبر، وبين أنه لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر، ونصر الله لا يكون إلا بمن تعلق قلبه بالله وتواضع لعظمته، وهجر كل أسباب الاتصال بغيره سبحانه وتعالى.

فلا بد أن يكون المؤمنون على قلب رجل واحد في المعتقد والتوجه والعمل، وخاصة عند طلب النصر، فلا ينبغي أن ينشئتوا شيئا وأحزابا، أو يحملوا أفكارا ومعتقدات وثنية، أو يربطوا نصرهم بغير الله، أو يتشبَّهوا بالكافرين أو يتبعوهم، حتى لا تؤثر نتائج أعمالهم سلبا على مجريات أحداث لا تحمد عقباها، ولنا في زماننا ألف عبرة وعبرة، سنوات عجاف تتلوها عجاف أشد؛ لأن بعض المسلمين وثقوا بالكافرين واتبعوهم، فكانت الطامة على الجميع، احتلال يتلوه ترسيخ للاحتلال، وتنازل يتلوه تنازل، وذلة يتبعها هوان، ليكون التحذير موصولا لعموم الأمة من خطر أعمال القلة المنتفذة إلى قيام الساعة، فخير الناس بعد رسول الله ﷺ صحابته الكرام ﷺ، قد وقعوا في المحذور، فكيف بمن دونهم؟ لقد كانت غزوة حنين

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٢١.

(٢) أبو واقد هو: الحارث بن مالك وقيل بن عوف الليثي، شهد بدرًا وتوفي ٨٥ هـ، تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٦، ص/٤٨٥.

(٣) اسم شجرة يعينها كانت للمشركين ينوطون بها سلاحهم أي يعلقونه بها ويعكفون حولها... وأنواط جمع نوط وهو مصدر سمي به المنوط. انظر تحفة الأحوذى: ج/٦، ص/٤٠٨، وفي مسند أحمد: (وكان للكفار سدرة يعكفون عليها) ج/٥، ص/٢١٨.

(٤) سنن الترمذي: ك/الفتن عن رسول الله ﷺ، ب/ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم، ص/٤٩٣، ح/٢١٨٠. (صححه الألباني)

(٥) صحيح مسلم: ك/العلم، ب/اتباع سنن اليهود والنصارى، ج/٤، ص/٢٠٥٤، ح/٢٦٦٩.

درسا قاسيا تلقاهُ المسلمون، ليكون له الأثر البين والبلغ في نفوسهم، وأخذ العبر والعظات إلى يوم القيامة.

إن تذكير الله تعالى عباده المؤمنين بامتتانه عليهم وفضله ونصره المتواصل، وعلى رسوله ﷺ، بالثبات في أحلك المواقف وأصعبها شدةً، وعلى المؤمنين في مواطن كثيرة متعددة يذكرونها، (قريباً من ثمانين موطناً)^(١) وقريبة في الزمان والمكان، وكذلك في يوم حنين حيث نصركم الله فيه^(٢)، بعد أن انشغلت قلوبكم بغيره، وبعد أن اغتررتم بعددكم وعُدَّتكم، لقد نصركم الله في حنين بثبات نبيكم ﷺ، لا ببهرجتكم، نصركم الله في حنين بقلَّتكم المؤمنة لا بكثرتكم الواهمة والواهنة، نصركم الله في حنين بعد أن منَّ الله عليكم بعفوه وتوبته، وعدمُّ عن ذنبيكم، وليظهر فضل التوبة والاستغفار، إنه جل في علاه، الأمان وقت الخوف، والنصر والتأييد وقت الضعف والهزيمة، إنه الله الذي لا إله إلا هو.

المطلب الخامس: الأثر التربوي والهدايات الربانية في غزوة حنين على المسلمين:

لقد رسَّخت غزوة حنين لمفاهيم جديدة، وهدايات تربوية عظيمة، كما تركت أثراً بينا واضحاً في الثبات على دين الله، لتؤخذ منها الدروس والعبر إلى يوم القيامة، من ذلك:

- ضرورة حسن الأدب مع الله، فلا يعقل أن يفخر المسلم بقوته ويتباهى بكثرتهم، فلطالما تباهى الظالمون بكثرتهم، واغتروا بقوتهم، قال تعالى: **{وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا}** (سبأ: ٣٥)، وأما المؤمنون؛ فدائماً كانوا هم القلة، قال تعالى: **{وَمَا أَمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}** (هود: ٤٠)، وقال: **{فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ}** (البقرة: ٢٤٦)، لذا فالاحتجاج بالكثرة من مسائل الجاهلية.
- ضرورة التوكل على الله، والثوق بنصره مع الأخذ بأسباب القوة المتاحة، وحسن الإعداد، **{.. وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}** (التوبة: ٥١)،
- خطورة العجب بالنفس، والاغترار بالكثرة، **{إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ}** (التوبة: ٢٥)، فالعجب أقرب الذنوب إلى الشرك، لما فيه من كبر واستعلاء، مما ينافي كمال التوحيد.
- ضرورة العمل بفرائض الإسلام فرائضه ونوافله، إضافة إلى الصبر الجميل، وحسن الثبات، فالنصر حليف الصادقين في ذلك.
- أن لا يندهر المؤمنون بالمشركين في شيء، فإن أخذتم بالأسباب كنتم أحسن حالاً، فلا تأخذكم الهواجس والمخاوف على أمنكم واقتصادكم؛ لتجعل من بعضكم أذناناً وأتباعاً للمشركين^(٣).

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٢١، وانظر التربية الإسلامية في سورة التوبة د. علي عبد الحلیم محمود: ص/١٠٣.

(٢) الكشاف للزمخشري: ج/٢، ص/٢٨٨.

(٣) التربية الإسلامية في سورة التوبة د. علي عبد الحلیم محمود: ص/١١٦ بتصرف

- ضرورة الاستبشار بنصر الله والاطمئنان له، لقول رسول الله ﷺ: (تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله)^(١)، ففي كل غزوة كان يبشر أصحابه بالنصر.
- إن انشراح الصدر بالإيمان، يجعل النفس تطمئن بالله وتستكثر به، وتضيق إذا ركنت إلى نفسها، وتتهزم إذا اعتمدت على قوتها.
- خطورة التشبه بالكافرين وتتبع سننهم وأفعالهم، فطلب المسلمين التبرك كما كان يفعل المشركون، وردة فعل النبي ﷺ القوية، تمثل درساً رادعاً لكل من تسول له نفسه الاقتداء بالكافرين، أو التشبه بهم، لما يمثل هذا التشبه من خطرٍ على العقيدة والنفس.
- لا بد أن يحذر القادة خفاف القوم من جنودهم المتعجلين، في طلب العواقب، فإن أكثر ما يعانیه المسلمون اليوم وسابقاً أمثال هؤلاء، فهاهم أصحاب رسول الله ﷺ عندما أعجبتهم كثرتهم وتعجلوا ولم يأخذوا حذرهم في ملاقاته عدوهم؛ وقعت الكارثة ولوَّ الأديبار، فالحذار الحذار من عواطف لا تتضبط بالضوابط الشرعية. فعن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال له رجل: يا أبا عمارة، ولَيْتَمَ يومَ حنينٍ؟ قال: (لا والله ما ولَّى النبي ﷺ ولكن ولَّى سرعاناً)^(٢) الناس، فلقبهم هوازن بالنبل، والنبي ﷺ على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث أخذ بلجامها، والنبي ﷺ يقول: "أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب"^(٣)، وفي رواية أخرى، قال البراء: (لا والله ما ولَّى رسول الله ﷺ ولكنه خرج شَبَّاناً)^(٤) أصحابه وخفافهم حسراً ليس بسلاح)^(٥).
- ضرورة التربية والإعداد المسبق لجيل الأمة الذين سيحملون لواء الجهاد ونشر دين الله من خلال منهج إيماني، يتضمن الالتزام بالفرائض وحبّ النوافل، لذا كان الطلقاء حديثوا عهد بدين، الذين لم يتلقوا دروساً، ولم يلتزموا بطاعة، فكانوا أول الفارين من المعركة، ليتبين لنا، أهمية الدروس التربوية المسبقة في إعداد الجيل المسلم.
- الخلاف الذي وقع بين المشركين كان سبباً قاتلاً بالنسبة لهم، والله الحمد والمنة ولو سمع مالك بن عوف كلام دريد بن الصمة، لاختلف الأمر، وسارت المعركة لاحقاً على غير مسارها، ليتبين أمرين غاية في الخطورة والأهمية أولاً: ضرورة الاحتكام لأهل الخبرة والرأي والمشورة من أهل الحل والعقد والانقياد لهم مع عدم مخالفتهم، ثانياً: خطورة الخلاف بين القيادات العسكرية والسياسية، لما له من أثر سيء على المقاتلين وهذا ما حدث لجيش المشركين.

(١) سنن أبي داود: ك/الجهاد، ب/فضل الحرس في سبيل الله عز وجل، ص/٣٩٩، ج/٢٥٠١. (صححه الألباني)

(٢) سرعان الناس: أوائلهم المستيقنون إلى الأمر، والسرعة تسرع الأمر نقيض البطء لسان اللسان لابن منظور: ج/١، ص/٥٦٤

(٣) صحيح البخاري: ك/الجهاد والسير، ب/بغلة النبي ﷺ البيضاء، ج/٢، ص/٥٨٠، ح/٢٨٧٤.

(٤) شبان وشباب: جمع شاب، بمعنى الفتاة والحداثة، انظر لسان اللسان لابن منظور: ج/١، ص/٦٤٨.

(٥) صحيح البخاري: ك/الجهاد والسير، ب/من صف أصحابه عند الهزيمة ونزل عن دابته واستنصر، ج/٢، ص/٥٩٠، ح/٢٩٣٠.

- الحرص على كتمان السر، ومراعاة مشاعر الآخرين فعن أنس رضي الله عنه قال: (دعا النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار فقال: "هل فيكم أحدٌ من غيركم؟" قالوا: لا. إلا ابن أخت لنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ابن أخت القوم منهم")^(١)، فعل ذلك صلى الله عليه وسلم حفاظا على الخبر، وبطريقة كتم السر، وحفاظا على مشاعر الآخرين، ليبقى صف المسلمين متماسكا وقويا.
- لا بد أن يكون القائد المسلم متميزا في معظم الأمور القيادية التي يحتاجها الجيش، فلقد تميز صلى الله عليه وسلم بثباته المنقطع النظير، وبصبره الجميل، وحنكته وحسن تصرفه، وخاصة عند تقسيم الغنائم، وأن يكون يقظٌ حساس، رحيم بجنده، يتفقد أحوالهم، ويقف عند حوائجهم.
- لقد كان للمرأة في غزوة حنين دور بارز، في الدفاع عن دين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فها هي أم سليم^(٢) وأم عمارة^(٣) رضي الله عنهما، من القلائل الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليكون لنا في ذلك دروسٌ مهمة في الثبات وإعداد المرأة المسلمة ضمن الضوابط الشرعية التي التزمت بها الصحابيات الجليلات رضي الله عنهن.

(١) صحيح البخاري: ك/المناقب، ب/ ابن أخت ومولى القوم منهم، ج/٢، ص/٧١١، ج/٣٥٢٨.
(٢) بنت ملحان أخت أم حرام الأنصارية، واسمها سهلة، ويقال رميلة، ويقال أنبثة، ويقال مليكة وهي أم أنس بن مالك، وزوج أب طلحة الأنصاري، يقال أنها الغميصاء أو الرميضاء، مناقبها كثيرة، انظر تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٦، ص/٦٢٨-٦٢٩.
(٢) نسبية بنت كعب بن عمرو بن عوف الأنصارية من بني النجار، شهدت أحدا هي وابنها وزوجها، وشهدت بيعة الرضوان واليامة وقطعت يدها فيها، انظر تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٦، ص/٦٣٠.

المبحث الثاني

غزوة تبوك

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف العام بغزوة تبوك وأسبابها.

المطلب الثاني: وضع سكان المدينة قبل الغزوة وبعدها.

ويشتمل على أربعة بنود:

البند الأول: السابقون من أهل الإيمان.

البند الثاني: أهل الإيمان من أصحاب الأعدار.

البند الثالث: . الثلاثة الذين خلفوا.

البند الرابع: المنافقون ومسجد الضرار.

المطلب الثالث: الآثار والأخطار المحدقة بالمسلمين بسبب وجود المنافقين بينهم.

المطلب الرابع: الآثار التربوية لغزوة تبوك على المسلمين.

المطلب الأول: التعريف العام بغزوة تبوك وأسبابها:

من محارات العقول وما يدعو للذهول، أن تتجرأ دولة لم تتجاوز عقدا من الزمن، ولا تملك من أدوات القتال والعدة والعدد لمواجهة أكبر قوة في الأرض لتردعها عن فكرة غزو ديارها، ناهيك عن خروج هذه القوة من معارك متتالية^(١).

الموقف العام: كانت غزوة تبوك آخر غزواته ﷺ حيث كانت في رجب من السنة التاسعة للهجرة النبوية الشريفة، وكان المسلمون قد بسطوا نفوذهم الكامل على شبه الجزيرة العربية، بعد أن استقر الوضع السياسي العام لهم فيها، بالرغم من تواجد المنافقين بينهم، ومحاولاتهم المستمرة والحثيثة في تثبيط هم المسلمين والإرجاف بينهم بروح الوهن والانزمام، إلا أنهم ليسوا من الأهمية بمكان حتى يحسب حسابهم، نظرا بالتزامهم الإسلامَ ظاهراً، فتركهم النبي ﷺ طمعا في هدايتهم.

كما أن المشركين لم يبق لهم أي أثر عسكري أو سياسي بعد إسلام قريش، وانزمام هوازن، ودخول العرب في دين الله أفواجا، وأما اليهود؛ فقد تمّ جلاؤهم عن المدينة وزال خطرهم، وبالتالي لم يبق أمام المسلمين سوى قوة الروم التي اضطرت أركانها، بسبب ظلم حكامها، وإرهاق الناس بالضرائب، وإقبال كثير من النصارى الخاضعين لحكمهم على اعتناق الإسلام، وبما أن نشر الإسلام خارج الجزيرة أمر لا بد منه، مما أقض مضاجع الروم، وجعلهم يفكرون في القضاء على هذا الدين قبل أن يستفحل أمره، ويستشري خطره، فَجَمَعُوا جُمُوعَهُمْ، وحشدوا أتباعهم من الأنباط والمنافقين، وبدؤوا بجمع المعلومات عن المسلمين استعدادا لغزو المسلمين^(٢).

أسبابها:

- استفحال خطر المسلمين على الروم.
- تجميع الروم لحشود ضخمة بأرض البلقاء من الأردن، ومن معهم من العرب.
- ردُّ عدوان الروم دفاعا عن الإسلام داخل الجزيرة العربية، وكبح جماحهم خارجها^(٣).

أهدافها:

- كسر حاجز الخوف لدى المسلمين من قوة الروم الكبيرة.
- إشعار الروم والقبائل العربية المجاورة التي تواليهم بقدره المسلمين على محاربتهم في أماكن سيطرتهم ونفوذهم، وخاصة بعد إخفاق المسلمين في غزوة مؤتة^(٤).
- حماية لحرية نشر الإسلام خارج الجزيرة العربية، بعد أن انتشرت في ربوعها.

(١) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة لمحمد وجدي: ص/٢٩٤، بتصرف، الدار المصرية اللبنانية/القااهرة/ ط/١/١٩٩٣م.

(٢) الرسول القائد، اللواء الركن محمود شيت خطاب: ص/٣٩٥-٣٩٦ باختصار.

(٣) الرسول القائد اللواء الركن محمود شيت خطاب: ص/٣٩٧ بتصرف.

(٤) الوسيط في السيرة النبوية د. هاشم يحيى الملاح: ص/٤٨٤-٤٨٥ باختصار، دار النفائس/عمان، ط/١/٢٠٠٣م.

- تقوية لمعنويات القبائل الخاضعة لسلطان الروم، التي بدأت تقبل على اعتناق الإسلام.
 - محو آثار غزوة مؤتة من النفوس وانسحاب المسلمين منها^(١).
 - القضاء على محاولات الروم في ضرب المسلمين في عقر دارهم، وعلى أحلامهم في السيطرة على ديار المسلمين، وفك سلطانهم على كثير من العرب الخاضعين لهم^(٢).
- إن التاريخ يعيد نفسه في الظالمين وحب سيطرتهم على الآخرين، من خلال احتلال بلاد المسلمين لنفس الأسباب التي من أجلها شنَّ الروم والفرس حروبهم على الإسلام وأهله.

قوات الفريقين:

من أجل هذه الأهداف أعلن الرسول ﷺ دون موارد، أن هدف غزوته هو محاربة الروم، وبالتالي عمل على حشد أكبر عدد من المقاتلين لتحقيق هذه الغاية^(٣)، فجلى أمرها للمسلمين ليتأهبوا أهبة لقاء العدو، بسبب طول المسير، وبعد الشقة، فليس من السهل تجهيز جيش بهذا العدد، دون مشاركة الأغنياء عن طيب خاطر ورضاء نفس، فأقبل الأغنياء بسخائهم، والمسلمون يلبون دعوة نبيهم ﷺ من كل مكان، وسط إرجاف المنافقين، وتثبيطهم، بحجة نضوج الثمار، وشدة الحر وطول السفر، وقوة الروم التي لم يعهدها العرب من قبل، لكنهم أخفقوا، ولم يبق في المدينة إلا الثلاثة الذين خلفوا، وبعض المسلمين الذين لم يجد لهم النبي ﷺ ما يحملهم عليه، وكذلك ابن سلول ومن معه من المنافقين، (ففضح الله قعودهم، ولامهم ووبخهم وقرعهم أشد القرع، وأنزل الله فيهم قرآنا يتلى، مبينا سوء أمرهم، ومتبرئا منهم ومن فعالهم الدنيئة)^(٤).

خرج ﷺ بعد أن جهز جيش العسرة وقوامه ثلاثون ألف مقاتل، منهم عشرة آلاف راكب، يقطع الفيافي والقفار^(٥) ليلا، ويتجنب المسير نهارا لشدة حره وعواصف الصحراء القائلة، حتى وصل تبوك، فلم يجد للروم أثراً، فقرر ﷺ المكوث فيها، ومنها أرسل بعض البعوث والسرايا إلى بعض النواحي، ثم عاد ﷺ إلى المدينة بعد حوالي عشرين يوماً، ينتظر الروم، وبعد أن أمّن الحدود الشمالية بعقد معاهدات مع سكانها، ودعماً لهيئة المسلمين في نفوس القبائل، ونشر الإسلام فيهم، فلما أنجز ﷺ كل ذلك عاد إلى المدينة سالماً... أما قوات الروم فكانت نظامية كثيرة العدد، يساندها كثير من القبائل العربية، من لحم وجذام وعاملة وغسان^(٦).

(١) الوسيط في السيرة النبوية د. هاشم يحيى الملاح: ص/٤٨٥ باختصار.

(٢) المصدر السابق ص/٤٨٥.

(٣) المصدر السابق: ص/٤٨٥ باختصار.

(٤) السيرة النبوية لابن كثير: ج/٤، ص/٤ باختصار، دار إحياء التراث العربي/بيروت، بدون طبعة.

(٥) الفيافي: المغارة لا ماء فيها، والقفار: المغارة لا نبات فيها ولا ماء، انظر لسان اللسان لابن منظور: ص/٣٤٥، ص/٤٠٤.

(٦) الرسول القائد لمحمود شيت خطاب: ص/٣٩٨-٤٠٣ باختصار وتصرف.

المطلب الثاني: وضع سكان المدينة قبل الغزوة وبعدها:

لقد تلاحقت الأصنام تباعا، والوثنية في الانهيار بعد فتح مكة وتم سحق البقية الباقية منهم في الطائف وما حولها، فانقشع ليل الشرك، وبدأ نور الإسلام يعم أرجاء الجزيرة العربية، واستقر الأمر في المدينة، والمسلمون يتطلعون إلى نشر الإسلام خارج حدودها، ساعين لتحقيق النصر على قوة الروم الأخطر والأقرب على المسلمين، وانزوى المنافقون خوفا من قوة المسلمين المتزايدة، يخفون في صدورهم انتقاماً دفيناً، بانتظار غزو الروم، لينجلي أمر المدينة عن أربعة أنماط في المجتمع المسلم:

- أناس ملكوا القدرة والإرادة، فلبوا النداء، وتسابقوا في الإنفاق والجهاد.
- وآخرون ملكوا الإرادة والنية الصادقة، لكنهم لم يملكوا القدرة فلم يخرجوا لعذرهم.
- وآخر ملك القدرة والإرادة، إلا أنه تخلف دون عذر، عوقبوا وتاب الله عليهم لصدقهم.
- وقلة ملكوا القدرة، وليس لديهم الإرادة، فمنهم من اعتذر كاذبا ومنهم من لم يعتذر، لذا فضحهم الله وأخزاهم، ورد اعتذارهم^(١).

البند الأول: السابقون من أهل الإيمان:

قال الله تعالى: **لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيكُمْ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** * **أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (التوبة: ٨٨-٨٩).

لقد ضرب الصحابة الكرام ﷺ أروع الصور وأعظم الأمثلة في التضحية والجود بالمال في غزوة تبوك، امتثالاً لأمر الله وأمر رسوله ﷺ وطلباً لمرضاتهما، بحب وكرامة لعلمهم ويقينهم أن الصدقة برهان إيمانهم؛ ليتجلى بذلك صدق الصادقين، حيث استجابوا لنداء رسولهم ﷺ. فهذا أبو بكر ﷺ جاء بكل ماله، وعمر بنصف ماله، فعن عمر ﷺ قال: (أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك في مالا، فقال النبي ﷺ: (ما أبقيت لأهلك؟) فقلت: مثله، وأتى أبو بكر ﷺ بكل ما عنده، فقال ﷺ: (يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟) قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسأله إلى شيء أبداً^(٢)، وهذا عثمان ﷺ جاء بثلاثمائة بغير بأحلاسها وأقتابها^(٣) وبألف دينار استرخصها ﷺ وبذلها عندما لامست أذناه صيحات رسول الله ﷺ فعن عبد الرحمن بن سمرّة ﷺ، قال جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار.. في كمه حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره. فقال عبد الرحمن: فرأيت النبي ﷺ يُقلبها في حجره ويقول:

(١) هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي لهدى اللحام: ص/٥٩١-٦٠٢ وتصرف، دار الفكر المعاصر/بيروت، ط/١/٢٠٠١م.

(٢) سنن الترمذي: ك/المناقب، ب/في مناقب أبي بكر وعمر، ص/٨٣٤، ح/٣٦٧٥. (حسنه الألباني)

(٣) جمع جلس، وهو كل شيء ما ولي ظهر البعير والدابة، وهو كساء رقيق يكون تحت البرذعة، انظر: لسان اللسان لابن منظور: ج/١، ص/٢٨٢. والأقتاب: جمع قتب، وهو إكاف الجمل، والإكاف شبه الرحال والأقتاب، انظر لسان اللسان لابن منظور: ج/١، ص/٣٥٣، و ج/٢، ص/٣٦.

(ما يضر عثمان ما عمل بعد اليوم)^(١)، وأنفق عبد الرحمن بن عوف ألفي درهم، وتتابع الصحابة بنفقات عظيمة، كالعباس وطلحة ومحمد بن مسلمة رضي الله عنهم، وقدم فقراء المسلمين جردهم من النفقة على استحياء، كنصف صاع من تمر، وآخرون بأكثر منه، فتعرضوا لغمز المنافقين ولمزهم، بقولهم: إن الله لغني عن صدقة هذا! وطعنوا في المكثرين، بقولهم: وما فعل هذا الآخر إلا رياء، فنزلت الآية: **{الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** (التوبة: ٧٩) (٢)، وجزاء السابقين المكانة السامقة والرفعة وشرف التوبة، عندما تاب الله عليهم، فقال: **{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}** (التوبة: ١١٧). (للتوبة معنيان، أولها العطف والرضا وعن العباد وهو أعلاها، وثانيهما قبول التوبة منهم بعد توفيقهم إليها، وكانت توبة اله على النبي من النوع الأول)^(٣).

البند الثاني: أهل الإيمان من أصحاب الأعدار:

هم الذين منعهم العذر لضعفهم أو مرضهم أو فقرهم، قال الله تعالى: **{لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** (التوبة: ٩١-٩٢)، وانقسم هذا الفريق إلى قسمين: القسم الأول: أهل الأعدار من الذين تفاعلت قلوبهم ولهجت ألسنتهم بالنصح لله ورسوله بحسن الدعاء لنصرة المجاهدين؛ من الضعفاء والفقراء والمرضى والعجزة، فلا يستطيعون إيفاء احتياجاتهم الجهادية، قال الله تعالى: **{لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** (التوبة: ٩١)، يقول ابن الجوزي: (الضعفاء هم الذين يضعفون لزمانة^(٤))، أو عمى، أو سن، أو ضعف في الجسم، والمرضى: الذين بهم أعلال مانعة للقتال، و **{الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ}** المقلون، هؤلاء ليس عليهم ضيق في الجهاد بشرط النصح لله ولرسوله، إذا برئوا من النفاق، ويحفظون الذراري والمنازل، وحث المسلمين على الجهاد، والسعي في إصلاح ذات البين، وسائر ما يعود باستقامة الدين)^(٥).

(١) سنن الترمذي: ك/المناقب، ب/ في مناقب عثمان بن عفان، ص/ ٨٣٩، ح/ ٣٧٠١. (حسنه الألباني)

(٢) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث د. على محمد الصلابي: ج/ ٢، ص/ ٥٢٨-٥٢٩ باختصار، دار النشر والتوزيع الإسلامية/ القاهرة، ط/ ٢٠٠١م.

(٣) التفسير الواضح لمحمد محمود حجازي: ج/ ٢، ص/ ١١، ط/ ٢١، مطبعة الاستقلال/ القاهرة، ط/ ١٩٦٨م.

(٤) أي ميتلى بعاهة طويلة، انظر لسان اللسان لابن منظور: ج/ ١، ص/ ٥٥٥.

(٥) زاد المسير لابن الجوزي: ص/ ٦٠٠ بتصرف

القسم الثاني: هم الذين لا يجدون ما ينفقون، ومع ذلك أرادوا الخروج، إلا أنهم عادوا محزونين، دامعة عيونهم، لأنهم ما خرجوا، ولم يجدوا من يعينهم على الخروج والجهاد، (فبلغ الأمر بهم إلى حد البكاء شوقاً للجهاد وتحرراً من القعود، حتى نزلَ فيهم قرآناً، قال تعالى: **﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾** (التوبة: ٩٢)(١).

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال: ("إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم"، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: "وهم بالمدينة، حبسهم العذر") (٢)،

(وجاء الأشعريون يتقدمهم أبو موسى الأشعري، يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم، أن يحملهم على إيل ليتكفروا من الخروج للجهاد، فلم يجد ما يحملهم عليه حتى مضى بعض الوقت، فحصل لهم على ثلاثة من الإبل) (٣)، ففي الحديث: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: فقلت: يا نبي الله إن أصحابي إليك لتحملهم. فقال: "والله لا أجد ما أحملكم على شيء" ثم قال: فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالا ينادي: أي عبد الله بن قيس! فأجبتة. فقال أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك. فلما أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خذ هذين القرينين، وهذين القرينين، وهذين القرينين، (لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد) فانطلق بهن إلى أصحابك) (٤).

أما الباقون وهم البكاؤون (٥) فقد عادوا بكل الحزن والأسى، يضربون أروع الأمثلة في سرعة امتثال أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، فظهر طيب معدنهم وصدق إيمانهم وحسن إخلاصهم.

البند الثالث: الثلاثة الذين خلفوا:

مؤمنون صادقون يحبون الله ورسوله، أجلوا جهازهم وسوّفوا فتخلفوا بدون عذر، أو خلفوا لسبب من الأسباب، اعترفوا بذنوبهم وتابوا لربهم، وظهر صدقهم من خلال سلوكهم عندما ظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، قال الله تعالى: **﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾** (التوبة: ١١٨-١١٩). قَدِمَ المتخلفون بأعذارهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا بضعا وثمانين رجلاً، فقبل منهم صلى الله عليه وسلم علانيتهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى (٦).

(١) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي محمد الصلابي، ج/٢، ص/٥٣٠ باختصار

(٢) صحيح البخاري: ك/المغازي، ب./ ج/٢، ص/٨٧٧، ح/٤٤٢٣.

(٣) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي محمد الصلابي، ج/٢، ص/٥٣٠.

(٤) صحيح مسلم: ك/ الأيمان، ب/ندب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها، ج/٣، ص/١٢٦٩، ح/١٦٤٩/٨.

(٥) البكاؤون هم: سالم بن عمير، وسالم بن هرمي بن عمرو، وعلبة بن زيد، وأبو ليلي المازني، وعمرو بن غنمة، وسلمة بن صخر، والعرباض بن سارية، انظر طبقات ابن سعد: ج/٢، ص/١٦٥.

(٦) هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي لهدى اللحام: ص/٦٠٣.

أما الثلاثة الذين خلفوا فهم: هلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكعب بن مالك ؓ الذي سرد قصة اعتذاره على رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: (أما هذا فصدق فقم حتى يقضي الله في أمرك)^(١)، وكذلك قال لصاحبيه، فأخبرهم بذلك رسول الله ﷺ حتى يحكم الله فيهم، يقول الشوكاني: (أي وتاب على الثلاثة الذين خلفوا، أي أخروا ولم تقبل توبتهم في الحال... تاب الله على الثلاثة الذين أخروا ولم تقبل توبتهم في الحال)^(٢)، ويقول ابن الجوزي: (خلفوا عن التوبة... والقول الثاني: خلفوا عن غزوة تبوك)^(٣).

أرى أن أجمع بين القولين، أن الله قد خلفهم ليكونوا عبرة لغيرهم لبيان خطورة التخلف عن الجهاد، وأن رسول الله ﷺ هجرهم وأخبرهم ليكون عقابا لهم في الدنيا وبيان فضل التوبة والإنابة، وليأخذ المسلمون العظة من درس مساحته بدأت فصوله قاسية، ومراحله تشتد قسوة شيئا فشيئا، لتظهر مرحلة الاختبار الصعب؛ وكيف يحمص الله المؤمنين؟ من خلال شدة المعاناة التي لاقاها الثلاثة نفر ﷺ، ليبين الله تعالى خطورة التسويف في الطاعات، لذا نضع بعض التساؤلات التالية:

- ماذا يعني التسويف في طاعة الله؟ ولماذا يكون التسويف في الطاعات؟ وهل التسويف تعبير عن العجز؟ أم دلالة على دنو الهمة؟ أم تراخي في الطاعات؟ وهل يؤجل المرء عمل الخير على أمل تنفيذه لاحقا؟ وهل يقوم بذلك؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات نسوق قول الشاعر:

لا أوجل شغل اليوم عن كسل *** إلى غد إن يوم العاجزين غد^(٤)

- ماذا يعني أن يكون المرء صادقا في الاستغفار والعودة عن الذنوب؟ هل يلزمه استشعار ألم ذنبه في جنباته، ليزداد هما وغما وحزنا على سوء فعله، لتضيق نفسه بما ارتكبت جوارحه، فيصبح ويمسي بحسن طاعة ودوام استغفار وشديد ندم، رغبة في رحمة، ورهبة من عذاب.

- ماذا يعني أن يبتلى^(٥) المرء في جماعته وأهله ليقاطعوه مقاطعة شاملة؟ وما هو حجم الذنب الذي ارتكبه هؤلاء الثلاثة؛ حتى تكون هذه المقاطعة بهذا الحجم؟ إنه بيان لاستشعار عظم الذنب، ولبیان حكم الله في التخلف عن الجهاد، فإذا كان عقاب الله فيهم وهم الصادقون هذه المقاطعة؛ فكيف بمن تخلف عن الجهاد والغزو دون عذر؟ وكيف بمن يكذبون في تخلفهم؟ وكيف بمن ينخلفون رغبة في هزيمة المسلمين؟

(١) هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي لهدى اللحام: ص/٦٠٣.

(٢) فتح القدير للشوكاني: ج/١، ص/٧٧٠.

(٣) زاد المسير لابن الجوزي: ص/٦١٠-٣١١.

(٤) معجم الأمثال الفلسطينية لحسين اللوباني: ص/٦٦٤.

(٥) الابتلاء من: بلوت الرجل اختبرته، وابتلاه الله امتحنه، والبلاء في الخير والشر، انظر لسان اللسان لابن منظور: ج/١، ص/١٠٨.

• لقد كانت المحنة منحة لهؤلاء الصادقين، فعندما ازداد البلاء عليهم؛ ازدادوا التصاقاً بربهم، فقد منَّ الله عليهم من خلال صدق توبتهم وثباتهم، بالفرج والتوبة، ليكونوا قدوة لكل الصادقين الثابتين حتى آخر الزمان، مهما ادلهمت الخطوب، واشتد الحصار وكثُر الأعداء والمتخاذلون، فلا ييأس من روح الله ورحمته المؤمنون، مستعينين بعد الله بالصبر الجميل والثبات على دينهم، يقول على بن أبي طالب عليه السلام:

إذا اشتملت على اليأس القلوب *** وضاق لما في الصدر الرحيبُ.
وأوطنت المكاره واستقرت *** وأرست في أماكنها الخطوبُ.
ولم تر لانكشاف الضر وجهًا *** ولا أغنى بحيلته، الأريبُ^(١).
أتاك على قنوط منك غوثٌ *** يمينُ به اللطيف المستجيبُ.
وكل الحادثات إذا تناهت *** فموصول بها فرج قريبُ^(٢).

إنَّ فضل الله عظيم على الثلاثة الذين خَلَفُوا، حيث بدأ الله تعالى بتوبته على النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضي الله عنهم، ومن ثمَّ على الثلاثة بعد أن أرجأهم، فقال **﴿وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** (التوبة: ١٠٦)، (حيث وقعوا في ذنب التخلف عن الجهاد، وهؤلاء مرجأون لأمر الله، وهو عليم بأحوالهم وما تتطوي عليه قلوبهم. حكيم بما يفعله بعباده من ثواب وعقاب)^(٣) وأنه تعالى قد تاب عليهم قبل أن يتوبوا، واختتم الآية باسمه التواب واسمه الرحيم، وأثنى عليهم عندما خاطب المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، فأبي فرح أعظم من هذا، يقول كعب واصفا لحظة التوبة: (فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ. قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبْتُ، سَمِعْتُ صَوْتًا صَارِحًا أَوْفَى عَلَيَّ سَلَعُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ!، أَبْشِرْ. قَالَ فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنَّ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ. قَالَ فَاذْنِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم النَّاسَ بِتُوبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا، حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ. فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا. فَذَهَبَ قَبْلَ صَاحِبِي مُبَشِّرُونَ. وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا. وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قَبْلِي. وَأَوْفَى الْجَبَلِ فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ. فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبِي فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ. وَاللَّهِ! مَا أَمَلْتُكَ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ. وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا وَأَنْطَلَقْتُ أَنْتَمُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَنْتَلِقَانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونِي بِالتَّوْبَةِ يَقُولُونَ: لَتَهْنِئَكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ. حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ. فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ، وَحَوْلَهُ النَّاسُ. فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهُ يُهْرُولُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّائِي.. قَالَ كَعْبُ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَبْرِقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدْتِكَ أُمَّكَ)^(٤).

(١) الأريب: العاقل، والأرب: الدهاء والبصر بالأمر، انظر لسان اللسان لابن منظور: ج/١، ص/٢٢.

(٢) معجم الحكم والأمثال في الشعر العربي لأحمد قيش: ص/٥٣٩-٥٤٠.

(٣) المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة القرآن والسنة بوزارة الأوقاف المصرية: ص/٢٧٨ باختصار.

(٤) صحيح مسلم: ك/التوبة، ب/حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، ج/٤، ص/٢١٢٠، ح/٢٧٦٩.

يقول البقاعي: (ولما صرح بالتوبة على من قارب الزيف وخلط معهم أهل الثبات، إشارة إلى أن كل أحد فقير إلى الغني الكبير، وليكون اقترانهم بأهل المعالي، وجعلهم في حيزهم تشريفا لهم وتأنيسا، لئلا يشند إنكارهم، أتبعه التوبة على من وقع منه الزيف، فقال غير مصرح بالزيف تعليما للأدب وجبرا للخواطر المنكسرة: {وَعَلَىٰ} أي ولقد تاب على {الثلاثة الذين} خلفهم الرسول ﷺ بالهجران^(١) الهجر من كل الناس بل وأقربهم إليهم، حتى يحكم الله في أمرهم، فضافت الأرض على رحابتها وسعتها عليهم، من شدة القلق الذي ملأ قلوبهم، وكثرة الهم والغم والحزن الشديد الذي ألمَّ بهم، خوفا من عذاب الله، وأليم عقابه، فأيقنوا بقلقهم هذا الذي حارت له قلوبهم، وضافت عليهم أنفسهم التي ما استقرت على حال من أول يوم تمت المقاطعة فيه والهجران، كانوا يبحثون على همسة أو ابتسامة من شفتي رسول الله ﷺ، أو كلمة اطمئنان من صديق، رافضين أي عرض خارجي للخروج من دائرة الأمل والرحمة الربانية، إلى دائرة الضياع والتهيه والخسران، أو نعيم قليل مآله إلى زوال، لبيئنا خطورة أن يكون المسلم في كنف عدوه، فكيف والاتصال به لمظاهرتة على المسلمين، ولتظهر حجم معاناتهم، وصدق توبتهم وحسن ثباتهم على دينهم، نقل الزمخشري في تعريف التوبة النصوح: (أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه)^(٢).

فوائد وهدايات من قصة الثلاثة الذين خلفوا:

إن لقصة الثلاثة الذين خلفوا والتي سطرته آيات من سورة التوبة، والحديث الشريف فوائد جمة وكثيرة منها:

- أنه لا يجوز التسويف والتأخير في جميع الأعمال الصالحات، وخصوصا الجهاد في سبيل الله، لما في ذلك من تأخير نصر، أو استعجال هزيمة.
- الطاعات في وقتها سنة الصالحين المتقين، فلا يؤخر العمل الصالح عن وقته.
- لقد تفضل الله سبحانه على نبيه وأصحابه الذين خرجوا معه إلى الجهاد في وقت الشدة فثبتهم وصانهم عن التخلف^(٣).
- أرجأ الله أمر الثلاثة الذين خلفوا ليبين حكمه فيهم، بعدما أخلصوا توبتهم.. وشعروا أن لا نجاة إلا بالاستغفار والرجوع إليه، حينئذ هداهم لتوبته، وعفا عنهم ليظلوا عليها.^(٤)
- كرم الله أن يهيئ أسباب التوبة للمسلمين، ويعينهم على الثبات وحب الاستغفار.
- إن أعظم الصدق؛ صدق الاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله تعالى.

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٩٧-٣٩٨ باختصار وتصرف.

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري: ج/٢، ص/٣٣٩-٣٤٠.

(٣) المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة القرآن والسنة بوزارة الأوقاف المصرية: ص/٢٨١.

(٤) المصدر السابق: ص/٢٨١.

- ضرورة تسابق الناس في نشر الخير، كإعلان نصر المسلمين، وهزيمة المجرمين.
- في منح البشير الثوبين؛ دليل على أن إعطاء المُبَشِّرِ سنة وشيعة الصالحين.
- ضرورة الحرص على سنة سجود الشكر، عند النعم المتجددة والنعم المنذفة.
- استحباب تهنئة من تجددت له نعمة دينية، وخاصة إحياء سنة، أو مواظبة على طاعة والقيام إليه إذا أقبل، ومصافحته، فهذه سنة مستحبة.
- ما عرف العبد الصالح من فضل؛ أعظم من فضل توبة الله، لهذا جعل النبي ﷺ يوم توبة كعب خير يوم مر عليه منذ ولدته أمه، فتوبة الله على العبد خير أيامه على الإطلاق وأفضلها؛ لقول النبي ﷺ: (أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك)^(١)، فدلّل الرضا قبول الأعمال، ومن أعظم الأعمال دوام الاستغفار والله جل في علاه قد قبل استغفارهم، كيف لا؟ وقد رضي الله عنهم. وبالتالي ما عرف العبد الصالح من فضل؛ أعظم من فضل توبة الله، لهذا جعل النبي ﷺ يوم توبتهم خير يوم مر عليهم منذ ولدتهم أمهاتهم، ومن استعظم ذنبه أدرك عفو ربه وتوبته، فسبحان من لا يسع العباد غير عفوهِ ورحمته.
- سرور النبي ﷺ بتوبة الله على الثلاثة دليل على كمال شفقتِهِ ورأفته ورحمته بآمته.
- استحباب الصدقة عند التوبة، لقول كعب: (إن من توبتي أن أنزع من مالي)^(٢).
- في هذه القصة يظهر فضل الصدق، ومقدار تعلق سعادة الدنيا والآخرة والنجاة بذلك، فالصدق نجاة والكذب مهلكة، فبصدقهم رفع الله منزلتهم، ومنّ عليهم بتوبته،

البند الرابع: المنافقون ومسجد الضرار:

هم أهل الزيغ والضلال، والقلاقل والاضطرابات، أعلنوا عداوتهم وبغضهم لرسول الله ﷺ ودينه منذ قدومه المدينة، فقلّبوا الأمور له ابتغاء الفتنة، فكان هذا سعيهم ودينتهم، يتحينون الفرص لذلك حتى جاءت فكرة مسجد الضرار، فتعاون على بنائه (اثنا عشر رجلا منهم، وهم خدام بن خالد وهو صاحب الفكرة وفي بيته دبروها...حيث وصفه المؤرخون بأنه مسجد "الشقاق"، وقد كان الغرض منه سياسيا، بجعله نواة لحزب سياسي يناوئ النبي ﷺ ودينه)^(٣)، إنها سنة المنافقين في كل زمان ومكان، الانتشاق والفرقة، وهذا ما يفعله اليوم، كثير من المنافقين في كثير من البلاد، من استغلال الأماكن العامة، ومؤسسات ظاهرها الخير وباطنها الشر المحض، ساعين للفتنة والشقاق، ينتظرون بعملهم هذا عدوا لغزو ديار المسلمين فكريا وسياسيا وثقافيا أو حتى عسكريا، فكم خذلوا بذلك المؤمنين من أول الطريق إلى تبوك، ومنهم

(١) صحيح مسلم: ك/التوبة، ب/حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، ج/٤، ص/٢١٢٠، ح/٢٧٦٩.

(٢) نفس المصدر السابق: ج/٤، ص/٢١٢٠، ح/٢٧٦٩.

(٣) ثورة الإسلام وبطل الأنبياء لمحمد لطفي جمعة: ص/١٠٤١، مكتبة النهضة المصرية/ القاهرة، بدون طبعة.

من اعتذر عن الخروج والركون إلى الدنيا، وخرج البعض للتخذيّل، ومخالفة الأوامر وحبك المؤامرات وعلى رأسها محاولة اغتيال رسول الله ﷺ^(١).

هم الذين كرهوا الخروج وآثروا القعود وابتغوا الفتنة في المسلمين، وقلبوا الأمور باصطناع المؤامرات والفتن، يحبون كل مصيبة في المسلمين، ويسوؤهم أي فرح لهم، هم المرجفون المرتعبون الخائفون المرتعدون، هم الذين استهزؤوا ومازلوا بصدقات المقلين، ويطعنون في دين المكثرين، المتخلفون المتخاذلون، فبرعوا في فن الأعدار والاعتذار، هم الذين اتخذوا مسجد الضرار، وما أدراك ما مسجد الضرار؟ قال تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أُرْدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ} * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} * لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ { (التوبة: ١٠٧-١١٠).

(هو بيان مستأنف للفرق بين مقاصد أهل مسجد التقوى الصادقين في جميع الأحوال، القاصدين تزكية نفوسهم، وإصلاح سريرتهم، ساعين لمرضاة ربهم، وبين مقاصد أهل مسجد الضرار الذي بنوه على شفا جرف هار آيل للسقوط والانحلال ومشرف على الزوال، حيث أسسوه على الضرر والضرار، ويقوي أعمال الكفر ويوالي الكفار ويفرق جماعة المؤمنين، يترصدون من خلاله مساعدة من حارب الله ورسوله، مع ما يكون لعمله في الدنيا من العار والفضيحة والخزي والبوار، وفي الآخرة الانهيار في نار جهنم)^(٢).

لقد جاءت هذه الصورة تُذَكِّرُ المؤمنين بعهدهم وبيعتهم مع ضرورة التوبة والاستغفار، وتحذر من خطورة المنافقين، ومؤامراتهم التي يحكيونها في أخص أماكنهم، وأمام أعينهم، لئلا يغتر المؤمنون بسلوك المنافقين، فالغفلة من أخطر الأسلحة فتكا بالمسلمين.

وفي سبب نزولها: (إن أناسا من الأنصار بنوا مسجدا، فقال لهم أبو عامر: ابنتوا مسجدكم، واستمدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فأتي بجند فأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم، أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا بنينا مسجداً فصلّ فيه، فنزلت: {لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا}^(٣).

ذكر محمد رشيد رضا أربعة أغراض من أجلها بنى المنافقون مسجدهم، وهي:

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية، منير محمد الغضبان: ج/٣، ص/١٩٠-١٩١.
(٢) تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي: م/٤، ج/١١، ص/٢٧-٢٨ بتصرف.
(٣) أسباب النزول للسيوطي: ص/١٥١.

- إيقاع الضرر بالمؤمنين، الذين بنوا مسجد قباء.
- تقوية الكفر من خلال تسهيل أعماله، كترك الصلاة.
- التفريق بين المؤمنين، وشق صف المسلمين بين مسجدين متجاورين.
- الترقب في انتظار من يريد محاربة الله ورسوله، فإن جاءوا وجدوا قوما راصدين مستعدين للحرب معه^(١).

يقول البقاعي: (الذي ترهب في الجاهلية، ولبس المسوح، فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال له: ما هذا الدين الذي جئت به؟ قال: الحنيفية، قال أبو عامر: أنا عليها، قال لست عليها، قال: بلى ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها، قال: ما فعلت، ولكني جئت بها بيضاء نقية، قال أبو عامر: أمات الله الكاذب منا طريدا شريدا وحيدا غريبا! فقال ﷺ: آمين! وسماء الفاسق، ثم تحيز إلى قريش وقاتل النبي ﷺ معهم يوم أحد وقال لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلما قاتل يوم حنين مع هوازن وانهزموا أيس وهرب إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين، أن استعدوا فإنني ذاهب إلى قيصر فأت بجنود ومخرج محمداً! وكانوا قد حسدوا إخوانهم بني عمرو بن عوف على مسجد قباء لما بنوه الروم)^(٢). يتبين من ذلك الدور الذي يلعبه أبو عامر الفاسق بالأمس واليوم، (فأبو عامر هذا يتكرر نمطه بمؤسساته المحلية والعالمية التي تتعقب المسلمين وتحارب فيهم الإسلام، لتدفنهم أحياء، أو تقتلهم بوحشية لا تكون إلا من أبي عامر الفاسق الذي لبس زي الصهيونية والصليبية الحاقدة، ليمارس هو وأسياده التطهير العرقي للمجاهدين دون اعتراض من أمثاله، إن لم يكونوا مشاركين في كثير من هذه التصفيات)^(٣).

المطلب الثالث: الآثار والأخطار المحدقة بالمسلمين بسبب وجود المنافقين بينهم:

أيا كان مسمى المنافقين، فإنهم جزء من المجتمع، لهم أنساب وأصهار وأبناء وزوجات فهم شريحة من الناس، يعيشون في مجتمع مدني، يبيعون ويشترون ويتزاورون، ويَنكحُونَ وَيُنكحُونَ، بل ويذهبون إلى المساجد، وربما يُصلُونَ في الصف الأول، ويناقدون في أمر دينهم، بل ويتعلمون إما للإفادة، أو للمجادلة، أو الطعن، كما أنهم يسافرون ويرحلون ويرتلون دون قيود، لذلك كانت آثارهم السلبية والمتباينة في المسلمين شديدة، بسبب توجهاتهم الخفية، وبالتالي فخطرهم مخفي، بل أشد ما يكون، نتيجة تواصلهم الاجتماعي في الناس، فكثير منهم لهم أبناء صالحون، كعبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، وحنظلة بن أبي عامر الراهب (الفاسق)، غسيل الملائكة، وكذلك العكس، كما أن لهم آثارا اقتصادية سيئة على المجتمع، من خلال بخلهم وطعنهم في المكثرين، واستهزائهم بالمقلين، كما أن تواصلهم مع

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ج/١١، ص/٣٩ باختصار.

(٢) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٨٥-٣٨٦ باختصار.

(٣) التربية الإسلامية في سورة التوبة د. علي عبد الحليم محمود: ص/٣٠٥ بتصرف.

الكافرين، من خلال تواطئهم ومؤامراتهم، يعكس آثارا سياسية خطيرة وفادحة، ناهيك عن الأخطار العسكرية الناجمة عن هذا التواطؤ، وكذلك قعودهم وتخلفهم، وطعنهم في المجاهدين، ومحاولاتهم المستمرة للتخذييل وتثبيط الهمم.

لذا فإن وجود النفاق والمنافقين في المجتمع المسلم يشكل خطرا شديدا، بسبب اطلاعهم على بواطن الأمور، ومواطن الضعف والقوة، وفي ذلك يكمن الخطر، لأن المؤمنين يأمنون جانبهم، فكيف يحذر المرء أخيه وعمه وأبيه، وربما أمه، عندما يتولون أعداء الله سرا دون علم أحد، لذلك حذر الله تعالى عباده المؤمنين من موالاة الكافرين، وخاصة أولي القربى أشد الحذر، قال الله تعالى: **لَا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحْبَبُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** {التوبة: ٢٣}.

لهذا كانت آثارهم خطيرة جدا على حياة الناس، بفعل التواصل الأسري والاجتماعي، لأنهم مطلعون على كثير من أسرار المسلمين، فلا بد أن يأخذ المؤمنون حذرهم، كما يفعلون مع عدوهم، لأنهم العيون المفتوحة للكافرين على المؤمنين، لذا فإن تتبع سلوك المنافقين في السورة، وبيان تصرفاتهم قبل وخلال وبعد غزوة تبوك، لنجد الكثير من الآثار السلبية، التي يجب على المسلم أن يتنبه لها، ويأخذ حذره منها، بل ويحتاط المسلمون لذلك أشد الحيلة لكثير من تحركاتهم وعلاقاتهم المريبة، وخصوصا في زماننا، حيث تختفي فيها عوامل الاتصال بينهم والكافرين، بسبب التطور المهول الذي طرأ على كثير من الأجهزة، ليدركوا حقيقة أخطارهم المحدقة والآثار المترتبة على ذلك في نفوس المؤمنين:

- آثارهم خطيرة على المنظومة الاجتماعية والقلبية والعائلية والأسرية، كونهم آباء وأبناء وأخوة وأصهارا وأنسابا، فمن السهولة أخذ المعلومات من هذا الطريق.
- من خلال هذه المنظومة الاجتماعية، يعمل المنافقون على بث الشائعات في صفوف المسلمين، وتثبيط هممهم، وبث روح الوهن والضعف في الأمة.
- يحاول المنافقون جاهدين أن يغرقوا الأمة بمظاهر الفساد والإفساد والفاحشة والرذيلة، حتى لا تقوم للأمة قائمة.
- يحاول المنافقون زرع الخوف والفرع والجبن في الصف المسلم، من خلال طبيعتهم الجبانة، والموروثة، والتي يحاولون توريثها لغيرهم، وخاصة بمن يتقون بهم من أقاربهم، بوسائلهم المتعددة.
- إن للمنافقين أثرا كبيرا في بث روح الفرقة والتباغض والكراهية بين المسلمين، كما يعملون على تفتيت المجتمع، وتقسيمه إلى طوائف وشيع وأحزاب.
- يسعى المنافقون لإثارة الفتن والقتال بين المسلمين، من خلال الطعن في المجاهدين.
- إن فرح المنافقين بمصائب المؤمنين، تحزن المؤمنين، وتصيبهم ببعض الكمد.

- يسعى المنافقون من خلال استهزائهم وهمزهم وغمزهم ولمزهم إلى تفريق المسلمين وبت روح الوهن والضعف، وعدم الثقة بالنفس.
- كثيرا ما يستخدم المنافقون أموالهم كورقة ضغط ضد فقراء المسلمين، لإغوائهم، أو أغرائهم، ثم إسقاطهم ليكونوا عيوننا لهم تعينهم للوصول إلى مآربهم، وأهدافهم الخبيثة.
- التشكيك في سياسة الرسول ﷺ الاقتصادية، من خلال لمز الصدقات التي يوزعها على فقراء المسلمين، وإلا ماذا يعني أن يلمزونه في الصدقات، قال الله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ} (التوبة: ٥٨)، كما أنهم طعنوا في المكثرين استهزؤوا بعبء المقلين، قال تعالى: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (التوبة: ٧٩).
- إن الآثار السياسية التي يخلفها المنافقون، وخاصة عندما يكونون في السلطة، من خلال علاقاتهم مع الكافرين تُحْمَلُ البلاد حملا ثقيلًا، تنوء بحملها الجبال، عندما يغرقون البلاد بالمعاهدات الظالمة والمجحفة.
- يحاول المنافقون بكل ما أوتوا من وسائل الكيد والمؤامرات والتواطؤ لنقل أسرار المسلمين إلى عدوهم، وكشف عوراتهم لعدوهم، والتجسس عليهم. وبت العيون فيهم.
- ما سبق كله يؤثر سلبيًا على الناحية العسكرية، فكل هدف المنافقين إزاحة المسلمين من طريقهم، وهذا ما كان من خلال مسجد الضرار.
- إن ركون المنافقين وحبهم للعود مع إمكانية جهادهم، وتوفر ما يعينهم على الجهاد، يترك في بعض المؤمنين الحزن والألم، ألا يجدوا ما ينفقون.
- إن خروج المنافقين مع المجاهدين يزيد المؤمنين تخبطًا واضطرابًا، وضعفاً ووهنا، وفسادا وشرا، مما يؤثر على الروح المعنوية، محاولين إيقاع الخلاف بين المؤمنين^(١).
- يحاول المنافقون إلغاء فريضة الجهاد، لتبقى الأمة في حالة من الضعف والخور، تنتسول حقوقها المسلوبة، وهي ضعيفة ذليلة.
- إن فضل الله تعالى ورحمته ومغفرته لعباده؛ ليست مرتبطة بكثرة صدقة أو كثرة عبادة، بقدر ما هي مرتبطة بصدق التائبين وإخلاص العابدين، فقد غفر الله تعالى للبكائين لإخلاصهم، وللثلاثة لصدقهم.
- يحاول المنافقون دائما الطعن في آيات الله، متعللين بالوقائع والظروف، مشككين في دين المسلمين وعقيدتهم.

(١) تفسير القرآن الكريم للأطفال، إعداد الشيخ مجدي السيد: ج/٢/١٠٢/ص/٣١، بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، دار الصحابة للتراث/طنطا، ط/٤/٢٠٠٢م.

المطلب الرابع: الأثار التربوية لغزوة تبوك على المسلمين:

لا بد لكل تجربة تمر بالإنسان أن يكون لها أثر في حياته سلبياً أم إيجابياً، لذلك كان لزاماً على المؤمنين الصالحين الصادقين المجاهدين، أن يعلموا أن الله يقبل التوبة من عباده العاملين، والذين خلطوا بين الصالح منها، والسيئ، وأنه جل في علاه سوف يرى هذه الأعمال، {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ*} وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ* وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (التوبة: ١٠٤-١٠٦)،

لقد كان لهذه الغزوة الكثير من الدروس والهدايات التربوية العظيمة التي يحتاج إليها كل مؤمن في طريقه إلى الله ولقائه واستخلاص العبر التي أرادها الله تعالى لهذه الأمة:

- يجب أن يكون أمر الله مقدم على كل شيء، فلا بد أن يمثل المسلمون أمر ربهم أياً كانت الصعوبات والشدائد، فقد امتثل الصحابة الكرام ﷺ أمر ربهم رغم طول السفر وبعد المسير، وشدة الحر، والمال عزيز، لذا وجدنا السابقون بكل الحب والترحاب وعن طيب نفس ينفقون أعز ما يملكون، ومن لم يجد، {تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ} (التوبة: ٩٢).
- لقد كان للإنفاق والجهاد أثر تربوي كبير في نفوس المؤمنين، حيث كان المال عزيزاً لقلته، حيث انزع كثير من الصحابة من أموالهم كأبي بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف والعباس وغيرهم ﷺ أجمعين بسخاء حبا في الله ورسوله، وجهاداً في سبيله، ثم توافد المسلمون كل بحسبه ينفق ما يستطيع وما يملك، ومع أن المسلمين أغلبهم من الفقراء، ومنهم من بلغ من الفقر والضعف ما بلغ إلا أنهم بذلوا ما بأيديهم، وقدموا ما بوسعهم، كما جاءت النساء بما قدرن عليه من صدقاتٍ وحليٍّ وخلخل وقروط وخواتم، وألقينه بين يدي رسول الله ﷺ، آثروا جنة عرضها السموات والأرض على تجمُّلِهِنَّ وزِينَتِهِنَّ. ليكون في ذلك أكبر الأثر في تربية النفوس المسلمة رجالاً ونساءً، على العطاء والجهاد بالنفس والمال.
- لا بد من التأكد من صدق الصادقين وكذب المكذابين، حتى يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وحتى لا يؤتى المسلمون من مآثمهم.
- إن المؤمنين لا يستأذنون في الجهاد، بل يتقدمون الصفوف ويسارعون إليه بالغالي والنفيس، ومن يتخلف منهم فإنه يسرع في التوبة النصوح الصادقة.
- يجب أن يسعد المؤمنون لتخلف المنافقين عن الجهاد، وذلك لأن وجودهم زيادة في الشر والفساد ويثيرون الفتن ليزداد المؤمنون تخبطاً واضطراباً.

- لا بد أن يحذر المؤمن من مجالسة المنافقين، والاستماع لهم، لأن في ذلك شر محض.
- إن في الجهاد عزة لا يبلغها ولا ينالها إلا المجاهدون، نظراً لما يناله المجاهد من نصر وتمكين، أو شهادة وتكريم، من الله الكريم.
- إن المؤمن يَفْتَمُّ على الجهاد بروح الاستبسال والإقدام، والرضا والاطمئنان، لأن الحافظ هو الله، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: (كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، فقال: "يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقاليم وجفت الصحف")^(١).
- ضرورة تجنب أعمال الفسق والفجور، والذنوب والمعاصي، لأن هجرها من علامات قبول الأعمال عند الله تعالى.
- يجب أن لا يكون لأموال المنافقين ولا أولادهم أي اثر من الإعجاب في نفوس المؤمنين، لأنها علامة من علامات عذابهم في الدنيا والآخرة.
- إن شجاعة المرء وإقدامه، وحرصه على الجهاد، علامة من علامات إيمانه، التي تميزه عن المنافقين، وتبعده عنه الجبن والهلع والفرع، التي يتصف بها المنافق.
- يجب على المؤمن أن يتعفف عن الصدقات، وألا يطمع فيها، فعن حكيم بن حزام رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اليد العليا خير من اليد السفلى، وأبدأ بمن تعول، وخير الصدقة عن ظهر غنى، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله)^(٢).
- لا بد أن يتعلم المسلم تمام الرضا عن ربه ويرضى بعطائه ورزقه لينال مرضاة ربه.
- يجب أن يخرج المسلم زكاة ماله في مصارفه الشرعية، ويتجنب الإنفاق لهوى متبع، أو ظلم، أو عدوان.
- إن أي أذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو أذى لله جل في علاه، مما يستوجب الدفاع عنه.
- إن عدم الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام حملات التشويه التي يتعرض لها صلى الله عليه وسلم من قبل المجرمين، جعل الكثير من أوباش الحاقدين من اليهود والنصارى وحتى المنافقين العرب، يتمادون في تطاولهم على خير البرية صلى الله عليه وسلم، مما شجع هؤلاء المجرمين على إعادة نشر صور الطعن في دين الله ورسوله والاستهزاء به صلى الله عليه وسلم من قبل عدة صحف أجنبية وعربية، استهزاءً بالمسلمين. وطعنا في الدين.
- خطورة الاستهزاء بالمؤمنين، لأن الاستهزاء بهم؛ هو استهزاء بالله وآياته ورسوله.

(١) سنن الترمذي: ك/صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ب/...، ص/٥٦٦-٥٦٧، ح/٢٥١٦. (صححه الألباني)

(٢) صحيح البخاري: ك/الزكاة، ب/لا صدقة إلا عن ظهر غنى، ج/١، ص/٢٨٠، ح/١٤٢٨.

- إن الاستهزاء بالمؤمنين بقصد التخذيل والطعن فيهم كفر بالله ورسوله.
 - يحب أن يكون مسعى المؤمنين فقط في المقام الأول، نيل رضا الله تعالى.
 - لقد حفظ رسوله ﷺ من محاولة اغتياله من قبل المنافقين في طريق عودته من تبوك، **{وَهُمْؤَا بِمَا لَمْ يَنَالُوا}** (التوبة: ٧٤)، مما يدل على أن أسلوب الاغتيال لدى المنافقين قديم وإلى يومنا، أسلوبهم الرخيص للتخلص من أولياء الله، الذي تعهد بحفظهم، من خلال حفظه لدينه.
 - إن للمكثرين والمقلين في إخلاص صدقاتهم لله أجراً عظيماً عند الله، ووعده بالعذاب الأليم من يستهزئ بهم.
 - إن التخلف عن الجهاد أمانة من أمارات النفاق، ودلالة على عدم فهم الوقائع الحياتية، وسنة التدافع الكونية.
 - إن عدم خروج المنافقين للجهاد هو عقاب إلهي، وحرمان من شرف عظيم لا يناله إلا الصادقون الخالص.
 - بما أن الله سيطلعنا على جميع أعمالنا، لذا يجب أن يخلص المؤمن في جميع أعماله، ويحرص على صلاحها.
 - يجب أن يدرك المؤمن أن المنافقين فيهم كل صفات الخسة والندالة والقذارة، وبالتالي على المؤمن أن يتخلى عن أي صفة تقارب صفاتهم.
- وغيرها الكثير لو أبحرنا النظر في آيات الله، لوجدنا نبعا من الآثار التربوية التي لا تنبض.

الفصل الخامس

البيعة من خلال السورة

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: البيعة أساس في دين الله تعالى:

المبحث الثاني: البيعة أول الإسلام:

المبحث الثالث: فضل الله على أمة الإسلام بمبعث سيدنا محمد ﷺ

المبحث الأول

البيعة أساس في دين الله تعالى

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: تحديد أهداف ومقاصد الموضوع وتحليلها:

المطلب الثاني: تعريف البيعة.

ويشتمل على ثلاثة بنود:

البند الأول معنى البيعة لغة واصطلاحاً.

البند الثاني: أركان البيعة وشروط الإمام.

البند الثالث: البيعة في الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أسباب البيعة

المطلب الرابع: أنواع البيعة.

المطلب الخامس: صور البيعة.

المطلب الأول: تحديد أهداف ومقاصد الفصل الخامس وتحليلها:

أولاً: تحديد أهداف الفصل الخامس وتحليلها:

- أن يدرك المؤمن أن الإيمان نطق باللسان، وتصديق بالقلب، وعمل بالجوارح، وابتلاء في الأموال والأنفس^(١).
- أن يبذل المسلم من أجل بيعته مع الله، نفسه وماله في سبيل الله طمعا في الجنة.
- أن يستشعر المؤمن عظمة البيعة والعهد، وصفقتها الرابعة مع الله.
- أن يستوعب المسلم أن الجهاد في سبيل الله من أفضل الطاعات لله رب العالمين.
- أن يعلم المسلمون أن الله كتب عليهم الجهاد، وأخبر عن ذلك في الكتب السابقة^(٢).
- أن يفِي المسلم بعهده، ويحذر من أن ينكث البيعة مع الله تعالى.
- أن يستبشر المؤمنون بوعد الله، لتتحقق وعده سبحانه وتعالى.
- أن يذكر فضل الله على أمة الإسلام ببعثة رسول الله محمد ﷺ
- أن يذكر فضل رسول الله ﷺ بعد الله على الأمة.
- أن يتعرف المسلم على بعض صفات النبي ﷺ^(٣).
- أن يدرك المؤمنون حرص النبي ﷺ على سلامة أمته من النار، وشفقته عليهم من أي أذى يصيبهم، وأنه بهم رؤوف رحيم.
- أن يدرك المؤمن أن الله حسبه وكافيه، وناصره على أعدائه^(٤).
- أن يترقب المؤمنون نصر الله، بحسن التوكل عليه، والعمل من أجل ذلك^(٥).
- أن يحرص المؤمن على صدق بيعته مع الله تعالى من خلال جهاده لتكون كلمة الله هي العليا^(٦).
- أن يتعلم المؤمن الصفات التي يحبها الله تعالى في عباده الصالحين المجاهدين^(٧).

(١) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب: م/٣، ص/٨٩٨، دار الفكر العربي/القاهرة بدون طبعة

(٢) أحكام القرآن لأبي بكر العربي: القسم الثاني، ص/١٠١٩، دار الفكر/بيروت، بدون طبعة.

(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٢٣٥.

(٤) المصدر السابق: ص/٢٣٨.

(٥) المصدر السابق: ص/٢٣٨ بتصرف

(٦) التربية الإسلامية في سورة التوبة د. علي عبد الحلیم محمود: ص/٣٢٣ بتصرف.

(٧) المصدر السابق: ص/٣٢٤.

ثانياً: تحديد مقاصد الفصل الخامس وتحليلها:

- بيان أهمية البيعة، وأن الجهاد فريضة ماضية إلى قيام الساعة.
- بيان أن لا أحد أوفى من الله تعالى^(١). مع المبالغة في الإنجاز، وتقرير كونه حقاً^(٢).
- بيان وجوب الفرح والاستبشار بالبيعة مع الله تعالى^(٣).
- بيان أن أنفس المؤمنين وأموالهم، أصل المبيع ومقصد العقد مع الله الجنة^(٤).
- بيان السهولة والمسامحة في المبايعة والعفو عن الذنوب والإيصال إلى درجات الخيرات ومراتب السعادات^(٥).
- أهمية الوفاء بالوعد، وأن ذلك من صفات المؤمنين.
- بيان أن لا نصير ولا مولى للمسلمين إلا الله تعالى.
- بيان أن توبة الله أعظم نعمة بعد نعمة الإيمان والإسلام.
- بيان أن رسول الله ﷺ أفضل الخلق وأكثرهم طاعة، وأشرفهم نسباً^(٦).
- يتعلم المسلمون حرص الرسول ﷺ على أمته، وبيان رأفته ورحمته بالمؤمنين^(٧).
- على المسلم أن لا يحزن تولى الكفار وأعرضوا
- يتعلم المسلمون شيئاً عن رحمته ﷺ وعن حزنه وأسفه ﷺ^(٨).
- إنَّ تعظيم شأن العرش، إنما جاء لبيان وشرح عظمة الله تعالى^(٩).
- جعل الله تعالى العبادات لمصالح مرعية في الدين والدنيا لجلب المنافع المقصودة ودفع المضار^(١٠).
- بيان صفات المبايعين التي تميزهم بالتوبة والتوحيد الخالص بالعبادة الدائمة، والحمد في السراء والضراء، يرتقون بأنفسهم بالجهاد، ويأخذون العبر والعظات، ويمسكون عن الشهوات، أمرون بالمعروف وناهون عن المنكر محافظين على حدود الله ودينهم وثوابتهم، مدافعين عن حرمة الله كل فاسق وسلبى لا يحمل من الإسلام إلا اسمه^(١١).

(١) تفسير النهر الماد من البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: ج/٢، ص/١٠٠٥، دار الجنان/ بيروت، ط/١/١٩٨٧م.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي: م/١، ص/٤٢٢، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/١/٢٠٠٣م.

(٣) المصدر السابق: ص/٤٢٢ بتصرف.

(٤) محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي: م/٥، ص/٣٣٢، دار الفكر/ بيروت، ط/٢/١٩٧٨م.

(٥) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٩٩.

(٦) النكت والعيون للماوردي: م/٢، ص/٤١٧ بتصرف، دار الكتب العلمية/بيروت، ط/١/١٩٩٢م.

(٧) المصدر السابق: ص/٤١٨ بتصرف.

(٨) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٢٣٨.

(٩) المصدر السابق: ص/٢٣٨.

(١٠) التربية الإسلامية في سورة التوبة د. علي عبد الحلیم محمود: ص/٣٢٩ بتصرف.

(١١) المصدر السابق: ص/٣٣١ بتصرف.

المطلب الثاني: تعريف البيعة

البند الأول: معنى البيعة لغة واصطلاحاً:

البيعة لغة: بيع: بعت الشيء بمعنى اشتريته، البيعة هي الصفقة على إيجاب البيع وعلى المبايعة والطاعة^(١)، والبيعة: المبايعة والطاعة. وبايعه على مبايعة: عاهده^(٢).

البيعة اصطلاحاً: يقول ابن خلدون في مقدمته: (اعلم أن البيعة هي العهد على الطاعة، كأنَّ المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له النظر في أمور نفسه وأمور المسلمين، لا ينازعه في شيء من ذلك، وأن يطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكروه، وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري، فسمي بيعة مصدر باع، وصارت البيعة مصافحة بالأيدي، هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد في الحديث في بيعة النبي ﷺ ليلة العقبة وعند الشجرة)^(٣).

إن البيعة عقد بين جماعة المسلمين كطرف، والإمام أو الخليفة كطرف ثاني، والخلافة هي موضوع البيعة والعهد الذي يقطعه الخليفة على نفسه^(٤)،

لذا فالبيعة ميثاق متبادل بين أهل الحل والعقد وعموم المسلمين، وبين الإمام، على الولاء والنصرة لله ورسوله، والسمع والطاعة لولي الأمر من غير معصية.

فالبيعة في جوهرها عقد يلتزم به الإمام المرشح لرئاسة الدولة على الحكم بالكتاب والسنة والنصح للمسلمين، مع عموم المسلمين الذين يبايعونه على السمع والطاعة في الله.

مفهوم البيعة:

على ضوء ما سبق؛ فإنني أرى أن مفهوم البيعة، يجب أن يفهمه كل مسلم آمن بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، أنها: قول وعمل بالكل القرآني والمجموع النبوي للأحاديث الشريفة، ومن خلال سلوك الصحابة الكرام ﷺ القائم على معايشتهم لرسول الله ﷺ، وتعاملهم مع الأحداث اليومية والحياتية، لذا فهي: عهد يقطعه المسلم على نفسه، بينه وبين ربه أولاً، بتوحيده تمام التوحيد دون شرك أو ريب، بحُسن طاعته الله سبحانه، والالتزام بكل مفردات الطاعة القرآنية والنبوية، قدر الاستطاعة، مجتنباً كل أنواع المعصية، مزدجراً كل نواهي ربه تعالى، يدخل في صلب هذه البيعة التبرؤ من كل شرك ومشرك، يوالي الله ورسوله والمؤمنين، حبا وطاعة ونصرة، مجاهداً في سبيل الله صادقاً، ممثلاً قول الله تعالى في صفات المؤمنين الصادقين: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا**

(١) كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي: ج/١، ص/١٧٦.

(٢) لسان اللسان لابن منظور: ج/١، ص/١٢٠.

(٣) مقدمة ابن خلدون: الفصل التاسع والعشرون، ص/١٤٨.

(٤) الفكر السياسي عند الماوردي، د. صلاح الدين بسبوني رسلان: ص/١٨٩ بتصرف، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط/١٩٨٣م.

وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} (الحجرات:١٥). لذا لا بد لكل مسلم أن يكون في رقبته بيعة لله ورسوله ولإمام المسلمين، كما أخبر ﷺ، بل على المسلم أن يتعجل في إتمام الصفة مع ربه لنصرة دينه وأمته.

البند الثاني: أركان البيعة وشروط الإمام:

من التعريفات السابقة يتبين أن للبيعة ثلاثة أركان:

الركن الأول: الإمام: هو الطرف المؤهل بشروطه لأخذ البيعة ليتولى منصب الخلافة ويلقب بالأمير أو الخليفة، وأهم الشروط التي أن تتوفر في الإمام المباح:

١- الإسلام. ٢- العقل. ٣- العلم. ٤- البلوغ. ٥- الرضا والاختيار. ٦- الحرية.

الركن الثاني: الجمهور: وهو الطرف الذي يعطي البيعة لمن يستحقها، من أهل الحل والعقد خاصة، والأمة الإسلامية عامة، حيث يتم ترشيح الإمام من خلالهم^(١).

بيعة عامة: وتأتي بعد البيعة الخاصة، وتكون عامة لكل الناس يأخذها الخليفة، بعد أن يتم اختياره والاتفاق عليه من قبل لجنة الحل والعقد، أو الأمير بنفسه أو من ينيبه عنه، وهي عبارة عن إعلان الولاء والطاعة والاعتراف بالأمر الواقع وعدم الخروج على الجماعة.

ولا يمنع العامة من البيعة بعد بيعة أهل الحل والعقد، وأهل الاختيار

الركن الثالث: موضوع البيعة: وهو إقامة نظام الخلافة الإسلامية وفقاً لكتاب الله وسنة رسوله من تطبيق للحدود والأحكام التي نصت عليها الشريعة الغراء^(٢).

البند الثالث: البيعة في الكتاب والسنة وأدلتها الشرعية:

طلب البيعة وأخذها لها سند شرعي في القرآن والسنة، وإجماع المسلمين^(٣)، فقد وردت في كتاب الله تعالى في ستة مواضع، في أربع آيات، وثلاث سور، في الفتح، قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا} (الفتح:١٠)، وقوله تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ..} (الفتح:١٨)، وكذلك في الممتحنة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (الممتحنة:١٢) والتي في التوبة: قوله تعالى: {..فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ..} (التوبة:١١١)^(٤)، لتظهر أهمية البيعة من خلال

(١) البيعة في النظام السياسي الإسلامي وتطبيقاتها، لأحمد صديق عبد الرحمن: ص/٣٥ بتصرف، مكتبة هبة، ط/١/١٩٨٨م.

(٢) نظام الحكم في الإسلام، د. عاف خليل أبو عيد: ص/٢٥٣ بتصرف، دار النفائس للنشر والتوزيع/عمان، ط/١/١٩٩٦م.

(٣) الفقه السياسي والدستور في الإسلام، د. فتحي الوحيد: ص/٦٥، مطابع الهيئة الخيرية بغزة، ط/١/١٩٨٨م.

(٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي: ص/١٤١.

(توكيده للمؤمنين الذين يبذلون أنفسهم وأموالهم، في سبيله، بأنه اشترى منهم تلك الأنفس والأموال بالجنة ثمنا لما بذلوا، فإنهم يجاهدون في سبيل الله فيقتلون أعداء الله أو يستشهدون في سبيله... فافرحوا أيها المؤمنون بهذه المبايعة)^(١).

أما أدلتها في السنة النبوية، فقد بايع النبي ﷺ بيعة العقبة الكبرى، وبايع المسلمون يوم الحديبية بيعة الرضوان، ونزلت آية الفتح فيها، وكان يصافح أصحابه ﷺ^(٢)، والأحاديث في ذلك أكثر من أن تحصى، فعن سلمة بن الأكوع ﷺ قال: (إن رسول الله دعانا للبيعة في أصل الشجرة. قال فبايعته أول الناس. ثم بايع وبايع..)^(٣)، وعن عبادة بن الصامت ﷺ، قال لنا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس: (تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف. فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فهو كفارة له. ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله: إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه. فبايعناه على ذلك)^(٤)، وعن أم عطية رضي الله عنها قالت: بايعنا النبي ﷺ فقراً علينا: { أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا } ونهانا عن النياحة..^(٥).

وكذلك أجمع علماء المسلمون على البيعة، بعد رسول الله ﷺ، ومن عهد الخلفاء الراشدين والصحابة ﷺ، إلى خلفاء بني أمية، إلا أن الحجاج ألزم أهل العراق مع البيعة، اليمين المغلظة على الوفاء، ثم تغيرت هذه الصورة إلى سابق عهدها لكن فكرة الحجاج عادت في يومنا عند تنصيب حاكم جديد بالقسم الدستوري، وعدم الخروج على النظام السائد^(٦).

المطلب الثالث: أسباب البيعة:

قبل الخوض في أسباب البيعة، لا بد من القول أن المبايع إنما يبايع ليلزم نفسه بالعهد الذي يقطعه على نفسه عند الدخول في الإسلام، ومناصرتة، لأنه سيصبح جزءاً من منظومته السياسية والاقتصادية والأمنية والعسكرية، كباقي المنظومات المجتمعية المختلفة، هذا الالتزام يقرر له حقوق ويوجب عليه واجبات، فإن التزم فاز بالجنة نظير بيعته، لذلك كان السبب الرئيس والغير مباشر، للبيعة هو تثبيت سلطة الإمام برضا الناس، وتوكيد هذا الرضا بعد خلو نصيب الإمامة من الإمام، الأسباب المباشرة للبيعة فهي:

السبب الأول: موت الإمام من غير أن يعهد لأحد بالإمامة من بعده.

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة القرآن والسنة بوزارة الأوقاف المصرية: ص/٢٨٠.
(٢) النظام السياسي في الإسلام د. عبد العزيز عزت الخياط: ٧٨-٧٩، دار السلام للطباعة والنشر/القاهرة، ط/٢٠٠٤م.
(٣) صحيح مسلم: ك/الجهاد والسير، ب/غزوة ذي قرد وغيرها. ج/٣، ص/١٤٣٣، ح/١٨٠٧.
(٤) صحيح البخاري: ك/الأحكام، ب/بيعة النساء، ج/٤، ص/١٤٢٧، ح/٧٢١٣.
(٥) المصدر السابق: ح/٧٢١٥.
(٦) الفقه السياسي والدستور في الإسلام، د. فتحي الوحدي: ص/٦٦-٦٧ باختصار.

السبب الثاني: خلع الإمام القائم لأمر يقتضي الخلع؛ كعجزه بمحاصرة، أو مرض.
السبب الثالث: تأكيد البيعة على النواحي والأقاليم لدفع توهم محاولة الخروج عن طاعة الإمام.

السبب الرابع: وفاة الإمام القائم وقد عهد لخلفه، فتؤخذ البيعة للجديد.

السبب الخامس: الاستيثاق بالبيعة لمن عهد إليه الإمام بالإمامة بعده، في حياته.
 هذه هي الأسباب التي تستدعي أخذ البيعة للاستيثاق من رضا الناس بمن عهد إليه الإمام بالإمامة من بعده، مما يستدعي ضرورياً من أشكال البيعة وكتابتها، مع اكتفاء الأوائل من المسلمين بالبيعة الشفوية^(١).

المطلب الرابع: أنواع البيعة:

تتنوع البيعة في ديننا كل حسب قدرته واستعداده، فقد أخذ النبي ﷺ من المسلمين البيعة على: الإسلام، والسمع والطاعة، والهجرة، وعلى الولاء والنصرة:

١ - البيعة على الإسلام والتوحيد:

حيث يبدأ المسلم عهده بها، فهي أهم أنواع البيعة، لخطورة نكثها، لأن البيعة تكون أول عهد المسلم بدينه، والالتزام بالحد الأدنى من أسس تعاليمه، الذي يلزم كل مسلم ومسلمة في الأمة، وأكثر ما كان النبي ﷺ يبايع عامة الناس عليه هو الإسلام.

٢ - البيعة على السمع والطاعة:

وهذه هي التي بايع المسلمون رسول الله ﷺ مع بيعة الإسلام، وهي التي أخذها الخلفاء الراشدون من بعده ﷺ، وهي التي تقصدها معظم الكتابات تأسيساً على الممارسة في عصور الملك المتتالية إلى ما قبل سقوط الدولة العثمانية، في بداية القرن الماضي، وهي التي أول ما يتبادر إلى الذهن إذا أطلقت كلمة البيعة دون تحديد، وأدلتها كثيرة، فعن عبادة بن الصامت ؓ قال: "بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره"^(٢)، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم - أو نقول - بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة^(٣).

وعندما اختلفت نظم الحكم المختلفة في العالمين العربي والإسلامي، واستبدلت البيعة باليمين الدستوري، وارتبطت هذه الدول، بدول الكفر بمواثيق ومعاهدات اقتصادية وعسكرية وسياسية، اجتهدت الحركة الإسلامية المعاصرة في شتى البلدان الإسلامية، على أخذ البيعة من

(١) النظام السياسي في الإسلام، النظرية السياسية نظام حكم، د. عبد العزيز عزت الخياط: ص/١٩٨. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط/٢/٢٠٠٤م.

(٢) صحيح البخاري: ك/ الأحكام، ب/ كيف يبايع الإمام الناس، ج/ ٤، ص/ ١٤٢٤، ح/ ٧١٩٩.

(٣) المصدر السابق: ح/ ٧٢٠٠.

أتباعها على السمع والطاعة، لإعادة توحيد صف الأمة، ولا شك أنه هدف عظيم يتطلع إليه الكثير من المصلحين والمجاهدين.

٣- البيعة على الهجرة: كانت أول الأمر فرض عين على كل من أسلم، حيث جاء مجاشع بن مسعود بأخيه مجالد^(١) ليبايع رسول الله ﷺ، (فقال هذا مجالد يبايعك على الهجرة. فقال ﷺ: "لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن أبايعه على الإسلام")^(٢) وانتهت الفرضية بعد الفتح، فعن ابن عباس ؓ قال: قال النبي ﷺ: يوم فتح مكة، (لا هجرة، ولكن جهاد ونية. وإذا استنفرتم فانفروا)^(٣)، أي أن الجهاد والدفاع عن الدولة ونظامها الإسلامي، يحل محل الهجرة حين لم يكن هناك كيان سياسي بل كيان اجتماعي مشتت ومحارب، والمراد بالهجرة هنا الهجرة من مكة إلى المدينة.

٤- البيعة على النصر والمنعة:

ومثل هذه البيعة (لا تتم إلا في ظروف سياسية أو عسكرية خاصة، كبيعة العقبة الثانية، وكذلك الحديبية، حيث أخذ النبي ﷺ من وفد الأنصار البالغ عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، في العقبة، البيعة الثانية، وبعد أن تلا القرآن، ورجب في الإسلام قال ﷺ: (أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم، وأبناءكم...))، فبايعوه على ذلك وهم يقولون: (لنمنعك مما نمنع منه أزرنا)^(٤)، فبايعنا يا رسول الله، فوالله نحن أبناء الحروب، وأهل الحلقة^(٥) ورتناها كابرا عن كابر)، فاستعدوا للنصرة من اللحظات الأولى للبيعة، عندما أرادوا مهاجمة المشركين ليلاً بأسياقهم، لكن الرسول ﷺ أمرهم بالعودة إلى رحالهم^(٦).

وحين اكتمل الدين، صارت هذه هي البيعة التي ابتاعها الله تعالى لنفسه من المؤمنين بشرائه أنفسهم وأموالهم، وأن ينصروا دينه في كل مكان وكل زمان، ليكافأهم بالجنة، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (التوبة: ١١١)، فهذه هي البيعة التي في عنق كل مسلم إلى يوم القيامة، وهي الجهاد في سبيل الله، وهي مستمرة لأن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة ما دام أعداء الإسلام، قال تعالى: {لَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ

(١) ابني مسعود بن ثعلبة بن وهب السلمي، روى مجاشع عن الرسول ﷺ وصدقه مجالد في روايته، قتلا يوم الجمل ٣٦ هـ تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٥، ص/٣٧١، وص/٣٧٣.

(٢) صحيح البخاري: ك/الجهاد والسير، ب/لا هجرة بعد الفتح، ج/٢، ص/٦١٩، ح/٣٠٧٩.

(٣) المصدر السابق، ك/الجهاد والسير، ب/لا هجرة بعد الفتح، ج/٢، ص/٦١٩، ح/٣٠٧٧.

(٤) الإزار: العفاف، ويكنى عنه بالنفس وبالمراة. انظر لسان اللسان لابن منظور، ج/١، ص/٢٦.

(٥) الحلقة: اسم لجملة السلاح والحدود، انظر المصدر السابق، ص/٢٨٤.

(٦) تاريخ الأمة الواحدة سيرة خاتم المرسلين ﷺ من الميلاد حتى الممات، أ.د. جمال عبد الهادي و أ.د. وفاء محمد رفعت: ص/١٥٨-١٦٠ باختصار، دار السلام/ القاهرة، ط/١، ٢٠٠٥م. والرسول القائد، لمحمود شيت خطاب: ص/٦٧ باختصار، والسيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة ص/١٣٩-١٤٢ باختصار.

إِنْ اسْتَطَاعُوا..» (البقرة: ٢١٧)^(١)، وقد مدح الله تعالى نموذج المؤمنين في بيعة الحديبية (الرضوان) لمَّا بايعوا الرسول ﷺ على الموت، فكانوا السابقين الأولين قبل تأسيس الدولة ولزوم الجهاد وفرضه على كل المسلمين دفاعا عن الدين والأرض والعرض، وقد كان المسلمون ينشدون في غزوة الخندق: (نحن الذين بايعوا محمداً *** على الجهاد ما بقينا أبداً)^(٢)

فأهل الحل والعقد يتصفحون أحوال الإمامة والشروط التي يجب أن تتوفر فيهم، ليرى أيهم الأكمل والأكثر فضلا، ومنَّ أسرع الناس له بالطاعة، فلا يتأخرون عن بيعته. ودلالة هذه البيعة في اختيار الخلفاء الراشدين ﷺ، حيث كانت بيعة الانعقاد الأولى^(٣)، ثم تأتي المرحلة الثانية، بيعة كافة أبناء الأمة، لمن تم اختياره في المرحلة الأولى كبيعة الخلفاء الراشدين، ثم دُعي المسلمون للبيعة العامة في المسجد، فصعد المنبر بعد أن أخبرهم عمر ﷺ باختيارهم له، ومبايعتهم إياه، وأمرهم بمبايعته فبايعه المسلمون^(٤)، فما حدث مع أبي بكر ﷺ حدث مع بقية الخلفاء من بعده، ببيعة تمت تاريخيا في عاصمة الدولة، وعبر ولاية الأمصار.

إنها الطريقة الباقية لدوام الجهاد مع كل بر وفاجر إلى يوم القيامة، وبالتالي ليس لمسلم حجة ألا يكون في رقبته بيعة لإمام عِلِمَ دِينُهُ وَتَقَوَّاهُ، وجاهد العلمانيين واليهود وعباد الصليب، الذين ينتهكون أعراض ودماء المسلمين ليل نهار، ويحتلون أرض المسلمين.

المطلب الخامس: صور البيعة:

إن المنتبِع للتاريخ الإسلامي من لدن سيدنا محمد ﷺ إلى حين إلغاء الخلافة في استانبول يدرك أن للبيعة عدة صور، فالبيعة قد تقع كلاما مصحوبا بالمصافحة، وقد تقع مشافهة دون مصافحة، وقد تكون بالكتابة، وإليك بيانها:

١- المصافحة والكلام:

إن المنتبِع للنصوص القرآنية والسنة النبوية يجد أنها غالبا ما كانت تتم مصافحة باليد، وهذه هي الصورة الغالبة في المرات التي بايع فيها الناس النبي ﷺ، منها بيعة العقبة الأولى والثانية، وبيعة الرضوان الشهيرة، التي تمت يوم الحديبية، والتي قال الله تعالى فيها: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} (الفتح: ١٠) (٤).

٢- الكلام فقط:

وفد تكون بالكلام دون المصافحة، وهي الحالة التي بايع النبي ﷺ وهذه تكون عادة في مبايعة النساء، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: (والله! ما أخذ رسول الله ﷺ

(١) صحيح البخاري: ك/ الأحكام، ب/ كيف يبايع الإمام الناس، ج/ ٤، ص/ ١٤٢٥، ح/ ٧٢٠١.

(٢) الفقه الإسلامي وأدلته، د. وهبة الزحيلي: ج/ ٢، ص/ ٦٨٤، بتصرف، دار الفكر/دمشق، ط/ ١٩٨٩م.

(٣) جولة تاريخية في حياة الخلفاء الراشدين، أحمد السيد الوكيل: ص/ ١٤-١٥ باختصار وتصرف، دار المجتمع لنشر والتوزيع/جدة، ط/ ١٩٨٦م.

(٤) نظام الحكم في الإسلام، د. عارف خليل أبو عيد: ص/ ٢٥١، دار النفائس للنشر والتوزيع/عمان، ط/ ١٩٩٦م.

على النساء قط، إلا بما أمره الله تعالى. وما مست كف رسول الله ﷺ كف امرأة قط. وكان يقول لهن، إذا أخذ عليهن "قد بايعتكن" كلاماً^(١). ومن به عاهة لا تمكنه من المصافحة، فقد روى النسائي: (كان في وفد تقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه النبي ﷺ: "ارجع فقد بايعتكم")^(٢)^(٣).

٣- الكتابة:

وأفضل مثال على هذه المبايعة ما كتبه النجاشي إلى الرسول ﷺ، فقال: "بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله ﷺ من النجاشي الأصحم بن أبجر، سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته، أحمد الله الذي لا إله إلا هو الذي هداني للإسلام، أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقاً، مصدقاً، وقد بايعتكم، وبايعت ابن عمك، وأصحابه وأسلمت على يديه لله رب العالمين"^(٤).

إن هذه الصور التي عليها البيعة إنما هي التأكيد على إعطاء الولاء لله من السمع والطاعة للخليفة، مقابل الحكم بما أنزل الله تعالى، وأنها عقد وميثاق بين طرفين؛ الإمام من جهة وهو الطرف الأول، والأمة بأفرادها المسلمين، من جهة ثانية، وهي الطرف الثاني، كم تبين ذلك من خلال أركان البيعة، فالإمام يبايع على الحكم بالكتاب والسنة، والخضوع التام للشريعة الإسلامية، عقيدة وشريعة ونظام حياة، والأمة تبايع على السمع والطاعة للإمام في حدود الشريعة.

ومفهومه أن الحاكم والأمة مقيدون بما جاء في الأحكام الشرعية، ولا يحق لأحد منهم الخروج على ما تم التبايع عليه، لأن في ذلك خروج على أحكام الشريعة، مما يتطلب نفي الإيمان عن من ينقض بيعته مع الله تعالى، قال الله تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} (النساء: ٦٥)^(٥).

(١) صحيح مسلم: ك/الإمارة، ب/كيفية بيعة النساء، ج/٣، ص/١٤٨٩، ح/١٨٦٦.
(٢) سنن النسائي: ك/البيعة، ب/بيعة من به عاهة، ص/٦٤٥، ح/٤١٨٢. (صححه الألباني)
(٣) نظام الحكم في الإسلام، د. عارف خليل أبو عيد: ص/٢٥٢.
(٤) البداية والنهاية لابن كثير: ج/٣، ص/٨٤.
(٥) نظام الحكم الإسلامي، د. عارف خليل أبو عيد: ص/٢٥٢-٢٥٣ باختصار وتصرف.

المبحث الثاني

البيعة أول الإسلام

ويشتمل على ستة مطالب:

المطلب الأول: البيعة أول العهد مع رسول الله ﷺ.

المطلب الثاني: مسجد الضرار يتنافى ومبدأ البيعة.

المطلب الثالث: آية البيعة وأقوال المفسرين.

المطلب الرابع: صفات المبايعين.

المطلب الخامس: مستلزمات البيعة.

المطلب السادس: البيعة ضرورة إسلامية.

المطلب الأول: البيعة أول العهد مع رسول الله ﷺ

لقد كانت البيعة مع رسول الله ﷺ بعد الإقناع بالحسنى، والموعظة الحسنة للدخول في الإسلام، فإن قبلوا، وأعلنوا إسلامهم، أخذت منهم البيعة شرطاً أساسياً مع إسلامهم، بالتالي كان لا بد منها للمسلمين مع رسول الله ﷺ، وللمسلمين مع كل من خلف رسول الله ﷺ على نفس المنهج والأثر، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (.. ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية)^(١)، لهذا لم تكن البيعة لشخص الرسول ﷺ، بقدر ما يمثله كرسول الله تعالى، لتكون البيعة لله وحده، ومع هذا فلم تتم المبايعة كتفويض من المسلمين له ﷺ في شؤون حياتهم فقط؛ وإنما للزوم جماعة المسلمين في جميع الظروف، في حياته ومن بعده ﷺ، قائمة على مبدأ التناصح والتناصر بين الراعي والرعية، كرباط يوثق فيه الطرفان الحقوق والواجبات لكليهما، يحكما في ذلك منهج الشرع الذي هو منطلقه وغايته هذا العهد، وهذه البيعة بداية مع رسول الله ﷺ، وكل من سار على هديه، واقتفى أثره في منهجه، بالتالي لا بد لكل مسلم أن يكون في رقبته بيعة الإسلام وبيعة المناصرة والولاء لله ولرسوله.

لقد تخللت القرون التي تلت الخيرة منها الكثير من التداعيات والأحداث التي اجتاحت الأمة المسلمة، محاولة استباحة خضرائها، ووأد شأفتها، في حملات متتالية أسفرت على استطالة الأوغاد في أعراض المسلمين، وتدنيس ديارهم، وولوج التتار والصليب واليهود في دمائهم دون رقيب أو حسيب، ما لا يسع لحر أن يقف إزاء ذلك مكتوف اليدين، أو يلازم الصمت الذي ينم عن العار والندالة، ناهيك عن المسلم المؤمن التقي النقي.

في ظل هذه الحملات الحاقدة والهجمات الشرسة ضد ديننا ونبينا وأبناء أمتنا، وفي ظل شطب كل ما هو خير في هذه الأمة، بقيت الراية خفاقة، وانتشر الإسلام في قلوب العباد قبل دخول البلاد، والتزم الخالص من المسلمين ببيعتهم لرسول الله ﷺ بالالتفاف حول أئمتهم المجاهدين لنصرة دينهم ونبيلهم، في ظل أوضاع هي الأفظع في تاريخهم، وتمائل سطوة التتار على عاصمة الخلافة بل أشد، والتمثلة بالتخاذل الذي يتقنه المنافقون، والمخالفة التي يجيدها أصحاب القلوب المرتابة والمريضة، إنه النكران والجحود والتخلي عن المؤمنين، إنه المكر والكيد والكذب الذي يتقن فيه المرجفون. إنهم المنافقون الذين في كل عصر يحاولون حرف البوصلة عن مسارها، جاهدين من خلال ولائهم للكافرين، وتحالفاتهم الإجرامية ضد المجاهدين، بالطعن في جهادهم ونصرتهم، رغم ذلك كله؛ يشعر المؤمن وقت المحن وغيره أن البيعة في رقبته وفاء بما عاهد عليه الله تعالى، لينعكس ذلك من خلال تسابقهم لنصرة الدين والعقيدة، إنها البداية وأول العهد، الذي يتوارثه المسلمون الأوفياء جيلاً إثر جيل، الذين

(١) صحيح مسلم: ك/ الإمارة، ب/ وجوب ملازمة جماعة المسلمين..، ج/ ٣، ص/ ١٤٧٨، ح/ ١٨٥١.

باعوا أنفسهم لله ، يتعاهدون على الولاء والنصرة، وبذل الغالي والنفيس والمُهَج في سبيل الله، يرجون رحمة ربهم ويحذرون أليم عقابه، وأن يُمكن الله لهم دينهم، لتكون كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا، أو يمنَّ عليهم بالشهادة في سبيله. فيفوزوا بجنة ربهم التي وعدما المتقين قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١١١)، لقد أدرك أصحاب البيعة الصادقون، معنى البيعة وعلى أي شيء تقوم، فعن بشير بن الخصاصية رضي الله عنه قال: (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبأبعه على الإسلام فاشتراط علي: تشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وتصلي الخمس، وتصوم رمضان، وتؤدي الزكاة، وتحج البيت، وتجاهد في سبيل الله. قلت يا رسول الله: أما اثنتان فلا أطيعهما (وذكر الصدقة والجهاد) فقال صلى الله عليه وسلم: (لا صدقة ولا جهاد؟ فبم تدخل الجنة؟) ^(١).

حقاً يا رسول الله! كيف يدخل الجنة؟ إن لم يجاهد المسلم ويجود، وكيف يكون الولاء لله ورسوله؟ وكيف يكون التناصح والمناصرة؟ وكيف يكون الالتزام بما عاهد الله عليه عند البيعة؟ إن ذلك كله يحتاج إلى إنفاق النفس وما في حوزتها لله رب العالمين. لقد أدرك العرب بفطرتهم مبدأ المناصرة، وحب العطاء بسليقتهم؛ فكيف بالمسلم الذي نشأ وتربى؛ بل وعاهد الله على ذلك.

ولنتأمل ما قاله سعيد بن عامر رضي الله عنه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن ذكر لعمر أن سعيد يغنط الغنطة ^(٢)، فقال في بيان سبب ما يعرض له: شَهِدْتُ مِصْرِعَ خُبَيْبِ بْنِ عَدِيِّ الْأَنْصَارِيِّ بِمَكَّةَ وَ قَدْ حَمَلُوهُ عَلَى جَذَعٍ فَقَالُوا: أَتُحِبُّ أَنْ مُحَمَّدًا مَكَانَكَ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنِّي فِي أَهْلِي وَوَلَدِي، وَأَنَّ مُحَمَّدًا شَيْكٌ بِشَوْكَةٍ. ثُمَّ نَادَى: يَا مُحَمَّدُ، يَقُولُ سَعِيدٌ: فَمَا ذَكَرْتَ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَتَرَكِي نَصْرَتَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَأَنَا مُشْرِكٌ لَا أُوْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَغْفِرُ لِي بِذَلِكَ الذَّنْبِ أَبَدًا فَتَصَيَّبَنِي تِلْكَ الْغَنَطَةُ. فَقَالَ عُمَرُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُضِلَّ فِرَاسَتِي ^(٣).
لقد أدرك الصحابة رضي الله عنهم خطورة عدم المناصرة من خلال فهمه لإسلامه وبيعته، حتى ظن سعيد بن عامر رضي الله عنه، أن الله لا يغفر ذنبه بسبب عدم مناصرته خبيباً قبل أن يسلم، فيصيبه ما يصيبه من الهم والغم وشدة البلاء وإشراف على الموت بسبب ذلك، وهو على غير الإسلام، فكيف بمن أسلم وعاهد الله على ذلك بالولاء والنصرة لله ولرسوله وللمؤمنين؟

(١) مسند الإمام أحمد: ج/٥، ص/٢٢٤، حسنه الأرنؤوط (الشاملة) ح/٢٢٢٩٤ (٢١٩٤٨)، بيت الأفكار الدولية/الأردن، السعودية، ط/٢٠٠٥م.

(٢) الغنط: الهمُّ وشدة الكرب، وإشراف على الموت، انظر ك/ العين للرافعي: ج/٣، ص/٢٩٣.

(٣) صفة الصفوة جمال الدين أبي فرج بن الجوزي: ج/١، ص/٣٣٨، دار الكتب العلمية/بيروت، ط/١٩٨٩م.

المطلب الثاني: مسجد الضرار يتنافى ومبدأ البيعة:

إن البيعة تعني الالتزام بشرع الله تعالى، ولزوم جماعة المسلمين، والسمع والطاعة للإمام، وحرمة الخروج عليه، فمن خرج على الإمام لأي سبب غير الكفر البواح، فقد خلع ربة الإسلام^(١) من رقبته، وبالتالي يكون مستباح الدم ويقاقل حتى يعود إلى حوزة الإسلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ أنه قال: (من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات، مات ميتة جاهلية. ومن قاتل تحت راية عُمِّيَّة، يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل، فقتلته جاهلية. ومن خرج على أمتي، يضرب برها وفاجرها. ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفى لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه)^(٢)، فكم عاث المنافقون فسادا في الأرض، فما أحذقهم في فن الخروج على السلطان! وما أبرعهم في قتل الأبرياء! وما أمهرهم في خلس الأموال وسلبها! يسوغون كل عمل أو موقف لمصلحتهم، وخاصة تحالفاتهم الخطيرة الدنيئة مع الكافرين؛ أيا كان هذا العدو؛ غازيا، محتلا، أو متربص يريد بالمسلمين شرا وفرقة، كيف لا؟ وأجدادهم الذين بنوا مسجد الضرار، وتم فضحهم من خلال سورة براءة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (التوبة: ١٠٧)^(٣)، فما بنوا بناءهم إلا ضرارا، حيث أرادوه مركز اجتماعاتهم ومؤامراتهم، وغرفة اتصالاتهم بالروم، ينتظرونهم، ويحثونهم على غزو ديار المسلمين، وما أشبه الليلة بالبارحة، حيث ما زالوا يحاربون أهل البيعة والجهاد والخير، ليظهر البون الشاسع بين الصادقين في بيعتهم والكاذبين، فالصادقون هم الذين يبايعون على الجهاد في سبيل الله، فعن مجاشع بن مسعود السلمي قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم أبايعه على الهجرة. فقال: (إن الهجرة قد مضت بأهلها. ولكن على الإسلام والجهاد والخير)^(٣).

إن مواقف المنافقين من الجهاد؛ أنهم حجر عثرة أمام المجاهدين، بل ورأس حربة الكافرين من اليهود والنصارى ضد المجاهدين، فضرارهم يتنافى والبيعة التي منها:

- أنهم يبدعون في صنع الشر نكاية بالمؤمنين؛ لكونهم لا يحبون الخير لهم.
- ما زالوا يستهزؤون بالذين آمنوا؛ رغم بيعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الولاء والنصرة.
- إن إرادتهم وسعيهم في تفريق المؤمنين، فكرة جامحة ملأت قلوبهم حقدا وحسداً، وأُمْنِيَّةً تراود خيالهم المريض ما توقفت لحظة واحدة، حيث غاظهم اجتماع المسلمين وألقتهم خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فسعوا يفرقوا كلمة المسلمين، ويشقوا صفهم، حتى كانت

(١) ربة: الخيط والمعنى: فارق الجماعة، انظر: لسان اللسان لابن منظور: ج/١، ص/٤٦٣.

(٢) صحيح مسلم: ك/الإمارة، ب/وجوب ملازمة جماعة المسلمين... وتحريم الخروج على الطاعة. ج/٣، ص/١٤٧٦، ح/١٨٤٨.

(٣) المصدر السابق: ب/المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير. ج/٣، ص/١٤٨٧، ح/١٨٦٣.

فكرة مسجد ظاهره العمل الصالح وباطنه الإضرار بالمسلمين، والكفر والتفريق بينهم، مما يخالف البيعة التي أزموا أنفسهم بها، النصح لكل مسلم، فكيف والتفريق بينهم، فعن جرير بن عبد الله البجلي^(١) قال: (بايعت النبي ﷺ على النصح لكل مسلم)^(٢).

- إن أخطر ما ينافي البيعة ويتناقض معها: طاعة الكافرين والاتصال بهم والكيد معهم ضد المسلمين؛ بل والطلب منه اجتياح الديار، وهذا ما كان من المنافقين زمن رسول الله ﷺ إلى يومنا الحالي، قال الله تعالى: {وَأِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} (التوبة: ١٠٧)^(٣)، فأساس البيعة السمع والطاعة، فعباداة بن الصامت يقول: (بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة. في العسر واليسر. والمنشط والمكره. وعلى أثرة علينا. وعلى أن لا ننازع الأمر أهله. وعلى أن نقول الحق أينما كنا. لا نخاف في الله لومة لائم)^(٤)، فطاعة الله تعالى ورسوله، تستوجب معصية الكافرين فيما يخالف طاعة الله، لذا حذرنا جل في علاه من طاعة أهل الكتاب، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} (آل عمران: ١٠٠)^(٥)، فكيف بتنفيذ أوامرهم؟
- إن ترقب العدو والتنسيق معه يتنافي مع عقد البيعة على السمع والطاعة.

المطلب الثالث: آية البيعة وأقوال المفسرين فيها:

قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (التوبة: ١١١).

يقول سيد قطب: (هذا النص يكشف عن حقيقة العلاقة مع الله، وحقيقة بيعة المؤمنين التي أعطوها لربهم بإسلامهم، فمن بايع ووفى فهو المؤمن الحق، تتمثل فيه حقيقة الإيمان.. حيث استخلص الله من هذه النفوس أنفسها)^(٤)،

يقول الطبري: (إنَّ الله ابتاع من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنة، التي وعدنا إيَّاهم أن يوفَّى لهم، إذا هم وفوا بما عاهدوا الله فقاتلوا في سبيله، ومن أحسن وفاء بعهد من الله {فاستبشروا} أيها المؤمنون {ببيعتكم} أنفسكم وأموالكم بالذي بعتموها من ربكم، وفوزكم)^(٥).

ويقول الرازي: (إن المؤمن متى قاتل في سبيل الله حتى يقتل، فتذهب روحه، وينفق ماله في سبيل الله، أخذ من الله في الآخرة الجنة جزاء لما فعل. فجعل هذا استبدالاً وشراءً،

(١) هو جرير بن عبد الله بن جابر بن مالك بن نضر بن ثعلبة بن جُشم بن عوف البجلي القسري أبو عمرو أسلم سنة وفاة النبي ﷺ وروى عنه، وروى عنه أولاده مات ٥١ هـ، تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/١، ص/٣٦٨.

(٢) سنن النسائي: ك/البيعة، ب/ البيعة على النصح لكل مسلم، ص/٦٤١، ح/٤١٥٦. (صححه الألباني).

(٣) صحيح مسلم: ك/الإمارة، ب/ وجوب طاعة الأمراء في غير معصية..، ج/٣، ص/١٤٧٠.

(٤) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٧١٦ باختصار وتصرف.

(٥) جامع البيان للطبري: ج/١١، ص/٢٦، باختصار، دار المعرفة/بيروت، ط/٤/١٩٨٠م.

والبائع لا بد له من مشتري والمشتري هو الله والبائع هو الله... فهذا المثل جار مجرى التنبيه على كون العبد شبيها بالطفل الذي لا يهتدي إلى رعاية مصالح نفسه، وأنه تعالى هو المراعي لمصالحه بشرط الغبطة التامة^(١).

ويقول البيضاوي^(٢): (تمثيل لإثابة الله إياهم الجنة على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله، والقتال استئناف ببيان ما لأجله الشراء)^(٣).

ويقول ابن كثير: (يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوا في سبيله بالجنة وهذا من كرمه وإحسانه فإن قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبده المطيعين له.. بايعهم فأغلى ثمنهم.. فمن حمل في سبيل الله قبل العقد ووقى به)^(٤)

ويقول القرطبي: (اشترى الله سبحانه من العباد إتلاف أنفسهم وأموالهم في طاعته، وإهلاكها في مرضاته، وأعطاهم الجنة عوضاً عنها إذا فعلوا ذلك. وهو عوض عظيم لا يدانى ولا يقاس به... فمن العبد تسليم النفس والمال، ومن الله الثواب والنوال، فسمي هذا شراء)^(٥).

ويقول سيد قطب: (إن الدخول في الإسلام صفقة بين المشتري وهو الله تعالى، وبين المؤمن فيها وهو البائع، فلا يبقى بعدها شيء في نفسه ولا في ماله يحجزه، ليكشف عن حقيقة البيعة والعلاقة مع الله... فمن بايع هذه البيعة ووفى بها، فهو المؤمن الحق.. حيث استخلص الله فيها لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم، فلم يعد لهم ما يستبقوه إلا أنفوقه في سبيله، إنها صفقة مشتراة لشاريها التصرف وفق ما يفرض وما يحدد، ولا يكون من البائع إلا السمع والطاعة والعمل والاستسلام لطريق الجهاد ووسيلة النصر أو الاستشهاد، والثمن هو الجنة)^(٦).

ويقول حسن البنا: (يوم أراد الله تعالى أن يُسعدَ الناس برحمته، ويقدم لهم نظاماً يضمن لهم به سعادة الدارين، بعث إليهم رسولا من أنفسهم بكتاب فيه سعادتهم، بعقد بيع وشراء بين الخالق والمخلوق، والسلعة: النفس والدم والروح والمال، والجزاء: الجنة، وكيفية التسليم: جهاد في سبيل الله وفناء البدن والمال. وهل تؤدَّى مهمة المؤمن بأقل من هذا الثمن؟ وقد كُتِبَ هذا العقد على صفحات التوراة والإنجيل والقرآن وشهد عليه جبريل وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وليس أحدٌ أوفى بعهده من الله. لذا ربحت التجارة وعظم الثواب، فكانت البشرية للبائعين الصادقين: **{فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم}** (التوبة: ١١١)... أوقد غلب علينا العقوق حتى لا نسلم لله وديعته إلا بئس؟)^(٧).

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/١٩٩ باختصار.

(٢) القاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي ولي قضاء شيراز ومات فيها سنة ٦٨٥ هـ، انظر طبقات المفسرين للداوودي، ج/١، ص/٢٤٨-٢٤٩.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لعبد الله بن عمر البيضاوي: المجلد الأول، ص/٤٢٢، دار الكتب العلمية/بيروت، ط/١/٢٠٠٣م.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج/٢، ص/٤٣٠.

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/٥، ص/٢٤٤-٢٤٥. اختصار وتصرف

(٦) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٧٦ باختصار وتصرف.

(٧) بتصرف من جريدة "الإخوان المسلمون" بتاريخ ١٠/٦/١٩٣٦م. والموقع مجلة المجتمع:

إن عقد البيع هذا والوعد الرباني المكتوب على صفحات الكتب السماوية قد تمت صفقته بين الله عز وجل وهو المشتري، وبين البائع نفسه المؤمنة وماله الزكي يتلفهما بالجهاد في سبيل الله بكل الوسائل المشروعة والقتالية؛ مقابل الجنة ونعيمها، بشهادة أمين السماء ورسول الأرض عليهم الصلاة والسلام، ولأن البيع لا يتم إلا بوجود السلعة والإيجاب والقبول بين البائع والمشتري، والله لا يشتري إلا ممن باع، فقد تمت البيعة، وبُشِّرَ البائعون بالرضا نفوسهم وأموالهم بالفوز العظيم، وبما أن بعض البائعين قد يؤخرون تسليم وديعتهم، حثهم على سرعة التسليم في ملحق العقد، بالصفات التي لو اتصفوا بها أسرعوا في التنفيذ، ليبشروهم ثانية بقوله: **{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}**، مما يدل على عظيم كرم الله تعالى الذي اشترى قبل أن يبيع المجاهدون نفوساً كريمة وعزيزة على الله تعالى لذا غلا ثمنها، للأسباب التالية:

- أنه جل في علاه هو الذي خلقها، ونفخ فيها من روحه، فقال تعالى: **{ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ}** (السجدة:٩).
- أن الله أقسم بالنفس، وأنه تعالى لا يقسم إلا بعظيم فقال: **{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا}** (الشمس:٧).
- لقد وردت لفظة "نفس" في القرآن الكريم مائتين وخمسة وتسعين مرة^(١)، فما كانت لتتكرر إلا لتبين أصل الخير المأمورة به، فامتثلت أمر ربها فيه فعظمت، والشر الذي نهيت عنه، فانقادت لهواها وشرورها فجمحت، ووجدت أمر ربها فذلت وهانت.
- ثمنها وغلاها من بيان عظمة حرمتها، قال الله تعالى: **{مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...}** (المائدة:٣٢)، وشدد وغلظ في عقوبة قتل النفس المؤمنة، فقال: **{وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}** (النساء:٩٣).
- عظمتها من عظمة صفقتها، فلو لم تكن غالية ما تمَّ شراؤها من قبل الله تعالى.
- إن نفساً ثمنها الجنة غالية، ومن استرخصها للشيطان والهوى، أذلها وأفقدتها قيمتها.
- وهب الله عبده أنفسهم، عندما خلقهم من العدم، وأسبغ عليهم النعم، يُمَلِّكُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وهم الفقراء إليه، والعبيد في ملكوته دون انقطاع، ثم يشتري تفضلاً ما وهب، بأعظم ما يكون الثمن، فإن وفَّى العبد عقد ربه، بسرعة التنفيذ، وصدق بيعته، ببذل نفسه وماله حبا لجلاله، فاز بوفاء ربه وثمرت بيعته جنة الله ورضوانه، (فجعل الجنة ثمننا لما بذلوا من أنفسهم وأموالهم، وفي ذلك إعظام للثمن ومنه يعلم حال المُثْمَنِّ، وصدق القائل: (ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها)^(٢).

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي: ص/٧١٠-٧١٤.

(٢) روح المعاني، لشهاب الدين الألوسي: ص/٢٩-٣٠ بتصرف. دار الفكر/بيروت، ط/جديدة/١٩٧٨م.

- لذلك كانت الجنة لمن أقبل على القتل بعد أن رأى مصارع أصحابه دون أن يوهنه ذلك، أو تضعفه كثرة الجراح، كالأعرابي الذي سمع الآية قال: بيع والله مريح! لا نقيل ولا نستقيل، فخرج إلى الغزو فاستشهد^(١).
- هذه الآية الوحيدة التي تقدمت النفس فيها على المال، لبيان أن النفس عند الله أكرم وأعز على الله من المال الذي هو في الغالب مقدم على النفس عند الناس، فأمرهم أن يفكوا قيد أنفسهم من هذا المال الذي يقيدها.
- إن نقيض الوفاء بالعهد غدر وكذب ومكر وخديعة، وهي قبيحة في الإنسان، والغني عنها أولى أن يكون منزلها عنها، لذلك جاء قوله: {ومن أوفى بعهده من الله} استقهام استتكري، أي لا أحد أوفى بما وعد الله جلّ في علاه^(٢).
- {ومن أوفى بعهده من الله} اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من حقبة الوعد على نهج المبالغة في كونه سبحانه أوفى بالعهد من كل وافٍ، فإن إخلاف الميعاد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق، مع إمكان صدوره عنهم، فكيف بالكريم الخلاق الغني عن العالمين؟^(٣).
- إن الأمر بالاستبشار وطلب إظهاره والسعي له، تشريف على تشريف زيادة لسرورهم على سرورهم، والأمر به على ما قبله؛ أي فافرحوا غاية الفرح بما فزتم من الجنة^(٤).
- (شملت الآية على أنواع من التأكيدات: الأولى: {إن الله اشترى} (أي بعهود أكيدة)^(٥)، فالمشترى هو الله المقدس والمنزه عن أي نقص، الثانية: عبر عن إيصال الثواب بالبيع والشراء، وذلك حق مؤكد حتى يدرك المشتري الصفقة على حقيقتها المحسوسة، الثالثة: قوله: {وعدا} (مصدر مؤكد)^(٦) ووعد الله حق، الرابعة: قوله {عليه} وهي تفيده الوجوب، الخامسة: (وَأَتَمَّ التَّأَكِيدَ بِقَوْلِهِ: {حَقًّا})^(٧) وهذا التأكيد للتحقيق، السادسة: قوله {في التوراة والإنجيل والقرآن} وذلك يجري مجرى إشهاد جميع الكتب الإلهية وجميع الأنبياء والرسل على المبايعة، السابعة: قوله {ومن أوفى بعهده من الله} وهو غاية في التأكيد، والثامنة: قوله: {فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به} مبالغة في التأكيد، وكذلك في قوله: {وذلك هو الفوز}، والعاشرة: {العظيم} تأكيد على عظم الأجر وأن الفوز أيضا عظيم)^(٨)، هذه التأكيدات لبيان عظم الصفقة وحصول الأجر على الحقيقة.

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٨٩ بتصرف.

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٢٠١ بتصرف.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود: ج/٢، ص/٤٥١.

(٤) المصدر السابق: ج/٢، ص/٤٥١.

(٥) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٨٩.

(٦) الكشف للزمخشري: ج/٢، ص/٣٣٥.

(٧) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٨٩.

(٨) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٢٠١.

المطلب الرابع: صفات المبايعين:

بعد أن بيّن الله تعالى ورغب بصفقة الشراء الربانية، والتي يتم بموجبها أن يتلف العبد الصالح نفسه ويبدل ماله رخيصة، دخولا في صفقة الله، وحبا لأمره، وطمعا في جنته، ليفوز فوزا عظيما، هذا البيان يتلوه بيان لصفات الذين تمت الصفقة معهم، أو الشروط التي يجب أن يتصف بها صاحب البيعة مع الله، قال تعالى:

{التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} (التوبة: ١١٢).

اختلف أهل التأويل في هذه الآية، جماعة قالت: أنها منفصلة، على أساس أن كل موحد يجب أن يدخل تحت تلك المبايعات مقاتلا في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، وإن لم يتصف بتلك الصفات، وآخرون قالوا: أن الآيتين مرتبطتان، فلا يدخل في البيعة إلا المؤمنون الذين اتصفوا بهذه الصفات، وأن هذه الأوصاف جاءت على جهة الشرط لبذل الأنفس والأموال في سبيل الله تعالى^(١).

وما يدعم القول الثاني نقل أهل اللغة أن إعراب كلمة {التائبون} جاء على عدة وجوه كما نقل أبو السعود: (الوجه الأول: رفع على المدح، أي هم التائبون يعني المؤمنون، كما يدل عليه القراءة بالياء نصبا على المدح، والوجه الثاني: ويجوز أن يكون مجرورا على أنه صفة للمؤمنين، الوجه الثالث: ويجوز الرفع على الابتداء والخبر محذوف أي التائبون من أهل الجنة أيضا وإن لم يجاهدوا، كقوله: {وَكَلَّمَ اللَّهُ الْحُسَيْنِيَّ}، الوجه الرابع: ويجوز أن يكون خبره قوله تعالى: {الْحَامِدُونَ}، وما بعده خبر ما بعده خبر، أي التائبون من الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه النعوت الفاضلة أي المخلصون في عبادة الله تعالى)^(٢).

كما جعل الطبري هذه الصفات شرطا لكل مجاهد صادق في بيعته مع الله^(٣)، وبالتالي فإن الله تعالى قد جعل هذه الشروط سببا للتمكين في الأرض للمنتصرين، وسببا لدخول الجنة، جاهد في سبيل الله أم لم يجاهد، وذلك أن الجهاد في سبيل الله تعالى ليست إرادة قتالية، أو انتقاما للنفس من ظالم، أو شهوة اعتداء على ضعيف، أو ردة فعل على حدث ما! أو طمعا بسلب مال أو أرض؛ وإنما هو وازع ديني بأمر رباني، ومتطلب إيماني، تقوم به النفس، بعد أن تسمو عن صغائر الذنوب ناهيك عن كبائرها، لترقى بنفسها وتتشرب دين الله في الأرض، مسلحة بالتوبة الدائمة، والعبادة القائمة، أمره بالمعروف ونهاية عن المنكر، بعيدة عن المحرمات، حافظة للحدود والمحارم، يقول محمد على الصابوني: (هذه الآية تفصل وتوضح

(١) الجامع لأحكام القرآن للطبري: ج/٥، ص/٢٤٧ بتصرف.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود: ج/٢، ص/٤٥٢.

(٣) جامع البيان للطبري: ج/١١، ص/٢٧ بتصرف.

لأوصاف المؤمنين الذين باعوا أنفسهم لله فنالوا عز الدنيا والآخرة، حيث ذكرت الآية تسع صفات جليلة ورفيعة^(١) وإليك أوصافهم:

الصفة الأولى: التائبون:

أثنى الله عليهم ومدحهم بقوله {التائبون} من جميع الذنوب، كما أثنى رسوله ﷺ عليهم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: (كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون)^(٢)، دائم التوبة، والاستغفار عن كل ما بدر منهم وسلف، حيث يشعرون دائما بالقصور، يصاحب هذا الشعور الندامة والأسف حياء من الله تعالى، فلا يمكن لمجاهد مقبل على ربه، أن يتلف نفسه في سبيل الله صادقا، وحاك في نفسه إثم أو ذنب إلا تركه وتاب منه وكرهه، يقول سيد قطب: (التائبون مما أسلفوا، العائدون إلى الله بالاستغفار، يحدوهم شعور بالندم على ما مضى، وتوجه إلى الله فيما بقي، وكف عن الذنب، وعمل صالح يحقق التوبة، كما يحققها بالترك، فهي طهارة وزكاة وتوجه وصلاح)^(٣).

الصفة الثانية: العابدون:

إذا أراد المجاهد أن يكون يوفى عهده وبيعته مع ربه، ومجاهدا صادقا بذوده عن دينه وأمته، لا بد له من التمرس خلف عبادته لربه لا يشرك به شيئا، متمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قولاً وعملاً، وأن يؤدي الفرائض التي هي أحب الأعمال إلى الله عبادة، ومكثرا من النوافل حبا ورضا وتقربا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله قال: (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضه عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه...)^(٤)، فإن أداء الفرائض على وقتها، وكثرة النوافل من قيام وصيام وتلاوة حبا في الله، فلا بد من حسن الظن بالله، مخلصا في نيته صادقا في قوله محسنا صالحا في عمله، هذه هي العبادة التي تجعل من المسلم رباني الصفات، ليكون مجاهدا صادقا، يقبل على ربه، راغبا في عدوه قتلا وتقتيلا ونكاية. فمن عبد الله حبا وتعظيما هانت عليه نفسه وقدمها رخيصة في سبيل الله، يقول الرازي: (إن إتيان العبادة بالرضا والمحبة مشعر بتعظيم الله

(١) قيس من نور القرآن للصابوني: ج/٣، ص/٩٥.

(٢) سنن الترمذي: ك/صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، ب/.. ص/٥٦٣، ح/٢٤٩٩ (حسنه الألباني).

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٧١٩.

(٤) صحيح البخاري: ك/الرقائق، ب/التواضع، ج/٤، ص/١٢٩٧، ح/٦٥٠٢.

تعالى على أقصى الوجوه في التعظيم... فمعرفة الله والإقرار بوجوب طاعته عمل من أعمال القلب... وعبدوا الله في السراء والضراء... وأخذوا من أبدانهم في ليلهم ونهارهم^(١).

الصفة الثالثة: الحامدون:

يسارع المجاهدون الصادقون بأبدانهم وأموالهم للقاء ربهم، ولسان حالهم حامدا شاكرا حال الصالحين دائمي الحمد على نعمائه، الصابرين على ضرائه بكثرة الشكر والحمد في السراء والضراء، ممتثلين قول رسول الله ﷺ: فعن صهيب الرومي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (عجبا لأمر المؤمن. إن أمره كله خير. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرا له)^(٢)، لذلك أدرك المجاهدون، فسعدوا بالخير، وصبروا على الضر، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، بالتالي جعلوا من جهادهم وسيلة لمرضاة ربهم، غير عابئين لما سيصيبهم، مسخرين أموالهم وما يملكون في خدمة دينهم وجهادهم، بكل حب ورضا، يصاحب ذلك لسان رطب بذكر الله وحمده والثناء عليه، وما يحدث اليوم من خلال تعدد خنساواتنا في بيت المقدس وأكنافه يعطينا صورا حقيقية من صور الفداء والتضحية، يقول ابن العربي: (والحامدون هم الراضون بقضائه، والمصرفون نعمته في طاعته)^(٣).

الصفة الرابعة: السائحون:

في معنى السياحة: أقوال منها: الصيام، وقيل التفكير والتدبر في ملكوت الله تعالى، وقيل طلب العلم، وقيل السائرون في الأرض^(٤)، وقيل الجهاد، فعن النبي ﷺ: (إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله عز وجل)^(٥)، وذكر الرازي: (إن الله تعالى حث المؤمنين في الآية الأولى على الجهاد، ثم ذكر هذه الآية في بيان صفات المجاهدين، فينبغي أن يكونوا موصوفين بمجموع هذه الصفات)^(٦). يقول القرطبي: السياحة أصلها الذهاب على وجه الأرض كما يسبح الماء، فالصائم مستمر على الطاعة في ترك ما يتركه من الطعام وغيره، فهو في منزلة السائح. والمتفكرون تجول قلوبهم فيما ذكروا^(٧)، يقول سيد قطب: (هذه الصفة أليق هنا بالجو بعد التوبة والعبادة والحمد. فمع التوبة والعبادة والحمد يكون التدبر في ملكوت الله على هذا النحو الذي ينتهي بالإنبابة إلى الله، وإدراك حكمته في خلقه، وإدراك الحق الذي يقوم عليه

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٢٠٣ بتصرف.

(٢) صحيح مسلم: ك/ الزهد والرفاق، ب/المؤمن أمره كله خير. ج/٤، ص/٢٢٩٥، ح/٢٩٩٩.

(٣) أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي: القسم الثاني، ص/١٠٢٠. دار الفكر/ بيروت، بدون طبعة.

(٤) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٢٠٣-٢٠٤ باختصار.

(٥) سنن أبي داود: ك/ الجهاد، ب/في النهي عن السياحة، ص/٣٩٧، ح/٢٤٨٦. (حسنه الألباني)

(٦) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٢٠٤.

(٧) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج/٥، ص/١١٢.

الخلق. لا للاكتفاء بهذا الإدراك وإنفاق العمر في مجرد التأمل والاعتبار. ولكن لبناء الحياة وعمرانها بعد ذلك على أساس هذا الإدراك^(١).

(فالسياحة هي السير المستوعب في الأرض، ومنه سير أعيننا نتظر في ملكوت الله وتستتبط من الآيات ما يدل على تأكيد إيمانه)^(٢)، فالسائحون هم المجاهدون الصائمون المتدبرون والمتفكرون في خلق الله، كيف والجهاد يتطلب السياحة في الأرض السير فيها؛ لينشر دين الله ينصر أوليائه، ليزداد العابدون المتأملون في آيات الله تعالى.

والصائمون الذين تسمو نفوسهم الشفافة لتزداد شوقا مع شوقها لخالقها، حيث يهيئ الصيام للصائم فرصة صفاء الذهن، فتزداد هذه النفوس تمعنا وتدبرا وتفكرا في عظمة الله وملكوته سبحانه؛ كي يستتبط من آيات الله ما يعينه على زيادة إيمانه.

أمّا أولوا الألباب المتدبرون بعظمة الله يتعرفون عليه من خلال التدبر والتفكر في عظيم آياته ومخلوقاته، فيزداد تسبيحهم وتعظيمهم لربهم، وحبا وشوقا لخالقهم بعد ازدياد إيمانهم، فيزداد شوقهم لإتمام بيعتهم مع الله تعالى فيصرفون نفوسهم وأموالهم حبا في الله ورسوله من أجل نصرته دينه وأوليائه.

فيلتقي المجاهدون والصائمون والمتفكرون في خلق الله على موعد مع قدر الله تعالى في سياحة نفوسهم استعدادا لوعده الله تعالى، إنهم التائبون العابدون الحامدون السائحون، أهل التقوى والورع فيزهدون في الدنيا ليسهل عليهم إيفاء بيعتهم لإتمام صفقتهم مع ربهم، وقد تحلّوا بالحمد والشكر فرحا بالبشرى، وازدادوا صبرا استعدادا لإتلاف أنفسهم وأموالهم بكل الغبطة والرضا والشوق لربهم، سائحين في آيات ربهم الناطقة والمرئية والمقروءة والمسموعة الدالة على الحكمة والحق مستلهما الاحتساب والرضا للجهاد في سبيل الله تعالى.

الصفة الخامسة والسادسة: الراكعون الساجدون:

إن المعارك الجهادية في سبيل الله تعالى لا تحتاج مطلقا للتكبر أو الغرور، وما حدث في حنين خير دليل مع وجود خير الخلق ﷺ معهم، بل إن أهم مستلزمات الجهاد: ذكر الله تعالى، وتمام الخضوع لعظمته وكبريائه وهذا لا يكون إلا من خلال دوام المجاهدين الصادقين على صلاتهم، محافظون عليها في أوقاتها، قائمون بأركانها وواجباتها وسننها، خاشعون في أدائها. فكانت مواظبة المجاهد على صلاته وخصوصا في أرض المعركة أمر لا بد منه لبيان تمام الخضوع والتعظيم لله تعالى.

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ج/٣، ص/١٧١٩.

(٢) زبدة التفاسير لمحمد متولي الشعراوي: ص/٢٣٦، قدم وعلق عليه عبد الرحيم الشعراوي، المكتبة التوفيقية/ القاهرة، بدون طبعة.

يقول الرازي: (جعل الركوع والسجود كناية عن الصلاة، لأنهما خرجا عن مألوف حركة الإنسان وعادته في القيام والقعود، فهما ركنان أساسيان في الصلاة... ولأن القيام لله أول مراتب التواضع، والركوع وسطها، والسجود غايتها، فخصَّ الركوع والسجود بالذكر لدالتهما على غاية التواضع والعبودية لله ونهاية الخضوع والتعظيم لله رب العالمين^(١)).

الصفة السابعة والثامنة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

لا يمكن لمسلم إتلاف نفسه في حرب من الحروب، دون أن يكون قائماً بطاعة الله، زاجراً نفسه عن المعاصي والذنوب، محافظاً على حدود الله ويحمي أركانه، وناهماً عن المنكر، وإلا ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف: ٢-٣)، فالأمر بالمعروف من المجاهد ونهيه عن المنكر تؤدي إلى رص الصفوف وتوحيدها، وأمرٌ قبل كل شيء يحبه الله، لذلك جاء بعدها ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوعٌ﴾ (الصف: ٤)، ثم كيف ينهي المؤمن عن المنكر دون أن يطبق ذلك عملياً، فالمنكر يتطلب غضب لدين الله وغيره عليه، ومخاصمة لأهل الظلم والعدوان، مع ضرورة قتالهم إذا استوجب الأمر ذلك. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم صفات المجاهدين، وهم الأولى بها.

الصفة التاسعة: المحافظون على حدود الله:

يجب على المجاهدين المبايعين الذين يحاربون المعتدين الظالمين، أن يدافعوا عن الحرمات والحدود، وأن يكونوا أولى الناس بحفاظة على حدود الله تعالى ومحارمه، يقول الرازي: (والمحافظون لحدود الله) والمقصود أن تكاليف الله كثيرة وهي محصورة في نوعين: العبادات التي أمر الله بها لا لمصلحة مرعية في الدنيا، بل لمصالح مرعية في الدين؛ والمعاملات فهي: إما لجلب المنافع، وإما لدفع المضار^(٢). فالمحافظة على العبادات وسائر أعمال البر، بشتى أقسامه ومسمياته جاء طلباً لمرضاة الله تعالى ورحمته وجنته، ساعين بكل جهدهم على جلب المنافع قدر الاستطاعة ودفع الضر بكل قوة، حتى يكونوا المجاهد الدرع الواقى والحضن الدافئ وصمام الأمان لهذه الأمة.

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٢٠٤ بتصرف

(٢) المصدر السابق: ص/٢٠٥.

المطلب الخامس: مستلزمات البيعة:

إن كان للبيعة شروطاً وأسباباً وأركاناً! وإن كان للمبايع من صفات وشروط تتوفر فيه لإتمام صفقته مع الله تعالى، فإن للبيعة كذلك مستلزمات لا بد من المحافظة عليها والالتزام بها، حتى تصفو نفس المؤمن وتطمئن فلا يمكن أن يعاهد العبد ربه وفي عنقه بيعة لغيره، أو يرتبط بمعاهدات جانبية، أو أن يبايع غيره على محاربة أهله وإخوانه متعللاً بحجج واهية، فيحارب ربه ودينه وأوليائه من حيث يدري أو لا يدري! أو ينكث عهده مع الله طلباً لمرضاة غيره، قولاً أو عملاً، أو قولاً وعملاً معاً، والعياذ بالله!

لذلك أعقب الله تعالى آية البيعة ومبشراتها، بآية حرمة الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربي، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (التوبة: ١١٣)،

فمناسبة الآية مرتبطة بالتالي قبلها إما من حيث السياق، أو من حيث المعنى، أو من حيث السياق والمعنى على السواء، فالسياق القرآني في هذه الآيات يتحدث عن يدعون الإسلام من المنافقين {ويحلفون إن أردنا إلا الحسنى} ويعاهدون أعداءه، من خلال رباط خفي وولاء مستور بينهم وبين الكافرين.

إن آية البيعة تحدثنا عن صفقة وتجارة رابحة بين الله تعالى، وبين الصادقين المجاهدين من عباده المؤمنين، وبيان لحقيقة الولاء لله من قبل المبايعين الذين دللوا على صدق ولائهم عندما أفنوا أبدانهم وأموالهم في سبيل الله تعالى عند قتالهم لأعداء الله، ساعين بكل جهدهم للقضاء على كل من يغضب الله، كراهية لهم، ومن أجل ذلك بذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله رخيصة، حبا في الله ليستبشروا ويفوزوا بما وعدهم الله تعالى.

ويستمر السياق القرآني ترتبط آياته بعضها ببعض وأخذة بعناق أختها، وترابط لفظي بديع، لتتحدث عن صفات المبايعين، فمن كان ولاؤه لله لا بد أن يكون مستغفراً تائباً، وعابداً زاهداً، وحامداً شاكراً، وصائماً قانتاً مجاهداً متديباً ومعتبراً، راکعاً وساجداً، من خلال حفاظه على صلاتها بقيامها وسجودها، أمراً بالمعروف ونهاياً عن المنكر، متبرئاً من الذين يتعدون الحدود والمحارم والحرمان.

ثم تأتي الآية التالية لتبرهن على صدق البيعة؛ من خلال مستلزماتها، قولاً وتطبيقاً عملياً، الولاء لله تعالى التام، والبراءة الحقيقية التامة من المشركين، ولو كانوا أقرب الناس وأحبهم إليه!

وبالتالي فإن عقيدة الولاء والبراء من أهم مستلزمات البيعة، فالله ينفي عن أوليائه بالكلية استغفارهم للكافرين عموماً، ولذويهم المقربين على وجه الخصوص، ليبرهنوا على

صدق بيعتهم مع الله في تبرؤهم من ذويهم الأموات، بعد أن استجابوا وتبرؤوا من ذويهم الأحياء.

وضرب مثلاً وقدوة في سلامة عقيدة إبراهيم عليه السلام عندما تبرأ من والده، بعد أن وعده بالاستغفار قبل أن يعلم أنه من أصحاب الجحيم، فلا يتخذ أحد من إبراهيم مثلاً في الاستغفار لأبيه؛ وإنما تتخذوه مثلاً وتتبعونه من خلال تبرؤه.

يقول سيد قطب: (إن المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم، جمعتهم صفات بايعوا الله عليها، ليتم حسم العلاقات مع غيرهم التي لا تقوم على هذه الوشائج الإيمانية خاصة عقب فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا دون تربية مسبقة، ولم يتم انطباعها بطباع المتقين، حيث لا زالت علاقات القربى مع ذويهم قائمة، فجاءت الآيات لتبين رفض أية بيعة أو عهد أو علاقة تتناقض مع من أراد أن يبيع نفسه لله تعالى، حتى ولو كانوا أولي قربى الأموات... فلا أسوة بإبراهيم في استغفاره لأبيه.. لأن إبراهيم الذي صبر وحلم على إيذاء والده تبرأ من أبيه عندما مات على الشرك عدواً لله^(١)).

ويقول أبو السعود: (فليس لغيره أن يتأسى به في ذلك، وتأكيد لوجوب الاجتناب عنه بعد التبين بأنه عليه الصلاة والسلام تبرأ منه وهو في كمال رقة القلب والحلم، فلا بد أن يكون غيره أكثر منه اجتناباً وتبرؤاً)^(٢).

فتمام الولاء لله تعالى، وتمام البراءة من المشركين من أهم مستلزمات البيعة، لتصفو العلاقة مع الله ويصدق العبد بعهد مع ربه، فلقد استشعر المسلمون الصادقون خطورة الاستغفار السابق لأقاربهم الأموات، حيث ظنوا أن استغفارهم لذويهم قبل النهي محبطاً لأعمالهم، وضلالاً لهم بعد هدايتهم، يقول البقاعي: (ولما كان الاستغفار للمشركين أمراً عظيماً، وكان فيه نوع ولاية لهم، أظهر سبحانه للمؤمنين ما من عليهم به من عدم المؤاخذة بالإقدام عليه تهويلاً لذلك وقطعاً لما بين أوج الإيمان وحضيض الكفران بكل اعتبار فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١٥)^(٣)، ويقول الطبري: (وما كان الله ليقتضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووقفكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فنتركوه)^(٤).

ولكي تتحقق صفات المبايعة لا بد لها من سلامة ارتباط العبد بربه وتوكله عليه سبحانه؛ لأنه لا ولي ولا ناصر بحق إلا هو جل في علاه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٧٢٠-١٧٢١ باختصار وتصرف.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود: ج/٢، ص/٤٥٣.

(٣) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٩٤-٣٩٥.

(٤) جامع البيان للطبري: ج/١١، ص/٣٤.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} (التوبة: ١١٦)، فالذي لا يخفى عليه من أسرار ملكوته شيء، فيما يخص الحياة والموت والنفع والضر، بالتالي لا بديل عن صدق البيعة معه سبحانه من خلال الحب والبغض في الله. يقول برهان الدين البقاعي: (فلا ينبغي لأحد أن يحب إلا فيه، ولا يبغض إلا فيه، ولا يهتم بعداوة أحد ممن عاداه... لأن الإنسان قد ينصره غير قريبه، فلا يوالي إلا من كان من حزبه أهل حبه وقربه، وفي تهديد لمن أقدم على ما ينبغي أن يتقى لا سيما الملاينة لأعداء الله من المساترين والمصارحين، فإن غاية ذلك موالاتهم وهي لا تغني من الله شيئاً)^(١).

المطلب السادس: البيعة ضرورة إسلامية:

البيعة هي الميثاق والعهد الذي يقطعه المرء على نفسه بالسمع والطاعة لولي الأمر، وبالتالي هي ميثاق بشري مؤسس على رؤية عقديّة تتضمن ثلاثة أطراف هي المبايع "ال خليفة" والمبايع "الأمة" والمبايع عليه وهو الشريعة التي تصب جل اهتمامها في الحفاظ على الكليات الخمس لاستمرار الحياة على الأرض، وبحيث يلتزم الفريق الأول الإمام، والثاني جمهور الأمة جماعة المسلمين، بل والحفاظ عليها والدفاع عنها، ولا تنتهي مسئولية أحدهما بمجرد عقد البيعة؛ بل تستمر في تحمل تبعة حفظ الدين وتطبيق الشريعة من خلال (الفهم الدقيق للبيعة التي تشمل مجموع الإسلام، والإخلاص لله بالقول والعمل، والجهاد من أجل ذلك بالنفس والمال، ممتثلين بذلك أوامر الله تعالى ومجتنبين نواهيه، والثبات على الأمر، والتجرد للأخوة الإسلامية المرتبطة برباط العقيدة، التي تزيناها الثقة المتبادلة)^(٢)، إضافة إلى رقابة الحاكم، ونصحه إذا حاد، وعزله إذا لزم الأمر واقتضت المصلحة العليا للبلاد والعباد.

بذلك نعلم أن العهد أمر ملزم للطرفين، لا يحق لأحدهما نقضه والانصراف منه، ومن الضروري أن يلزم المسلم نفسه ببيعة أو عهد، وأنه لا يستطيع الانفكاك عنها. فلا بد من أن نعرف أن البيعة ملزمة لمن أراد الدخول في الإسلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: (إنما الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به فإن أمر بتقوى الله عز وجل وعدل كان له بذلك أجر وإن يأمر بغيره كان عليه منه)^(٣).

من هذا يتضح ضرورة وجود الإمام بداية لیسوس الأمة ويقودها نحو العزة والنصر والتمكين، يحفظ أماناتهم وعهودهم، وودهم، فيرعى كبيرهم ويرحم صغيرهم، ويوفر لهم أمانهم وعيشتهم، ستر عيوبهم وينشر خيرهم، لأنه الإمام (الستر لأنه يمنع العدو من أذى المسلمين، ويمنع الناس بعضهم من بعض، ويحمي بيضة الإسلام، ويتقيه الناس ويخافون

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٣٩٥ باختصار وتصرف.

(٢) ماذا يعني انتمائي للإسلام لفتحني يكن: ص/١٦٨-١٧٣ باختصار وتصرف، مؤسس الرسالة/بيروت، ط/٢٤/٢٠٠٠م.

(٣) صحيح مسلم: ك/الإمارة، ب/الإمام جنة يقاتل به من ورائه ويتقى به، ج/٣، ص/١٤٧١، ح/١٨٤١.

سطوته، ومعنى يقاتل من ورائه أي : يقاتل معه الكفار والبيعاة والخوارج وسائر أهل الفساد والظلم مطلقاً^(١).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية)^(٢)، مما يدل على خطورة مفارقة جماعة المسلمين، وأن لا عذر لمن خلع يد الطاعة، كما لا يجوز أن يبقى المرء المسلم دون بيعة، ومن مات وليس في رقبته بيعة مات ميتة جاهلية

ثالثاً: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: دعانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعناه فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: "إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان"^(٣)، بدايةً، الإمامة لا تتعقد لكافر، وإن كان مسلماً وطراً عليه الكفر عُزِل، وكذا لو ترك إقامة الصلوات والدعاء إليها، سقطت طاعته، ووجب على المسلمين القيام عليه، وخلعه ونصب إمام عادل إن أمكنهم ذلك، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وحب عليهم القيام بخلع الكافر، ولا يجب في المبتدع إلا إذا ظنوا القدرة عليه، كما لا تتعقد البيعة لفاسق ابتداءً^(٤).

هذه الأحاديث الثلاثة تبين التالي:

- ضرورة البيعة بدايةً لإمام عادل.
- لا يجوز الخروج على الإمام إلا لأسباب شرعية، أهمها خروج الحاكم عن أصول الشريعة بالدليل والبينة والبرهان الذي لا شك فيه وبالحجة الدامغة.
- لا يجوز أن يخلع المسلم يد الطاعة بعد أن التزم ببيعة الإمام ومنهج الشريعة وجماعة المسلمين، ولا يجوز أن ينكث المسلم عهده.
- لا يجوز أن يبقى المسلم دون بيعة، لأن في ذلك سبب لميتة جاهلية.

يبقى عدة تساؤلات، في ظل وضع المسلمين اليوم والتحالفات العسكرية والإستراتيجية^(٥) بعيدة المدى بين بعض الدول الإسلامية ودول الصليب الصهاينة، حيث تتبادل المصالح والخدمات، وفي ظل ظروف واضحة بينات، لا تخفى على كل ذي عقل بصير.

(١) شرح صحيح مسلم للنووي: ج/٦، ص/١٨٢.

(٢) صحيح مسلم: ك/الإمارة، ب/وجوب ملازمة جماعة المسلمين، ج/٣، ص/١٤٧٨، ح/١٨٥١.

(٣) صحيح مسلم: ك/الإمارة، ب/وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، ج/٣، ص/١٤٧٠، ح/١٨٤٠/٤٢.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي: ج/٦، ص/١٨٠.

(٥) هي في الأصل كلمة يونانية: strategos، وبالإنجليزية: strategy، وتعني قائد القوات، وتعارف عليها اصطلاحاً: فن التخطيط للجمع بين إدارة الحرب سياسياً وعسكرياً، وحديثاً أضافوا البعد الاجتماعي والاقتصادي. انظر:

منتديات المساء: <http://www.al-msa.com/vb/showthread.php?t=3419>

- هل بقي لحاكمٍ من طاعة ولى أمره للكافرين بتحالفات بعيدة المدى، يناصرهم ويجتمع إليهم على معاداة المجاهدين، ويجعل من أرض المسلمين مطية للكافرين للإغارة على المسلمين؟
- وهل من بيعة لحاكم ينسق الأمن مع أشد الناس عداوة للذين آمنوا، وأهل الصليب وغيرهم لتعطيل الجهاد بكل الوسائل والسبل؟
- هل بقي لمثل هؤلاء الحكام بهذه المواصفات طاعة أو عهد أو ذمة، أو بيعة؟
- وبما أن الأمة تفرقت شذر مذر، وكل حاكم اختطف فريقا من أمة المسلمين، وارتبط بالكافرين، ولم تتوفر فيه شروط ومواصفات الإمام المْبَايَع للخلافة، وهي:
- ١ - أن تكون البيعة على كتاب الله وسنة رسوله قولا وعملا، كما قال أبو بكر رضي الله عنه: (أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم..)^(١)
 - ٢ - أن يجتمع في المأخوذ له البيعة شروط الإمامة.
 - ٣ - أن يكون المتولي لعقد البيعة - بيعة الانعقاد - أهل الحل والعقد.
 - ٤ - أن يجيب المبايع إلى البيعة.
 - ٥ - أن يتحدد المعقود له بأن لا تتعقد البيعة لغير واحد لقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما"^(٢).
 - ٦ - الاختيار التام للمبايع في البيعة^(٣).
- وبما أن هذه الشروط لا تنطبق على أحد من حكام اليوم، فهل تبقى الأمة وأبنائها دون بيعة؟ طبعاً لا... لا بد أن ينظر المسلمون من أهل الحل والعقد أمرهم، وخاصة العلماء، والشرعيون منهم على وجه الخصوص، ليبحثوا على من تتوفر فيه شروط البيعة - إن كانوا أفراداً أو جماعات - يجتمعون عليهم، ويوكلون أمر المسلمين إليهم ويتحملوا المسؤولية، لاسترداد ما سلب من ديار المسلمين، ورد عدوان المعتدين، وتعليم أبناء المسلمين أمر دينهم، ونشر دين الله تعالى في الأرض.

(١) جولة تاريخية في حياة الخلفاء الراشدين، لأحمد السيد لوكيل: ص/١٦، دار المجتمع للنشر والتوزيع/ جدة، ط/١/١٩٨٦.

(٢) صحيح مسلم: ك/الإمارة، ب/ إذا بويع لخليفتين، ج/٣، ص/١٤٨٠، ح/١٨٥٣.

(٣) انظر منتديات نحن الإسلام: <http://www.weislam.com/vb/archive/index.php/index.php?t-187.html>

المبحث الثالث

فضل الله على أمة الإسلام بمبعث سيدنا محمد ﷺ

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: صاحب البيعة الأولى وأولى الناس وفاءً بعهد الله.

المطلب الثاني: آية الفضل وتفسيرها:

ويشتمل على ثلاثة بنود:

البند الأول: فضل الله على الأمة بمبعث رسول الله ﷺ.

البند الثاني: فضل رسول الله ﷺ على الأمة.

البند الثالث: صفات الرسول ﷺ من خلال الآية.

المطلب الثالث: ضرورة الالتزام بالبيعة بمتابعة رسول الله ﷺ

المطلب الرابع: الهدايات والآثار التربوية لهذا الفصل.

المطلب الأول: صاحب البيعة الأولى وأولى الناس وفاءً بعهد الله:

يقول الشافعي: عن رسول الله ﷺ (المصطفى لوجهه، المنتخب لرسالته، المفضل على جميع خلقه، بفتح رحمته، وختم نبوته... المرفوع ذكره في الأولى، والشافع المشفع في الأخرى، أفضل خلقه نفساً، وأجمعهم لكل خلق، رضيته في دين ودنيا. وخيرهم نسبا وداراً، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ اللَّهُ﴾ (التوبة: ١٢٨) (١)، ومع ذلك هو أكثر الناس استغفاراً، فعن الأغر المرثي (٢) ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: (... وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة) (٣).

كان يقوم ﷺ الليل حتى تتورم قدماه، فقد كان أتقى الناس وأخشاهم الله، بينهها عندما تقال بعض الصحابة عبادته، فقال: (أما والله إني لأخشاكم الله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني) (٤)، ويصوم فلا يعلم فطره، ويفطر فلا يعلم صيامه، فهو سيد من حمداً (٥) وسيد من شكر ﷺ، أحمدُ الناس لله رب العالمين، وعند الله المحمداً، جمع صفات الحامدين الصالحين، فحمد في الأولى والآخرة، ومحموداً من الله والناس.

إنه إمام المجاهدين، صدع وامتلل لأمر ربه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ (الأعراف: ١٦٥)، فكان أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، ووصى بذلك، فقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وحذرهم من مخالفة أمره من بعده، فعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف) (٦) من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدكم بیده فهو مؤمن، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل) (٧).

مما يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من باب (الحث على مجاهدة المخالفين بأقوالهم وأفعالهم، وإن عدم إنكار المنكر دليل على ذهاب الإيمان، وبقدر كراهية المنكر يتبين مدى قوة الإيمان) (٨).

وأولى الناس في الحفاظ على حدود الله ومحارمه، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها كمثل قوم استهموا على

(١) الرسالة للإمام الشافعي: ص/ ١٢-١٣ بتصرف. مكتبة دار التراث/ القاهرة، ط/ ١٩٧٩م.
(٢) الأغر بن يسار المرثي من المهجرين الأولين، روى عن النبي ﷺ وعن أبي بكر، تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/ ١، ص/ ٢٣١.
(٣) صحيح مسلم: ك/ التوبة، ب/ استحباب الاستغفار والاستكثار منه، ج/ ٤، ص/ ٢٠٧٥، ح/ ٢٧٠٢.
(٤) صحيح البخاري: ك/ النكاح، ب/ الترغيب في النكاح، ج/ ٣، ص/ ١٠٤٦، ح/ ٥٠٦٣.
(٥) لسان اللسان لابن منظور: ج/ ١، ص/ ٢٨٩.
(٦) تخلف: تحدث، وخلوف جمع خلف وهو الخالف بشر، انظر: صحيح مسلم: ج/ ١، ص/ ٧٠.
(٧) صحيح مسلم، ك/ الإيمان، ب/ بيان أن النهي عن المنكر من الإيمان، ج/ ١، ص/ ٦٩-٧٠، ح/ ٥٠.
(٨) نزهة المتقين شرح رياض الصالحين، لمجموعة من المؤلفين: ج/ ١، ص/ ١٧٠-١٧٠، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط/ ١٩٩٧م.

سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا؛ فإن يتركوهم وما أرادوا؛ هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم؛ نجوا، ونجوا جميعاً^(١). فبمقدار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ يكون الاستعداد للجهاد، وبمقدار الإيمان، يكون حب الاستشهاد؛ فأرض المعركة لا تستوعب إلا من كان مجاهداً بيده أو لسانه، ومن أنكر منكر الظالمين ولو بقلبه، فمن لم يكن مع المجاهدين بيده ولسانه في ساحة الوعى، فإنه يستطيع أن يكون معهم بالدعاء الخالص لهم بالثبوت والنصر والتمكين، مع القيام بدور العين الساهرة على أمن الذراري والأطفال والأملك.

المطلب الثاني: آية الفضل وتفسيرها:

البند الأول: فضل الله على الأمة بمبعث رسول الله ﷺ:

لقد منَّ الله على أمة الإسلام بنعم كثيرة وآلاء عظيمة، وأعظمها؛ نعمة الإسلام والدين والإيمان، فقال جلَّ في علاه: {يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَّا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (الحجرات: ١٧)، كما امتنَّ على أمة الإسلام برسول الله ﷺ، فقال: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (آل عمران: ١٦٤)، وفي سورة التوبة يقول تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (التوبة: ١٢٨).

هذه الآية العظيمة في بيان فضل الله على أمة الإسلام برسول الله ﷺ، وبيان فضله ﷺ على الأمة، من خلال ذكر صفاته في هذه الآية التي اختتم الله بها سورة التوبة.

إنه الذي صلى عليه الله وملائكته قبل أن يأمر الناس بالصلاة عليه، بقوله: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} (الأحزاب: ٥٦)، وهو الذي وصف نفسه بأمر ربه، فعن واثلة بن الأسقع^(٢) ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بين هاشم)^(٣)، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة. وأول من ينشق عنه القبر. وأول شافعٍ وأول مشفعٍ)^(٤). ولو أحصينا في فضله، لضاق بنا المقام والمقال.

(١) صحيح البخاري: ك/ الشركة، ب/ هل يقرع في القسمة؟ والاستهام فيه، ج/ ٢، ص/ ٤٩٣، ح/ ٢٤٩٣.
(٢) واثلة بن الأسقع بن كعب بن عامر بن ليث بن عبد مناة، وقيل بن الأسقع، أسلم قبل تبوك وشهداها، كان يشهد المغازي بحمص ودمشق، ومات فيها سنة ٨٣ هـ. انظر: تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/ ٦، ص/ ٦٦-٦٧.
(٣) صحيح مسلم: ك/ الفضائل، ب/ فضل نسب النبي ﷺ، ج/ ٤، ص/ ١٧٨٢، ح/ ٢٢٧٦.
(٤) المصدر السابق: ح/ ٢٢٧٨.

فضل الله سبحانه على أمة الإسلام بنعمة رسول الله ﷺ كبير وعظيم وذلك لأسباب، أنه عظيم الشأن والمكانة، من خلال صفاته وحرصه على هداية الناس، وجمع له اسمين من أسمائه، فقال: **{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}** (التوبة: ١٢٨)، يقول أبو السعود: (لقد جاءكم أيها العرب رسول عظيم الشأن)^(١)، وكذلك أنه ﷺ من النعم العظيمة والآلاء الجسيمة، يقول ابن عطية^(٢): (وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم)^(٣)، كذلك لطهارته وصفاء نسبه، روى الطبري بسنده: (لم يصبه من شرك في ولادته، ولا من ولادة الجاهلية بشيء)^(٤)، كما أنه من أعظم النعم بعد نعمة الإسلام، فقد امتنَّ علينا بنعمة الإسلام فقال: **{...بِئَللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** (الحجرات: ١٧)، وامتنَّ علينا برسول الله ﷺ فقال: **{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ...}** (آل عمران: ١٦٤).

إن الله جل في علاه لم يمتنَّ على المؤمنين بلفظ المنِّ إلا في هذين الموضعين، وفي ذلك بيان لفضل رسول الله ﷺ بعد فضل الله علينا بالإسلام أيما فضل، وهو الذي نال شرف حمل رسالة الإسلام العظيم، وتحمل مشاق تبليغها للناس، ومنَّ الله عليه بأجر كل من أسلم إلى يوم الدين، فلا يتحمَّل عبء هذه المهمة إلا من تمثلت فيه الصفات السنية التي تؤهله لحمل رسالة رب العالمين، وبالتالي سينال هذا الشرف؛ كل من ينتمي وينتسب إلى هذا الدين، (تدل هذه الآية على أن بعث هذا الرسول ﷺ الذي هو من أنفسنا، متصف بهذه الصفات المشعرة بغاية الكمال، وغاية شفقتة علينا هو أعظم منن الله تعالى، وأجزل نعمه علينا)^(٥)،

يقول الرازي: (لمَّا أمر الله رسوله ﷺ أن يبلغ الخلق تكاليف شاقة صعب تحملها، إلا من خصَّه الله تعالى بوجوه التوفيق والكرامة، ختم السورة بما يوجب سهولة تحمل تلك التكاليف، وهو أن الرسول ﷺ منكم، فكل ما يحصل له من العز والشرف في الدنيا عائد إليكم، وكل ضرر يصيبكم يشق عليه، ويرغب في إيصال خير الدنيا والآخرة إليكم، فهو كالطبيب الحاذق المشفق في علاج ما استصعب علاجه، رغبة في سلامتكم، وكالأب الشفوق الرحيم في إحسان تأديبكم، فأنتم قد عرفتم أنه رسول الله بحق، فاقبلوا هذه التكاليف لتفوزوا بكل خير)^(٦).

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود: ج/٢، ص/٤٦٠ بتصرف

(٢) عبد الحق بن غالب بن عبد الملك بن غالب بن تمام بن عطية أبو محمد الغرناطي، ولد سنة ٤٨١ هـ، فقيها عارفا بالأحكام والحديث والتفسير واللغة والأدب، توفي ٥٤١ هـ، انظر طبقات المفسرين للسيوطي: ص/٥٠.

(٣) تفسير ابن عطية: ج/٣، ص/١٠٠. دار الكتب العلمية/بيروت، ط/١/١٩٩٣م.

(٤) جامع البيان للطبري: ج/١٥، ص/٥٨٥ بتصرف، مؤسسة الرسالة/بيروت، ط/١/٢٠٠٠م.

(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي: ج/١، ص/٥٠٨. دار إحياء التراث العربي/بيروت، ط/١/١٩٩٦م.

(٦) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج/١٥، ص/٢٣٥.

البند الثاني: فضل رسول الله ﷺ على الأمة:

إذا كان فضل رسول الله ﷺ على المرسلين من الله بَيِّنًا، فَمَنْ دُونَهُمْ بِفَضْلِهِ أَبْيَنُ، فالله قد منَّ على العالمين به، بخلال الكمال، فقال جل في علاه: **{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}** (ال عمران: ١٦٤)، وختم بذكر خصاله وبيان فضله في ختام سورة التوبة، فقال: **{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}** (التوبة: ١٢٨)^(١)، وضرب ﷺ مثالا على مقدار فضله، فعن أبي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ (١) ﷺ قال: قال رسول الله: (فَضَّلَ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ)^(٢)، وساق أمثلة على تعدد خصاله ومزاياه، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (فَضَّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَسْتٌ: أُعْطِيتُ جِوَامِعَ الْكَلِمِ. وَنُصِرْتُ بِالرَّعْبِ. وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ. وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهْرًا وَمَسْجِدًا. وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً. وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ)^(٣)، وفي رواية زاد الفضل بقوله ﷺ: (كان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصةً، وبعثت إلى كل أحرر وأسود... وأعطيت الشفاعة)^(٤)، وزاد بقوله ﷺ: (... جعلت صفونا كصفوف الملائكة...)^(٥)، وأضاف ﷺ: (...أوتيت بمفاتيح مخازن الأرض فوضعت بين يدي)^(٦).

هذه بعض خصاله التي ميزه ربه بها وفضله على غيره من النبيين والمرسلين، ليختم به رسالة الإسلام الخالدة لأفضليته ومؤهلاته الربانية، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويكون الدين كله لله، رغم أنف الحاقدين من المنافقين والكافرين والمشركين، فقال: **{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}** (التوبة: ٣٣)، (الصف: ٩).

فإذا كان الله قد أكرم النبيين عليهم السلام بنبوتهم؛ فقد أكرمهم ثانية بأن ختم بهم محمداً ﷺ، وإذا كان الله عزَّ وجلَّ قد أكرم المرسلين عليهم الصلاة والسلام برسالاتهم؛ فقد أكرمهم ثانية بإمامة محمد ﷺ لهم، وختم به الرسالات، وفضله فوق ذلك كله بأن بعثه بالهدى ودين الحق على سائر الأديان، (ليتم الله به الدين ويظهره على المشركين والمنحرفين، بالصدق والإيمان، والعلم والإحسان، والأعمال الصالحات النافعات في الدنيا والآخرة)^(٧).

(١) هو صدى بن عجلان بن وهب، ويقال ابن عمرو، صحابي روى عن النبي ﷺ وعن عمر وعثمان وعلي وأبي عبيدة وغيرهم، وروى عنه سليمان المحاربي ورجاء بن حيوة ومكحول الشامى، وغيرهم، سكن الشام وأخر الصحابة موتاً بها، سنة ٨١هـ وقيل ٨٦هـ، انظر: تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج/٢، ص/٥٥٠ مختصراً.

(٢) سنن الترمذي: ك/ العلم عن رسول الله ﷺ، ب/ ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ص/٦٠٤، ح/٢٦٨٥. (صححه الألباني)

(٣) صحيح مسلم: ك/ المساجد ومواضع الصلاة، ج/١، ص/٣٧١، ح/٥٢٣.

(٤) المصدر السابق: ج/١، ص/٣٧٠-٣٧١، ح/٥٢١/٣.

(٥) المصدر السابق: ج/١، ص/٣٧١، ح/٥٢٢/٤.

(٦) المصدر السابق: ج/١، ص/٣٧١-٣٧٢، ح/٦/ (...).

(٧) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج/٢، ص/٣٨٥ بتصرف.

إن الله تعالى قرن رسوله ﷺ بكلمة التوحيد، وآيات كثيرة بينت فضله، ففي أول السورة قرن ذاته العلية به ﷺ عند البراءة من المشركين، فقال: {بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (التوبة: ١)، وأرسله بالهدى والنور لِيَتَمَّ بِهِ الدِّينَ، فقال: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} (التوبة: ٣٣)، ونصر دينه وأعزه إلى يوم الدين، فقال: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ...} (التوبة: ٤٠)، وعفا عنه عندما أذن لبعض المنافقين بالعودة، فقال: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ} (التوبة: ٤٣)، وجعل عطاءه من عطاء الله تعالى، فقال: {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...} (التوبة: ٥٩)، وتوعد بالعذاب الشديد كل من يؤدي رسول الله ﷺ فقال: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (التوبة: ٦١)، وشرفه بجهاد الكفار والمنافقين عندما أمره بجهادهم فقال: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} (التوبة: ٧٣)، وخيره ربه بالاستغفار للمنافقين ولم يخير أحدا قبله ولم يخير أحدا بعده، فقال: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ...} (التوبة: ٨٠)، وأعلى قدره بالتوبة، ومعه المؤمنين إكراما له وشرفا لهم، فقال: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (التوبة: ١١٧)، يقول ابن تيمية: (الأنبياء عليهم السلام معصومون من كبير الذنوب وصغيرها، فالتوبة ترفع الدرجات وتعظم الحسنات، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وهي ليست نقصا؛ بل هي من أفضل الكمالات... ولا بد منها لكل مؤمن، ولا يكمل أحد ويحصل له كمال القرب من الله، ويزول عنه كل ما يكره إلا بها، ومحمد ﷺ أكمل الخلق وأكرمهم على الله وهو المقدم على جميع الخلق في أنواع الطاعات؛ فهو ﷺ أفضل ما يحب الله في العبد من صفات العبودية، وتوبته أكمل من توبة غيره ولهذا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)^(١)، وزاده شرفا وقدرًا عندما جمع له اسمين من أسمائه، (لم يجمعهما لأحد غيره ﷺ في قوله: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ})^(٢).

ختم الله به الرسالات، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور، يقول محمد الغزالي: (فمحمد ﷺ لم يكن إماما لقبيل من الناس صلحوا بصلاحه، وبموته ذهبوا، بل كان قوة الخير التي تمثل كل مراحل التطور الإنساني، برسالة تنير العيون، وتجلي البصائر والأذهان من خلال تراث ضخم من الكتاب والسنة)^(٣). ويقول: (كان اصطفاء الله لمحمد ﷺ مفاجأة لم تلبث روعتها أن تكشفت عنه، ثم ثبت الكاهل الجلد لما أُلقي عليه، ومضى على النهج مسدداً مؤيداً)^(٤).

(١) التفسير الكبير لابن تيمية: ج/٤، ٣٨٤-٣٨٩ باختصار وتصرف، دار الكتب العلمية/بيروت، ط/١/١٩٨٨م.

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري: ج/٢، ص/٣٤٤-٣٤٥.

(٣) فقه السيرة، لمحمد الغزالي: ص/٢١ باختصار، دار الكتب الحديثة/القاهرة، ط/٧/١٩٧٦م.

(٤) المصدر السابق: ص/٢٨.

إنه المؤهل حقا لحمل رسالة الله الخالدة إلى يوم الدين. لذلك أعلى الله شأنه ﷺ، وعظم أمره، وجعله إماما للمرسلين وسيدا للعالمين، وختم به النبيين.

البند الثالث: صفات الرسول ﷺ من خلال الآية:

صفات الرسول ﷺ وخصاله في هذه الآية خمس خصال هي:

الخصلة الأولى: {مَنْ أَنْفُسِكُمْ} ذكر ابن الجوزي: (قراءتين لـ {أَنْفُسِكُمْ}: الأولى للجمهور بضم الفاء، والثانية لابن عباس وغيره بفتحها، وفي المضمومة، أنه ﷺ من جميع العرب، وممن تعرفون، من نكاح، فليس فيه شيء من ولادة الجاهلية، بشر مثلكم، فهو أكد للحجة، لأنكم تفقهون عن هو مثلكم، وفي المفتوحة ثلاثة أقوال: أحدها: من أفضلكم خلقا، والثاني: أشرفكم نسبا، والثالث: أكثركم طاعة لله^(١). فهو ﷺ الذي يعرفون اسمه وقبيلته وحسبه ونسبه، وطهارة أصله ونقاء عرقه، كما يعرفون حسن خلقه وأدبه الذي يضرب به المثل، حتى بات معروفا بينهم بالصادق الأمين.

الخصلة الثانية: {عَزِيزٌ} (٢) عَلَيْهِ مَا عَتَمْتُ (٣)، يقول ابن عطية: {عَزِيزٌ} صفة الرسول^(٤)، ويقول الشيخ كشك: (لأنه منكم، يسوؤه أن تكونوا أمة ذليلة يغتتها^(٥) أعداؤها بالسيطرة عليها، والتحكم فيها، ولا أن تكونوا في الآخرة من أصحاب النار)^(٦) يَعْزُّ عليه ويشند به الضيق، وتَشَقُّ عليه ما قد يقع منكم من الغلط، فتهلكون أنفسكم بآثامكم وذنوبكم.

الخصلة الثالثة: {حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ}، أي حريص على نفعكم^(٧)، يريد إيمانكم وهدايتكم^(٨)، وصلاح حالكم^(٩)، ووصول النفع الدنيوي والأخروي^(١٠). وهذه الصفة لا تكون إلا كمثل كالوالد والولد، أو الأم الرؤوم المشفقة على ولدها من أي ضرر يصيبه.

الخصلة الرابعة والخامسة: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَحِيمٌ}، أي بجميع المؤمنين كافة العريقين في هذا الوصف خاصة^(١١)، شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين، فكل ما يدعو إليه من العمل بشرائع الله فهو دليل على ثبوت هذه الصفات له، وكل شاق فيها كالجهد فهو منجاة مما هو أشق منه^(١٢).

(١) زاد المسير لابن الجوزي: ص/٦١٣ بتصرف.

(٢) عزيز عليه: عظم عليه، ويعزُّ عليه: إذا اشتد، انظر لسان اللسان لابن منظور: ج/٢، ص/١٦٩.

(٣) عتمت: العنت: المشقة والشدة والغلط والإثم والهلكة، انظر لسان اللسان لابن منظور: ج/٢، ص/٢٢٨.

(٤) المحرر الوجيز في الكتاب العزيز لابن عطية: ج/٣، ص/١٠٠.

(٥) العنت: الجهد والتعب، انظر: لسان اللسان لابن منظور: ج/٢، ص/٢٥٣.

(٦) في رحاب التفسير للشيخ كشك: ج/٢، ص/١٦٢٥ باختصار.

(٧) كتاب العين للفراهيدي: ج/١، ص/٣٠٥.

(٨) المحرر الوجيز في الكتاب العزيز لابن عطية: ج/٣، ص/١٠٠.

(٩) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود: ج/٢، ص/٤٦٠.

(١٠) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج/٢، ص/٤٤٣.

(١١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٤٠٧ بتصرف.

(١٢) في رحاب التفسير للشيخ كشك: ج/٢، ص/١٦٢٦.

فهذان اسمان من أسمائه ﷺ مشتقان من أسماء الله، وقد اشتق له من اسمه نحو السبعين اسما، وهذه خصوصية له ﷺ، كالكريم، والخير، والحق المبين، والشاهد، والشهيد، والفتاح والشكور، وغير ذلك^(١).

ما تقدم هو استحضار عظيم لإحسان الله وبيان فضله ﷺ علينا، إذ هو الذي بلغنا دين الله تعالى أحسن بلاغ وأتمه فأكمله، فقد بلغ ﷺ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة. فلا بد من عزو كل خير دنيوي وأخروي نوفق إليه ونتنعم به إلى رسول الله ﷺ بعد فضل الله تعالى ومنته، فكان ﷺ سبيلنا ومرشدنا إليه، ما ترك خيرا إلا علمنا إياه ودلنا عليه، وما ترك شرا إلا حذرنا منه ونهانا عنه، فجزاه الله عنا خير ما جرى نبياً عن أمته خيراً.

إن ما سبق من الآيات وخاصة دعوة الله تعالى إلى مجاهدة الذين يلوننا من الكفار، ومن يرتبط بهم من المنافقين الذين في قلوبهم المرض، وبسببه صرفوا أنفسهم عن طاعة الله، وصدوا عن سبيله، ثم تلي بعد ذلك بيان بعض صفات الرسول القائد ﷺ، الذي يؤلف حوله القلوب المؤمنة، الملتزمة بحب الله وطاعته، وحب قائدهم الحاني الشفيق ليبين لنا الله تعالى بعض صفات القادة الصادقين الذين يصلح الله بهم حال الأمة بعد انحرافها، فأمتنا اليوم تعيش حالة الصدأ، وضمن الهدف النفاقي، والعدوان الصليبي واليهودي، وبالتالي ألسنا بحاجة إلى الجهاد في سبيل الله تعالى لرد العدوان واسترداد الحقوق، تحت إمرة قائد رباني بشرت به الآية الكريمة لينير لنا طريق العتمة، والظلم، ويحررنا من جبروت الطاغوت، ألسنا بحاجة إلى رجل رشيد، يتسم بهذه الصفات؟ يشق عليه حالة الذل والهوان التي تعيشها أمتنا، حريص على تحرير نفوسنا من ظلمها، وتحرير البلاد والعباد من ظلم المعتدين والمحتلين.

- ألسنا بحاجة اليوم إلى قدوة صالحة تتمثل أخلاق النبي ﷺ وهداياته وإشاراته؟
- ألسنا بحاجة إلى قائد رؤوف بجنده وشعبه حريص على سلامة دينهم، لئلا يكونوا أدلة صاغرين؛ يحيون حياة السمع والطاعة والعزة والأنفة، حتى يمن الله عليهم بالنصر، وحسم الأمر مع المنافقين، ورد كيد المعتدين المجرمين.

لذلك لا بد لكل مسلم يتمنى مرضاة الله تعالى، ويحب رسول الله ﷺ، ويدين بهذا الدين الحق، أن يلتزم شمولية هذا الدين، وأن يكون في رقبته بيعة للصالحين المجاهدين في كل زمان ومكان، من أتباع سيد المرسلين ﷺ، الذين توفرت فيهم صفات القائد الرباني، من خلال صلاحهم وتقواهم.

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي: ج/٢، ص/١٩١.

المطلب الثالث: ضرورة التوكل على الله تعالى والاستعانة به عند البيعة:

قبل البحث في حقيقة التوكل وأهميته للمبايع، لا بد من التعرف عليه لغة واصطلاحاً،
فالتوكل لغة: أصلها: وكَلَّ، في أسماء الله الوكيلُ، وهو المقيم الكفيل بأرزاق العباد،
والوكيلُ في صفة الله تعالى: الذي توكل بجميع ما خلق، والمُتَوَكِّلُ على الله: الذي يعلم أن الله
كافل رزقه وأمره فيركن إليه وحده، واستسلم إليه، واعتمد عليه^(١).

التوكل اصطلاحاً هو: (القيام بالأسباب، دون الاطمئنان إليها، فلا يرجوها ولا يخافها أو
يركن إليها؛ بل قائماً بها، ناظراً إلى مسببها ومجريها سبحانه، فلا يصح التوكل شرعاً وعقلاً،
إلا عليه تعالى؛ لأنه وحده مسبب الأسباب)^(٢).

إن حقيقة التوكل على الله: تسليم تمام الأمر لله في كل الأمور التي يقوم بها العبد،
والتي لا يقوم بها، ويُعْتَمَدُ فيها على الله في كل شيء.

فكانت بداية السورة البراءة من المشركين وما يترتب على ذلك، من قلة وفاقية
وعيلة، وخوف، وضعف، ربما لا نستطيع أن نتبرأ منهم بالمنظور البشري، وختمت السورة
بضرورة حسن التوكل على الله تعالى؛ عند إعراض المستكبرين والمعاندين من المشركين
والمنافقين، قال الله تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} (التوبة: ١٢٩)^(٣)، يقول الزمخشري: (فإن أعرضوا عن الإيمان بك، وناصروك العدا
فاستعن وفوض إليه أمرك، فهو كافيك معرفتهم، ولا يضرؤنك، وهو ناصرك عليهم)^(٤)، ويقول
البيضاوي: {فَقُلْ حَسْبِيَ} فإنه معينك عليهم، {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} كالدليل عليه، {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ}
فلا أرجو ولا أخاف إلا منه)^(٥)، ويقول البقاعي: (ثم أقبل عليه مسلماً أن يعرض عمن
أعرضوا عنه، والبراءة منهم ملتفتاً إلى أول السورة: الأمر بالبراءة من كل مخالف)^(٦).

وبما أن البيعة أصلها الثبات على (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وضرورة الالتزام
بالتوكل على الله، وطلب النصرة منه وحده جل في علاه، فالمرء بحسن توكله على ربه،
وبمقدار صدقه في ذلك (يصل بالقوة الربانية التي تحميه وتكفيه... فإليها تنتهي القوة والملك
والعظمة والجاه، فالله حسب كل من لاذ به وحسب من والاه)^(٧)، وأن الولاء لله والبراءة من
المشركين من مقتضيات البيعة ومستلزماتها الصادقة، وذلك بحسن الاتصال بالله وصدق
موالاته عزَّ وجلَّ، فإن توكلت على الله الذي هو كافيك وناصرك حق التوكل، أسرعت إلى
التبرؤ من كل من عادي مولاك بكل اطمئنان، دون خوف أو تردد.

(١) لسان اللسان لابن منظور: ج/٢، ص/٧٥٨.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم: ج/٣، ص/٥٢٢ باختصار وتصرف، دار الكتب العلمية/بيروت، بدون طبعة.

(٣) الكشاف للزمخشري: ج/٢، ص/٣٤٥.

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، المجلد الأول، ص/٤٢٦. دار الكتب العلمية/بيروت، ط/١/٢٠٠٣م.

(٥) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٤٠٩ باختصار وتصرف.

(٦) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٧٤٢ بتصرف.

يقول البقاعي: **{فإن تولوا}** أي اجتهدوا في إديارهم عنك فاستعن بالله يكفيك، فإن الله جل ثناؤه يعطي بحسب الكفاية التي تغني عن غيره، ويزيد من نعمته ما لا يبلغ إلى حد ونهاية إذ نعمه دائمة ومننه متظاهرة؛ لأنه الملك الذي لا كفوء له، وإنما كافيًا لأنه **{لا إله إلا هو}** فلا مكافئ له ولا راد لأمره ولا معقب لحكمه^(١). وبما أنه **{لا إله إلا هو}** صاحب القوة والعظمة والإرادة والعلم والقدرة، صاحب صفات الكمال المطلق جل في علاه، فإن التوكل عليه أمر مسلم به عند الذين صدقوا عهدهم معه عزًّا وجل، ويرغبون في الوفاء بتمام البيعة مع الله تعالى، لأنه سبحانه أوفى عهدا، وأمره نافذ في كل شيء^(٢).

فإذا أدرك المسلم حقيقة التوكل، لا بد أن يعلم على من يتوكل، يقول البقاعي: **{وهو ربُّ}** أي مالك ومخترع ومدبر؛ ولما كان في سياق القهر والكبرياء بالبراءة من الكفار والكفاية للأبرار... **{العرش العظيم}** أي المحيط بجميع الأجسام الحاوي لسائر الأجرام... وأن ربه أعظم منه لأن عظمته على الإطلاق، فلا شيء إلا وهو في قبضته وداخل في دائرة مملكته، وإذا كان كافي، فأنا برئ ممن تولى عني، وبعْدَ مني كائنا من كان، فقد عائق آخر السورة أولها، وصافح منتهاها مبتدأها وتؤكد ما فهمته من سر الالتفات في **{فسيحوا}**، وفي **{فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معزي لله}**^(٣).

لذلك كان الوفاء بالعهود والعقود فقه خاص في المنهج الإسلامي (لا يدركه إلا الذين يتحركون بهذا الدين حركة جهادية لتقرير وجوده في واقع الحياة؛ برد الناس إلى ربوبية الله وحده... فالمساحة شاسعة بين فقه الحركة الذي يتقن لغة المواجهة مع الجاهلية وأردافها، وبين فقه الأوراق وحسابات الواقع الانهزامي)^(٤).

فكانت البيعة الضرورة الملحة في عنق كل مسلم لا تتفك عنه، ولا ينفك عنها، ولا ينبغي لمسلم أن لا يكون في رقبته بيعة، أو ينزع يدا من طاعة، فلا بد من الالتزام بجماعة المسلمين، وسوادها الأعظم، من العلماء والمجاهدين القابضين على دينهم، والمحاربين فيه، على قلتهم وكثرة أعدائهم وشدة عداوة اليهود لهم، ومن أشركوا من النصارى والمنافقين.

(١) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٤٠٩ باختصار.

(٢) المصدر السابق: ص/٤٠٩.

(٣) نظم الدرر للبقاعي: ج/٣، ص/٤٠٩-٤١٠.

(٤) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج/٣، ص/١٧٤٢ بتصريف.

المطلب الرابع: الهدايات والآثار التربوية لهذا الفصل:

لكل آية من آيات الله تعالى الكثير من الهدايات التربوية، التي تعنى وتهتم بدوام سلامة العقيدة والدين والأخلاق وغيرها، من ذلك:

- أن يستشعر المسلم أهمية البيعة، وأهمية الالتزام بها، لأنها سببٌ لمرضاة الله تعالى.
- على المسلم أن يرتقى بنفسه؛ حتى يكون مؤهلاً للصفقة مع الله تعالى.
- أن يدرك المؤمن أن للبيعة فوائد جمة، منها الدوام على الطاعة، وحسن الخلق، وحياة كريمة عزيزة، في الدنيا، والفوز العظيم بجنات النعيم.
- استخدام الوسائل المحسوسة وضرب الأمثال لتوصيل المعلومات والمعارف والقيم الإسلامية وسهولة إدراكها.
- أن يتدرب المسلم على جميع النواحي الروحية والنفسية والمادية استعداداً للقتال وإتلاف نفسه وماله في سبيل الله تعالى.
- أن يفى المسلم بعهده ووعده التزاماً وأدباً مع الناس وحبا في الله، وطاعة له.
- أن يستخدم أسلوب التعزيز لتحقيق الأهداف المادية والمعنوية الجهادية.
- أن يقلع المسلم عن الذنوب حياء من ربه، لأنه في عهد دائم معه جل في علاه.
- أن يكثر المسلم من الاستغفار تأدباً مع ربه، ورغبة في عفوه، وطمعا في توبته.
- أن يدرك المسلم أن الإقرار بالذنب، بحسن الإنابة وعدم الإصرار عليه بالتوبة، يقربه من عفو ربه ورحمته، ويجعله من التائبين.
- أن يخلص المرء في طاعته لربه، ويكثر من عبادته حتى يكون من العابدين.
- أن يطيب المرء دائما لسانه بذكر الله وحسن الثناء علي؛، ليكون من الحامدين.
- أن يتفكر المسلم في عظيم خلق الله، مجاهداً في سبيل الله صائماً ليكون من السائحين.
- أن يحافظ المسلم على صلاته في أوقاتها جماعة، بتمام قيامها وركوعها وسجودها وخشوع وتدبر، حتى يكون من الذين أحسنوا الاتصال برب العالمين.
- أن يتعلم المرء كيف يعبد الله على علم، لينفع نفسه وينفع الناس، لينال شرف خيرية هذه الأمة كونها أمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، مبتعداً بذلك عن صفات المنافقين.
- أن يدرك المسلم ضرورة الدفاع عن حدود الله ومحارمه، وكيف يزود عنها بكل قوة.
- أن يدرك المؤمن خطورة الاتصال بالكافرين ولو بالاستغفار لهم أيا كانت العلاقة بهم.
- أن يتضرع المرء في دعائه إلى الله سبحانه وتعالى بتذلل وخشوع.
- أن يسرع المرء في التبرؤ من الأقارب أو أي أحد، إذا تبين أنه عدو لله.
- أن يتحرى المسلم الدقة في الحكم على الناس خاصة فيما يتعلق بالإيمان والكفر.
- لا بد من العلم والبيينة والحجة والبرهان قبل الحساب والعقاب.

- أن يعلم المؤمن أن الله الذي له ملك السموات والأرض لا يخفى عليه شيء فيهما، وأنه المحيي والمميت، وأنه الرزاق ذو القوة المتين.
- أن يدرك المؤمن أن لا ولي للمسلمين ولا نصير لهم غير الله سبحانه وتعالى.
- أن يجيد المسلم لغة الاستعانة بربه، بحسن طاعته له؛ حتى يستنزل نصره ورحمته.
- أن لا يؤخر المسلم عمل الطاعة عن موعدها، ولا يؤجل عمل اليوم إلى الغد.
- أن يدرك المسلم أن توبة الله شرف ورفعة، وأنها تسع كل أحد مستغفر ما لم يغرغر.
- أن يعلم المؤمن أن كل أمر أصابه وصبر عليه، له فيه خير علمه أم لم يعلمه.
- أن يلتزم المؤمن الصدق والصادقين، وأن ينتهج منهجهم.
- أن يعلم المؤمن أن نصرة الله ورسوله ودينه، مقدم على النفس والمال والأهل والولد.
- وجوب محبة النبي ﷺ، وطاعته ونصره، والتزام هديه، وأن بغضه كفر وحرمان^(١).
- لقد تكفل الله بنصرة دينه وأوليائه، ولو تخلى عنهم كل الناس أو خذلهم^(٢).
- التيسير على الناس في هدايتهم بتكرار دعوتهم إلى الحق دون ملل، وأن تكون الدعوة مصحوبة بالعلم والرفقة والرحمة والإحسان إليهم بالصبر الجميل أثناء دعوتهم^(٣).

(١) أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم د. عبد الله محمود شحاته: ج/١، ص/١١٨ بتصرف، الهيئة المصرية العامة للكتاب/ القاهرة، بدون طبعة.

(٢) المصدر السابق: ص/١١٨ بتصرف.

(٣) التربية الإسلامية في سورة التوبة د. علي عبد الحليم محمود: ص/٣٦٤.

إِلْتِمَاءُ

الحمد لله الذي أتم عليّ النعم، ووآلى بفضلِه المنن، فأعانني وأكملت رسالتي بالصورة التي أرجو بها مرضاة ربي، وأن تكون نافعة للأمة المسلمة.

حقاً إنها سورة التوبة، التي شملت توبة الله تعالى على مَنْ مَنَّ الله عليه بالتوبة، وحثَّ آخرين وهياً لآخرين أسباب التوبة ليتوبوا، فمن أول السورة حتى آخرها، هبت نسيمات التوبة من بين ثنايا الآيات، وختمها بتوبته على خير المخلوقات ﷺ، وجمع معه أهل العزائم والهمم، وختم بتوبته على الذين هياً لهم الاستغفار وحسن الظن، فانتظروا فرجه وتوبته، ليبين أن كل أحدٍ بحاجة مغفرته، ليرسم خطوطاً عريضةً في بيان عظمتِه، وكمال عنايةً لهداية خلقه، وإعطاء المعاندين فرصة التوبة والتصل من ذنوبهم، والولوج إليه من أوسع أبواب رحمته.

كما أنها سورة براءة، البراءة التي تجدها من أول السورة لآخرها والتي تدعو إلى ضرورة التخلي والتبرؤ من أحياء المجرمين وموتاهم، مع ضرورة موالاته الله ورسوله ومناصرة عباده المؤمنين الصادقين، الذين بجهادهم رسموا العلامة الفارقة بينهم وبين المنافقين، الذين أخذوا مساحة شاسعة من السورة، التي فضحتهم، وبينت عيوبهم، عندما حفرت عليها لتزِيل وتبيد وتفتش وتبرئ وتداوي وتعالج، ومن ثم تشافي المجتمع من ظاهرة النفاق المريضة، ليظهر فضل الله على عباده بسلامتهم من النفاق بالبيعة الصادقة مع الله عزَّ وجل، وحمايتهم من خلال تحليهم بصفات المبايعين الصادقين؛ وسلامتهم من أي شكل من أشكال النفاق وصوره الخطيرة والمتكررة إلى يومنا هذا؛ كما مسك الأموال عن المجاهدين، والصدِّ عن سبيل الله، وفي عداوتهم لأهل الإيمان تشبها بأهل الكتاب.

إنها سورة التوحيد وبيان حقيقة التوكل على الله تعالى، وأن المسلمين إنما وليهم الله وحده، وليس لهم من دونه نصير.

أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها، أولاً: أهم النتائج:

- إن الأهداف غايات ووسائل يسعى القرآن الكريم من خلالها إلى تحقيق مقاصده في الأمة المسلمة، فالمقاصد هي نتائج الأهداف. (أن نجاهد في سبيل الله، "الهدف" وأن تكون كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا، "المقصد").
- ضرورة ترسيخ مفهوم عقيدة الولاء والبراء بين المسلمين، من خلال كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ؛ لئلا يندمج المسلم في المجتمعات الكافرة وهو لا يعلم.
- إن مبدأ وعقيدة الولاء والبراء لا يمنع التعامل مع غير المسلمين بالبر والإحسان، الذين يلتزمون عهودهم ومواثيقهم ومنضبطين شرعاً بحكمهم.
- إن عقيدة الولاء والبراء دلَّت عليها النصوص القرآنية والسنة النبوية، وإجماع الأمة.

- إن حتمية المواجهة مع الكافرين أمر لا بد منه، إما من خلال تطبيق القلة القليلة المجاهدة لمفهوم الولاء والبراء، وإما من خلال عداوة الكافرين والمنافقين للمؤمنين.
- وجوب ترسيخ مفهوم (عقيدة الولاء والبراء) بين المسلمين على الوجه الأكمل؛ للحفاظ على البقية الباقية من المسلمين، وحتى لا يذوبون في الآخرين وعقائدهم الفاسدة.
- إن أكبر خطر يواجهه المؤمنون في كل زمان هم المنافقون وولاؤهم للكافرين.
- إن أسباب ظهور النفاق حب الكفر وكرهية الإيمان مع التردد والخوف والاضطراب بينهما، إضافة إلى الركون والطمع في الدنيا، وكبير متاصل ناتج عن احتقار الناس.

ثانياً: التوصيات:

- أوصي نفسي الخاطئة بتقوى الله عز وجل ولزوم طاعته، وأحذرُها من عصيانه ومخالفة أمره، كما أوصي الباحثين بإخلاص التواصل مع كتاب الله تلاوة وتدبره اتعاضاً بالقلب، وتطبيقاً بالجوارح؛ لأن من أخلص دينه لله أرشده الله إلى حسن العمل.
 - أوصي بالوقوف عند أهداف ومقاصد القرآن الكريم؛ لإدراك أوامره ونواهيه ومعانيه.
 - لا بد من خوض غمار البحث في الأهداف والمقاصد الحديثية، وربط أبعادها بالواقع المعاصر، وخاصة أن السنة المطهرة مفسرة للقرآن الكريم.
 - لا بد من ترسيخ مفهوم الجهاد في نفوس المسلمين، باعتباره أساس عزتهم وسياس أمانهم، وحارس كرامتهم، ومصدر قوتهم، ومركز سيادتهم.
 - التركيز على صفات المنافقين وأعمالهم دون ذكر أسمائهم إلا عند الضرورة، تعطي الدعاة مساحة واسعة للعمل دون الطعن بأحد، طمعا في إقبال الناس وهدايتهم.
 - تدريس صفات رسول الله ﷺ وخاصة التي ذكرت في ختام سورة التوبة كوحدة خاصة للوصول إلى قائد رباني يرفع منجل التغيير الذي يجتث أصول النفاق والمجرمين.
 - كما أوصي بتدريس سورة التوبة بما فيها من مناهج وتصورات عن مفهوم المفاصلة في الولاء والبراء والجهاد، وبيان خطر المنافقين، والغزوات والسير وما فيها من مفاهيم وعبر، لأن تكون جزءاً من منهاج التربية والتعليم الثانوي والجامعي.
- ختاماً فضل من الله عظيم لمن سخره لكتابه، ينتقل بين مفرداته وروائع بيانه، يستشعر مدى حاجته لربه، وكم هو مشتاق لتوبته وعفوه من خلال آلائه ونعمه وعظيم آياته.

وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ مِنْ تَحْتِهِ أَنْهَارٌ
وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ مِنْ تَحْتِهِ أَنْهَارٌ
وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ مِنْ تَحْتِهِ أَنْهَارٌ

وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَأَبِيهِ وَصَلَّى عَلَيْهِ وَمَنْ وَالَاهُ
وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَأَبِيهِ وَصَلَّى عَلَيْهِ وَمَنْ وَالَاهُ

الفهارس والمراجع والمصادر

فهرست الآيات القرآنية

م	سورة البقرة	رقم الآية	رقم الصفحة
١	وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا....	١٤	.168
٢	وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي....	٢٠	.43
٣	وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ..	١٠٩	.113
٤	وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا.	١٢٠	.146/135/113
٥ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ....	١٨٥	.56
٦	وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ...	١٩٠	.125
٧	وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى....	٢١٧	.٩146/113
٨	فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ تَوَلَّوْا..	٢٤٦	.211
٩	لَا يُكَفِّرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا.	٢٨٦	.56
	سورة آل عمران		
١٠	ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا....	٢٤	.134
١١	وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ.....	٧٨	.135
١٢	وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ...	٨١	53
١٣	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا	١٠٠	.246/136/115
١٤	وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ....	١٠١	.115
١٥	كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ.	١١٠	.107
١٦	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا.	١١٨	.114
١٧	لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ....	١٦٤	.265/263/262
١٨	..لَوْ نَعَلَمُ قِتَالًا لَا تَتَّبِعْنَاكُمْ....	١٦٧	.178
١٩	لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ.....	١٨١	.134
٢٠	لَا يَغْرِبُكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا..	١٩٦	.210/114
٢١	مَنَاعَ قَلِيلٍ ثُمَّ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ..	١٩٧	.210/115
	سورة النساء		
٢٢	إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ.....	١٧	.46
٢٣	فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى....	٦٥	.241
٢٤	وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا...	٨٩	137
٢٥	وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا.....	٩٣	.248

٢٦	٩٧	١١٤	إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ.....
٢٧	١٤٧	٧٨	مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ.....
٢٨	١٤٥	١٦٠	إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ.....
٢٩	١٤٣	١٦٦	مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى.....
٣٠	١٧٦	٤٤/١٣	يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِكُمْ فِي..
			سورة المائدة
٣١	١٧	١٣٥	لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ....
٣٦	٣٢	٢٤٨	مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي..
٣٤	٥٢	١٤٠	فَنَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ..
٣٢	٥٤	٩٧	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ...
٣٣	٦٤	١٣٤	وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ...
٣٥	٧٢	١٣٥	لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ....
			سورة الأنعام
٣٦	١١	١٢٨/١٣	قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ.....
٣٧	١٩	١١١/٩٨	قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً.....
٣٨	٣٥	١٥٩	فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا..
٣٩	٧٨	١١١	فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ..
٤٠	١٢١	١١٦	وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ.....
			سورة الأعراف
٤١	٣٢	٤٣	قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي..
٤٢	١٣٩	٢١٠	اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ..
٤٣	١٤٦	١٢	سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ....
٤٤	١٥٧	٤٣	الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ
٤٥	١٦٥	٢٦١	فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ.....
			سورة الأنفال
٤٦	١	٢٧	يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلْ.....
٤٧	٣	٢٧/٢٦	الَّذِينَ يُفِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا....
٤٨	٧	٢٧/٢٦	وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ
٤٩	٨	٢٧/٢٦	لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ....

٥٠	٢٤	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا..	26.
٥١	٢٥	وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ...	26.
٥٢	٣٤	وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ...	25.
٥٣	٣٩	وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ..	123/26.
٥٤	٤١	وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ..	٢٨.
٥٥	٤٥	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً	124
٥٦	٤٩	إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ.....	28.
٥٧	٥٦	الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ.....	27.
٥٨	٥٧	فَإِمَّا تَنْفِقْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ.	24/٧
٥٩	٥٨	وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً	٢٨/25/24.
٦٠	٥٩	وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا	25/24.
٦١	٦٠	وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ.	149/27.
٦٢	٧٢	إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا...	67/26.
٦٣	٧٤	وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا.....	25.
		سورة التوبة	
٦٤	١	بَرَاءةً مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.....	265/98/76/67/25/22/٥.
٦٥	٢	فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةً...	52/30
٦٧	٣	وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى	112/93/33/30/29/22.
٦٨	٤	إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنْ.....	119/101/79/68/66/52/51/27.
٦٩	٥	فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ....	141/١٠٠/68/52/11/١٠/٤.
٧٠	٦	وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.....	129/77/٩.
٧١	٧	كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ..	131/102/79/67/27.
٧٢	٨	كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ....	١٤٦/١٤١/١٩٩/٨٢/٥١.
٧٣	٩	اشْتَرَوْا بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...	٧٩.
٧٤	١٠	لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا.....	١٦٢/١٤٦/٢٤.
٧٥	١١	فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ....	١٠٢/٤٤.
٧٦	١٢	وَإِنْ نَكُنُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ.....	١١٩/٦٩/٣٣.
٧٧	١٣	أَلَّا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا.....	١٥٢/١٣٠/١٢٦/٥٢/٣٤/٣٣.
٧٨	١٤	قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ.....	١٣٠/٣٣/٢٦/١٢/٥.

٧٩	وَيَذْهَبُ غِيبًا قُلُوبِهِمْ	١٥	١٣٠/٢٦/١٢
٨٠	أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا...	١٦	١٣٠/١٠٢
٨١	مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ	١٧	١٣٠/٥٧
٨٢	إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ.....	١٨	١٤٠/٥٧/٢٥
٨٣	أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ	١٩	١٦
٨٤	الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا	٢٠	١٦٤/١٣٠
٨٥	يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ ...	٢١	١٣٠
٨٦	خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ.....	٢٢	١٣٠
٨٧	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا	٢٣	٢٢٦/١٦٧/١٦١/١١٦/١٠٤/٩٧/٦٩/٥٧
٨٨	قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ.	٢٤	١٦٨/١٣١/٩٨/٩٧/٧٧/٦٩
٨٩	لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ.	٢٥	٢١١/٢٠٩/٥٨/١٣
٩٠	ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ	٢٦	٢٠٩/١٣١
٩١	ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ .	٢٧	٢٠٩/١٣١
٩٢	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا.....	٢٨	١٣٢/٨٠/٧٠
٩٣	قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ.	٢٩	١٤٢/١٣٥/١٣٢/١٢٦/٧٤/٧٣/٧٢/٧١/٣٢
٩٤	وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ	٣٠	١٣٦/٧٢
٩٥	اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ..	٣١	١٣٦/١١٦
٩٦	يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نَوْرَ اللَّهِ	٣٢	٢٦٣/١٩٥/١٧٦/١٤٦/١٣٧/١٢٧
٩٧	هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ.....	٣٣	٢٦٥/٢٦٤/١٤٩/١٣٧/٩٨
٩٨	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ كَثِيرًا	٣٤	١٧٦/١٦٨/١٣٩/١٣٨/٢٨/١٥/٩
٩٩	يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارٍ....	٣٥	١٩٥/١٣٩
١٠٠	إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ...	٣٦	٢٠٢/٨٢/٣٤/٣٠/١٣
١٠١	إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ	٣٧	٢٠٣/٨٢
١٠٢	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ...	٣٨	١٤٤/١٢٥
١٠٣	إِلَّا تَتَفَرُّوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا.....	٣٩	١٤٤/١٢
١٠٤	إِلَّا تَتَصَرَّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ.	٤٠	٢٦٥/١٤٨/١٤٧/١٤٤/١٢٨/٥٩/١٣
١٠٥	انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا	٤١	١٩٥/١٧٨/١٤٤/١٣/١٢
١٠٦	لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا.....	٤٢	١٨٦/١٧٧/١٦٨/٣٨/١٥
١٠٧	عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ..	٤٣	٢٦٥/١٧٨

١٠٨	لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ...	٤٤	.١٧٨/١٧٠
١٠٩	إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا.....	٤٥	.١٧٥/١٧٠/١٦٥
١١٠	وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا.	٤٦	.١٩٥/١٧٨
١١١	لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ.	٤٧	.١٩٥/١٧٨/١٦١/٣٢/٢٦
١١٢	لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ...	٤٨	.١٧٨
١١٣	وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي...	٤٩	.١٩٦/١٧٨/٦
١١٤	إِنْ تَصَبَّكَ حَسَنَةً تَسْوَهُمْ....	٥٠	.١٩٦/١٧٩/١٧٠
١١٥	قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ..	٥١	.٢١١/١٩٦/١٧٩/١٧٠
١١٦	قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا....	٥٢	.١٩٦/١٨٠/١٧٩/١٧٠
١١٧	قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا...	٥٣	.١٩٦/١٨٠
١١٨	وَمَا مِنْهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ....	٥٤	.١٩٦/١٧٠/٣٢/١٣
١١٩	فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا.....	٥٥	.١٩٦/١٨٠
١٢٠	وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ...	٥٦	.١٩٦/١٨٦/١٨٠/١٦٨/١٥٩/٨٤/٥٩/٦
١٢١	لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ.	٥٧	.١٨١/١٧٠/٨٤
١٢٢	وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي.....	٥٨	.٢٦٥/٢٢٧/١٩٦/١٨١/١٧٦/١٧٠/١٦
١٢٣	وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمْ...	٥٩	.٢٦٥/١٩٧/١٧٠
١٢٤	إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ.....	٦٠	.٨٦/٨٥/٢٧
١٢٥	وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ...	٦١	.٢٦٥/٢٠٦/١٩٧/١٨١/١٧١/٨٥
١٢٦	يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ.....	٦٢	.١٩٧/١٨٧/٨٦
١٢٧	أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدٍ....	٦٣	.١٩٧/١٨١/١٧٦/١٠٦
١٢٨	يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ...	٦٤	.١٨١/١٧١/١٦٦/٧
١٢٩	وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا....	٦٥	.١٩٧/١٨٢/١٨١/١٧٦/١٧١/١٦٧/٦١/١٥
١٣٠	لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ....	٦٦	.١٩٧/١٨٢/١٨١/١٦٠/١٥٨/٦١/٤٥
١٣١	الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ.....	٦٧	.١٨١/١٧١/١٦٠/١٠٧/٨٧/٦١/٢٩
١٣٢	وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ.....	٦٨	.١٨١/١٧٢/١٥٣
١٣٣	كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا.....	٦٩	.١٧١
١٣٤	أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ.....	٧٠	.١٧١/١٢٨/٦٠/ج
١٣٥	وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ.....	٧١	.١٤٨/٨٨
١٣٦	وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ.....	٧٢	.٨٨

٢٦٥/١٥٢/١٤٢/١٢٢/٣٤/٣٢/٥	٧٣	يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ...	١٣٧
٢٣٠/١٩٧/١٨٧/١٨٣/١٧٢/٩٩/٩٨/٦١/٤٥	٧٤	يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا.....	١٣٨
٢١٨/١٩٧/١٨٩/١٧٢	٧٥	وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ.....	١٣٩
١٩٧/١٨٩/١٧٢	٧٦	فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ.....	١٤٠
١٩٧/١٨٩	٧٧	فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ.....	١٤١
١٨٩/١٧٢	٧٨	أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ.....	١٤٢
١٩٠/١٨٩	٧٩	الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ....	١٤٣
٢٣٧/٢١٨/١٩٨/١٨٣/١٧٠/١٦١/١٦	٨٠	اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ....	١٤٤
١٩٨/١٨٤/١٧٢	٨١	فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ.....	١٤٥
١٩٤/١٨٤/٨٨	٨٢	فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا.....	١٤٦
١٨٤	٨٣	فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ...	١٤٧
١٨٤/١٠٧/١٧	٨٤	وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ....	١٤٨
١٨٤/٦١	٨٥	وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ.....	١٤٩
١٩٨/١٨٤	٨٦	وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ.....	١٥٠
١٨٤١٩٨/١٦٦/٦٣	٨٧	رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ.....	١٥١
٢١٧/١٩٨/١٦٤	٨٨	لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ.....	١٥٢
٢١٧	٨٩	أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي...	١٥٣
١٩١	٩٠	وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنْ.....	١٥٤
٢١٨	٩١	لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ.....	١٥٥
٢٢٩/٢١٩/١٩٨	٩٢	وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا.....	١٥٦
١٦٦/٦٣	٩٣	إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ.....	١٥٧
١٧٣	٩٤	يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ....	١٥٨
١٨٨	٩٥	سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا.....	١٥٩
١٨٨	٩٦	يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا.....	١٦٠
١٩٢	٩٧	الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا....	١٦١
١٩٢	٩٨	وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ.....	١٦٢
١٩٣	٩٩	وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ.....	١٦٣
١٠٨	١٠٠	وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنْ.....	١٦٤

١٦٥	وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ...	١٠١	١٩٣.
١٦٦	وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ...	١٠٢	١٩٣.
١٦٧	خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً.....	١٠٣	١٩٣/١٨٩.
١٦٨	أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ.....	١٠٤	٢٢٨.
١٦٩	وَقُلْ اعْمَلُوا فَسِيرَى اللَّهِ....	١٠٥	٢٢٨.
١٧٠	وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِلْمُرِّ.....	١٠٦	٢٢٨/٢٢١.
١٧١	وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا.....	١٠٧	١٩٨/١٨٨/١٧٣/٦٣/٦٢/٦١/١٩/١٧/١١/ ٢٢٤.
١٧٢	لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ.....	١٠٨	٢٢٤/١٧.
١٧٣	أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى.....	١٠٩	٢٢٤.
١٧٤	لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي.....	١١٠	٢٢٤/١٦٦.
١٧٥	إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ.....	١١١	٢٤٧/٢٤٦/٢٤٤/٢٣٩/٢٣٦/١٦٥/١٠.
١٧٦	التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ.....	١١٢	٢٥٣/٢٥١/١٦٥.
١٧٧	مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ.....	١١٣	٢٥٥/١٠٩/٣٥/٣٤/١٨/١٥/٣.
١٧٨	وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ...	١١٤	١١١/١٠٩.
١٧٩	وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا....	١١٥	٢٥٦/١٠٩.
١٨٠	إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ....	١١٦	٢٥٦/١٠٩.
١٨١	لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ....	١١٧	٢٦٥/٢١٨.
١٨٢	وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا....	١١٨	٢١٩/٤٥/٢٦٥, ١٨/٢١٩/٤٥/١٩/١٠/٤/ ٢٦٥.
١٨٣	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا.....	١١٩	١٩٤/٦٣.
١٨٤	مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ....	١٢٠	١٩٤.
١٨٥	وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً....	١٢١	١٩٤.
١٨٦	وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا...	١٢٢	١٢٤.
١٨٧	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا.....	١٢٣	١٥٤/١٢٦/٩٧/٣٤/٣٣/٥.
١٨٨	وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ.....	١٢٤	١٨٥/١٦٥/١٣١/٢٥.
١٨٩	وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ.....	١٢٥	١٨٥/١٧٣/١٦٧.
١٩٠	أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ....	١٢٦	١٨٥.
١٩١	وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ...	١٢٧	١٨٥/١٦٧.

١٩٢	لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ	١٢٨	٢٦٤/٢٦٣/٢٦٢/٢٦١/٣١/٣٠/١٣/٣
١٩٣	فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّٰهُ....	١٢٩	٢٦٨/١٦٥/٣٣/٢٢
	سورة يونس		
١٩٤	وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ....	٢	٣٠/٢٩
١٩٥	هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً..	٥	٣٠
١٩٦	وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي....	٤١	١١١
١٩٧	قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ...	١٠٨	٣١
١٩٨	وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ.	١٠٩	٩٣
	سورة هود		
١٩٩	الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ..	١	٢٢
٢٠٠	أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ.....	٣٥	١١١
٢٠١	وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ.....	٤٠	٢١١
٢٠٢	إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي.....	٤٥	٩٨
٢٠٣	قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ.....	٤٦	٩٨
٢٠٤	إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ...	٥٤	١١١
	سورة إبراهيم		
٢٠٥	وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللّٰهِ..	٤٦	١٢٧
	سورة النحل		
٢٠٦	إِنَّ اللّٰهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ	١٢٨	١٤٨
	سورة الإسراء		
٢٠٧	..إِذَا لَأْمَسْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ..	١٠٠	١٥٩
	سورة الكهف		
٢٠٨	وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ..	١٦	٩٩
	سورة مريم		
٢٠٩	وَأَعْتَزَلِكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ	٤٨	٩٩
	سورة الأنبياء		
٢١٠	إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا..	٩٢	٦٧
	سورة الحج		
٢١١	أَنْ لِّلَّذِينَ يُفَاقِلُونَ بَانَهُمْ ظُلْمُوا	٣٩	١٥٠/١٢٣

٢١٢	الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ...	٤٠	١٥٠/١٢٣
	سورة النور		
٢١٣	قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ.....	٣٠	٢٣
	سورة الفرقان		
٢١٤	وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا..	٣١	١٤٩
	سورة الشعراء		
٢١٥	فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ..	٢١٦	١١١
	سورة القصص		
٢١٦	إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ.....	٥٦	٣٥
	سورة الروم		
٢١٧	فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ....	٣٠	١٠٦
	سورة السجدة		
٢١٨	ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ..	٩	٢٤٨
	سورة الأحزاب		
٢١٩	إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ.....	٥٦	٢٦٢
	سورة سبأ		
٢٢٠	وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا.....	٣٥	٢١١
	سورة الصافات		
٢٢١	وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا....	١٧١	٥٩
٢٢٢	إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ.....	١٧٢	٥٩
٢٢٣	وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ.....	١٧٣	٥٩
	سورة الزمر		
٢٢٤	فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ.	٤١	٣١
٢٢٥	وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ..	٤٥	٦
٢٢٦	قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا....	٥٣	٤٥
٢٢٧	وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى.....	٦٥	٩٢
	سورة غافر		
٢٢٨	إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا.	٥١	١٤٥
	سورة الجاثية		

٢٢٩	وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ ..	١٣	.٤١
	سورة محمد		
٢٣٠	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَصَرُّوا	٧	.١٤٨
	سورة الفتح		
٢٣١	إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا	١٠	.٢٤٠/٢٣٦
٢٣٢	لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ.	١٨	.٢٣٦
	سورة الحجرات		
٢٣٣	وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ.	٧	.١٠٦
٢٣٤	إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ.....	١٠	.١٥٠
٢٣٥	يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ.	١٣	.٥١
٢٣٦	إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا....	١٥	.٢٣٥/١٦١
٢٣٧	يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ..	١٧	.٢٦٢,٢٦٣
	سورة الذاريات		
٢٣٨	وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالنَّاسَ إِلَّا..	٥٦	.٤٣/٤١/٣٩
	المجادلة		
٢٣٩	وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ...	١٤	.١٨٨
٢٤٠	فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ..	١٨	.١٨٨
	سورة الحشر		
٢٤١	لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ.....	٨	.١٠٩
٢٤٢	وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ.	٩	.١٠٩
٢٤٣	وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ.....	١٠	.١٨٩/٩٥
٢٤٤	أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا....	١١	.٦١
	سورة الممتحنة		
٢٤٥	قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي.	٤	.١١٠/٩٨/٩٣
٢٤٦	لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ.	٨	.٦٦
٢٤٧	إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ...	٩	.٩٥/٦٦
٢٤٨	يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ.....	١٢	.٢٣٧
	سورة الصف		
٢٤٩	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ.	٢	.٢٥٤

٢٥٠	كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا..	٣	٢٥٤.
٢٥١	إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ..	٤	٢٥٤.
٢٥٢	وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا..	٦	١٣٤.
	سورة المنافقون		
٢٥٣	..هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ قَاتِلَهُمْ.	٤	١٧٥/٨٥/١٢.
	سورة الجن		
٢٥٤	وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا..	١٨	٦٥.
	سورة الشمس		
٢٥٥	وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا.....	٧	٢٤٨.
٢٥٦	فَكَذَّبُوهُ فَعَفَرُوا وَهِيَ فِدْمَمَ عَلَيْهِ.	١٤	٧.

فهرست الأحاديث النبوية:

م.	طرف الحديث	الراوي	الصفحة
١	ابن أخت القوم منهم...	البخاري	٢١٣
٢	أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك.....	مسلم	٢٢٣
٣	أخرجوا المشركين من جزيرة العرب....	البخاري	٦٩/٩
٤	إذا بويح لخليفين فاقتلوا الآخر منهما..	مسلم	٢٥٩
٥	أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه...	البخاري	١٦١
٦	ارجع" ثم اتفقا فقال: "إنا لا نستعين بمشرك....	أبو داود	١١٤
٧	ارجع فقد بايعتك...	النسائي	٢٤١
٨	الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف....	مسلم	٧٨
٩	أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله...	أبو داود	٩٥
١٠	ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه؟....	الترمذي	١٣١
١١	أما هذا فصدق فقم حتى يقضي الله في أمرك....	السيرة	٢٢٠
١٢	أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله...	م. الشافعي. خ	١٢٢، ١٢٦، ١٤٢
١٣	إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى...	مسلم	٢٦٣
١٤	إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات...	أبو داود	٢٨
١٥	إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً....	البخاري	٢١٩
١٦	أن تجعل لله ندا وهو خلقك....	البخاري	٩٢
١٧	إن أتقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء....	ابن ماجه	١٦١

٧٢	البخاري	أن رسول الله ﷺ أخذها الجزية من المجوس....	١٨
٢٣٧	مسلم	إن رسول الله دعانا للبيعة في أصل الشجرة. قال....	١٩
٨٢	مسلم	إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات...	٢٠
٢٥٢	أبو داود	إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله عزَّ وجلَّ وجهل....	٢١
٢٦٢	مسلم	أنا سيد ولد آدم يوم القيامة. وأول من ينشق عنه القبر.	٢٢
٨٠	البخاري	إن المسلم لا ينجس....	٢٣
١٠٤	البخاري	إن هذا قد صدقكم" فقال عمر: يا رسول الله....	٢٤
٥٦،١١٤	الترمذي	أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين...	٢٥
٢١٢	البخاري	أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب....	٢٦
١٥١	البخاري	أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى...	٢٧
٢٥٨	مسلم	إنما الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به....	٢٨
١٧	البخاري	إنما خيرني الله فقال: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ}....	٢٩
١٢٥	البخاري	إنما الأعمال بالنيات...	٣٠
٢٦٤	مسلم	أوتيت بمفاتيح مخازن الأرض فوضعت بين يدي...	٣١
٣٥	البخاري	أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله..	٣٢
١٦١	البخاري	آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف...	٣٣
١١٩	مسلم	الإيمان بالله، والجهاد في سبيله.	٣٤
٢٤٦	النسائي	بايعت النبي ﷺ على النصح لكل مسلم....	٣٥
٢٥٨/٢٤٦/٢٣٨	خ. م.	بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر...	٣٦
١١٢	البخاري	بعثني أبا بكر ﷺ في تلك الحجة في المؤذنين....	٣٧
٢٣٧	البخاري	تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا...	٣٨
٢٤٤	أحمد	تشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.....	٣٩
٢١٢/٢٠٨	أبو داود	تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله...	٤٠
١٤٣	أبو داود	ثلاث من أصل الإيمان الكف عن من قال لا إله إلا الله	٤١
٢٦٤	مسلم	جعلت صفوفنا كصفوف...	٤٢
٢١٩	مسلم	خذ هذين القرينين، وهذين القرينين، وهذين القرينين...	٤٣
١٤٤	الترمذي	خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم....	٤٤
١٤٣	البخاري	الخيال معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة....	٤٥
٢٠٢	البخاري	الزمان استدار يوم خلق السموات والأرض: السنة...	٤٦

٤٧	سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى....	الترمذي	٢١٠
٤٨	سباب المسلم فسوق وقتاله كفر....	الترمذي	٨٧
٤٩	سمعت البراء <small>رضي الله عنه</small> يقول: آخر آية نزلت....	البخاري	٤٣/١٣
٥٠	الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا....	البخاري	٥٨
٥١	عجبا لأمر المؤمن. إن أمره كله خير....	مسلم	٢٥٢
٥٢	فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ....	مسلم	٢٢١
٥٣	فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَسْتٍ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ....	مسلم	٢٦٤
٥٤	قال كنت عند منبر رسول الله <small>صلى الله عليه وسلم</small> فقال رجل...	مسلم	١٦
٥٥	قد بايعتكن...	مسلم	٢٤١
٥٦	كان النبي <small>صلى الله عليه وسلم</small> مما تنزل عليه الآيات فيدعو بعض..	أبو داود	١١
٥٧	كان كل نبي يُبْعَثُ....	مسلم	٢٦٤
٥٨	كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون....	الترمذي	٢٥١
٥٩	كنا نعبد الحجر فإذا وجدنا حجرا هو خير منه ألقيناه...	البخاري	٢٠٢
٦٠	لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب...	مسلم	٧١/٧٠
٦١	لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق...	ت. وم.	١٤٥/١٤٢
٦٢	لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن أبيعه على الإسلام....	البخاري	٢٣٩
٦٣	لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم...	البخاري	١٢٥
٦٤	لا يبقين بجزيرة العرب دينان....	مالك	٧٠
٦٥	للتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا ذراعا....	البخاري ومسلم	٢١٠/١٤٠/١١٥
٦٦	لقد رأيتني في الحجر. وقريش تسألني عن مسراي....	مسلم	٥٣
٦٧	لكل غادر لواء يوم القيامة....	البخاري	٢٥
٦٨	لم أتخلف عن النبي <small>صلى الله عليه وسلم</small> في غزوة غزاها إلا بدرا....	البخاري	١٨
٦٩	لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما..	الترمذي	١٣٢
٧٠	لو كان هذا في غير هذا لكان خيرا لك...	أحمد	١٤٤
٧١	ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو...	أبو داود	١١٤
٧٢	ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته...	مسلم	٢٦١/١٢٢
٧٣	ما يضر عثمان ما عمل بعد اليوم...	الترمذي	٢١٩
٧٤	المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا....	البخاري	١٥٠
٧٥	المؤمنون تكافؤ دماؤهم، وهم يد على من سواهم....	النسائي	١٢٠

٢٦٢	البخاري	مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم...	٧٦
١٠	مسلم	مثل المؤمن كمثل الزرع، لا تزال الريح تميله...	٧٧
٦٨/٥١	مسلم	مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل...	٧٨
٧٨	أحمد	المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل...	٧٩
١٦١	أبي يعلى	المرء مع من أحب....	٨٠
٩٥	أبو داود	من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى الله ومنع الله....	٨١
١٠٦	البخاري	من تشبه بقوم فهو منهم....	٨٢
١١٤	أبو داود	من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله...	٨٣
٢٤٥	مسلم	من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات....	٨٤
١٩٢	النسائي	من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل ومن اتبع..	٨٥
٢٥١	البخاري	من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى...	٨٦
١٢٣	مسلم	من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو...	٨٧
١٨٦	البخاري	من كان حالفاً؛ فليحلف بالله، أو ليصمت....	٨٨
ث	الترمذي	من لا يشكر الناس لا يشكر الله	٨٩
١٠	أبو داود	من لم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة..	٩٠
١٧	الترمذي	نزلت في أهل قباء إفيهِ رجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا.....	٩١
١٠٢	البخاري	والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ ..	٩٢
٢٦١	مسلم	وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة....	٩٣
٢٥٨/٢٤٣	مسلم	ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية...	٩٤
١٧٠	مسلم	ويلك! ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟....	٩٥
١٧٠	البخاري	ويلك، ومن إذا لم أعدل....	٩٦
٢١٧	الترمذي	يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ...	٩٧
١٠٥/١٠٠	البخاري	يا رسول الله إن أمتي قدمت علي وهي راغبة، فأصلها؟	٩٨
٢٠٣	مسلم	يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي....	٩٩
١٣٦/١١٦	والترمذي	يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعتة يقرأ في....	١٠٠
٢٢٩	الترمذي	يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك....	١٠١
٢٢٩	البخاري	اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بن تعول....	١٠٢
٥٥	البخاري	يسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا...	١٠٣
٨/ج	أبو داود	يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة...	١٠٤

فهرست الأعلام

م	أسماء الأعلام	الصفحة
١	ابراهيم بن عمر البقاعي (برهان الدين).	٦
٢	ابراهيم بن موسى الشاطبي.	١١٥
٣	أحمد بن حجر العسقلاني.	١٤٢
٤	أحمد بن فارس.	٢٠
٥	أحمد بن محمد كفتارو.	٤
٦	إسماعيل بن عمر بن كثير.	١٠
٧	الأغر بن يسار المزني.	٢٦١
٨	أفرايم بن يوسف بن يعقوب.	٧٣
٩	ثعلبة بن حاطب بن عمرو.	١٨٩
١٠	جرير بن عبد الله البجلي.	٥٧
١١	الجلال بن سويد الصامت.	٩٨
١٢	الحارث بن مالك الليثي.	٢١٠
١٣	الحارث بن يزيد العكلي.	٢١٠
١٤	حذيفة بن اليمان.	٣
١٥	حسن أحمد البنا.	٥٧
١٦	حسين بن محمد الأصفهاني.	١٠٣
١٧	الحسين بن مسعود القراء البغوي.	٦٧
١٨	ربيعي بن عامر.	ج
١٩	زياد بن الحارث الصدائي.	٢٨
٢٠	سعد بن طارق الأشجعي.	١٣
٢١	سعيد بن جبير.	٥
٢٢	سعيد بن محمد حوى.	٦٨
٢٣	سفيان بن عيينة.	٧٤
٢٤	سنان بن عبد الله الأسلمي.	٢٠٩
٢٥	سيد قطب إبراهيم الشاذلي.	١٠

٩٨	صدى بن عجلان. (أبو أمامة الباهلي).	٢٦
١٠٢	عامر (عمير) بن سعد بن النعمان.	٢٧
٢٦٧	عبد الحق بن غالب بن عطية.	٢٨
٣٤	عبد الحميد بن عبد العزيز محمد كشك.	٢٩
٤	عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي.	٣٠
٣	عبد الرحمن بن علي أبو الفرج ابن الجوزي.	٣١
٧٨	د. عبد السلام حمدان اللوح.	٣٢
١٤٨	عبد العزيز بن مروان بن الحكم.	٣٤
١٣٢	عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي.	٣٥
٣	عبد الله بن عمر بن الخطاب.	٣٦
٧٤	عبد الله بن يسار.	٣٧
١٣	عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج.	٣٨
١٧	عبد عمرو بن صيفي بن مالك أبو عامر الفاسق).	٣٩
١٧	عقبة بن عمرو بن ثعلبة.	٤٠
١٢٧	عقبة بن نافع.	٤١
٤٠	علال عبد الواحد الفاسي.	٤٢
٢٠٤	علي بن أحمد بن محمد الواحدي.	٤٣
٧	علي بن محمد الصابوني.	٤٤
٢٠٣	عمران بن ملحان.	٤٥
٧٦	د. فضل حسن عباس.	٤٦
٤	قتادة بن دعامة السدوسي.	٤٧
٢٣٩	مجاشع بن مسعود.	٤٨
٢٣٩	مجالد بن مسعود.	٤٩
١٣	مجاهد بن موسى الخوارزمي.	٥٠
٣١	محمد بن أحمد بن فرح القرطبي.	٥١
١٩٢	محمد بن إدريس الشافعي.	٥٢
٧٣	محمد بن إسماعيل الصنعاني.	٥٣
٦١	محمد بن جرير الطبري.	٥٤
٢٤	محمد رشيد رضا.	٥٥

٣	محمد الطاهر بن عاشور.	٥٦
٢٢	محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي.	٥٧
١١٥	محمد بن عبد الله الألوسي.	٥٨
٢٤	محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي	٥٩
١٢٧	محمد عزة دروزة.	٦٠
١٦٨	محمد عثمان الذهبي.	٦١
١١	محمد بن بن علي أبي طالب.	٦٢
٨	محمد بن بن الشوكاني.	٦٣
١٦	محمد بن بن عمر بن الحسين الرازي.	٦٤
٢٤٧	محمد بن عمر بن محمد البيضاوي.	٦٥
٨٨	محمد بن محمد الطوسي الغزالي.	٦٧
٩	محمد بن محمد بن مصطفى العمادي.	٦٨
١٣	مسلم بن صبيح الهمداني.	٦٩
٧٦	مصطفى صادق الرافعي.	٧٠
٣	المقداد بن عمرو البهراني.	٧١
٢٠	مناع خليل القطان.	٧٢
١٥	النعمان بن بشير الأنصاري.	٧٣
٨٢	نفيح بن الحارث بن كعدة.	٧٤
٢٦٢	واتلة بن الأسقع.	٧٥
٧٨	وحيد الدين خان.	٧٦
٧٩	وهبة مصطفى الزحيلي.	٧٧
١٤٢	يحيى بن شرف بن مرة النووي.	٧٨
١١	يزيد الفارسي المصري.	٧٩
١٢٤	د. يوسف القرضاوي.	٨٠
	أعلام النساء	
٢١٣	سهلة بنت ملحان.	٨١
٢١٣	نسيبة بنت كعب.	٨٢

ثالثاً: المراجع والمصادر:

أ - المراجع التفسيرية:

- ١- القرآن الكريم/ بقراءة ورش بالخط المغربي التونسي الجزائري الإفريقي الموحد/ دار المصحف/ القاهرة.
- ٢- الألوسي - تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود الألوسي/ دار الفكر/ بيروت، ط جديدة/١٩٧٨م.
- ٣- البغوي - معالم التنزيل لأبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد المعروف بالفراء البغوي/ دار الكتب العلمية/ بيروت/ ط/١/ ١٩٩٣م.
- ٤- البقاعي - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين أبي الحسن عمر بن ابراهيم البقاعي/ دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/١/ ١٩٩٥م.
- ٥- البيضاوي - أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لعبد الله بن عمر البيضاوي/ دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/١/ ٢٠٠٣م.
- ٦- التوحيد - أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي/ البحر المحيط، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع/ بيروت، ط/١/ ٢٠٠١م.
- ٧- التوحيد - أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي/ النهر الماد من البحر المحيط/ دار الجنان/ بيروت، ط/١/ ١٩٨٧م.
- ٨- الثعالبي - عبد الرحمن/ الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق/ أبو محمد الغماري الإدريسي الحسني، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/١/ ١٩٩٦م.
- ٩- ابن تيمية - التفسير الكبير، للإمام العلامة تقي الدين أحمد بن تيمية/ تحقيق د. عبد الرحمن عميرة/ دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/١/ ١٩٨٨م.
- ١٠- الجزائري - أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري/ مكتبة العلوم والحكم/ المدينة المنورة، ط/ ٥/ ٢٠٠٣م.
- ١١- بن جزي الكلبي - الإمام محمد بن أحمد/ كتاب التسهيل لعلوم التنزيل/ دار الكتاب العربي/ بيروت، ط/٢/ ١٩٧٣م.
- ١٢- الجوزي - زاد المسير لابن الجوزي/ المكتب الإسلامي/ بيروت، ط جديدة/ ٢٠٠٢م.
- ١٣- حجازي - محمد محمود/ التفسير الواضح/ مطبعة الاستقلال الكبرى/ القاهرة، ط/٤/ ١٩٦٨م.

- ١٤- حوى - الأساس في التفسير لسعيد حوى/ دار السلام/ القاهرة/ ط/٢/١٩٨٩م.
- ١٥- الخطيب - التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب/ دار الفكر العربي/ القاهرة/ بدون طبعة.
- ١٦- الرازي - التفسير الكبير "مفاتيح الغيب" للفخر الرازي، دار الكتب العلمية/طهران، ط/١٩٩٨.
- ١٧- رضا - تفسير القرآن الحكيم (المنار) لمحمد رشيد رضا/ دار المعرفة/ بيروت، بدون طبعة.
- ١٨- الزحيلي - التفسير الوجيز، د. وهبة الزحيلي/ دار الفكر/ دمشق/ ط/١٤٢٧هـ.
- ١٩- الزحيلي - التفسير المستنير، د. وهبة الزحيلي/ دار الغد المعاصر/بيروت، ط/١/١٩٩١م.
- ٢٠- الزمخشري - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جارالله محمود بن عمر الزمخشري/ شرح وضبط: يوسف الحمادي/ مكتبة مصر/ القاهرة، بدون طبعة.
- ٢١- السعدي - تفسير كلام المنان لعبد الرحمن السعدي/ مكتبة الصفا / القاهرة ط/١/٢٠٠٢م.
- ٢٢- أبو السعود - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم/ لأبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، دار الفكر/بيروت، بدون طبعة.
- ٢٣- الشعراوي - محمد متولي/ زبدة التفاسير/ تقديم وتعليق عبد الرحيم محمد متولي الشعراوي/ المكتبة التوفيقية/ القاهرة، بدون طبعة.
- ٢٤- الشنقيطي - محمد الأمين محمد المختار/ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، ط/١/١٩٩٦م.
- ٢٥- الشوكاني - فتح القدير للإمام محمد بن علي الشوكاني/ دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/١/٢٠٠٣م.
- ٢٦- الصابوني - روائع البيان تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني/مؤسسة مناهل العرفان/بيروت، ط/٣/١٩٨٠م. الصابوني - صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني/ دار القرآن الكريم/ بيروت، ط/٤/١٩٨١م.
- ٢٧- الصابوني - محمد بن علي/ قبس من نور القرآن الكريم، دار القرآن الكريم/ بيروت، ط/٤/١٩٩٨م.

- ٢٨- الطبري - جامع البيان في تفسير آي القرآن لمحمد بن جرير الطبري/ دار المعرفة/ بيروت، ط/٤/١٩٨٣م.
- ٢٩- الطبري - جامع البيان في تفسير آي القرآن، لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر/ مؤسسة الرسالة/بيروت، ط/١/٢٠٠٠م.
- ٣٠- ابن عاشور - التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور/ دار سحنون للنشر والتوزيع/القاهرة، ط/دار مصر/١٩٩٧م.
- ٣١- ابن عباس - تنوير المقباس من تفسير ابن عباس/ دار الكتب العلمية/بيروت، بدون طبعة.
- ٣٢- ابن العربي - أحكام القرآن لابن العربي/دار الفكر/بيروت، بدون طبعة.
- ٣٣- ابن عطية - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية./ دار الكتب العلمية/بيروت، ط/١/١٩٩٣م.
- ٣٤- الفتوحى - أبو الطيب صديق بن حسن بن علي بن الحسين/ فتح البيان في مقاصد القرآن/ المكتبة العصرية/ بيروت، ط/١٩٨٩م.
- ٣٥- القاسمي - محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي/ دار الفكر/ بيروت، ط/٢/١٩٧٨م.
- ٣٦- القرطبي - تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي/ تحقيق/ الشيخ محمد بيومي والأستاذ عبد الله المنشاوي/ مكتبة الإيمان/المنصورة/ بدون طبعة.
- ٣٧- قطب - في ظلال القرآن لسيد قطب/ دار الشروق/بيروت، ط/٩/١٩٨٠م.
- ٣٨- ابن كثير - تفسير القرآن العظيم للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير/ دار الخير/بيروت، ط/٢/١٩٩١م.
- ٣٩- كشك - في رحاب التفسير لعبد الحميد كشك/ المكتب المصري الحديث القاهرة، ط/ ١ / ١٩٨٨م.
- ٤٠- الماوردي - النكت والعيون لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي/ دار الكتب العلمية/بيروت/ ط/١/١٩٩٢م.
- ٤١- مجاهد - تفسير الإمام مجاهد بن جبر/ مكتبة الفلاح/ الكويت، ط/١/٢٠٠٣م.
- ٤٢- مخلوف - الشيخ حسنين محمد/ صفوت البيان لمعاني القرآن/ مطابع الشروق/، ط/١/١٩٨٢م.
- ٤٣- المراغي - أحمد مصطفى/ تفسير المراغي، دار الفكر/ القاهرة، بدون طبعة.

- ٤٤- المنصوري - المقتطف من عيون التفسير لمصطفى المنصوري،، الدار الشامية/بيروت ، ط/٢/١٩٩٦م.
- ٤٥- النسفي - أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود/ مدارك التنزيل وحقائق التأويل/ تحقيق مجدي منصور، المكتبة التوفيقية/ القاهرة، ط/ جديدة، بدون سنة الطبع.
- ٤٦- لجنة القرآن والسنة في وزارة الأوقاف المصرية/ المنتخب في تفسير القرآن الكريم/ مؤسسة الأهرام/ القاهرة، ط/١٨/١٩٩٥م.
- ٤٧- مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، إعداد الشيخ مجدي السيد وآخرون / تفسير القرآن الكريم للأطفال، / بإشراف / دار الصحابة للتراث/طنطا، ط/٤/٢٠٠٢م.
- ب - المراجع الحديثية الشريفة:
- ٤٨- صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د. محمد تامر، دار البيان العربي/ القاهرة، ط/١/٢٠٠٥م.
- ٤٩- صحيح مسلم للإمام أبي حسين مسلم بن حجاج القشيري/ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، ط/٢/١٩٧٢م.
- ٥٠- سنن أبي داود، للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني: تحقيق/ محمد الخالدي، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/١/٢٠٠١م.
- ٥١- سنن أبي داود، للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، حكم وعلق على أحاديثه المحدث ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع/ الرياض، ط/١/١٤١٧هـ.
- ٥٢- سنن الترمذي، وهو الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ﷺ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه المعروف بجامع الترمذي، للإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، حكم وعلق على أحاديثه: المحدث ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع/ الرياض ط/١/١٤١٧هـ.

- ٥٣- سنن النسائي، تصنيف أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي، حكم وعلق على أحاديثه المحدث ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع/ الرياض، ط/١/١٤١٧هـ.
- ٥٤- سنن ابن ماجة، تصنيف أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، حكم وعلق على أحاديثه المحدث ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع/ الرياض، ط/١/١٤١٧هـ.
- ٥٥- مسند الإمام أحمد/ بيت الأفكار الدولية/الأردن، ط/١/٢٠٠٥م.
- ٥٦- مسند الإمام أحمد/ دار الفكر/ بيروت/ بدون طبعة.
- ٥٧- موطأ الإمام مالك لأبي عبد الله مالك بن أنس الأصبحي، تحقيق/ عبد الوهاب عبد الطيف، دار القلم/ بيروت، بدون طبعة.
- ٥٨- مسند الإمام الشافعي/ دار الريان للتراث/ القاهرة، ط/١/١٩٨٧م.
- ٥٩- مسند أبي يعلى الموصلي، للإمام أحمد بن علي بن المثنى التميمي، دار المأمون للتراث/ دمشق، ط/١/١٩٨٦م.
- ٦٠- الألباني - ناصر الدين/ سلسلة الأحاديث الضعيفة/ مكتبة المعارف/ الرياض/ ط/١/٢٠٠١م.

ج - المراجع العامة

- ٦١- الألباني - شهاب الدين بن أحمد/ المستطرف في كل فن مستظرف/ المكتبة التوفيقية/ القاهرة، بدون طبعة.
- ٦٢- الأسمر - د. أحمد رجب/ القدوة في السيرة النبوية/ دار الفرقان/ عمان، ط/١/٢٠٠٤م.
- ٦٣- أمحزون - د. محمد/ منهج النبي ﷺ في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة/ دار السلام/ القاهرة، ط/٣/٢٠٠٦م.
- ٦٤- أيوب - فقه الجهاد في الإسلام/ دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط/١/٢٠٠٢م.
- ٦٥- باشميل - محمد أحمد، غزوة تبوك/ دار الفكر/، ط/٢/١٩٧٨
- ٦٦- البستي - أبو حاتم محمد بن حيان/ قصة السيرة النبوية/ دار الإيمان/ دمشق، ط/١/١٩٩٠م.

- ٦٧- البغا - مصطفى/ نزهة المتقين في شرح رياض الصالحين، للإمام الحافظ
أبي زكريا محيي الدين يحيى النووي/ مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط/٢٤/١٩٩٧م.
- ٦٨- البنا - حسن أحمد عبد الرحمن/ نظرات في كتاب الله/ دار النشر والتوزيع
الإسلامية/ القاهرة ط/ ٢٠٠٢م.
- ٦٩- البنا - حسن أحمد عبد الرحمن/ مجموعة رسائل الإمام الشهيد حين البنا/ دار
الطباعة والنشر الإسلامية/ القاهرة، ط/١٩٩٢م.
- ٧٠- البوطي - د. محمد سعيد/ كبرى اليقينيات الكونية وجود الخالق ووظيفة
المخلوق/ دار الفكر المعاصر/ بيروت، ط/٨/١٩٨٢م.
- ٧١- التل - عبد الله/ جذور البلاء/ المكتب الإسلامي/ بيروت، ط/٣/١٩٨٥م.
- ٧٢- التليدي - عبد الله/ دلائل التوحيد انطلاقاً من القرآن والكون/ دار ابن حزم/
بيروت/ ط/١/١٩٩٩م.
- ٧٣- ابن تيمية - أحمد بن عبد الحلیم/ فقه الجهاد/ تهذيب وتعليق زهير شفيق
الكبي/ دار الفكر العربي/ بيروت/ ط/١٩٩٢م.
- ٧٤- جبر - د. أحمد ود. زكريا الزميلي/ كتاب التربية الإسلامية الصف الثامن/
مركز المناهج/ رام الله، ط/٢/٢٠٠٦م.
- ٧٥- جريشة - د. علي محمد و محمد شريف الزبيق/ أساليب الغزو الفكري للعالم
الإسلامي/ دار الاعتصام/ القاهرة، بدون طبعة.
- ٧٦- الجزائري - أبو بكر جابر/ العلم والعلماء/ دار الشروق للنشر والتوزيع
والطباعة/ جدة، ط/١/١٩٨٣م.
- ٧٧- الجزائري - أبو بكر جابر/ منهاج المسلم/ دار الجيل/ بيروت، ط/١/١٩٧٩م.
- ٧٨- الجزيري - عبد الرحمن بن محمد/ كتاب الفقه على المذاهب الأربعة/ مكتبة
الإيمان/ المنصورة، ط/١/١٩٩٩م.
- ٧٩- الجعب - نافذ سليمان/ منهج التغيير الإسلامي دراسة تطبيقية لمنهج التغيير
الإسلامي في عهد عمر بن عبد العزيز/ منشورات أفاق/ غزة، ط/٢٠٠٦م.
- ٨٠- جمعة - محمد لطفي/ ثورة الإسلام وبطل الأنبياء/ مكتبة النهضة المصرية/
القاهرة، بدون طبعة.
- ٨١- الجندي - أنور/ أعلام الإسلام/ دار الاعتصام. بدون طبعة.
- ٨٢- الجندي - عبد الحلیم/ الإمام الشافعي ناصر السنة وواضع الأصول/ دار
المعارف/ القاهرة، ط/٣/

- ٨٣- ابن قيم الجوزية - أبو عبد الله محمد بن أبي بكر/زاد العباد في هدي خير العباد/ تحقيق ناصر الدين الألباني/ مكتبة الصفا/ القاهرة/ ط/ ١/ ٢٠٠٤م.
- ٨٤- الجوزي - أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد/ صفة الصفوة/ دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/ ١/ ١٩٨٩م.
- ٨٥- ابن قيم الجوزية - أبو عبد الله محمد بن أبي بكر/ مدارج السالكين بين منازل "إياك نعبد وإياك نستعين"/ دار الكتب العلمية/ بيروت/ بدون طبعة.
- ٨٦- ابن قيم الجوزية - أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب/ مناهج السالكين/ دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/ ١٩٨٨م.
- ٨٧- ابن حسن - د. محمد يوسف عبد/ المنافقون في القرآن الكريم/ دار النشر والتوزيع الإسلامية/ القاهرة، ط/ ١٩٩١م.
- ٨٨- الحمش - عدّاب محمود/ ثعلبة بن حاطب الصحابي المفترى عليه/ دار بدر للنشر والتوزيع/ السعودية، ط/ ٢/ ١٩٨٥م.
- ٨٩- الحنفي - صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد بن أبي العز الحنفي/ العقيدة الطحاوية/ المكتب الإسلامي/ بيروت، ط/ ٥/ ١٣٩٩هـ .
- ٩٠- حوى - سعيد/ جند الله ثقافة وأخلاقا/ دار السلام للطباعة والنشر/ القاهرة، ط/ ٢/ ١٩٩٨م.
- ٩١- الخالدي - د. صلاح/ سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد/.
- ٩٢- خان - وحيد الدين/ الإسلام يتحدى/ المختار الإسلامي/ القاهرة، ط/ ٨/ ١٩٨٤م.
- ٩٣- خطاب - محمود شيت/ الرسول القائد/ دار الفكر للنشر والتوزيع/ بيروت، ط/ ٦/ ٢٠٠٢م.
- ٩٤- ابن خلدون - عبد الرحمن بن محمد/ مقدمة ابن خلدون/ دار الفكر العربي/ ط/ ١/ ١٩٩٧م.
- ٩٥- الخياط - د. عبد العزيز عزت/ النظام السياسي في الإسلام/ دار السلام للطباعة والنشر/ القاهرة/ ط/ ٢/ ٢٠٠٤م.
- ٩٦- الدرويش - محيي الدين/ إعراب القرآن الكريم وبيانه/ دار ابن كثير للطباعة والنشر/ بيروت، ط/ ٨/ ٢٠٠١م.
- ٩٧- دروزة - محمد عزة/ القرآن والمبشرون/ المكتب الإسلامي/ دمشق/ ط/ ٢/ ١٩٧٧م.

- ٩٨- الدقر - عبد الغني/ الإمام الشافعي فقيه السنة الأكبر/ دار القلم/ دمشق، ط/٦/١٩٩٦م.
- ٩٩- الذهبي - شمس الدين/ كتاب الكبائر/ المكتبة الثقافية/ بيروت، بدون طبعة.
- ١٠٠- الذهبي - د. محمد حسين/ التفسير والمفسرون/ مكتبة وهبة/ القاهرة، ط/٨/٢٠٠٣م.
- ١٠١- الرفاعي - مصطفى/ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية/ دار الكتاب العربي/ بيروت. ط/٩/١٩٧٣م.
- ١٠٢- الرقب - د. صالح/ واقعنا المعاصر والغزو الفكري/ مكتبة الطالب الجامعي بالجامعة الإسلامية بغزة/ ط/٩/٢٠٠٦م.
- ١٠٣- رسلان - د. صلاح الدين بسبوني/ الفكر السياسي عند الماوردي/ دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط/١٩٨٣م.
- ١٠٤- الرقب - د. صالح/ الصفات القيادية للشيخ الإمام أحمد ياسين/ من ك/ مؤتمر الإمام الشهيد أحمد ياسين/ من إصدارات الجامعة الإسلامية/ غزة/ ط/مارس/٢٠٠٥م.
- ١٠٥- الريسوني - أحمد/ نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي/الدار العالمية للكتاب الإسلامي/الرياض، ط/٤/١٩٩٤م.
- ١٠٦- ابن الزبير - عروة/ مغازي رسول الله ﷺ /جمع وتحقيق د.محمد الأعظمي/ مكتب التربية العربي/الرياض، ط/١٩٨١م.
- ١٠٧- الزحيلي - د. وهبة/ الفقه الإسلامي وأدلته/ دار الفكر/دمشق/ ط/١/١٩٨٩م.
- ١٠٨- الزرقاني - محمد عبد العظيم/ مناهل العرفان في علوم القرآن/ دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/١/٢٠٠٣م.
- ١٠٩- الزركشي - بدر الدين محمد بن عبد الله/البرهان في علوم القرآن/ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم،
- ١١٠- الزعبي - محمد عفيف/ ديوان الشافعي لأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي/ دار الجيل/بيروت، ط/٣/١٩٧٤م
- ١١١- سابق - سيد / فقه السنة/ مكتبة الخدمات الحديثة/جدة، ط/١/١٣٦٥هـ.
- ١١٢- سالم - د. مهدي محمود/ الأهداف السلوكية/ مكتبة العبيكان/ الرياض/ ط/١/١٩٩٧م.
- ١١٣- سلام - سيد جمعة/ النفاق وأثره في حياة الأمة مكتبة الإيمان/ المنصورة.

- ١١٤- السيوطي - جلال الدين عبد الرحمن/ الإتقان في علوم القرآن/ دار الحديث/ القاهرة، مجلدان/ ط/١/٢٠٠٤م.
- ١١٥- السيوطي - جلال الدين عبد الرحمن/ لباب النقول في أسباب النزول/ مكتبة الصفا/ القاهرة/ ط/١/٢٠٠٢م.
- ١١٦- السيوطي - جلال الدين عبد الرحمن/ معترك الأقران في إعجاز القرآن/ دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/١/١٩٨٨م.
- ١١٧- شبعانية - سليم/ الغزوات والسرايا التي سيرها الرسول ﷺ/ مكتبة الفارابي، دمشق، ط/١/١٩٩٩م.
- ١١٨- الشاطبي - أبو إسحاق إبراهيم بن موسى/ الاعتصام/ دار المعرفة للطباعة والنشر/ بيروت، تعريف محمد رشيد رضا.
- ١١٩- الشافعي ت محمد بن إدريس/ الرسالة/ مكتبة دار التراث/ القاهرة/ ط/٢/١٩٧٩م.
- ١٢٠- شلبي - د. أحمد/ الجهاد والنظم العسكرية/ مكتبة النهضة المصرية/ القاهرة، ط/٢/١٩٧٤م.
- ١٢١- شحاتة - د. عبد الله محمود/ أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ القاهرة/ بدون طبعة.
- ١٢٢- الصلابي - د. علي محمد/ السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث/ دار النشر والتوزيع الإسلامية/ القاهرة/ ط/١/٢٠٠١م.
- ١٢٣- الصنعاني - محمد بن إسماعيل/ سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام/ دار الريان للتراث.
- ١٢٤- الطبري - أبو جعفر محمد بن جرير/ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات/ بيروت، ط/٤/١٩٨٣م.
- ١٢٥- طنطاوي - سيد/ بنو إسرائيل في القرآن والسنة/ دار الشروق/ القاهرة، ط/١/١٩٩٧م.
- ١٢٦- ابن عاشور - محمد الطاهر/ أصول النظام الاجتماعي في الإسلام/ دار النفائس/ عمان، ط/١/٢٠٠١م.
- ١٢٧- ابن عاشور - محمد الطاهر / مقاصد الشريعة / البصائر للإنتاج العلمي/ ط/١/١٩٩٨م.
- ١٢٨- العالم - الشيخ محمود/ فكاهة الأذواق من مشارع الأشواق/ دار الجيل/ بيروت، ط/١/١٩٩١م.

- ١٢٩- العالم - د. يوسف حامد / المقاصد العامة للشريعة الإسلامية/المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الرياض، ط/٢/١٩٩٤م.
- ١٣٠- عباس - د. فضل/ إتقان البرهان في علوم القرآن/ دار الفرقان/عمان ط/١/١٩٩٧م.
- ١٣١- عباس - د. فضل/ إعجاز القرآن الكريم/ المكتبة الوطنية/عمان، ط/١/١٩٩١م.
- ١٣٢- عبد الرحمن - أحمد صديق/ البيعة في النظام السياسي الإسلامي وتطبيقاتها/ مكتبة هبة/ ط/١/١٩٨٨م.
- ١٣٣- عبد الهادي - أ.د. جمال عبد الهادي وأ.د. وفاء محمد رفعت/ تاريخ الأمة الواحدة سيرة خاتم المرسلين ﷺ من الميلاد حتى الممات/ دار السلام/ القاهرة/ ط/١/٢٠٠٥م.
- ١٣٤- العسقلاني - أحمد بن حجر/ فتح الباري/ تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي/ دار مصر للطباعة/ القاهرة، ط/١/٢٠٠١م.
- ١٣٥- العلواني - مقاصد الشريعة، مجموعة من المؤلفين، حوار مع د. طه جابر العلواني/ دار الفكر/ بيروت، ط/١/٢٠٠٢م.
- ١٣٦- اعلاوي - د. نزيه محمد/ الشخصيات القرآنية/ دار صفاء للنشر والتوزيع عمان، ط/١/٢٠٠٦م.
- ١٣٧- عمار - عبد الله إسماعيل/ أسباب النزول المسمى المصنف الحديث/ آفاق/ غزة.
- ١٣٨- ابن العماد - أبو الفلاح عبد الحبي بن العماد الحنبلي/ شذرات الذهب في أخبار من ذهب/ دار الفكر للطباعة والنشر/ بيروت، بدون طبعة.
- ١٣٩- أبو عيد - د. عارف خليل/ نظام الحكم في الإسلام/ دار النفائس للنشر والتوزيع/ عمان، ط/١/١٩٩٦م.
- ١٤٠- الغزالي - أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي/ المهذب من إحياء علوم الدين/ دار القلم/ دمشق، ط/٢/١٩٩٨م.
- ١٤١- الغزالي - محمد الغزالي وآخرون/ يوسف القرضاوي، كلمات في تكريمه/ دار السلام/ القاهرة، ط/١/٢٠٠٤م.
- ١٤٢- الغزالي - محمد/ فقه السيرة/ دار الكتب الحديثة/ القاهرة، ط/٧/١٩٧٦م.
- ١٤٣- الغضبان - منير محمد/ المنهج الحركي للسيرة النبوية/مكتبة المنار/ الزرقاء، ط/٦/١٩٩٠م.

- ١٤٤ - فكري - علي / أحسن القصص / مكتبة عيسى البابي الحلبي وأولاده/ القاهرة، بدون طبعة.
- ١٤٥ - القاضي - عبد الفتاح/ البذور الزاهرة/ مكتبة أنس بن مالك/ مكة المكرمة، ط/١/٢٠٠٢م.
- ١٤٦ - القحطاني - الولاء والبراء في الإسلام، لمحمد سعيد القحطاني/ دار طيبة/ الرياض، ط/٢/١٤٠٤هـ.
- ١٤٧ - القدومي - د. مروان وآخرون/ التربية الإسلامية للصف الثاني عشر/ إصدار وزارة التربية والتعليم العالي/ رام الله/ ط/١/٢٠٠٦م.
- ١٤٨ - القرافي - شهاب/ الموافقات للشاطبي/ شرح ونقح الفصول/ مكتبة الكليات الأزهرية/ القاهرة.
- ١٤٩ - القطان - مناع/ مباحث في علوم القرآن/ مكتبة وهبة/ القاهرة، ط/١٠/١٩٩٧م.
- ١٥٠ - القليوبي - شهاب الدين والشيخ عميرة/ قليوبي وعميرة/ تحقيق طه عبد الرؤوف سعد/ المكتبة التوفيقية/ القاهرة، بدون طبعة.
- ١٥١ - الكبيسي - أ.د. أحمد/ القصص القرآني/ دار الكتاب الجامعي/ العين الإمارات، ط/١/٢٠٠٣م.
- ١٥٢ - ابن كثير - عماد الدين أبي الفداء إسماعيل/ البداية والنهاية/ تحقيق: أحمد فيتح/ دار الحديث/ القاهرة/ ط/٦/٢٠٠٢م.
- ١٥٣ - ابن كثير - أبو الفداء إسماعيل/ السيرة النبوية/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت/ بدون طبعة.
- ١٥٤ - الكيلاني - د. إبراهيم زيد/ دراسات في الفكر العربي الإسلامي، وآخرون/ دار الفكر للطباعة والنشر/ عمّان/ ط/٧/١٩٩٧م.
- ١٥٥ - اللحام - هدى/ هدى السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي/ دار الفكر المعاصر/ بيروت، ط/١/٢٠٠١م.
- ١٥٦ - اللوح - د. عبد السلام/ الإعجاز العلمي في القرآن الكريم/ آفاق للنشر والتوزيع/ غزة، ط/٢/٢٠٠٢م.
- ١٥٧ - المباركفوري - صفى الرحمن/ الرحيق المختوم/ دار الوفاء/ المنصورة/ ط/٤/٢٠٠٤م.
- ١٥٨ - المباركفوري - أبو العلى محمد بن عبد الرحمن/ تحفة الأhoodي بشرح جامع الترمذي/ دار الفكر للطباعة والنشر/ بيروت، ط/٣/١٩٧٩م.

- ١٥٩- محمود - د. علي عبد الحليم/ التربية الإسلامية في سورة التوبة/ دار التوزيع والنشر الإسلامية/ القاهرة، ط/١/٢٠٠٠م.
- ١٦٠- مراد - مصطفى/ منهاج المؤمن/ دار الفجر للتراث، ط/١/٢٠٠١م.
- ١٦١- مسلم - د. مصطفى/ مباحث في التفسير الموضوعي/ دار القلم / دمشق، ط/٤/٢٠٠٥م.
- ١٦٢- المصري - د. رفيق/ أصول الاقتصاد الإسلامي/ دار القلم/ دمشق، ط/١/١٩٨٩م.
- ١٦٣- المقبل - عبد الله/ أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة/ دار النشر والتوزيع الإسلامي- القاهرة ، ط/١/ ٢٠٠٢م-
- ١٦٤- المقدسي - أحمد بن قدامة/ مختصر منهاج القاصدين/ تحقيق عماد زكي البارودي/ المكتبة التوفيقية/ القاهرة، ط/١٩٩٧.
- ١٦٥- الملاح - د. هاشم يحيي/ الوسيط في السيرة النبوية/ دار النفائس/ عمان/ ط/١/٢٠٠٣م.
- ١٦٦- المناوي - محمد عبد الرؤوف/ فيض القدير في شرح الجامع الصغير/ مكتبة مصر/ القاهرة، ط/٢/٢٠٠٣م.
- ١٦٧- المنجد - محمد نور الدين المنجد، الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق/ دار الفكر المعاصر، بيروت، ط/١/٢٠٠١م.
- ١٦٨- الميداني - عبد الرحمن حسن حبنكة/ ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ/ دار القلم/ دمشق، ط/١/١٩٩٣م.
- ١٦٩- النووي - الإمام زكريا يحيي بن شرف / صحيح مسلم بشرح النووي، دار الفكر للطباعة والنشر/ بيروت، ط/١/٢٠٠٤م.
- ١٧٠- النويري - أبو القاسم محمد بن محمد بن محمد بن علي/ شرح طيبة النشر في القراءات العشر/ تقديم وتحقيق د. مجدي محمد سرور سعد باسلوم/ دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/١/٢٠٠٣م.
- ١٧١- أبو النيل - د. محمد/ غزوات خَلد القرآن الكريم ذكرها، د. محمد أبو النيل/ مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع/ الكويت، ط/٢٠٠٣م.
- ١٧٢- الهاشمي - د. محمد علي / المجتمع المسلم/ دار البشائر الإسلامية/ بيروت، ط/١/٢٠٠٢م.

- ١٧٣- هشام - أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري/السيرة النبوية لابن هشام/ تحقيق وضبط مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، تراث الإسلام.
- ١٧٤- الواحدي - أبو الحسن علي بن أحمد/ أسباب النزول/ دار المعرفة بيروت، ط/١/٢٠٠١م.
- ١٧٥- وافي - د. علي عبد الواحد/ الأسفار المقدسة/ دار نهضة مصر للطباعة والنشر/ القاهرة/ ط/١٩٩٦م.
- ١٧٦- الوحيدي - د. فتحي/ الفقه السياسي والدستور في الإسلام/ مطابع الهيئة الخيرية/ غزة/ ط/١/١٩٨٨م.
- ١٧٧- وجدي - محمد/ السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة/ الدار المصرية اللبنانية/ القاهرة/ ط/١/١٩٩٣م.
- ١٧٨- الوكيل - أحمد السيد/ جولة تاريخية في حياة الخلفاء الراشدين/ دار المجتمع لنشر والتوزيع/ جدة/ ط/١/١٩٨٦م.
- ١٧٩- ياسين - د. نسيم شحدة/ شرح أصول العقيدة الإسلامية/ مطبعة التقوى للطباعة والنشر والتوزيع/ غزة/ ط/٢/١٩٩٩م.
- ١٨٠- ياسين - محمد نعيم/ الإيمان أركانه حقيقته، نواقضه/ مكتبة السنة/ القاهرة، ط/١/١٩٩١م.
- ١٨١- يكن - فتحي/ ماذا يعني انتمائي للإسلام/ مؤسس الرسالة/بيروت، ط/٢٤/٢٠٠٠م.
- ١٨٢- يوسف - د. محمد السيد/ منهج القرآن في إصلاح المجتمع/ دار السلام/ القاهرة، ط/٢/٢٠٠٤م.
- د - الموسوعات والمعاجم والتراجم:**
- ١٨٣- عبد الباقي - محمد فؤاد/ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/ دار الهجرة/بيروت، ط/١٩٨٥م.
- ١٨٤- الموسوعة - مؤسسة أعمال/ الموسوعة العربية العالمية الشاملة للنشر والتوزيع/ الرياض، ط/٢/١٩٩٩م.
- ١٨٥- ابن الأثير - عز الدين بن الأثير أب الحسن علي بن محمد الجزري/ أسد الغابة في معرفة الصحابة/ دار الفكر للطباعة والنشر/ بيروت، ط/٢٠٠٣م.
- ١٨٦- الباشا - د. عبد الرحمن رأفت/ صور من حياة الصحابة/ دار الأدب الإسلامي/ القاهرة، ط/١/١٩٩٧م

- ١٨٧- الجبوري - كامل سلمان/ معجم الأدباء/ دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/١/٢٠٠٣م.
- ١٨٨- الحموي - شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله / معجم البلدان/ تحقيق/ فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/١/١٩٩٠م.
- ١٨٩- ابن خلكان - أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد/ وفيات الأعيان/ تحقيق/ د. أحسان عباس، دار الثقافة/ بيروت، طبعة المحقق/ ١٩٧٢.
- ١٩٠- الداوودي - شمس الدين محمد بن علي /طبقات المفسرين/ دار الكتب العلمية/ بيروت، بدون طبعة.
- ١٩١- الرازي - محمد بن أبي بكر/ مختار الصحاح/ مكتبة لبنان/ بيروت/ ط/١٩٨٦م.
- ١٩٢- الزركلي - خير الدين/ الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين/ دار العلم للملايين/ بيروت، ط/٨/١٩٨٩م.
- ١٩٣- السبكي - تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي/ طبقات الشافعية/ تحقيق محمد الطناحي/ دار إحياء الكتب العربية/ القاهرة/ بدون طبعة.
- ١٩٤- سعد - محمد/ الطبقات الكبرى/ دار صادر/ بيروت، بدون طبعة.
- ١٩٥- السيوطي - جلال الدين عبد الرحمن/ طبقات المفسرين/ دار الكتب العلمية/ بيروت، بدون طبعة.
- ١٩٦- العسقلاني - أبو الفضل أحمد بن علي/ الإصابة في تمييز الإصابة/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت، ط/١/١٣٢٨هـ.
- ١٩٧- العسقلاني - أحمد بن حجر /تهذيب التهذيب/ إحياء التراث/ بيروت، ط/٢/١٩٩٣م.
- ١٩٨- ابن فارس - أحمد/ معجم مقاييس اللغة، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط/٢/١٩٩٨م.
- ١٩٩- الفراهيدي - الخليل بن أحمد/ كتاب العين، تحقيق/ د. عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/١/٢٠٠٣م.
- ٢٠٠- الفيروزآبادي - مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم/ القاموس المحيط دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/١/١٩٩٩م.
- ٢٠١- قبيش - أحمد/ مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي/ دار الرشيد/ دمشق/ ط/٣/١٩٨٥م.

- ٢٠٢- لوباني - حسين علي/ معجم الأمثال الفلسطينية/ مكتبة لبنان/ بيروت، ط/١٩٩٩م.
- ٢٠٣- المقبل - عبد الله/ من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة/ دار النشر والتوزيع الإسلامي/ القاهرة، ط/١/ ٢٠٠٢م.
- ٢٠٤- ابن منظور - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم/ لسان العرب/ دار الكتب العلمية/ بيروت، ط/١/ ٢٠٠٣.
- ٢٠٥- ابن منظور - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم/ لسان اللسان تهذيب لسان العرب/ تهذيب المكتب الثقافي لتحقيق الكتب/ إشراف عبد أ. على مهنا/ دار الكتب العلمية/ بيروت/ ط/١/ ١٩٩٣م.
- ٢٠٦- المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق/ بيروت، ط/٣٣/ ١٩٩٢.

هـ - الرسائل والنشرات والبحوث:

- ٢٠٧- أبو نعمة - د. زهدي، د. عصام زهد/ مقاصد وأهداف سورة التوبة دراسة موضوعية في القرآن الكريم/ نشرة جامعية صادرة عن الجامعة الإسلامية بغزة، ط/١/ ١٩٩٧م.
- ٢٠٨- البلعاوي - أ.د. سيف الدين محمد/ الإعجاز التشريعي للقرآن في كل من نظام الميراث، نظام الطلاق/ بحث محكم صادر جامعة الأقصى بغزة/ مطابع الجراح/ غزة، ط/١/ ٢٠٠١.
- ٢٠٩- مسعود - الأبعاد التربوية لمفهوم الولاء والبراء في الإسلام، زياد مسعود/ رسالة ماجستير، بإشراف الجامعة الإسلامية بغزة.

و - المراجع الأجنبية المترجمة:

- ٢١٠- بروكلمان - كارل/ تاريخ الشعوب الإسلامية / دار العلم للملايين/ بيروت/
ط/١٣/١٩٩٨م.
- ٢١١- شاحك - إسرائيل/ التاريخ اليهودي والدين اليهودي، ثقل ثلاثة آلاف عام/
ترجمة رزق أبو الكاس/ مؤسسة ينابيع للإعلام، ط/٢٠٠١م.
- ٢١٢- العهد القديم/ دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط/ ط/٤٣/١٩٩٠م.

ي - مراجع مواقع شبكة المعلومات "الحاسوب"

- 212- www.minbr.com/bhaoth7.php
- 213- www.zaharuddin.com/v1/Maqasid%20Shariah.htm
- 214- [www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1176631657148
&pagename=Zone-Arabic-Shariah%2FSRALayout](http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1176631657148&pagename=Zone-Arabic-Shariah%2FSRALayout)
- 215- www.rayah.info/browse.php?comp=viewArticles&file=article&sid=2613
- 216- [www.alargam.com/prove2/burhan/13.htm214/http://www.islamway.com/?iw_s=
Scholar&iw_a=info&scholar_id=39](http://www.alargam.com/prove2/burhan/13.htm214/http://www.islamway.com/?iw_s=Scholar&iw_a=info&scholar_id=39)
- 217- www.kuftaro.org/ARABIC/Lecture_Archive/2002-02-01.htm
- 218- www.kuftaro.org/arabic/biographyA.htm
- 219- www.almujtamaa-mag.com/detail.asp?InNewsItemID=147731&InTemplateKey=print
- 220- [www.islamweb.net/ver2/library/ummah_ShowChapter.php?lang=A&BabId=
4&ChapterId=4&Bookbin/_showcard.cgi?id=1119219/http://www.fikr.com/cgi-](http://www.islamweb.net/ver2/library/ummah_ShowChapter.php?lang=A&BabId=4&ChapterId=4&Bookbin/_showcard.cgi?id=1119219/http://www.fikr.com/cgi-)
- 221- www.ngoce.org/psg2-3.htm : مركز التمييز للمؤسسات غير الحكومية
- 222- seenjeem.maktoob.com/question?category_id=172&level=L2&question_id=4491
- 223- www.moltka.net/forums/lofiversion/index.php/t13137.htm
- 224- www.alfajrsite.com/vb/archive/index.php/t-1940.html
- 225- www.al-msa.com/vb/showthread.php?t=3419
- 226- www.weislam.com/vb/archive/index.php/index.php?t-187.htm

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع	م.
ت	الإهداء.	١
ث	شكر وتقدير.	٢
ج	ملخص البحث.	٣
خ	التقديم.	٤
د	أهمية البحث.	٥
د	أسباب اختيار البحث.	٦
د	أهداف البحث.	٧
ذ	الدراسات السابقة.	٨
ر	منهج الباحث.	٩
ز	خطة البحث.	١٠
١	الفصل التمهيدي: بين يدي السورة.	١١
٢	المبحث الأول: التعريف العام بالسورة.	١٢
٣	المطلب الأول: أسماء السورة وعدد آياتها.	١٣
٩	المطلب الثاني: جو السورة العام.	١٤
١١	المطلب الثالث: سبب عدم ابتداء السورة بالبسملة.	١٥
١٣	المطلب الرابع: أول وآخر ما نزل من السورة.	١٦
١٥	المطلب الخامس: سبب ومكان نزول السورة.	١٧
١٩	المبحث الثاني: المناسبات في السورة.	١٨
٢٠	المطلب الأول: معنى المناسبة لغة واصطلاحاً.	١٩
٢١	المطلب الثاني: فوائد معرفة المناسبة.	٢٠
٢٤	المطلب الثالث: مناسبة السورة لما قبلها سورة الأنفال.	٢١
٢٩	المطلب الرابع: مناسبة السورة لما بعدها سورة يونس.	٢٢
٢٩	مناسبة أول سورة التوبة بأول سورة يونس.	٢٣
٢٩	مناسبة آخر سورة التوبة بأول سورة يونس.	٢٤
٣٠	المناسبة بين موضوعات السورتين.	٢٥
٣١	مناسبة آخر سورة التوبة بآخر سورة يونس.	٢٦
٣١	المطلب الخامس: مناسبة أول السورة بآخرها.	٢٧

٣٦	المبحث الثالث: الأهداف والمقاصد ومحور السورة.	٢٨
٣٧	المطلب الأول: تعريف الأهداف والمقاصد لغة واصطلاحاً.	٢٩
٤٠	المطلب الثاني: الفرق بين الأهداف والمقاصد.	٣٠
٤١	المطلب الثالث: الأسس التي تقوم عليها المقاصد.	٣١
٤٣	المطلب الرابع: المحور الأساسي للسورة.	٣٢
٤٧	الفصل الأول: تحديد العلاقات العامة في الإسلام.	٣٣
٤٨	المبحث الأول: التشريع الإسلامي في تنظيم العلاقات الإسلامية.	٣٤
٤٩	المطلب الأول: تحديد أهداف ومقاصد المقطع وتحليلها.	٣٥
٥١	المطلب الثاني: بيان مفهوم العلاقات العامة في الإسلام.	٣٦
٥٤	المطلب الثالث: التشريعات والقوانين الربانية من خلال السورة.	٣٧
٥٤	البند الأول: تعريف القانون لغة واصطلاحاً.	٣٨
٥٤	البند الثاني: تعريف التشريع الإسلامي وأهم مميزاته.	٣٩
٥٦	البند الثالث: بعض القوانين الربانية والأحكام الشرعية في السورة.	٤٠
٦٥	المبحث الثاني: الأحكام الشرعية المترتبة على تنظيم العلاقات الإسلامية.	٤١
٦٦	المطلب الأول: الأحكام المترتبة على تنظيم العلاقة مع غير المسلمين.	٤٢
٦٦	البند الأول: تنظيم العلاقات مع المشركين وتحديدها.	٤٣
٦٧	البند الثاني: الآيات التي تحدد وتنظم العلاقة مع غير المسلمين.	٤٤
٧١	البند الثالث: تنظيم العلاقة مع أهل الكتاب وتحديدها.	٤٥
٧٢	البند الرابع: الجزية وأهل الكتاب.	٤٦
٧٤	البند الخامس: أسرار ولطائف آية الجزية.	٤٧
٧٥	المطلب الثاني: الإعجاز التربوي في تنظيم العلاقات مع غير المسلمين.	٤٨
٧٥	البند الأول: تعريف الإعجاز لغة واصطلاحاً.	٤٩
٧٦	البند الثاني: الإعجاز التربوي في بعض الآيات وحكمة التشريع فيها.	٥٠
٩٠	المبحث الثالث: الولاء والبراء في الإسلام.	٥١
٩١	المطلب الأول: معنى الولاء والبراء لغة واصطلاحاً.	٥٢
٩٢	المطلب الثاني: الأسباب التي أدت إلى ظهور الولاء والبراء.	٥٣
٩٥	المطلب الثالث: الإعجاز التربوي في الولاء والبراء.	٥٤
٩٥	البند الأول: أقسام الناس في عقيدة الولاء والبراء.	٥٥
٩٦	البند الثاني: قواعد الولاء والبراء من خلال سورة التوبة.	٥٦

١٠٠	البند الثالث: الأثر التربوي لبعض الآيات على المسلمين في الولاء والبراء.	٥٧
١١١	البند الرابع: بعض صور الولاء والبراء قديما وحديثا.	٥٨
١١٧	الفصل الثاني: الجهاد في سبيل الله من خلال سورة التوبة.	٥٩
١١٨	المبحث الأول: الجهاد في سبيل الله.	٦٠
١١٩	المطلب الأول: تحديد الأهداف والمقاصد الخاصة بالجهاد وتحليلها.	٦١
١٢٢	المطلب الثاني: تعريف الجهاد لغة واصطلاحا.	٦٢
١٢٣	المطلب الثالث: الجهاد فريضة إلهية وسنة كونية.	٦٣
١٢٣	البند الأول: أنواع الجهاد.	٦٤
١٢٤	البند الثاني: حكم الجهاد وأحكامه.	٦٥
١٢٦	البند الثالث: الجهاد فريضة إلهية وسنة كونية.	٦٦
١٢٩	المطلب الرابع: أهمية الجهاد وأهم فوائده من خلال سورة التوبة.	٦٧
١٣٣	المبحث الثاني: الجهاد ضرورة أمنية وحاجة إسلامية.	٦٨
١٣٤	المطلب الأول: أوجه التشبه والاختلاف بين اليهود والنصارى.	٦٩
١٣٨	المطلب الثاني: خطورة التشبه بأهل الكتاب، وتتبعهم.	٧٠
١٤١	المطلب الثالث: الجهاد ماض إلى قيام الساعة.	٧١
١٤٤	المطلب الرابع: النتائج السلبية على ترك الجهاد في سبيل الله.	٧٢
١٤٦	المطلب الخامس: نصر الله قائم بتخاذل المتخاذلين وجهاد المخلصين.	٧٣
١٤٨	المطلب السادس: عوامل النصر والأثر التربوي على المجاهدين.	٧٤
١٤٨	البند الأول: عوامل النصر.	٧٥
١٥٠	البند الثاني: الأثر التربوي على سلوك المؤمن أثناء جهاده.	٧٦
١٥٠	البند الثالث: الأخلاق التربوية أثناء المعركة.	٧٧
١٥٤	البند الرابع: الآثار المترتبة على خشية من الناس دون الله تعالى.	٧٨
١٥٥	الفصل الثالث: المنافقون من خلال السورة.	٧٩
١٥٦	المبحث الأول: صفات المنافقين.	٨٠
١٥٧	المطلب الأول: تحديد أهداف ومقاصد الفصل الثالث.	٨١
١٥٩	المطلب الثاني: النفاق لغة واصطلاحا.	٨٢
١٦٠	المطلب الثالث: أنواع النفاق.	٨٣
١٦٠	البند الأول: النفاق الاعتقادي.	٨٤
١٦١	البند الثاني: النفاق العملي.	٨٥

١٦١	المطلب الرابع: أصناف الناس من خلال السورة.	٨٦
١٦٢	البند الأول: المشركون.	٨٧
١٦٢	البند الثاني: أهل الكتاب.	٨٨
١٦٤	البند الثالث: المؤمنون.	٨٩
١٦٥	البند الرابع: المنافقون.	٩٠
١٦٧	المطلب الخامس: صفات المنافقين من خلال السورة.	٩١
١٧٤	المبحث الثاني: خطورة المنافقين داخل المجتمع المسلم.	٩٢
١٧٥	المطلب الأول: علاقة المنافقين بأهل الكتاب والمشركين.	٩٣
١٧٧	المطلب الثاني: صور من فضائح المنافقين وإرجافهم في خذلان المسلمين.	٩٤
١٨٦	المطلب الثالث: الحلف عند المنافقين.	٩٥
١٨٩	المطلب الرابع: قصة ثعلبة وحيثياتها.	٩٦
١٩١	المطلب الخامس: الأعراب في السورة.	٩٧
١٩٥	المطلب السادس: الأثر التربوي على المؤمنين من خلال مواقف المنافقين.	٩٨
١٩٩	الفصل الرابع: غزوات الرسول من خلال السورة.	٩٩
٢٠٠	المقدمة	١٠٠
٢٠١	المطلب الأول: تحليل أهداف ومقاصد الغزوات النبوية من خلال السورة.	١٠١
٢٠٢	المطلب الثاني: الأشهر الحرم.	١٠٢
٢٠٢	البند الأول: تعريف بالأشهر الحرم.	١٠٣
٢٠٣	البند الثاني: تعريف النسئ.	١٠٤
٢٠٤	المبحث الأول: غزوة حنين.	١٠٥
٢٠٥	المطلب الأول: التعريف بالغزوة.	١٠٦
٢٠٥	البند الأول: التعريف بالغزوة لغة واصطلاحاً.	١٠٧
٢٠٥	البند الثاني: التعريف بغزوات الرسول ﷺ وعددها.	١٠٨
٢٠٨	المطلب الثاني: الأبعاد العسكرية والأمنية لغزوة حنين.	١٠٩
٢٠٩	المطلب الثالث: التعريف العام بغزوة حنين وأسبابها.	١١٠
٢١٠	المطلب الرابع: حال المسلمين كما وصفهم القرآن في هذه الغزوة.	١١١
٢١٢	المطلب الخامس: الأثر التربوي والهدايات الربانية لغزوة حنين.	١١٢
٢١٥	المبحث الثاني: غزوة تبوك.	١١٣
٢١٦	المطلب الأول: التعريف العام بغزوة تبوك وأسبابها.	١١٤

٢١٨	المطلب الثاني: حال المدينة بسكانها قبل الغزوة وبعدها.	١١٥
٢١٨	البند الأول: أهل السبق من أهل الإيمان.	١١٦
٢١٩	البند الثاني: أهل الإيمان من أهل الأعذار.	١١٧
٢٢٠	البند الثالث: الثلاثة الذين خلفوا.	١١٨
٢٢٤	البند الرابع: المنافقون ومسجد الضرار.	١١٩
٢٢٦	المطلب الثالث: الآثار والأخطار المحدقة بالمسلمين بسبب وجود المنافقين.	١٢٠
٢٢٩	المطلب الرابع: الآثار التربوية لغزوة تبوك على المسلمين.	١٢١
٢٣٢	الفصل الخامس: البيعة من خلال السورة.	١٢٢
٢٣٣	المبحث الأول: البيعة أساس في دين الله تعالى.	١٢٣
٢٣٤	المطلب الأول: تحديد أهداف ومقاصد البيعة وتحليلها.	١٢٤
٢٣٦	المطلب الثاني: تعريف البيعة.	١٢٥
٢٣٦	البند الأول: معنى البيعة لغة واصطلاحاً.	١٢٦
٢٣٧	البند الثاني: أركان البيعة وشروط الإمام.	١٢٧
٢٣٧	البند الثالث: البيعة في الكتاب والسنة.	١٢٨
٢٣٨	المطلب الثالث: أسباب البيعة.	١٢٩
٢٣٩	المطلب الرابع: أنواع البيعة.	١٣٠
٢٤١	المطلب الخامس: صور البيعة.	١٣١
٢٤٣	المبحث الثاني: البيعة أول الإسلام.	١٣٢
٢٤٤	المطلب الأول: البيعة أول العهد مع رسول الله ﷺ.	١٣٣
٢٤٦	المطلب الثاني: مسجد الضرار يتنافي ومبدأ البيعة.	١٣٤
٢٤٧	المطلب الثالث: آية البيعة وأقوال المفسرين.	١٣٥
٢٥١	المطلب الرابع: صفات المبايعين.	١٣٦
٢٥٦	المطلب الخامس: مستلزمات البيعة.	١٣٧
٢٥٨	المطلب السادس: البيعة ضرورة إسلامية.	١٣٨
٢٦١	المبحث الثالث: فضل الله على أمة الإسلام بمبعث سيدنا محمد ﷺ.	١٣٩
٢٦٢	المطلب الأول: صاحب البيعة الأولى وأولى الناس وفاءً بعهد الله.	١٤٠
٢٦٣	المطلب الثاني: آية الفضل وتفسيرها.	١٤١
٢٦٣	البند الأول: فضل الله على الأمة برسول الله ﷺ.	١٤٢
٢٦٥	البند الثاني: فضل رسول الله ﷺ على الأمة.	١٤٤

٢٦٧	البند الثالث: صفات الرسول ﷺ من خلال الآية.	١٤٥
٢٦٩	المطلب الثالث: ضرورة التوكل على الله والاستعانة به عند البيعة.	١٤٦
٢٧١	المطلب الرابع: الهدايات والآثار التربوية لهذا الفصل.	١٤٧
٢٧٣	الخاتمة.	١٤٨
٢٧٥	المراجع والمصادر والفهارس.	١٤٩
٢٧٦	أولاً: فهرس الآيات القرآنية.	١٥٠
٢٨٦	ثانياً: فهرس الأحاديث النبوية.	١٥١
٢٩٠	ثالثاً: فهرس الأعلام.	١٥٢
٢٩٣	رابعاً: المراجع والمصادر.	١٥٣
٢٩٣	أ – المراجع التفسيرية.	١٥٤
٢٩٦	ب – المراجع الحديثية الشريفة.	١٥٥
٢٩٧	ج – المراجع العامة.	١٥٦
٣٠٥	د – الموسوعات والمعاجم والتراجم.	١٥٧
٣٠٧	هـ – النشرات والرسائل.	١٥٨
٣٠٨	و – المراجع الأجنبية المترجمة.	١٥٩
٣٠٨	ي – مراجع مواقع شبكة المعلومات "الحاسوب".	١٦٠
٣٠٩	فهرس المحتويات.	١٦١